خولة حمدي

إعصار بلا قرار

حجر الشمس II

مكتبة كيان

رواية

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

اعصار بلا قرار

حمدي، خولة.
إعصار بلا قرار : رواية /خولة حمدي

تصحيح لغوي : حسام مصطفى إبراهيم.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2025.
504 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-300-4
١- القصص العربية.
أ- العنوان : 813
رقم الإيداع : 20781 / 2025
الطبعة الأولى : سبتمبر 2025.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

مكتبة
t.me/soramnqraa

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: **0235918808**
هاتف محمول: **+201000405450 – +201001872290**
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.

خولة حمدي

أعصار بلا قرار

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

حجر الشمس

II

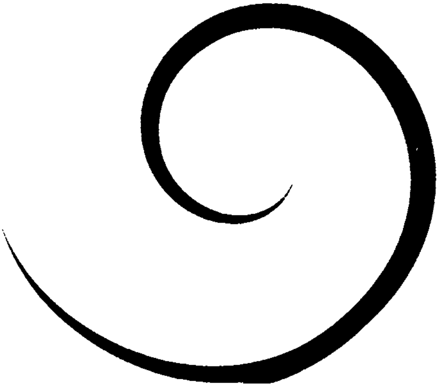

(1)

اليوم الأوّل بعد الثلاثين

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم يسبق لها أن رأت السّماء.

وقفت على حافّة البحر، تتطاول على أطراف أصابعها، يطيّر الهواء الرّفيق رداءها ويهتزّ صدرها بخفقات مضطربة. لا تدري إن كان ضباب الظلّة قد انشقّ بسيف الضّياء البتّار، أم أنّ النّور كان يلتهم الظلال بنهم قضمةً بعد قضمةٍ، إلّا أنّها تقف هناك مأخوذة بمشهد الصّباح المشرق الذي لا مثيل له في عالمها. قالوا إنّ الشّمس ستؤذيها، لكنّها لم تفعل!

رفرفت أهدابها برفق، وقد أذهلها السّطوع المفاجئ، ثمّ تساءلت: هل تلك هي الشّمس حقّا؟ إنّها لا تعرف كيف تكون الشّمس، ذلك الجرم البعيد الذي يمنح الأرض الضّوء والحرارة. لقد أَلِفت دفئها في الماضي، لكنّها تجهل شكل الضّوء المباشر!

شهقت، حين انشقّت الهالة التي غمرت عينيها عن هيئة بشريّة!

كان رجلًا، وقد برز في غفلة منها بين موجات الضّياء. لا تزال ملامحه مطموسة من وجهة نظرها، بتأثير النّور الغامر. لكنّه بدا شابّا في مقتبل العمر، أطرافه طويلة ورشيقة وهامته ممتدّة تعانق السّحاب. إنّها تخلط الأمور مجدّدًا. لم يكن البياض الذي يلفّه سُحُبًا، بل بريقًا صافيًا. اهتزّ صدرها بنبضات عنيفة واستحضرت تفاصيل الأسطورة.

المُخلِّص؟

أشرقت ملامحها بِشرًا. لقد جاء المُخلِّص، وسيكون كلّ شيء على ما يرام.

***

حين فتحت روان عينيها، كان الظلام مخيّمًا من حولها. شعرت على الفور بألم حارق في ذراعها فتأوّهت، ثمّ استرجعت -بتشوّش- تفاصيل حلمها. الرؤيا.. لقد زارتها من جديد. إلّا أنّ إيمانها بها قد اهتزّ، مقارنة بالمرّة الأولى منذ ما يزيد على الشّهر. يترسّب في حنجرتها طعم ملوحة لاذعة ويلتصق لسانها الجاف بسقف حلقها. ازدردت لعابها بمشقّة وهي ترفع جذعها لتتخّذ وضعيّة الجلوس، وأصابعها تتحسّس موضع الألم. انتشرتْ الأوجاع في جسدها، لتئنَّ عظامها مع كلّ حركة. قيَّمت وضعها بسرعة بحنكة المعالجة: لم تكن مصابة بكسور، لكنّها منهكة ومحمومة.

بعد حين، تعوّدت عيناها الظُّلمة من حولها، لتدرك أنّها تنام على الأرض، داخل كهف حجريّ ذي سقف منخفض. داهمتها ذكرياتها القريبة مثل طوفان جارف، فانتفضت. السّفينة، الرّجال المسلّحون، البدلات الواقية.. والغرق! لقد غرقت. أصيبت بمقذوف من سلاح ينتمي إلى العالم الخارجيّ، استقرّ في ذراعها، فثقلت حركتها. لم تتمكّن من السّباحة طويلًا، قبل أن يغلبها الخدر ويسحق ضغط الماء رئتيها!

لأوّل مرّة في حياتها، كانت مذعورة!

إن كان لحياتها في الجزيرة سمة غالبة، فهي الطمأنينة. لا شيء يحصل على أرض «آرا»، عدا الرتابة اليومية الوديعة. لا، إنّها تبالغ. لقد عرفت القلق في السّابق، حين أدركت أنّ منسوب تدفّق الـ«مادرا» في تراجع. إلّا أنّ ذلك الخوف من المستقبل البعيد ومخاطره الممكنة يختلف عن الهلع الآنيّ، لأنّ حياتها ومصير قومها مُهدّدان. الآن، حالًا!

خشيت أن يتجاوز رأسها سطح الماء، فترشقها الشياطين البشريّة بقذائفها الدَّقيقة التي تترصّدها. كانت قادرة على الغوص لدقائق مديدة -مثل كلّ فرد من الـ«آم» يعيش نصف حياته تحت الماء ويمارس الغطس منذ نعومة أظفاره- لكنّ ذراعها المصابة لم تسمح لها بالسّباحة بالوتيرة الكافية. كان الدّم القاني يتسرَّب من جرحها بغزارة، فيضعفها ويستنزف طاقتها، حتّى غلبها الدّوار.

تحاملت على نفسها وزحفت ببطء خارج الكهف، لتكتشف أن ضوء النّهار قد غمر الشاطئ في الخارج. لم يكن الوقت فجرًا كما حسِبت. لقد انقضتْ ساعات منذ غرقها. ارتبكت فجأة. لم تكن واثقة، هل هي ساعات فحسب؟! كم مضى عليها من الوقت وهي نائمة أو فاقدة للوعي؟! هدأ اضطرابها حين تحسَّست ثيابها. لا تزال تشعر بالرّطوبة عبر بشرتها الحارّة، ثيابها المبتلّة لم تجفّ بعد، بإمكانها اعتصار الماء منها بأصابعها الواهنة. باتت واثقة، لم تغب عن الوعي لوقت طويل.

تجوّلت نظراتها في المكان بلهفة، فتعرّفت موقعها على الفور: الشاطئ وراء الصّخرة. من المؤكّد أنّها لم تصل إلى الكهف على الجزيرة بحركة المدّ وحدها، هناك من أنقذها، وضمّد جرحها. تلفّ خرقة قماش ذراعها وتسيطر على النّزف. غير أنّها خُلِّفت وحيدة. لعلّها في مكان آمن، إلا أنّها تجهل كلّ شيء عمّا يحصل على الجهة الأخرى. خلال السّاعات الماضية، لا شكّ أنّ قوارب الغرباء قد قطعت المسافة التي تفصلها عن اليابسة. لا يصلها شيء من أصداء المعركة المفترضة التي تدور رحاها في أرجاء جزيرتها بين قومها والدّخلاء. لا تسمع شيئًا في موقعها البعيد، غير ضربات الموج على الشاطئ الخفيّ، محاصرة بين الصّخرة من جهة اليابسة وأجمة الأشجار المنخفضة جهة البحر.

خطت بعزم نحو حاجز الصّخرة، عليها أن تصل إلى الجهة الأخرى. في الظروف الطبيعية، لا تحسبها إلّا عمليّة تسلّق روتينية، تدرّبت عليها مذ كانت طفلة ليّنة العظام، تتلقّف الأرض الرّملية الناعمة سقطاتها، فتنهض ضاحكة لتكرّر المحاولة. غير أنّ ذراعها المصابة وجسدها الملتهب لم يسمحها بأكثر من خطوتين على الجدار، قبل أن تنزلق إلى الأرض فتنهار متألّمة وغارقة في العرق!

تنهّدت في حسرة، هذا أسوأ ما في كونها معالجة، إنّها عاجزة عن عمل أيّ شيء لنفسها. في أوقات المرض والإصابة، تغدو بلا فائدة. تكوّرت على نفسها محتضنة ركبتيها وانبرت تُنهنه بصوت مكتوم. لا يمكنها البقاء في تلك البقعة المعزولة والآمنة فيما يتعرّض قومها للعدوان. وهي عاجزة عن السّباحة حتّى الشاطئ المجاور الذي يبعد مئات الأمتار بعد سلسلة الجبال السّاحليّة أو تسلّق الحاجز الصّخريّ خلفها.

إنّها مجرّد فتاة في العشرين، خائفة ومصابة!

***

سحب آدم نفسًا مرتجفًا لم ينجح في تبديد إحساسه بالاختناق. لقد ركض عبر المسارات التّرابية، ثمّ تسلّل بحذر متخلّلا الأحراش حتّى شارف على القرية متوخّيا الحذر. يدرك أنّه قد تأخّر، لا شكّ أنّ مايك ورجاله قد أرسوا مراكبهم على الشاطئ منذ زمن، وهو يجهل بعدُ ما قد يكون قد وقع بين أهل الجزيرة والغرباء!

لقد تأخّر. لم يكن يسعه أن يحذّرهم في الوقت المناسب. *ليس رجلا خارقًا!* لا يسعه الحضور في موقعين في وقت واحد. وقد كان عليه أن ينقذ روان أوّلًا. راجع إقراره في سخط: يفترض به أن يكون رجلًا خارقًا فعلًا، إلّا أنّه لا يتحكّم في قدراته بعد. لو كان يمتلك موهبة الطّيران –وإن

كان المسخِّر لا يطير، حسب ادّعاء نوح- أو إرسال صاعقة ضوء كإنذار طوارئ متى أراد، أو عمل أيّ شيء بخيوطه النّابضة المتفلّتة.. لو.. لكن لو لن تفيده في تلك الآونة الحرجة!

لقد اختبر في أوقات سابقة قدرة جسده على الاستجابة لتهديدات الخطر المحقّق، إلّا أن الظروف المحيطة لم تدفع به إلى حافّة الهاوية بعد. لا يزال عقله واعيًا ومسيطرًا على الوضع.. سيطرة مخزية! من العجيب أن يرغب بإلحاح في استنزاف طاقته حدّ الإنهاك. عندها -ربّما- تستيقظ هبة التّسخير لتصنع المعجزة. ربّما تمسك ذاته *الأخرى* بزمام الأمور وتفعل ما يجدر به أن يفعله.

يستعيد ذهنه لحظات ارتفاع الأدرينالين، حين ترك بدلة الحماية وقفز إلى الماء وراء روان، مجازفًا بكشف سرّه أمام عيون مايك ورجاله. تخبّط للحظات وقد أخذ الماء المالح يحرق جفنيه. كان عليه أن يُبقي عينيه مفتوحتين تحت الماء، ويفتّش عن روان التي تترك خلفها ستارًا مموّهًا من الصّبغة الحمراء المائعة. كانت تنزف بغزارة، وكلّ لحظة يتأخّر فيها عن نجدتها تزيد من خطورة الوضع، وتقلّل فرص نجاتها.

كان يتعرّض لضغط عصبيّ ونفسيّ، بغطسه في الماء لأوّل مرّة منذ حادثة منزل الشاطئ، دون أي عامل حماية أو وسيلة إنقاذ. لقد كانت تجربته الأخيرة برفقة لولا، وقد جعلت مهارتها وحركاتها الانسيابية الغطس يبدو مثل لعبة مرحة. تمنّى لو كان يملك قدرة نوح على استدعائها وقت الحاجة. تمنّى لو أنّه حرص على إتقان صفيره على الأقلّ. ليس أنّ الصّفير كان ممكنًا أساسًا تحت الماء، غير أنّه يستمرّ في جلد ذاته بكلّ الإمكانات التي لا تزال مستحيلات!

استمرّ يحرّك أطرافه في انقباض وتقلّص مستميت، حتّى قبضت أصابعه على ذراعها المرتخية، وقد سحب جسدها التيّار. عندئذٍ، اندفع في دمه مدد من طاقة استنفار غريزيّة. كان الهواء في رئتيه ينفد، وعضلاته تتصلّب، إلا أنّه لم يستسلم رغم إشارات الخطر التي بات ذهنه يتلقّاها والمثبّطات التي يبثّها داخله عقله الواعي. كان عليه أن يشدّها حتّى اليابسة البعيدة! لقد كانا في عرض البحر، على مبعدة أميال من الجزيرة. العدوّ وراءهما والمحيط هو كلّ ما يمتدّ أمامهما، وما إن ينشقّ السّطح عن رأسيهما حتّى تنهال الرّصاصات القاتلة في اتّجاههما.

كان يجب أن يهلع. يبدو الارتياع ردّة فعل طبيعيّة ومثاليّة في ذلك الوضع، إلّا أنّه لم يترك للخوف مقاليد روحه، راهن على خطّة ساذجة، وقد كان من حظّه الحسن أنّها قد أفلحت: لم يتّجه نحو الجزيرة كما تُملي الغريزة، بل سحب روان باتّجاه السّفينة، حيث لا يتوقّع الغرباء أن يكون. كادت رئتاه تنهاران، لكنّه نجح بمعجزة في الدّوران حول جسد الناقلة الضخم، حتى اختبأ وراءها.

هل كانت معجزة؟ حين يستعيد تلك اللّحظات العجيبة من رحلته، يتذكّر الخيوط ذات الألوان الأربعة التي راحت تنبض فجأة تحت جفنيه. هل تمكّن من استحضار طاقة الـ«مادرا» الكامنة تحت جلده؟ هل أطاعه الخيط الأبيض وأحكم قبضته عليه؟ أم لعلّ المسخّرين يملكون -ضمن توليفة قدراتهم الخارقة- القدرة على كتم الأنفاس طويلًا تحت الماء؟ ربّما يفعلون، قال نوح إنّ حوّاسهم حادّة، وأجسادهم قويّة، وهو يودّ أن يعتقد أنّ هبته آخذة في الاستيقاظ أخيرًا. إن لم تفعل الآن في هذه اللّحظة الحاسمة فمتى ستفعل؟

بقَدَرٍ ما -هبة خارقة أم إرادة فائقة- نجح في مهمّة العبور بحمله البشريّ. حين صارت السفينة تفصل بينه وبين قوارب مايك ورجاله، رفع رأسه ليشهق بعنف ويحصل على الهواء.

تمسّك بسلسلة المرساة المعدنية ليتمالك أنفاسه، فيما يحافظ على توازن رفيقته. وجد نبضات روان ضعيفة حين تحسّسها منذ حين تحت الماء، لكن ما إن أخرجت رأسها إلى السّطح حتّى شهقت بقوة واستنشقت الهواء. لم يحسب أنها قد تحبس أنفاسها كل ذلك الوقت، لكنه ممتنّ لقدرات أهل الجزيرة على التّعامل مع البحر.

هزّ كتفيها بلطف، وربت وجنتيها برفق، محاولًا إيقاظها، إلّا أنّ ردّة فعلها الوحيدة كانت التنفّس، يسحب منخراها دفقات متقطعة من الهواء وتنفرج شفتاها المتشقّقتان، فيما يبقى جفناها منسدلين. لعلّها لم تعد تواجه خطرًا محقّقًا، لكنّها بحاجة إلى إسعاف سريع. يُملي عليه المنطق أن يعود إلى السّفينة -بعد أن ترحل القوارب- فيعلن استسلامه ويطلب مساعدة الطاقم. والده لا يزال بالدّاخل أيضًا. لعلّ أقصى ما قد يقرّره رجال مايك بشأنه هو حبسه وروان حتّى عودة المستثمر. لا يعتقد أنّ أحدهم سيطلق النّار مجدّدا في غياب صاحب القرار.

أم أنّهم قد يفعلون؟

إلّا أنّ المنطق ليس كلّ ما يشغله. يفكّر بأنّ المعالجِة لن تكون مسرورة إذا فتحت عينيها لتجد أنّ مجازفتها قد ذهبت سدى، وأنّها قد عادت حبيسة السّفينة رغم الجهد المبذول والمخاطرة الجسيمة. يدرك أنّها لن تكون ممتنّة أبدًا، وإذ إنّه يدين لها بتعريضها للخطر، والتّخاذل في الانضمام إلى قضيّتها آنفًا، يشعر بأنّ عليه أن يتّخذ ذلك القرار المتهوّر لا محالة.

كان القفز في الماء مغامرة غير محسوبة منذ أيام، لكن ها هو يغطس ويسبح. غير أنّ السباحة لأميال وهو يسحب جسدًا مرتخيًا مثل خرقة بالية -بل مثل كيس طحين منتفخ- لا يزال ضربًا من الجنون. مع ذلك تكاد تنعدم الخيارات. ترقّب من موقعه وأصغى، حتى تناهت إليه ضربات المجاديف الجادّة لتعلن ابتعاد القوارب نحو الجزيرة. لم يكن بوسعه أن يسبقها أو يجاريها، سينتظر ابتعادها مسافة كافية ليبدأ ماراثون السّباحة الثنائية في المياه الحرّة الذي لم يتجهز له بتدريبات تليق بحجم التحدّي. كان معجزًا كفاية أن يستحضر غريزيّا كيف يسبح، رغم تقادم عهده بالممارسة!

تفقّد نبضات روان وأنفاسها مجدّدًا، ثم تنهّد. إنّها تتنفّس.. لا تزال تفعل، إلا أن النّزيف استهلك كل طاقتها. لم تستعد وعيها رغم محاولاته المتكرّرة. أحكم قبضته حول كتفيها، واستعدّ للانطلاق. لم يتعلّم وضعيّة الإنقاذ في دروس سباحة أكاديمية، لكنّه يرتجل استنادًا إلى حسّ المنطق وحده، يعتمد على ذراعه اليمنى لدفع الماء، فترتفع في الهواء، ثمّ يثني مرفقه ويضرب وجه المحيط ليسحبها في حركة دوران. تظلّ ذراعه اليسرى متشبّثة بروان التي يُهيأ إليه أنّها تزداد ثقلًا مع مرور الوقت، ويتوقّف كلّ حين ليستلقي على ظهره ويطفو برهة يستردّ فيها أنفاسه.

يجهل تمامًا أين تكون اليابسة. بعد دقائق، غابت أشكال السّفن عن ناظريه، وبقي محاطًا بالماء والضّباب وحدهما. انتابته رغبة ملحّة في البكاء. بدا على وشك التّداعي إلّا أنّه تشبّث بالأمل البعيد: الهجناء يعرفون الطّريق. يُفترض به أن يعرف الطّريق غريزيّا. مجال الـ«مادرا» حول الجزيرة يشدّ ذرّات كيانه مثل حقل مغناطيسيّ. يجدر به أن يصدّق نظريّة عمّار تلك، حتّى يستمرّ بلا هوادة.

لم يدرِ كم مضى من الوقت، حين أخذت عضلات ذراعيه تتصلّب وتستغيث، مطالبة بقسط من الرّاحة. تمنّى لو تستيقظ روان، لو يظهر نوح من العدم، لو تلوح الأرض في الأفق لتنتهي معاناته. لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث.

على شفير الانهيار، امتدّ إليه طوق النّجدة، على هيئة طوف خشبيّ تطوّحه الأمواج. حدّق آدم في الشّكل المتهالك الذي يتراقص في البعيد، مثل سراب مستحيل ثمّ جدّ في السّباحة وقد دبّ فيه النّشاط بوقود الأمل. حين قبضت كفّه على الجسم الصّلب للألواح المترابطة، أفلتت من حلقه صرخة انتشاء أقرب إلى النّشيج. بمشقّة، رفع جسد روان على المحفّة، ثم استلقى إلى جوارها، محدّقًا في سقف الظلة التي تحجب السّماء عنهما.

تنفّس بعمق، شهيق ثمّ زفير، وارتجفت أطرافه الملتهبة من الحركة المتّصلة. كان منهكًا مكدودًا حدّ الوجع. تئنّ عضلاته وتئزّ مفاصله، فيما تتسلّخ شفتاه من الجفاف والملوحة، إلّا أنّه لا يملك الاستسلام للرّاحة بعد. بعد دقيقتين وجيزتين، استقام جالسًا على الطّوف وقد تملّكه الجزع من جديد. مزّق طرف قميصه وربط القماشة حول عضد روان النّازف، ثمّ تمدّد على بطنه، وأخذ يجدّف بذراعين عاريتين في همّة، في اتّجاه المجهول.

***

رست القوارب المطاطية على الشاطئ الرّمليّ واحدًا إثر الآخر، وتدافع عشرات الرّجال المجهّزين ببدلات الحماية والأقنعة الزّجاجية وقوارير الأكسجين لاحتلال المساحة الخالية. أفرغوا حمولتهم من الأسلحة النارية والمؤن ورصُّوا صناديقهم المعدنيّة قرب مدخل الغابة السّوداء، ثمّ وقفوا متأهّبين.

تقدّم مايك رجاله، وإلى جوراه ابنته مانويلا، واجها البحّارة المسلّحين، ليتبادل الجميع نظرات المشورة في ما يخصّ الخطوة التالية. تبدّى المكان ساكنًا على عكس المتوقّع، لم تظهر مجموعات المُسخّرين لاستقبالهم في عرض البحر، ولم يلمح أحدهم علامات حياة على الشاطئ المحتلّ حتّى اللّحظة.

يجهل المستثمر استراتيجية السّكان القديمة بتجاهل الغرباء وتركهم لمصيرهم ما لم تثبت نواياهم الطيبة، ورغم تجهيز مايك رجاله بوسائل الوقاية المطلوبة، فإنّ فاعلية البدلات ستكون محدودة زمنيّا بساعات معدودة. لم يكن الانتظار أو الحصار يصبّ في مصلحته، ولا جهله بخارطة الجزيرة الجغرافية، ومواجهته غابة كثيفة لا يميّز شيئًا خلالها.

وشوشت مانويلا والدها في قلق:

- لا يمكننا أن نعبر الغابة، قد نتعرّض لهجوم مفاجئ، لعلّهم ينصبون لنا فخّا الآن.

أومأ مايك مؤيّدًا، وقف قبالة الأشجار الباسقة، موليًا ظهره لرجاله ثم هتف:

- نحن زوّار مسالمون، نريد لقاء قائدكم!

رفعت مانويلا صوتها لتردّد نداءه باللغة العربية، مضت لحظات من الصّمت المترقّب، دون أن تندّ عن السّكان المحليين أدنى حركة تشي بحضور أحدهم في الجوار. تململ الرّجال القلقون في مواقعهم. لا يفترض بالإنزال أن يسير على هذا النّحو، ليس في تاريخ الرّجل الأبيض الحديث على الأقلّ. يبقى «إنزال النورماندي» واحدًا من أكثر الأحداث الدّامية ثباتًا في الذّاكرة، حين وصلت بواخر قوات الحلفاء إلى السّواحل الفرنسيّة الشّمالية، استقبلتها الفرق الألمانيّة التي كانت تحتلّ الأراضي الفرنسيّة

آنذاك، ليحصل تلاحم فوريّ على الشّواطئ. لذلك، يعتبر الصّمت المخاتل عامل تضليل فتّاك ومربكًا لأعصاب الرّجال المتحفّزين!

عُقد اجتماع طارئ لطرح الاستراتيجيات الممكنة. نادى الصّوت الأعلى بالعبور المباشر غبر الغابة. كانوا مسلّحين ومزوّدين بالنظارات الليلية، لا يخيفهم الشعب المحليّ البدائيّ، لكنّ المراوحة في أماكنهم تبثّ القلق في النّفوس. لا بدّ من التحرّك الفوريّ.

تقدّم شابّ يدعى نايت، وقدّم اقتراحًا مختلفًا:

- أرى أن تنطلق القوارب لتطوف حول الجزيرة من الاتّجاهين، لتقييم الوضع، فتحدّد موقع القرية المأهولة، والمسارات المفتوحة إليها، وأفضل سُبل الاقتحام.

بدت تلك الخطّة أكثر فاعلية وحكمة، أومأ مايك مؤيّدًا، ثمّ أشار إلى نايت:

- ستصحبك مجموعة من خمسة أفراد في اتّجاه اليمين، وتنطلق أخرى مماثلة في اتّجاه الشّمال، سوف نترقّب عودتكم هنا خلال ساعتين على الأكثر.

هزّ الرّجال رؤوسهم وتحرّكوا بما سمحت به بدلاتهم الضخمة من نشاط. خلال لحظات، كان قاربان استطلاعيّان يبتعدان على امتداد الشاطئ حتّى اختفيا عن الأنظار عند المنعطفين. لا يحبّذ مايك ذلك الوقت المُستقطع، فهو يستهلك الأكسجين المخزّن في القوارير المعدنيّة بلا فائدة، ويفقده زخم الاندفاع وإثارة اللّحظة.

اقتربت مانويلا وقالت فجأة في قلق:

- هل تظنّ أنّ آدم قد نجا؟

تأمّلها مايك في صمت، ثمّ قال بهدوء:

- أرجو أن يكن قد فعل.

- كان يجب أن ننتشله من الماء! لم يكن من الصّواب التخليّ عنه ببساطة.

- لا تقلقي، لا شكّ أنّه قد عاد إلى السّفينة. والده لا يزال هناك، حين نرجع بعد ساعات، سيكون في انتظارنا.. أعدك.

زمّت الشّابة الصّهباء شفتيها في وجوم. إنّ كلّ ما فكّرت به ذلك الصّباح، هو الخروج للاستكشاف كما فعلتْ كثيرًا في السّابق. وجدت محادثتها مع المعالجة الشابّة سلسة ورائقة. هل يمكنها القول إنّها قد أحبّتها؟ من المحزن أن يكون أمرها قد انتهى بتلك السّرعة قبل أن تعرفها أكثر. تدرك أنّ دوافع والدها مختلفة. لا يتحمّس للحضارات كما تفعل، بل جلّ ما يشغله الفرص والمكاسب، إلا أنّ الهدفين لا يتعارضان غالبًا، فيما يهتمّ بتجارته، تنشغل هي باكتشافاتها، إنّها وجهة نظر مختلفة وحسب.

لكنّ حصيلة الصّباح ثقيلة ومقبضة، همست قبل أن تبتعد خطواتها:

- أوص رجالك.. لا مزيد من إطلاق النّار جزافًا!

***

لاحت الأرض في الأفق أخيرًا، مثل خطّ وهميّ مائع يشاكس أعصاب آدم المنهكة. جعل ضياء النّهار البازغ للتوّ الرؤية أوضح، فتيقّن بارتياح بأنّه يمضي في المسار الصّحيح. استمرّ ممدّدًا على بطنه، يجدّف بذراعه اليسرى التي تتدلّى في الماء على جانب الطّوف. كان من الحكمة أن يريح ذراعه اليمنى بعد أن استنزفها في مرحلة السّباحة.

إلى جواره، لا تزال روان ساكنة بلا حراك، استمرّ يتوقّف كلّ فترة ليتفقّد نبضاتها وأنفاسها الخافتة، إلّا أنّها أبت أن تفيق من سباتها.

ضاعف جهوده في التّجديف وهو يلحظ تقلّص المسافة التي تفصله عن الجزيرة. وجد الإبحار بلا وجهة خلال السّاعات الماضية مربكًا لأعصابه، أمّا وقد صار قاب قوسين من الوصول، فقد احتشدت طاقته من جديد.

أمامه مباشرة، ظهر سدّ الصّخور المرتفعة التي تحدّ الجزيرة جهة الجنوب. تأمّل المشهد باهتمام حتّى ميّز الموقع الذي يرومه، فوجّه مركبه المرتجل لينعطف انعطافًا يسيرًا ثم استمرّ قدمًا. ما إن لامست ألواح الطّوف أجمة الأغصان المتدليّة فوق صفحة الماء، حتّى قفز على قدميه، حمل روان بين ذراعيه وانحنى ليتجاوز الحاجز النباتيّ ويفضي إلى شاطئ الرّمال الفضيّة على الشّريط الشاطئيّ الضّيق أمام الصّخرة مخلّفًا الألواح العائمة وراءه. تعثّر وهو يهرول بحمله إلى داخل الكهف الآمن؛ ملاذ الأطفال، وضعها على الأرض برفق، ثمّ جثا على ركبتيه يطالعها لاهثًا.

ماذا بعد؟

لقد وصلا أخيرًا إلى الشّاطئ، إلّا أنّ المهمّة لم تنته. يحتاج إلى معالجة تستخرج الرّصاصة من ذراعها وتسقيها دواءً يعيد إليها عافيتها ثمّ سينظر في أمر مايك وما فعله مع أهل الجزيرة. كان عليه أن يتركها داخل الكهف، ويتسلّل إلى القرية أوّلا. سيُحضر المعالجة مارتا، ويستطلع الأوضاع. خمّن أنّ روان ستودّ أن تحيط بالمستجدّات ما إن تفتح عينيها.

تنهّد وهو يزحف خارج الكهف ثمّ يواجه الصّخرة التي تسلّقها كثيرًا في الأيّام الماضية. ستكون تدريباته ذات فائدة على الأقلّ. إلا أنّ رحلة

الصّعود لم تخل من المشقّة. وهل خلا منها أيّ من حركاته منذ بزغ فجر ذلك اليوم؟

تسلّل آدم عبر المسارات الخلفيّة للقرية متواريًا عن العيون إلّا أنّ السّكون هو كل ما عاينه في ساعات الصّباح الأولى. لم يكن السكّان في طريقهم إلى مواقع عملهم كالعادة، وهو ليس بالمفاجأة باعتبار حضور غرباء معادين على أرضهم. إلّا أنّ الهدوء الذي لقيه كان مريبًا، لقد توقّع مشهدًا مختلفًا.. بعض الإثارة ربّما، صراخًا، حرائق مستعرة، أو طلقات ناريّة، يعلم أنّ مايك لم يشحن رجاله في مهمّة سلميّة.

تبادرت إلى ذهنه عشرات الافتراضات، أن يكون مايك قد تفاوض مع المجلس وتوصّل إلى اتّفاق -تحت تهديد السّلاح- وسيطر على الجزيرة بيسر وفي وقت وجيز، أو أنّ المسخّرين قد نجحوا في شلّ حركات الرّجال المسلّحين، ممّا يعني في الحالتين أنّ الإثارة قد انتهت قبل وصوله.. أو أنّ المهاجمين الذين نزلوا على الجهة الخاطئة من الجزيرة لم يشقوا طريقهم نحو القرية بعد، ممّا يعني أنّ فرصة تحذير السّكان لا تزال متاحة!

غير أنّه لا يملك المجازفة بالظهور للعيان حتى يتيقنّ أيّ افتراضاته هي الأصحّ. يحتاج إلى معالجة وهذا أهمّ ما يشغله في الوقت الحاليّ. حين سار في حذر متلفّتًا عبر الشارع المؤدّي إلى منزل المعالجة مارتا، لم يشعر بالعيون الخفيّة المراقبة. كان من المدهش أن يعرف على الدّوام حين يكون مراقبًا؛ تلك النظرات الحارقة التي تحدّق به من مخابئها، كان بوسعه أن يحسّ بأثرها في ظهره، كواحدة من الحواسّ الخارقة للمسخّر، لكنّها لم تكن حاضرة في تلك اللّحظة، إمّا لأنّ صفته كمخلّص ترفع عنه كلّ الشكوك التي تستوجب المراقبة وإما لأنّ الحرّاس مشغولون في جهة أخرى من الجزيرة بمراقبة الدّخلاء!

طرق على الباب برفق ففُتح على الفور، واجهته الجدّة العجوز وهي تهتف في لهفة:

- ما الذي حدث؟

- إنّها روان، أصابتها رصاصة الغرباء!

لا تعرف المعالجة مارتا ما الرّصاصة، لكنّها لا شكّ عمل شيطانيّ من صنيع الغرباء!

- أين هي؟

تطلّعت إلى الطّريق خلفه، فهمس:

- في الكهف، خلف الصّخرة.

- قُد الطريق!

لم تتساءل المعالجة عن الموقع، فتأكّد لديه أن «مخبأ الأطفال المجهول» محض خرافة، فالجميع على سطح الجزيرة يعرفون أين تقع الصّخرة وكهفها لكنّ التفكير بشأن لهو الأطفال كان آخر همومه في تلك اللحظة. طفت في ذهنه ريحان الصّغيرة فشعر بوخزة في صدره، لا يعرف بعد ما سيكون مصيرهم بعد الآن، غير أنّه لا يملك ترف التأخّر لحظة واحدة للبحث عن الطفلة.

تحاملت المعالجة العجوز على نفسها لتجاري خطواته الواسعة. استمرّ يتوقّف كلّ حين لينتظرها، ثمّ يستأنف المسير مستعجلًا إيّاها. حين وصلا عند الصّخرة، راقب الجدّة مارتا في ذهول وهي تتسلّق الجدار الحجريّ مثل شابّة يافعة. لم تكن تعوزها الخفّة رغم تقدّم العمر، أم لعلّ جدار التسلّق ذاك قد مثّل جزءًا من طفولة كلّ فرد على الجزيرة، ومخبأه السّريّ في وقت ما.

حين صارا في أعلى الجدار، ظهرت روان أمامهما، هتف آدم باسمها في لهفة، كانت تستلقي على الرّمل محتضنة ركبتيها، إلّا أنّها لا تستجب لندائه. قفز من أعلى الجدار متسرّعًا، فتعثّر حال سقوطه على الشاطئ وانكفأ على وجه. سبقته مارتا التي تمهّلت لتنحدر إلى الأرض خطوة خطوة، جسّت نبض روان وتحسّست جبينها، ثمّ مرّرت كفّها بلطف على صدرها وأطرافها، بتلك الحركات الدّافئة والنّاعمة التي يجيدها المعالجون، لتتسرّب طاقة الـ«مادرا» الشافية عبر أناملها مثل دفقات ضوء أبيض.

قالت مطمئنة وهي ترفع رأسها:

- ستكون بخير.

تنفّس آدم بقوّة، قبل أن يقول معتذرًا:

- يجب أن أذهب، هناك أشياء تحدث على الجزيرة.

لم تستفسر مارتا إنّما أومأت ببطء كأنّها تتفهّم أو تدرك.

- سأتركها في رعايتك.

رآها تومئ مرّة أخرى، قبل أن يستدير وينطلق بلا تفكير ليقفز إلى الجهة الأخرى من الصّخرة.

***

تقدّم مايك وسط الحشود، يتبعه رجاله في خطّ واحد، يبادلون السّكان نظرات النّفور وعدم الثقة، شقّوا طريقهم نحو مركز القرية بخطوات ثقيلة أنهكتها البدلات الواقية والأسلحة.

عاد نايت ومرافقوه بعد أن طوّقوا الجزيرة من جهة البحر، وتوصّلوا إلى موقع المرفأ. على مسافة نحو ساعة واحدة من التّجديف في اتّجاه الشّمال ترسو سفن الصّيادين. كان موقع هبوطهم خاطئًا تمامًا، ممّا كلّفهم ثلاث

ساعات إضافية مهدرة، قبل الوصول إلى مدخل القرية أخيرًا. لا تدخّل من حماة الجزيرة حتّى الآن، ممّا يستدعي الريبة ويثير التّساؤل.

كان مظهرهم العجيب مثيرًا للفضول، مثل روّاد فضاء قادمين من كوكب آخر. لقد استقبل أهل الجزيرة غرباء من قبل، لكنّ أيّا منهم لم يأت على ذلك القدر من الاستعداد. كانوا يصلون مكدودين، وقد نجوا بأعجوبة من الغرق، يعانون آثار الـ«مادرا» العدائيّة التي تهاجم أجسادهم، أمّا هؤلاء القادمون من السّفن المرابطة على الحدود، فلا يبدو عليهم أثر إرهاق أو معاناة. حين صاروا أمام دار العبادة، أوسع لهم النّاس ليدلفوا إلى المبنى.

في الدّاخل، وقف الحكماء بهيئاتهم المهيبة. رغم الثّبات الظاهريّ، كان حضور الغرباء مثيرًا للقلق لدى كلّ حكيم ممتدّ القامة طويل اللّحية شاحب الملامح. تقدّم عمّار الجمع ليعلن تصدّره المجلس وإدارته اللّقاء ولم يعترض كوتانا تافي الذي تعوّد موقع القيادة. كان الوضع يدعو إلى التريّث والحذر، ولم يكن يودّ أن يتحمّل تبعات التّعامل مع الغرباء. لديه رؤيته الخاصّة، لكنّها لا تصلح للموقف الرّاهن.

تكلّم عمّار بالعربيّة بصوت جهوريّ:

- أيّها الغرباء، ما الذي تريدونه منّا؟

ترجمت مانويلا لوالدها ورجاله، ثمّ ترجمت ردّه ثانية:

- أتينا نعرض عليكم صفقة، نريد أن نقدّم لكم خدماتنا، ونقايضها بمصدر الطّاقة الخاصّ بكم!

امتقعت ملامح الحكماء الشّاحبة أساسًا، وسرى اللّغط في الحضور داخل القاعة الفسيحة. تكلّم الحكيم توماس فجأة، وقد غلبه الغضب:

- لا مجال لعقد صفقة من هذا النّوع بتاتًا.. أنتم تضيّعون وقتكم. ارحلوا بلا تأخير!

بعد أن ترجمت مانويلا الكلمات الأخيرة، اتّخذ الرجال المسلّحون وضعيّات التأهّب، غير أنّ مايك ردّ بهدوء:

- أرجو ألّا تتسرّعوا بالرّفض، أودّ الاعتقاد بأنّ التّفاوض لا يزال ممكنًا.

تململ عمّار في مكانه. يعرف نبرة التّهديد المبطّن التي تنطوي عليها الكلمات المهادنة. هؤلاء الرّجال لم يأتوا مسالمين. يعرف تاريخ الرّجل الأبيض مع الاحتلال. إنّهم يفسدون كلّ أرض تطؤها أقدامهم، ويذلّون أهلها. لم يكن من الحكمة استفزازهم أو معاداتهم، لكنّ الحكماء الفخورين الذين اعتقدوا لوقت طويل أنّ جزيرتهم تحظى بحماية الجنّ -كما تقول أسطورتهم- لا يمكنّهم تخيّل الأذى الذي قد يطالهم لو أنهم اتّخذوا خطوة خاطئة!

عرف بنظرة واحدة أنّ الرّجل الذي يقف إزاءه قد امتلك الوقت الكافي لجمع المعلومات عن الجزيرة ومناخها، وتهيّأ لتلك الرّحلة كما يجب. لا يعرف بعد كيف فعل، لكنّه يقدّر الخصم الحقيقيّ حقّ قدره، وقد رأى على الفور أن مايك يشبهه في نقاط كثيرة، فهو رجل ذو نظرة ثاقبة للأمور، يخطّط لخطواته برويّة، لكنّه رغم تأهّبه الشّديد، ليس مستعدًا لإثارة الفوضى وخسارة أيّ رجل من رجاله، أو تضييع وقته حتّى ينفد مخزون الأكسجين.

كان عمّار يهمّ بالتقدّم ليستلم مقاليد الحوار، حين برز أحد المسخّرين وهتف في كبرياء:

- ما الذي يجعل غرباء يتجرؤون على طلب الـ«مادرا» الخاصّة بنا؟

التفت مايك في اهتمام إلى ماتياس، المسخّر الكهل، وقد التمعت في عينيه نظرة فضوليّة، بدا متشوّقًا لعرض واعد لتسخير الطاقة، رفع ماتياس كفّيه في الهواء، وأخذت راحتاه تسحبان الـ«مادرا» من الأرض في تركيز، زمجر بقوّة، فيما تشرق بين يديه شموس ساطعة تبهر عيون الأعداء المتربّصين. تراجع رجال مايك متحفّزين بانتظار إشارة القائد للتصرّف، إلا أنّ المستثمر كان يتابع المشهد باستمتاع، يراه تجسيدًا حيًّا لقدرة الـ«مادرا» التي كانت حتّى تلك اللّحظة مجرّد نظرية لم تبصرها عيناه!

تحرّكت ذرّات الهواء بزخم واستشعر الحاضرون جميعهم ذبذباتها المهتزّة. كانت لحظات خشوع مهيب في انتظار الإعصار الذي سيقذف بالمهاجمين خارج المبنى، ولم يبد أنّ أحدهم قد يجرؤ على ترك موقعه طواعيّة، مُسمَّرين في أماكنهم بذهول.

تحرّكتْ ذراع مايك فجأة بدقّة قنّاص، لتمتدّ في اتّجاه المسخّر مشهرًا سلاحه، لم يدرك أحد ما حصل حين دوّت الطلقة بصوت يصمّ الآذان، إلّا أنّ عمليّة التّسخير بُترت فجأة، اختفى الشعاع الذي ملأ القاعة ضياءً وبقيت ذرّات الغبار عالقة في الهواء، كتم الجميع أنفاسهم في رهبة ثمّ شهقوا بصوت واحد حين تهاوى ماتياس على الأرض مثل كتلة تكوّمت على نفسها، في منتصف جبينه، استقرّت رصاصة مايك، سالت الدّماء على وجهه ببطء، وما عدا الخيط الأحمر القاني الذي نقط على الأرض، لم يتحرّك المسخّر الذي خمدت أنفاسه. تعالى صوت مرتعب فجأة:

- المعالجة! أين المعالجة؟

تحرّك النّاس في هرج متدافعين ومتداخلين، ثمّ تجمّدوا في مواقعهم حين دوّت طلقة أخرى في الهواء. سكنت الحركة وكتمت الأنفاس، فيما تكلّم مايك بهدوء:

- لقد مات.. لن تستطيع المعالجة أن تفعل شيئًا من أجله.

يموت النّاس على الجزيرة، لم يكن الموت بالحدث النّادر، والقبور التي تعمّر التلّة بالخارج تشهد على ذلك، إلّا أنّهم يموتون غالبًا لكبر السنّ، ما من داء عضويّ إلا كانت المعالجة قادرة على شفائه، ربّما كان في الأمر بعض المبالغة، لكنّها تفعل في معظم الأحيان، ربّما تفتقر المعالجة الشابة إلى مهارات الأسلاف، لكنّ السّيدة مارتا لا تزال تجترح المعجزات.

اقترب الحكيم تافي وانحنى ليستمع إلى دقّات قلب المسخّر فلم يلق إلا الصّمت العميق، تحسّس نفسه في قلق، وراقب صدره السّاكن قبل أن يعلن بوجوم:

- لقد مات!

لم يلتق أحدهم من قبل وجهًا لوجه بتلك القطعة المعدنية الصغيرة التي تنهي الحياة في لحظات، لكنّ الخشية سكنت في صدورهم منذ تلك اللّحظة، سينظرون إلى القطع المعدنيّة المصقولة التي يتشبّث بها الرّجال المتسربلون ببدل الحماية النّاصعة بحذر واحترام.

تنهّد مايك ثمّ قال:

- لم أرد أن تؤول الأمور إلى هذا.. لكنّها الضرورة، لا أريد اللجوء إلى العنف، أودّ أن نتعاون تعاونًا وديًّا.. هل هذا ممكن؟

أطلت نظرات الرّعب من العيون المترقّبة، فيما راحت مانويلا تترجم ببطء. تبادل الحكماء نظرات حائرة يخالطها جزع جليّ، حين استمرّ الصّمت الرّهيب مخيّما على الرّؤوس، عاد مايك يقول بأريحية:

- حسنًا، سأعتبر هذا موافقة، الآن، أرجو من الجميع العودة إلى منازلهم. سنحتاج إلى هذا المكان لإنشاء مقرّ عمليّاتنا، ثمّ سأرغب في بعض

المساعدة للوصول إلى الكهف الذي يحوي مصدر الـ«مادرا»، لا أعتقد أنّ أيًّا من هذا سوف يشكل معضلة، أليس كذلك؟

تدفّقت التعليمات من شفتيه في استرسال، وجاهدت مانويلا لتجاريه بالتّرجمة، وما إن أنهت كلماتها الأخيرة حتّى تجاسر تافي على التقدّم في جرأة وهو يصرخ:

- ماذا تظنّ نفسك فاعلًا أيّها القاتل المخرّب؟ هل تظنّ أنّك ستكسر إرادتنا بروح أزهقتها؟ هذه أرضنا وسوف نموت عن آخر فرد منّا ونحن نذود عن ترابها!

تنهّد مايك، ثمّ فتح صمّام أمان مسدّسه واستعدّ للتصويب ثانية ثم قال متظاهرًا بالأسف:

- أظنّ أنك لم تستوعب الوضع بعد أيها الرّجل العجوز، لم أرد أن أضطر إلى جولة أخرى من الشّروحات العمليّة...

قفز عمّار فجأة ليجذب تافي جانبًا وصرخ بدوره:

- هذه الأرض، كانت ولا تزال تحت حكم سكّانها الأصليّين الذين لم يغادروها منذ آلاف السّنين، ولا نقبل أن يسيء الغرباء الأدب بالمطالبة بما لا يحقّ لهم!

ثمّ على الفور، وقبل أن تتحوّل فوهة مسدس مايك تجاهه، أضاف بالإنجليزيّة بصوت عالٍ:

- إذا أردت الحصول على اتّفاق، فلتجعل رجالك يتراجعون نحو الشاطئ، ثمّ لاقني وحيدًا عند حدود الغابة!

تسمّر مايك ورجاله في أماكنهم، لم تترجم مانويلا الكلمات الإنجليزيّة المفهومة لدى قومها، فيما لم يستوعب الحكماء وباقي السّكان المحلّين كلمة

واحدة، إلّا أنّ ردّة فعل الغرباء أدهشتهم، بعد لحظات قليلة من التّردّد، أشار مايك إلى رجاله، فتراجعوا بهدوء متّجهين إلى خارج دار العبادة قبل أن يقول بلهجة مهدّدة:

- سوف أمنحك ساعة واحدة.

ثمّ خطا بدوره مغادرًا المبنى تحت نظرات الذهول والاستغراب، حين خلت دار العبادة من الدّخلاء، مال كوتانا تافي على عمّار وسأل في شكّ:

- ما الذي قلته لهم، حتّى انسحبوا؟

تنحنح عمّار ثمّ قال في فخر:

- لقد هدّدتهم بلعنة الجنّ التي تحمي الجزيرة! لقد أسالوا دماءً بريئة وستطاردهم اللّعنات لذلك، إنّهم قوم متطيّرون يخشون القدرات العلويّة ويرهبهم ذكرها! ثمّ، لقد صدّقوا أنّني أتكلّم باسم الجنّ، لأنّني نطقت بلسانهم الأعجميّ.. لقد كانتْ معجزة في نظرهم!

كانت اللّهجة القويّة التي تكلّم بها عمّار تدعم العبارات التي ادّعاها، فهزّ تافي رأسه مستحسنًا، ثمّ سأل مجدّدًا:

- هل تعتقد أنّهم سيرحلون؟

هزّ عمّار كتفيه وهو يجيب:

- يجب أن نلزم الحذر، سوف أتابع بنفسي الأمر، وليواصل الحرّاس مراقبة تحرّكاتهم.

- أقصد.. يبدو أنّهم قد جاؤوا من أجل الـ«مادرا»، وهم يعرفون بالتّحديد ما يريدون.. ألا ترى أن استعداداتهم الكثيفة ومراقبتهم الطويلة للجزيرة لا تدعو إلى الاطمئنان؟

تململ عمّار بداخله، لكنّه قال متظاهرًا بالإعجاب:

- لقد أحطت بالوضع بدقّة، لكنّك تنسى أنّهم غرباء، ومناخ الجزيرة معادٍ لهم، لا يمكنهم البقاء طويلًا هنا، فمخزون هواء العالم الخارجيّ الذي تحويه خوذاتهم ينفد بسرعة، لا شكّ أنّهم يحتاجون إلى العودة لسفنهم لتجديده!

هزّ تافي رأسه في تفهّم، وقد بدا له الشّرح مقنعًا، ثمّ التفت إلى الرّجال الذين يحملون جثّة المسخّر ماتياس وقال في ألم:

- هناك مهمّة أخرى يجب أن ننهض بها في الحال.

أومأ عمّار موافقًا، ستكون جنازة حزينة ومهيبة لمسخّر شجاع.

ما إن ابتعد تافي وغاب عن نظره حتّى زفر عمّار وهي يشقّ طريقه خارج المبنى. واصل النّاس تجمّعهم وهم يشيّعون بأنظارهم الغرباء المتقهقرين، ويتساءلون عمّا ستسفر عنه السّاعات المقبلة، فيما هبّ آخرون لتكريم جثمان الشهيد.

كان عليه أن يتحرّك بسرعة، يعلم أنّ ما أقدم عليه منذ حين ينطوي على مخاطرة بالغة، إذا اكتشف الحكماء والسّكان فحوى كلماته، فلن تكون تهمته أقلّ من الخيانة، بين المدرّسين قلّة يفقهون الكلمات الأعجميّة، إنّه يراهن على غيابهم عن الاجتماع لمكوثهم بعيدين عن مجرى الأحداث أو بطء استيعابهم للكلمات التي نُطقت بسرعة إلّا أنّ هذا لم يكن كلّ ما يشغله، فهو يمضي وحيدًا أعزل للقاء رجال مدجّجين بالسّلاح لا يُضمرون نيّات طيّبة.

تساءل متأخّرًا إن كان قد تهوّر وهو يسير مسرعًا متعثّرًا في ثوبه عبر الشّوارع الخلفيّة للقرية إلّا أنّه لم يملك خيارًا آخر، تلك الفرصة، لم يرغب في تضييعها. هناك قوارب وسفن ضخمة سترحل إلى العالم الخارجيّ، وتلك وسيلة نقل مضمونة، وهناك رجل أعمال بعقليّة رأسماليّة يلزمه

مقابل مناسب لقاء الخدمة التي سيقدّمها لمشروع النّزوح الكبير الخاصّ به، إنّ اقتناص الفُرص من شيم القادة، وهو ينوي أن يقود قومه نحو العالم الواسع.

كما أنّ ابنته لا تزال في حوزتهم.

دوّت تلك الفكرة في رأسه فجأة، لقد مات المسخّر ماتياس، وربّما كان كوتانا تافي ليلحق به لولا تدخّله الرّشيق منذ قليل، لكنّ الجميع ينسون أنّ فريق الاستطلاع الذي أرسل منذ يومين لا يزال غائبًا عند الأفق، قد لا يهتمّ اهتمامًا خاصًّا بمصير آدم.. بلى، إنّه يفعل، فخطّته كانت حتّى وقت قريب تعتمد عليه تمامًا، لكنّ حياة ابنته تحتلّ قمّة الأولويّات في ذهنه، كان يحتاج إلى مساحة من الخصوصيّة حتّى يفاوض الرّجل بأريحيّة ويقيّم الوضع بعيدًا عن نظرات الحكماء السّابرة وعدوانيّة الجماهير.

توقّف اندفاعه فجأة وهو يُبصر الهيئة البشريّة التي قابلته عند المنعطف، حملق بنظرات دهشة في آدم الذي ظهر أمامه فجأة، متسلّلًا مثله عبر السّبل غير المطروقة، بدا في حال يرثى لها من الإعياء والفوضى، كأنّما خاض حربًا في عرض البحر، كان بروزه المباغت غير متوقّع، وباعثًا على الأمل. في حركة غريزية مندفعة، أمسك عمّار بتلابيبه وهو يهمس في فحيح مكتوم:

- أين ابنتي؟ أين روان؟

جاهد آدم ليحافظ على انتصاب قامته، وهو يبعد قبضتي الحكيم في ضيق ثمّ يهمس بدوره:

- إنّها بخير، المعالجة مارتا تهتمّ بها.

رمش عمّار بعصبيّة وهو يستوعب الأمر.. إنّها على الجزيرة، لم تعد على السّفينة، تنفّس في ارتياح، قبل أن يعاجله آدم بسرعة:

- أين الغرباء؟ هل أصيب أحد بمكروه؟
- لقد أطلقوا الرّصاص. مات واحد من المسخّرين.

تجعّد جبين آدم جزعًا مع إعلان الحكيم المشحون بالأسى.. لقد تأخرّ. بعد الآن، لن يملك أيّ سيطرة على الأحداث، راقب عمّار الذي توقّف للحظة وقد بدا عليه التفكّر، ثمّ سحب ذراع آدم قائلًا:

- ستأتي معي، وستخبرني بتفاصيل الأحداث التي وقعت على السّفينة.

استدار آدم ليجاري خطواته الواسعة وهو يستفسر:

- إلى أين نمضي؟
- لنتفاوض!

***

وقف مايك راسل على ضفاف البحر حيث رست مراكبه لتحاذي قوارب البحّارة المحليّين، يتأمّل الشّاطئ الغائم بنظرة استشرافية، تفرّق الرّجال على الرّمال ينالون قسطًا من الرّاحة بعد رحلة التّجديف الطويلة والتوغّل الصّباحي في نطاق العدو. لا تزال تلك الظلة المنخفضة فوق رأسه تثير حيرته وعجبه، لقد أمضى شهرًا كاملًا يتأمّل الضّباب من مسافة قريبة، غير أنّ الحضور الجسديّ تحتها مباشرة يملأه بإحساس رهيب من القلق والترقّب، يخامره إحساس بأنّ السّحب ستمطر في أيّ لحظة، لكنّها لن تمطر ماءً.. بل سائلًا لزجًا فضيّ اللّون.. أو حجارة مسنّنة تخدش الجلد، لا يدري مدى صحّة التهيّؤات التي تُلقي بظلالها على وعيه إلا أنّه متوجّس. لا يُشعره الحضور تحت سقف السّماء المنخفض بالارتياح.

- هل سننتظر طويلًا؟

أتاه صوت نايت بالقرب. يرأس الشابّ مجموعة من المرتزقة الذين انتدبهم مايك من أجل المهمّة الاستكشافية، خدم معظمهم في الجيشين الأمريكي والبريطاني في أوقات سابقة بالعراق وأفغانستان ثمّ اتّجهوا لاحقًا إلى أعمال أخرى أوفر دخلًا، مايك نفسه كان عسكريّا قبل أن يجد في المال والأعمال ضالته، لذلك كان يجيد الرّماية رغم تقادم عهده بالممارسة العمليّة.

- لدينا عميل محتمل، قد يجعل المهمّة أيسر بكثير.

انتبه على الفور إلى بشرة عمّار المختلفة، هذا غريب آخر يتكلّم الإنجليزيّة أيضًا، سيكون إقناعه بالتعاون أمرًا ميسورًا مقارنة بالسكّان الأصليين الذين لم تسبق لهم مغادرة أرضهم، ومن الجيّد أنّ المبادرة جاءت من طرفه، لديه استعداد مبدئيّ للتفاوض.. أضاف مايك شارحًا:

- المواجهة المباشرة ستكلّفنا كثيرًا وتستنفد الهواء والسّلاح والطاقة، سيكون من المريح أن نتوصّل إلى صفقة سريعة، ثمّ.. لست أنوي إبادة السّكان بعد.. لديّ خطط مستقبليّة من أجلهم!

ثمّ ابتسم في مكر. هناك كثير لاستثماره على هذه الجزيرة، إذا نجح في مخطّطه وأقام مسارًا بحريّا لاستخراج طاقة الـ«مادرا»، فلن يقتصر نشاطه على صناعة الأسلحة، بل سيمرّ إلى مشاريع مربحة كثيرة أخرى، سيدرّ عليه إنشاء منتجع سياحيّ هنا أموالًا طائلة، يتخيّل الأثرياء وهم يتزاحمون لاقتناء التذاكر الباهظة على متن عبّارة تأخذهم إلى موقع الجزيرة الخفيّة، ستكون مغامرة من نوع آخر، حين يرتدون البدلات الواقية والخوذات الزجاجية، سيتمثلون أنفسهم يخطون على سطح القمر! سيمثّل وجود بيئة معادية على وجه كوكب الأرض عامل جذب لا يُقاوَم، وسيسيطر وحده على خطّ النقل والسياحة هذا.

استرعت انتباهه حركة عبر الشجيرات البعيدة، ثمّ انبثقت من الظلال هيئة بشرية راحت تتقدّم، تأهّب الرّجال وأشرعوا أسلحتهم دون تردّد في وجه الرّجل الذي تجرّأ على الاقتراب، تفرّس مايك في ملامح الحكيم حنطيّ البشرة الذي خطا رافعًا كفّيه إلى أعلى معلنًا السلام، ثمّ أشار إلى المرتزقة كي يخفضوا الفوهات.

مشى عمّار الهوينى وحيدًا حتّى واجه مايك وابنته ومساعده. بعد محادثته مع آدم، انتهيا إلى أفضليّة مكوث هذا الأخير في الظلّ. لا يدرك مايك بعد أنّ آدم قد نجا، ولعلّ من الحكمة الحفاظ على عامل المفاجأة هذا، تنحنح عمّار وهو يبتسم في مداهنة. مضى وقت طويل منذ تحدّث بالإنجليزيّة إلى أيّ كان، والمفردات على لسانه صارت صدئة متعثّرة، مثل أيّ آلة مهملة لم تُستخدم منذ أمد، كما أخفى «النافيا» لغته البرتغالية عن قومه، فقد أخفى هو إتقانه للإنجليزية، لقد تبادل بضع جمل عابرة مع غرباء حلّوا على الجزيرة في أزمنة متفرّقة، لكنّه يتلعثم وهو يقف أمام الغريبين الغارقين في خوذتين عازلتين.

- إذًا، ما مطالبك للتعاون؟

بادره مايك بالسّؤال، قبل أن يعرف عمّار بما حلّ بروان، كان مستعدًا للتفاوض بشأن الكثير، إلا أنّ لقاءه بآدم غيّر موقفه تمامًا، هذا الرّجل المتوحّش لم يقتل مسخّرًا أمام عيون الجميع وحسب، بل إنّه لم يحترم المبعوثين، كما تنصّ عليه جميع المعاهدات والمواثيق المكتوبة والضمنيّة في جميع أرجاء البسيطة! لقد أطلق النار على ابنته، وهذا أمر لا يُغتفر، إلا أنّه فرد وهم جماعة، وهو أعزل وهمّ مدجّجون بالسّلاح.. من الحماقة أن يجاهر بالعداء في وضع كهذا، أمّا وقد قادته الظروف إلى هذا الموقف فعليه أن يستخلص كلّ فائدة ممكنة. ازدرد لعابه في توتّر ثم قال:

- إذا كنتَ تريد تعاونًا، فيجب أن تقدّم خدمات حقيقيّة لسكّان الجزيرة!

- خدمات؟ أيّ نوع من الخدمات؟

- تدريبًا ميدانيًّا، يؤهّلهم للتعامل مع العالم الخارجيّ.

حدجه مايك بنظرة استغراب، فشرح عمّار:

- كثيرون هنا لو منحوا فرصة اكتشاف العالم لن يتردّدوا.. لكنّ الخوف متجذّر في ثقافتهم وأساطيرهم. أعتقد أنّ قضاء فترة زمنيّة على متن سفينتك التي تشبه كثيرًا منزلًا عائمًا، سيمنحهم فرصة التأقلم في إطار مُراقَب.

لم تكن تلك الخطّة الأصليّة، إلّا أنّه شحذ ذهنه على الطّريق ليأتي بذلك المطلب الغريب الذي ربما يمكّنه من ربح بعض الوقت.

مطّ مايك شفتيه وهزّ حاجبيه ببطء، كان المقترح امتدادًا لما فكّر فيه في وقت سابق: شراء نصيب من يرغب في البيع من الـ«مادرا»، ونقل من يشاء منهم إلى خارج الجزيرة وهو لا يمانع في إضافة فترة التأهيل إلى الخطّة، أومأ ثمّ قال:

- فليكن.

ابتسم عمّار وهو يتلفّت حوله في قلق ثمّ قال:

- وأرجو ألا يكون هناك مزيد من القتل.

- السلاح موجود لحمايتنا، لقد رأيت ما كان ذلك المسخّر يهمّ بفعله، لو لم أقتله لسقط ضحايا من جانبنا، أليس كذلك؟ إذا استطعنا القيام بمهامّنا دون مقاومة، فسنحافظ على كلّ روح بشريّة.. أعدك بشرفي.

هزّ عمّار رأسه متفهّمًا، فأردف مايك على الفور:

- قبل أيّ شيء آخر.. ستمدّنا بالطريقة التي تمكّننا من تحمّل مناخ الجزيرة!

تراجع جسد عمّار غريزيّا لكنّ قدميه ثبتتا محاولًا إخفاء الاهتزاز داخله، لقد أدركوا بسرعة أنّه غريب مثلهم، إلا أنّه لا يرتدي بدلة عازلة، ويتنقّل باطمئنان متنفّسًا الهواء المحيط، هل يعلمون بشأن حبوب الدّواء التي تصنعها المعالجات من دماء المسخّرين؟ لقد استمرّ يحصل على مخزونه الشخصيّ من الحبوب منذ خمسة وعشرين عامًا، مثل ترياق نجاة يوميّ لا يجوز له نسيانه أو الغفلة عنه. قال مداريًا ضيقه:

- هناك دواء خاصّ، تصنعه المعالجات..

- كيف يمكننا الوصول إليه؟

- لا أحصل إلا على حبّة واحدة كلّ يوم!

- أليس هناك مخزون منها في مكان ما؟ لا أعتقد أنّ المعالجات يصنعن حبّة واحدة كلّ يوم!

ابتسم عمّار في حرج، حاول ألا يظهر على ملامحه تردّده في التّعاون:

- لا يأتي إلى الجزيرة غرباء كثر.. لا أظنّ أن تتوافر كميّة تكفي عددكم كلّه على كلّ حال!

ضيّق مايك عينيه متفكّرًا، ثم أومأ وهو يقول:

- لا بأس، سنتدبّر أمرنا.

ازدرد عمّار لعابه مبتلعًا توتّره، إنّ كلّ ما يعتمد عليه الحكماء هو أن ينفد الهواء في خوذات المهاجمين، فيضطرّون إلى الانسحاب من تلقاء أنفسهم، لكنّ حصولهم على الدّواء سيمكّنهم من البقاء وسيُعرّض حياة الجميع للخطر.. لم يكن من الوارد أن يخبرهم بكيفيّة الحصول على الدّواء، لكنّ تحفظه سيثير الشّبهات بشأن الصّفقة المزعومة، سارع يقول:

- ستمنحني بعض الوقت، أليس كذلك؟ أحتاج إلى أن أتحدّث إلى أهل الجزيرة في ما يخصّ اتّفاقنا.

رمقه مايك بنظرة طويلة، إنّه لا يثق به بعد لكنّه قد يختصر مراحل كثيرة، ويكفيه عناءً جمّا، سيحقق التّعاون نفعًا متبادلًا لكنه لا يأمن الخديعة، مع ذلك هزّ رأسه وهو يجاريه:

- سأمنحك مهلة إلى الغد.

بعد أن انصرف عمّار بلحظات طويلة لبث مايك يحدّق في المسار المتعرّج عبر الغابة الذي سلكه الرّجل وحاجباه يتعانقان في عبوس. اقتربت مانويلا، وسألت في اهتمام:

- هل تفكّر بشيء ما؟

- لقد رأيت السّكان، جميعهم بيض البشرة جدّا، إنّهم يشتركون في سمات الشكل نفسها.. باستثناء هذا الحكيم، والمعالجة التي جاءت للاستطلاع فإنّهما يشتركان في البشرة المتوسّطية الحنطية، أستطيع أن أخمّن أنّها ابنته، نظرًا إلى سنّها اليافعة، لكنّه لم يتصرّف مثل أب منذ حين.

- ماذا تقصد؟

- إنّه لم يسأل إطلاقًا عن مصير ابنته!

- هل كنت لتخبره بأنّها لقيت مصرعها في المحيط؟

- كنت أتوخّى الحذر وأستعدّ لتلفيق كذبة ما.. مقتل ابنته لن يساعد على التّفاوض إطلاقًا، لكنّه لم يسأل بتاتًا، لم يجعل إطلاق سراحها جزءًا من الصّفقة، ألا يُشعرك هذا بالحيرة؟

تبادلا نظرة طويلة، إمّا أن يكون الارتباك قد فعل أفاعيله بالرّجل فأنساه أمر ابنته وإمّا.. أنّه يخفي سرّا مجهولًا. قالت مانويلا في تفكّر:

- من الأرجح أن نجد الدواء حيث تكون المعالجات، هل تعتقد أنّ لديهن منشأة تشبه المشفَى؟

تدخّل نايت بصوت حازم:

- حين كنّا في مركز القرية، لاحظت الأبنية التي تختلف في شكلها عن البيوت المنفردة.. أعتقد أن المشفى -إن كان له وجود- سيكون في تلك المنطقة المركزية، حيث المباني المرتفعة.. سأقود فرقة بحث وأعود بمخزون الدّواء.

أومأ مايك مؤيّدًا، فانطلق المغامر الشابّ بخطوات عسكريّة ليجمع رجاله. توقّف بعد أن قطع بضع خطوات ثمّ استدار وقال متمهّلًا:

- هل.. من تعليمات خاصّة؟

رفع مايك حاجبيه متسائلًا، فأردف نايت:

- في حال لقينا.. مقاومة ما؟

لم يكن مقتل المسخّر ذلك الصّباح مُخطَّطًا له، ولم يكن استعراض الأسلحة إلا جزءًا من الترهيب النّفسي، لكن وهم على أعتاب إبرام صفقة مع الحكيم لم يكن من الحكمة إثارة مزيد من الغضب الشعبي.

- المرونة! حاول أن تكون مرنًا ما أمكنك ذلك!

كست ملامح نايت نظرة متسائلة فأضاف مايك شارحًا:

- لقد مات المسخّر هذا الصّباح عبثًا، لقد أردتُ أن ألقّنهم درسًا وأوضِّح موازين القوى إلا أنّنا لا نريد خسارة مزيد من المسخّرين، نحن بحاجة إليهم من أجل نجاح العمليّة، من دون المسخّرين لن تكون هناك طاقة مهما تراكمت الـ«مادرا»، لذلك أفضّل أن نسيطر عليهم متى كان ذلك ممكنًا، أمّا القتل فعند الضرورة القصوى.. هل فهمت؟

أومأ نايت متفهّمًا، ثمّ مضى لشأنه.

***

تنفّس عمّار بعمق وهو يخطو مبتعدًا في اتّجاه الدّغل القريب. تلفّت ليلحظ رجال مايك الذين يتابعونه بنظراتهم حتّى غاب تمامًا داخل الغابة الكثيفة الدّاكنة، حين لفّه السّكون، برز آدم من وراء أحد الجذوع السّميكة، سارا متجاورين يتهامسان في حذر:

- هل توصّلت إلى اتّفاق؟

- حصلت على هدنة حتّى صباح الغد.

تنهّد آدم. الهدنة أمر جيّد، لكنّه لا يعرف بعد ما يمكنهم عمله في ليلة واحدة!

- خذني إلى روان.

أومأ آدم، ثمّ تابعا المسير عبر التّلال الجيريّة. حين بلغا موقع الصّخرة أشار آدم إلى الأعلى، كان يتساءل بداخله في فضول إن كان الحكيم الأجنبيّ قادرًا على تجاوز حاجز الصخرة. يتعلّم الأطفال تلك المهارة في سنّ مبكّرة، لكنّ عمّار الذي جاء إلى الجزيرة شابًا ربّما لم يخضع لهذا النّوع من التّدريب.

تأمّله آدم وهو يسحب نفسًا عميقًا، ثمّ يهمهم:

- لم أقم بهذا العمل الشاقّ منذ زمن بعيد! أرجو أن تسمح لياقتي بإنجاز المهمّة.

وقف الرّجل الكهل إزاء الصّخرة وأخذ يتحسّس سطحها بحثًا عن النّتوءات البارزة التي تدعم أطرافه في أثناء رحلة التسلّق، ثمّ ثنى ركبته وأخذ ينساب برشاقة صعودًا. فغر آدم فاه في دهشة. *حتّى أنت يا عمّار!* منذ نحو السّاعة، تأمّل مارتا المسنّة وهي تتحرّك مثل قرد، والآن يفعل

عمّار المثل، لقد حسب أنّ تدريباته على استشعار الطاقة داخله مكّنته من ترويض الصّخرة، لكنّ معجزته الشخصيّة ليست إلا روتينًا بسيطًا في حياة سكّان الجزيرة قاطبة، من أصغرهم سنًا إلى أشدّهم شيخوخة!

توقّف آدم عن رثاء نفسه وتحرّك إثر عمّار الذي يكاد يبلغ قمّة الصخرة وما إن وطئا السّفح الرّملي حتّى استقبلتهما المعالجتان في لهفة. بدت روان في حال أفضل بعد أن استخرجت مارتا الرّصاصة من كتفها وداوت جراحها الخارجيّة والدّاخليّة. هرولت لتعانق والدها في حرارة واستكانت بين ذراعيه للحظات، ثمّ سألت في قلق:

- ما الذي حدث؟

طأطأ عمّار رأسه حزنًا مرّة أخرى وهو يعلن مصاب الجزيرة وأهلها قاطبة:

- مات ماتياس.

شهقت المعالجتان ملتاعتين. لقد كان ماتياس مسخّرًا محترفًا ومتمكّنًا. حسبت روان أنّها عاجزة عن التصدّي لأسلحة المهاجمين، لأنّها لا تمتلك الموهبة الصّحيحة، لكنّ المسخّرين شأن آخر، إنّهم فخر هذا الشعب وسلاحه الفتّاك. لقد فكّرت باعتداد منذ حين: *لو كان الغرباء يملكون تلك الآلات العجيبة التي تقذف الأجسام الصلبة، فإنّ المسخّرين يستطيعون بأيديهم المجرّدة تطويع طاقة الموجودات، وهزّ الماء والهواء وإطلاق النّور واستجلاب عواصف الغبار!* لكنّ ماتياس قد مات!

تمتمت في حيرة:

- كيف؟

ردّ عمّار في وجوم:

- لقد تعمّدوا استهداف المسخّر ليلقّنوا أهل الجزيرة درسًا، إنّهم يستعرضون قوّتهم.. يريدون إثبات تفوّقهم، حتّى المسخّرون لا يمكنهم التصدّي لرصاصة في الرّأس، وحتّى المعالجة لا يمكنها إعادة الحياة إلى رجل تلقّى رصاصة في منتصف جبينه!

تأمّلت روان بين كفّيها مقذوف الرّصاصة التي استخرجتها مارتا من ذراعها. كانت محظوظة. رغم نزفها ووهنها فإنّ الرّصاصة لم تصب أيّا من أعضائها الحيويّة. قبضت أصابعها النحيلة عليها بقوّة وتجمّعت العَبَرات في عينيها وارتجفت شفتاها.

حين عاد أوران منذ أيّام برسالة الغرباء، اختلف الحكماء وتخاصموا. لم يبد وجود السّفينة الرّاسية في الأفق البعيد على حدودهم داعيًا للطمأنينة، ولم يرغب تافي في استقبالهم على الإطلاق. استمرّ النّقاش لوقت طويل، ولم يصل المجلس إلى اتّفاق قَط. ضاق عمّار ذرعًا بخلافاتهم وتعنّتهم فيما لم يقدّر أحدهم قلقه على ابنته التي بقيت على متن السّفينة. كانوا آمنين على أرضهم في حين مثَّل مجيء الغرباء مصدر خطر يحوم فوق الرؤوس.

لم يستطع عمّار أن يجزم إن كان حضور آدم برفقتها مصدر قلق أم ارتياح، حتّى وقت قريب لم يعرف إن كان الشابّ جديرًا بالثقة، وقد توقّع بتشاؤم كبير ميله للرّحيل مع سفينة الغرباء، لكنّه ممتنّ الآن، وقد أثبت آدم معدنه الطّيب، بإنقاذه ابنته من موت محقّق.

قال عمّار في وجوم:

- لدينا مهلة حتّى صباح الغد.

- من أجل ماذا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إقناع أهل الجزيرة بمقايضة نصيبهم من الـ«مادرا» بتذكرة على سفينة تأخذهم إلى العالم الخارجيّ...

استدارت روان إلى آدم في حركة حادّة، لم تواجهه منذ حديثهما المتوتّر ذلك الفجر، منذ ساعات طويلة بدت دهرًا، كان ذلك اقتراحه، ألم يكن؟ انتبهت في تلك اللّحظة إلى الحال المزرية التي يبدو عليها، حدّثتها مارتا منذ حين عمّا فعله من أجلها.. لقد أنقذ حياتها وهي لم تشكره بعد، لكنّ الكلمات التي تحتشد على طرف لسانها حادّة ولاذعة، وقبل أن تنطق بأيّ منها سمعت والدها يردف:

- لقد جازفتُ بتقديم هذا المقترح للتّفاوض، في محاولة بائسة لربح الوقت. لا أدري ما الذي يمكننا عمله قبل الصّباح.. لكنّنا نملك فرصة للتفكير والتّدبير.

منذ ساعة واحدة، كان ينوي عقد صفقة مع الربّان، والحصول لفرقة مستطلعيه على مقاعد على متن النّاقلة البحريّة، لكن بدا أنّ موعد تفعيل خطّة النّزوح لم يأت بعد، ربّما عليه التأجيل في انتظار سفينة أخرى، في مستقبل مجهول. في الوقت الحاليّ، تواجه الجزيرة فريقًا من الغرباء المسلّحين لا يُبطنون نوايا حسنة.

زفرت روان هواء رئتيها المتعبتين، وخفضت نظرات الاتّهام. كانت على وشك ارتكاب خطأ فادح، يجدر بها أن تمنحه بعض الثقة بعد كلّ ما جازف به من أجلها، قالت بلهجة آمرة:

- اتبعني!

حدّق آدم في ارتباك ثمّ أدرك أنّها تخاطبه، ابتعدت خطوات روان حتّى صارت عند مدخل الكهف، كانت مارتا قد جهّزت مرقدًا من الأغصان

وورق الشجر لرعاية مريضتها منذ حين، أشارت روان إليه، فتمدّد آدم في استسلام على مفرش الورق وهو يهمهم:

- أنا بخير، ليست بي إصابة جسديّة..

تجاهلت اعتراضه وهي تمرّر كفّها بلطف على رأسه، جبينه، عينيه، ثمّ تنزلق لتربّت صدره وذراعيه بلمسات حانية، وسرعان ما استرخى وأسبل جفنيه، بعد لحظات كان يشعر بتحسّن ملحوظ، صار إرهاق السّاعات الماضية نسيًا منسيًا. كان محظوظًا لحصوله على تلك الرّعاية. حين استقام جالسًا كان قد استعاد نشاطه.

جاءه صوت روان هامسًا:

- يجب أن أشكرك.. لقد أنقذت حياتي.

هزّ كتفيه، وهو يبتسم في حرج:

- لقد فعلتُ ما كان عليّ فعله.

أومأت ببطء.. ربّما.. ربّما لم يكن شخصًا سيئًا أو ميؤوسًا منه في نهاية الأمر. عادت إليها صور الرؤيا التي راودتها صباحًا، هل يكون مصير شعبها معلّقًا به بالفعل؟ إنّها تؤمن بالرؤيا وهو -رغم تذبذبه- قد فعل الصّواب في نهاية المطاف.. إلّا أنّه لم يتقبّل بعد مهمّة المخلّص المنوطة به، لا يهمّ الآن إن كان مخلّصًا حقيقة، وإن كانت العلامات تشير إليه بوضوح، وإنما المهم حاليًا هو ما ينوي عمله.

عادت لتتفرّس في ملامحه وتعيد على مسامعه سؤالها القديم:

- آدم، هل يمكنني أن أثق بك؟

توقّف آدم عن التنفّس فيما يستجمع شتات نفسه أمام مقلتيها السّابرتين ثمّ أومأ إيجابًا بحركة واثقة وراسخة وهو يبادلها نظرة طويلة ثابتة.

لن يخذلها هذه المرّة.

***

شقّت فرقة المرتزقة طريقها عبر طرقات القرية بخطوات عسكريّة صارمة، لم يشاهدوا أحدًا من السّكان في طريقهم، كانت القرية هادئة كأنّ سكّانها غارقون في سبات عميق. تلفّت نايت في اهتمام متفرّسًا بعيني قنّاص، هل يراقبونهم خلسة من وراء الأبواب المواربة ومن خلال الشقوق؟

منذ الصّباح ينهش صدره قلق لا يدري مصدره. كلّما سحب نفسًا من هواء خوذته، يراوده إحساس بالاختناق، غير أنّه مجرّد اضطراب نفسيّ لا غير. لقد اطمأنّ إلى مخزون الهواء بضع مرّات، وإلى مستوى الضغط داخل الخوذة مرّات أخرى. مثل غوّاص قد ابتعد عن غوّاصته وتوغّل في أعماق سحيقة، أو رائد فضاء قد خلّف المركبة وراءه وحلّق في العدم اللا متناهي، يشعر بالخطر مُحدِقًا به على قيد أنملة.

يحاول أن يخفي ارتباكه عن رجاله المتأففين من البدلات غير المريحة، قريبًا سيتنفّسون الهواء المحيط باطمئنان. يذكر الآن متى نشأ ذلك الإحساس الخانق بالقلق، كان ذلك حين أطلق مايك النّار على المسخّر الكهل، إنّه يحمل سلاحًا، يفعل ذلك منذ عقد ونصف، مذ كان عريفًا في قوات السلاح الأمريكيّة. لقد تعلّم إطلاق النّار بآلية، مثل آلة قتل غريزية، وتلك نتيجة الحروب التي يخوضها المرء باستمرار إزاء أعداء يهدّدون سلامته الشخصية أو يعطّلون سير مهمّته. لقد قَتَل كثيرين في الماضي، لكنّه كان يملك دافعًا في كلّ مرّة، وكان ضميره ساكنًا راضيًا.

لقد حارب في أفغانستان والعراق، في مهمّات رسميّة وطنيّة ضدّ عصابات مسلّحة. كان تلك دعوى قيادة بلده، وهو لم يُسائلها قطّ كجنديّ عليه السّمع والطاعة، ثمّ انتقل إلى العمل لحسابه الخاصّ بعد تسريحه من الجيش، فقضّى السّنوات الماضية على متن السّفن التّجاريّة غالبًا، يحرسها من هجمات القراصنة، وهنا أيضًا لجأ إلى القتل في مناسبات عدّة. كان يطلق النّار دون تفكير حين تلوح بوادر العدوان في الأفق، ثمّ تعلّم أن يعقد الاتّفاقيات ويوثّق الصّداقات، يدفع إتاوة للمرور السّالم ويكفي نفسه مؤنة إزهاق الأرواح ويحافظ على سلامة رجاله.. صفقة رابحة للجانبين.

غير أنّه لا يشعر بالرّاحة منذ وطئت قدماه الجزيرة.

لقد حسب في البداية، أنّها ستكون مهمّة حراسة أخرى. إنّه يتعامل مع مايك راسل منذ عقد تقريبًا، وهو تاجر ورجل أعمال مستقيم غالبًا، ويدفع بسخاء. لم يكن يتساءل عن محتويات الصناديق التي يؤمّن نقلها من ميناء إلى آخر، إلا أنّ الإنزال على سطح جزيرة منعزلة سكّانها آمنون لا يشكّلون خطرًا، لم يكن ضمن المهام التي اعتاد النهوض بها، إنّه يشعر بالاستياء لأنّ مايك قد زجّ به ورجاله في مأزق أخلاقيّ.

ذلك السّلاح الذي يعلّقه على كتفه، لم يكن يطلق رصاصات كثيرة في السّنة الواحدة، ولعلّه لم يفعل منذ وقت طويل، باستثناء فترات التّدريب. لم يكن القتل هواية لديه مثل آخرين عرفهم في مجال عمله، والعالم قد غدا آمنًا غالبًا، غير أنّه تعوّد التكتّم واحترام خصوصيّات العميل، ومايك راسل أطلق الرّصاص بنفسه على الرّجل الذي أراد مواجهته، إلى ذلك الحدّ، لا يزال يعتقد أنّه لم يخرق ميثاقه الشخصيّ.

حين أشرف على ساحة القرية، وصلته أصوات اللّغط من بعيد، تلفّت في تحفّز واتّخذ وضع الاستعداد. بدا أنّ حشدًا يجتمع في مكان قريب،

وهتافاتهم المكتومة تصله مثل طنين النحل. حين رفع بصره، لاحت له جموع المشيّعين الذين يرافقون تابوت القتيل إلى مثواه الأخير. كانوا يدبّون في الطريق الذي يتسلّق الربوة نحو المقابر. تنفّس حينئذٍ بارتياح وقد أدرك سبب خلّو القرية من سكّانها.

كان التخطيط المعماريّ للقرية بسيطًا وسهل القراءة، عند السّاحة التي اجتازها منذ ساعتين تتموضع المباني الأساسية في الحياة القرويّة: دار العبادة، المدرسة، المخزن والمشفى. تفي تلك المنشآت باحتياجات الحياة البسيطة التي تعيشها المجتمعات البدائيّة. كان من اليسير أن يميّز مبنى المشفى بينها. أقيم اجتماعهم السّابق بالحكماء في دار العبادة، حيث تتصدّر الرّموز العقديّة الجدران، وهي الأكبر مساحة بين نظائرها من المباني العامّة، لتسمح بتجمّعات غفيرة، أمّا المخزن فهو مجرّد فضاء مفتوح تتكدّس داخله أكياس المؤونة وتفوح منه رائحة السّمك المجفّف، على الجهة المقابلة، ميّز مبنى المدرسة، وهو شبيه بالمدارس التقليدية التي تتكوّن من قاعات درس تفتح على ساحة لعب. لذلك، كان نايت واثقًا من وجهته وهو يشير إلى رجاله نحو المبنى الرّابع.

تجاوز العتبة بخطوات سريعة. سوف ينتهي من هذا قريبًا.

ما إن خطا داخل الغرفة، حتّى ارتفع صراخ الفتيات المجتمعات في هلع، كنّ شابّات في مقتبل العمر، لا تتجاوز كبراهنّ العشرين من عمرها، يرتدين عباءات فضفاضة بيضاء وتنسدل الخصلات الشقراء المجدولة على ظهورهنّ. لا يدرك سبب تخلّفهنّ عن جموع المشيّعين. يجهل طبيعة التقاليد المجتمعيّة التي ربّما تمنع الفتيات العزباوات من تتبّع الجنائز. راقبهنّ وهنّ يتراجعن في فزع حتّى التصقن بالحائط، وبعضهنّ يحتضن بعضًا، بدين مثل حمامات سلام فاتنات أثار رعبهنّ اقتحام الثعلب عشّهنّ.

لوّح نايت بكفّه يحاول دفع تهمّة «الثعلب» عن نفسه، ثمّ قال بهدوء:

- لا تخفن، لن أوذيكنّ..

إلا أنّهنّ لم يفهمن كلمة من عبارته الإنجليزية، فرفع سلاحه عن كتفه ووضعه على المنضدة القريبة، يروم طمأنتهنّ، وأشار إلى رجاله حتّى يبقوا في الخارج، ثمّ تحرّك في أرجاء المبنى بحثًا عن دواء يجهل شكله. فتح بابًا مغلقًا، ليجد نفسه أمام رفوف عريضة تستقرّ عليها صناديق من الخيزران، بدت كمخزن للأدوية. تنقّل بينها يتأمّل محتوياتها باهتمام. في الخارج، كان نحيب الفتيات المكتوم يضغط على أعصابه، كانت هناك أنواع من الأعشاب والعقاقير التي لم يميّزها، لم يكن من المُجدي أن يبحث بلا دليل أو تلميح، فكّر في العودة إلى الفتيات، ربّما يحصل منهنّ على بعض المساعدة، حين سمع خطوات ثقيلة تقترب، وظهر رجله أدولف عند الباب قائلًا يستعجله:

- هل عثرت على شيء؟

حين لم يبدر عن نايت ردّ فعل، تراجع أدولف إلى الغرفة الرئيسية، سمع نايت صرخات الشابات الفزعة، وصوت نزع صمام الأمان عن المسدّس، فهتف بصوت غاضب:

- ما الذي تفعله؟

قال أدولف بنبرة ساخرة:

- أنجز العمل!

- لقد اتّفقنا على عدم استخدام السلاح إلا في الحالات القصوى.

- لا تقلق، لن يموت أحد.. إلا في الحالات القصوى!

دفع واحدة من المتدرّبات، ذات عينين زرقاوين فزعتين إلى الغرفة الدّاخليّة، وأشار إلى رفوف الأدوية بغلظة وقد ألصق فوهة المسدّس بصدغها:

- أنت تعرفين ما الذي نبحث عنه، أليس كذلك؟ لا داعي للمماطلة!

لبثت الفتاة ترتجف، لكن لم يبدر عنها أيّ تجاوب فأمسك بشعرها بجماع يده وشدّه بقوّة ثمّ دفعها باتّجاه الرّفوف لترتطم بها بعنف قبل أن تنزلق على الأرض وهي تنزف من جرح برأسها. رفع أدولف واحدًا من أوعية الأعشاب وصرخ:

- هل هذا هو؟

لم تفترّ شفتاها عن كلمة أو إشارة، فدلق محتوى الوعاء على الأرض وأخذ يرفسه بقدميه، ثمّ تناول وعاءً آخر وآخر.. استمرّ يهرق العقاقير ويفسدها فيما ارتفعت أصوات البكاء في الخارج مثل جوقة مشروخة النبرة. قال نايت بحدّة:

- ماذا لو أفسدت الدّواء الذي نريده؟

قال أدولف بثقة:

- سوف تخبريننا بما نحتاج إليه، أليس كذلك أيّتها الصّغيرة؟

كان يراقب باهتمام ردود فعلها واختلاجات عينيها، حين يقترب من الدّواء المنشود، سوف يرى العلامة واضحة في مقلتيها. بالنّسبة إلى سجّان ومحقّق سابق، كانت قراءة ملامح الوجه تسلية بسيطة بالنّسبة إلى أدولف، وتلك الفتاة السّاذجة البريئة لا تحيط بفنون التورية كما يفعل الجواسيس المحنّكون، يعتمد على خبرته للضغط على أعصابها حتّى الانهيار. راقبه نايت دون اعتراض، مترقّبًا النّتائج، حين أمسك أدولف بسلّة الخيزران، لمح الرّعشة الخفية لشفتيها، وهي تزمّها للسّيطرة على بكائها.

تبادل الرّجلان نظرة متواطئة، ثمّ اقترب نايت ليعاين الوعاء عن كثب. كان الصّندوق البيضاويّ مثل سلّة مغلّفة من الدّاخل بطبقة من القطن النّاعم المنسوج، تقبع في جوفها حبّات سوداء كروية جافّة، وتغطّى الحبوب بطبقة أخرى من القطن لحفظها. مقارنة بالأعشاب المجفّفة والعقاقير الأخرى، كانت طريقة حفظها توحي بقيمتها البالغة.

احتضن نايت السلّة في رضا، ثمّ غادر الغرفة على الفور. لم يحص حبّات الدّواء داخلها، لكنّها في اعتقاده بضع مئات على الأقلّ. ستكون كافية للرّجال جميعهم لبضعة أيّام. انحنى ليساعد الفتاة الفزعة على الوقوف، وتمتم معتذرًا:

- نحن بحاجة إلى هذه الآن.. لن يكون هناك مزيد من الذعر!

تبعه أدولف منتفخ الأوداج، وقد أثبتت طريقته نجاعتها، لتنكمش الفتيات ملتصقات بالجدران وهما يمرّان في اتّجاه المخرج.

وهو ينضمّ إلى باقي الرّجال الذين انتظروه في الفناء، تساءل نايت في ريبة عن مدى صدق وعده الذي ألقاه على آذان لم تفقه منه حرفًا، ربّما يكون وقت الذعر قد حان، المزيد منه بنسق تصاعديّ.

***

استقبل مايك ورجاله فرقة الاستطلاع التي رجعت بسلّة الدّواء المرجوّة، بالهتافات والتّصفيق. حدّقت مانويلا بحبّات الدّواء في شكّ ثم سألت:

- هل أنت واثق أنّ هذا هو الدّواء المطلوب؟

تقدّم أدولف بثقة، ونزع خوذته الزّجاجية وهو يقول:

- ربّما علينا أن نجرّبها لنتأكّد!

ضغط الحبّة بين أسنانه ثمّ ابتلع عصارتها الحامضة، فتدافع الآخرون من حوله. أخذ المرتزقة ينزعون عنهم الخوذ الثقيلة والبدل الواقية المزعجة، ويتناولون حبّات الدّواء اللّزجة في لهفة.

ابتلعت مانويلا حبّة الدّواء بدورها متوجّسة، ثمّ أخذت توزّعها على الآخرين. حين أنهت جولتها، عادت لتقف إلى جوار والدها. استنشق مايك الهواء بقوّة وانتفخ صدره في اعتداد. كان من المريح أن يتمكّن من السّير بحريّة أخيرًا، بعد ساعات من التعرّق والتحرّك العسير. استمرّت كميّة الأكسجين المتبقيّة في عبوته تتناقص تناقصًا حرجًا، من دون الدّواء، كان عليهم التّعجيل بالعودة إلى السّفينة.

سألت مانويلا وهي تلقي نظرة على الحبّات التي تستقرّ في بطن السّلة:

- هل تعرف الجرعات المناسبة؟

هرش مايك مؤخّرة رأسه متفكّرًا، ثمّ قال بهدوء:

- المهمّ أنّنا حصلنا عليها. أظنّ أنّ حبّة واحدة ستكون كافية بالنّسبة إلى اليوم. إذا لاحظنا أعراضًا ما، فسنضاعف الجرعة، ثمّ، حين يأتي الحكيم صباح الغد، سوف نحصل على معلومات أكثر دقّة.

أومأت مانويلا في صمت، ثمّ قالت ثانية:

- هل أنت واثق بأنّه سوف يأتي؟

التفت إليها ليواجه نظرة القلق في عينيها، ثمّ قال مبتسمًا:

- من الوارد أن تكون مجرّد محاولة لربح الوقت. لكنني أريد أن أعرف، ما الذي قد يجرؤ هؤلاء القوم على عمله هذه الليلة. لا تنسي أنّ رجالنا عسكريّون مدرّبون ورجال عصابات متمرّسو. سيواصلون الحراسة طوال الليل، بالتّناوب، ولنر إن كان الدّرس الذي لقّناهم إياه

صباحًا كافيًا.. أم أنّهم يتوقون إلى مذبحة حقيقيّة، قبل أن يدركوا حجم قوّتهم الحقيقيّ!

بادلته مانويلا ابتسامة واهنة. ما من أجل هذا قد أتت!

إنّها تدرك بداخلها أنّ الأحداث الأخيرة قد حادت عن المسار المتوقّع للرحلة، لكنّها لم تجرؤ على جدال والدها، إنّه يعرف كيف يدبّر أموره ويسيّر أعماله، وهي لا تتدخّل بها أبدًا.

تحوّلت لتجلس على الشاطئ، تراقب الماء الفضيّ الذي يتموّج برفق حتّى الأفق المحجوب بستار الضباب وتساءلت مرّة أخرى عن مصير آدم.. كان من المحزن أن ينجو من تحطّم المروحيّة ويرجع سالمًا إلى السفينة، فقط ليلقى حتفه غرقًا. زفرت في إعياء، تكره أن تعتقد أنّها كانت طرفًا -من قريب أو بعيد- في ما حدث له!

***

ارتفعت الأصوات داخل دار العبادة، بعد أن توافد السّكان للاجتماع من جديد. كان خبر اقتحام الغرباء للمشفى واستيلائهم على مخزون الدّواء قد شاع وانتشر. عاد المشيّعون من المقابر ليستقبلهم صراخ الفتيات اللاتي أصابهنّ الرّعب بعد تعاطيهنّ المباشر مع الرّجال أصحاب الخوذات الزّجاجيّة.

أصيب الحكماء بالارتباك، واستبدّ السّخط بالمسخّرين الذين فقدوا صاحبًا لهم ذلك الصّباح. كان عليهم عمل شيء ما، إلّا أنّهم لا يتّفقون. فشل كوتانا تافي في السّيطرة على الجموع وإحلال الهدوء داخل المبنى. لأوّل مرّة، يجد نفسه عاجزًا عن طمأنة قومه وبثّ السّكينة في نفوسهم!

طوال عقود، حرص بنفسه على استمرار تعاليم «النافيا»، إلّا أنّ ما خشيه سليمان ابن إبراهيم -جدّه الأوّل- منذ قرون، قد غدا تهديدًا داهمًا على العتبات. كان المعلّم ذا بصيرة، وقد أحاط بحقيقة هؤلاء الغرباء المعتدين. إنّهم لا يختلفون البتّة عمّا كانوا عليه في زمن «النافيا»؛ غوغاء، شياطين، دمويّون، وها هم رغم التّحصينات والاحترازات التي توارثها نسل المعلّم منذ القدم، قد وجدوا سبيلًا إلى أرضهم!

إنّه يعرف ما يفعله الغرباء إذا كثر عددهم واستتبّ لهم الأمر. لقد حكى «النّافيا» في صحفه السّريّة عمّا يرتكبونه من مجازر، وما يحملهم عليه الطّمع، ليس أنّه قد تمكّن من فكّ شيفرة رموزها الغريبة بنفسه، إلّا أنّها الحكايات التي يتوارثها أهل بيت «النافيا»، يتناقلونها جيلًا بعد جيل، ويتواصون بحفظ العهد، وها هو يقف عاجزًا وقد بلغوا حدوده الدّاخليّة واستباحوا أرضه واعتدوا على قومه. إنّه لا يعرف ما يجب عمله بعد الآن. لقد فعل كلّ ما يلزم حتّى لا يبلغ هذه اللّحظة، لكنّهم هنا رغم كلّ احتياطاته. وهو لا يدرك بعد أين مكمن الخلل.

بلى، بلى.. إنّه يدرك. لقد أفلت رجل واحد من قبضته، مرّتين! إنّ أشرف الصّافي محظوظ بقدر لا يصدّق حتّى ينجو منذ ربع قرن، ثمّ يعود، لينجو ثانية! في المناسبة الأولى، استفاد من عامل المفاجأة، فغادر خلسة على حين غفلة من عيون الحرس، أمّا في المناسبة الثانية، فقد حظي ببعض المساعدة. بندار نوح واحد من رجال عمّار المخلصين، ولم يملك أن يعاقبه دون أن يثير الانتباه أو يصنع بلبلة. وقد كانت الجزيرة تعيش ما يكفي من الاضطرابات في الفترة الأخيرة، لذلك، ترك أمره إلى حين.

إلا أنّ تزامن ظهور المخلّص مع وصول الغرباء المعتدين يغمره بالقلق. هل أنّ القدر كان لطيفًا بهم، إذ بعث فيهم المخلّص في الوقت المناسب؟ أم أنّ الأمر كله لا يعدو أن يكون مؤامرة كبيرة وقع السكّان جميعهم فريسة لها بسبب الغرباء كلّهم: عمّار وأشرف وآدم المخلّص المزعوم؟ وإلا، فكيف عرف الغرباء الطريق، وحفظوا أنفسهم من مناخ الجزيرة العدوانيّ، وأدركوا حاجتهم إلى الدّواء؟ ثمّ، أين اختفى المخلّص؟

لم يكن قد حسم أمره بشأن كلّ الأسئلة التي تدور في رأسه مثل طاحونة هواء بلا غاية، حين تعالت هتافات قادمة من السّاحة الخارجيّة وامتدّ صداها إلى داخل دار العبادة.

- المخلّص، لقد عاد المخلّص!

سرت موجة من الارتياح عبر الحشد، مع ظهور المخلّص في الأفق. تهافت النّاس لتحيّته ولمس طرف ثوبه في تقديس وخشوع، ثمّ أفسحوا له المجال ليخطو داخل المبنى. راقب كوتانا تافي في دهشة الوفد الصغير الذي شقّ الجمع حتّى صار قبالة مجلس الحكماء. ظهر أربعة أفراد إزاءهم: المخلّص، كوتانا عمّار، والمعالجتان مارتا وروان. لوهلة، أصاب الحكماء مزيج من الغضب والضّيق. لم يلمح أحدهم المعالجة مارتا خارج حدود منزلها منذ ربع قرن، منذ حكم أعضاء المجلس -آنذاك- بإقامتها الجبريّة.

حين لحظ آدم سحناتهم المتقلّبة، قال بهدوء:

- استدعى الوضع حضور المعالجة مارتا.. لذلك وهبتها الإذن بمغادرة بيتها.

سرت همهمة ملتبسة بين الرّجال البيض فارعي القامة، ثمّ أعلن كوتانا توماس باحترام:

- إنّ الوضع يستدعي مشاركة كلّ فرد في حلّ الأزمة.. وطالما يرى المخلّص أنّ الماغداخا ستكون ذات فائدة، فلا بأس بذلك.

بدرت عن آدم هزة رأس خفيفة. كان قد استعاد عافيته بفضل لمسات المعالجة الشافية، لذلك أشرق وجهه إشراقًا غير مألوف، رغم الحال المزرية لثوبه المهلهل الذي تحمّل رحلة شاقّة عبر البحر والبرّ، مع ذلك فقد أكسبه شكله غير المتجانس هالة غريبة، مثل حامل رسالة ينوء جسده بحملها، غير أنّ ملامحه النّوارنيّة تنطق بالسكينة، وتلك طبقة أخرى من الادّعاء تؤثّث صبغة وجوده ومكانته الحديثة في وجدان سكّان الجزيرة.

تهافت الحكماء وتجمّعوا حوله، وقد تحوّل جزعهم إلى لهفة:

- أيّها المخلّص، ما العمل الآن؟

- إنّهم هنا، في كلّ مكان.. لا يسعنا طردهم أو مواجهتهم.

- ماذا نفعل وقد حصلوا على حبوب الدّواء؟

كان على آدم أن يتّشح بعباءة المخلّص رمز القدسيّة التي عاهد نفسه منذ أيّام أن ينزعها إلى الأبد إلّا أنّ الوضع لا يحتمل تردّدًا أو شكّا. حدج عدّوه الدّاخليّ -كوتانا تافي- بنظرة جانبيّة، ثمّ تنحنح ليقول بلهجة حازمة:

- يجب أن نضع خطّة.. استمعوا إليّ جيدًا.

(2)

اليوم الثاني بعد الثلاثين

تحرّك فريق المسخّرين في عتمة الليل تحت ستار الظلام. الغابة مألوفة لديهم، وكلّ جزء منها ينتمي إليهم. بوسع الواحد منهم التسلّل مثل ظلّ ينساب بين الأشجار والحشائش، فلا يكاد يُرى أو يُسمع له حفيف.

إلّا أنّ آدم لم يكن بالبراعة نفسها، حاول ألّا يصدر صوتًا أو يكسر غصنًا، إلّا أنّه استمر يرتكب الهفوات التي من شأنها أن تحبط العمليّة كلّها. يجدر به كمخلّص أن يقود الفريق، إلّا أنّه تأخّر مضطرًا، حتّى لا يكشف حضورهم في الأنحاء.

كانت الخطّة بسيطة ومباشرة: هجوم مباغت وهادر يأخذ العدوّ على حين غرّة ويستعرض قدرات المسخّرين بأكبر قدر من العظمة والعزّة. إن كان مايك يعتقد أنّ أسلحته ستفتّ من عضد أصحاب القدرات الخارقة، فعليه أن يشهد بعينيه ما هم قادرون على صنعه أوّلًا!

لعلّ المجلس ارتبك بداية وفقد المسخّرون البوصلة، أصابتهم الرّيبة بشأن قدراتهم وهم يبصرون صاحبهم ماتياس يسقط صريعًا في لمح البصر، وكان دور آدم أن يبثّ في نفوسهم الثقة ويجدّد عزمهم وثباتهم، فهم لا يزالون الرّجال الخارقين الذين تنبض أناملهم بطاقة الـ«مادرا» السّاحرة، ولا يزال جمعهم المتحّد قادرًا على اجتراح المعجزات.

توقّف المسخّرون عن التقدّم فجأة، بإشارة من نوح، كان قد اتّخذ مركز الصّدارة تلقائيًا، وتبعه الآخرون دون تردّد. على مسافة بضع عشرات من الأمتار، ظهر لهب النّار التي أضرمها الغرباء على حدود الغابة. تحرّكت هيئات بشرية على امتداد الشاطئ بخطى بطيئة وعيون متيقظة قابضة على الأسلحة، فيما خلد آخرون للرّاحة في أكياس النّوم الخاصّة بهم. تخلّصوا من البدلات البيضاء الواقية التي تتكدّس الآن فوق أحد القوارب الرّاسية في الميناء، وأخذوا يتحرّكون بحريّة في تحدّ صارخ للسّكان المحلّيين ومناخ الجزيرة وتأثير الـ«مادرا».

تلقّى المسخّرون الإشارة ثانية من نوح. سيكون عليهم التنفيذ بسرعة، قبل أن ينتبه الغرباء إلى حضورهم، لقد أدركوا صباحًا أنّ أسلحة الغرباء تجعلهم رجالًا خارقين من نوع مختلف؛ طلقة واحدة ستنهي حياة أيّ مسخّر فيما لا يزال يجمع طاقته ويشحذ الـ«مادرا». سيكون عامل الغفلة في صالح المسخّر، أمّا المواجهة المباشرة فسيكسبها سلاح الـ«مهافيا دياما» لا محالة!

رفع المسخّرون أيديهم بحركة متزامنة، فاهتزّت ذرّات الهواء من حولهم. أصغى آدم إلى الحفيف الذي سرى بين الجذوع وعبر الأوراق، وقد تزايد جزعه. قريبًا، ستنطلق العاصفة. إنّه يجهل مدى قوّة الصّاعقة التي قد يصنعها مجموعة من المسخّرين المتّحدين من ذوي الخيوط الفضيّة، لكنّه يأمل أنّها ستكون كافية لردع مايك ورجاله.

ارتفعت ذرّات الرّمال فجأة عن سطح الأرض. كان المسخّرون الترابيّون يدخلون على الخطّ. أثارت الحركة المباغتة انتباه الحرّاس الذين أخذوا يتلفّتون في حيرة. لقد بدا أنّ هبّة ريح عابرة قد جعلت الرّمال تتحرّك، إلّا أنّ حركتها لم تكن طبيعية أو مألوفة، لم تهبّ الرّيح من اتّجاه

محدّد لتسيّر في طريقها الموجودات والجمادات التي لا تقاوم تيّارها. ارتفعت ذرّات الرمال عموديّا، كأنّ مغناطيسًا من نوع ما يسحبها إلى أعلى، ثمّ انطفأت نار المخيّم. عمّ الارتباك وركض الحرّاس في كلّ اتّجاه. لم يكن أحدهم يلمح العدوّ أو يدرك موقعه. توجّب عليهم إيقاظ القائد.

حين استيقظ مايك ونايت ومانويلا والآخرون، كانت حالة من الهلع قد سيطرت على الرّجال الرّاقدين على الشاطئ، إلّا أنّ أحدهم لم يكن يبصر الآخر بوضوح، بعد أن صارت ذرّات الرّمال في كلّ مكان، فوق رؤوسهم وفي مقلهم، وتجتاح فتحات التنفّس الخاصّة بهم. صرخ مايك وهو يمضغ التّراب الملتصق بلسانه:

- الخوذات، ارتدوا الخوذات!

انصاع الرّجال الذين بلغ النّداء آذانهم وهرولوا إلى القوارب يطلبون بدلات الحماية التي تخلّصوا منها منذ ساعات قليلة، فيما استمرّ آخرون في التخبّط بلا وجهة، وقد أعمت العاصفة أبصارهم. بعد ذلك، انطلق في اتّجاههم تيّار باهر من الضّياء مثل موجة عاتية جافّة، فقلبت القوارب رأسًا على عقب وألقت بالرّجال صرعى على الأرض. لمعت الصّواعق في السّماء مثل سيوف ليزريّة، أشعلت النّيران في المراكب المطاطية.

تلوّى مايك على الأرض وقد أردته العاصفة على ظهره، ثمّ هتف داخل خوذته التي نجح في الوصول إليها:

- انسحاب! إلى القوارب.. جميعًا!

تحامل من استطاع الوقوف ليصل إلى الماء. تهافت المرتزقة ليعيدوا القوارب التي نجت من الدّمار إلى مواضعها. لم يكن الخصم يظهر من موقفهم على الشاطئ، فقد كانت كثافة الغابة تحجبه بالكليّة ويحول ستار

الظلام عن تبيّن الأشباح الجاثمة في الظلال، لذلك تحرّكوا في ارتباك وتعثّر، يحدوهم قلق من هجمة قريبة أخرى.

من موقعه في الخلف، انتبه آدم إلى ثلّة المسخّرين الشّبان التي خرجت عن الصّفوف، تابعهم بنظرات قلقة فيما يتسلّلون باتّجاه الشاطئ في تحدّ للتّعليمات الصّارمة. لم يكن يفترض بأيّ منهم أن يظهر للعيان ظهورًا سافرًا، لقد كانت خسارة واحد منهم بالأمس خسارة موجعة، ولم تكن العمليّة تنطوي على المخاطرة بحياة المزيد.

توقّف أوران ومروان وثالثهما يونا وقد غدوا قريبين للغاية من الغرباء، لم تكن خطّة المخلّص تُشفي غليلهم، لقد تجرّأ الغرباء على قتل واحد منهم، ولم يكن التّهديد الفارغ يكفيهم. من موقعهم، لم يكن مايك في متناول اليد. لقد تعرّف عليه أوران إثر لقائه به على سطح السّفينة، وبوسعه تمييزه بين الحشود بيسر، إنّه القاتل، وتطبيق القصاص يقتضي استهدافه شخصيًا، لكنّ الفرصة المتاحة تكاد تتسرّب من أيديهم.

همس يونا في قلق:

- هل تراه؟

جزّ أوران على أسنانه وزمجر:

- لا يمكننا الوصول إليه وسط العاصفة!

قرّر يونا في حسم:

- أيّ واحد منهم سيفي بالغرض.

أقرّ أوران الخطّة على الفور، سيكون من الأسهل استهداف المتخلّفين، أيّ من الغنم القاصية عن القطيع. كان أحدهم قد تعثّر على قيد أمتار قليلة، وانكفأ على وجهه، تحرّك المسخّران بسرعة وطوّقاه، لتحجبهما

الرّمال الكثيفة عن الرؤية، استجمع أوران طاقة الصّاعقة ووجّهها إلى ظهر الرّجل فيما سدّد يونا ضربات قاطعة مزّقت جلده في غير موضع، فيما سمّرت الرّهبة مروان مكانه فلبث مختبئًا يراقب من بعيد.

حين عاد صاحباه وهما يلهثان، سأل في ذهول:

- هل مات؟

قال يونا في ثقة:

- لا شكّ في ذلك.

قوّة المسخّرين قاتلة غالبًا، حين تكون مركّزة وموجّهة لهدف محدّد فيما يُهدر الآخرون طاقتهم في الهواء، سيفخر الشابان بتنفيذهم القصاص.

لم تتوقف عاصفة الرّمال حتّى بعد أن ارتمى الغرباء على القوارب، وراحوا يجذّفون بجدّ بما تمكّنوا من انتشاله من مجاديف أو بأذرعهم العارية، مبتعدين نحو الأفق. خلال دقائق كانت الفرق كلها قد تراجعت في اتّجاه السّفن الأمّ فرارًا من العدوّ الخفيّ، مكلّلة بالفزع والعار.

حين خلا الشاطئ من الغرباء، أنزل نوح كفّيه متنهّدًا، وكذلك فعل المسخّرون جميعهم أسوة به. تبادلوا نظرات راضية، وقد علت ابتسامة الفخر سحناتهم. تقدّم آدم مغادرًا مكمنه في مؤخّرة المجموعة، وربّت أكتافهم شاكرًا ومهنّئًا، مثل قائد للمعركة من وراء ستار. لقد تمّت المهمّة بنجاح.

حين استقرّت الرّمال الهائجة وعاد الشّاطئ إلى طبيعته، تجرّأ على الخطو بحذر في المساحة المكشوفة. تأمّل الجثة التي دُفن رأسها في الرّمل وقد ظهرت عليها علامات الاعتداء، من ورائه تقدّم أوران ويونا في خيلاء معتّزين بإنجازهما. زجرهما نوح في استياء:

- كان عليكما الالتزام بالخطة!

عبس آدم وقال بلهجة جادّة:

- ربّما كان على مايك أن يتكبّد خسائر بشريّة ليدرك قوّة المسخّرين.. لا تنس أنّه من بدأ العدوان.

تمتم نوح:

- إنّهم شبّان ومتهوّرون.. لا أريد أن تفتنهم قدرتهم على القتل. ما من أجل هذا وهبنا الله قدراتنا الخاصّة، وأخشى أن يستهويهم الأمر فيسرفوا في القتل..

طأطأ الولدان رأسيهما في خضوع، فيما أومأ آدم متفهّمًا:

- سيرفع عملهما معنويّات الـ«آم»، وقد حقّقا العدالة لعائلة ماتياس.

كانت القوارب قد تلاشت تحت جناح الظلام وغطاء الضّباب، إلا أنّ الوميض الفضيّ يسمح بتمييز الأشياء التي خلّفها الفارّون وراءهم. لمعت قطع المعدن ببروز تحت وميض الـ«مادرا». التقط آدم بعض الأسلحة الملقاة على الأرض، وأشار إلى المسخّرين للتنقيب عمّا طمرته الرّمال منها.

- لا نعلم إن كانوا سيعودون قريبًا.. يجب أن نكون مستعدّين.

قلّب نوح بندقيّة بين كفّيه وهو يسأل في فضول:

- هل تعرف كيف تستخدم واحدة من هذه؟

دارى آدم خجله بابتسامة واثقة. لم يسبق له الإمساك بواحدة من قبل، باستثناء تلك الافتراضيّة في عالم الألعاب الالكترونية! لكنّه يشكّ أنّ استخدامها قد يتعسّر على المسخّرين. يثق أنّ قدرتهم على التحكّم في الـ«مادرا» ستجعل منهم طلبة متفوّقين في الرّماية. إلّا أنّ وضعه مختلف. ربّما لو امتلك مزيدًا من الوقت لأمكنه العمل على تحرير طاقته.. لكنّه لا يملك شيئًا بعد. قال يطمئن صاحبه:

- الأمر سهل، ما عليك سوى التّصويب في اتّجاه الهدف.. تمامًا كما تسحب الخيط الترابيّ في اتّجاه ما، أو توجّه الضربة الصّاعقة. سنحاول التدرّب على استخدامها.

أومأ المسخّر في اهتمام. إنّ امتلاك قوّة العالم الخارجيّ تستهويه بالتّأكيد، تمامًا كما يطمع مايك في طاقة الـ«مادرا» الخاصّة بهم.

***

لم يتوقّف مايك راسل عن التّمتمة في ذهول طوال رحلة العودة إلى «الأسطورة»:

- كم هذا مدهش! كم هذا رائع!

يعدّ نفسه محظوظًا لأنّ معظم رجاله تمكّنوا من لملمة أنفسهم والعودة إلى قواربهم. أعمتهم العاصفة وأربكتهم، لكنّها لم تلحق بهم أضرارًا جسيمة، باستثناء بعض الرّضوض والكدمات، جرّاء تكدّسهم في القوارب الصغيرة، بعد أن فقدوا عددًا منها، إلا أنّ مشهد الرّياح المفتعلة والصّواعق الضاربة خلّفته في حالة من الانبهار العميق. يعتبر نفسه محظوظًا، لأنّه شهد بأمّ عينيه حدوث المعجزة!

وصل الرّجال إلى السّفينة، مرتعبين ومكدودين. لم ينالوا قسطًا كافيًا من النّوم. اضطرّوا إلى التخلي عن أسلحتهم وبدلاتهم الواقية التي خلّفوها على الشاطئ، وجدّفوا لوقت طويل بلا وجهة تقريبًا، يحيدون عن المسار ثمّ يستمرّون في دوائر، حتّى اهتدوا أخيرًا إلى العلامات التي تركوها على سطح الماء. حين وطئت أقدامهم المنطقة المعروفة لديهم، ارتموا على الأرض منهكين.

استقبلهم البحّارة في جزع، وقد طال غيابهم منذ فجر اليوم السّابق. على لسان كلّ منهم، كانت نسخة مختلفة من القصّة تروى بحماس وتأثّر إلّا أنّ القاسم المشترك بينها هو الرّعب الشديد.

اقترب نايت من مايك الشّاخص ببصره عبر الضّباب، في اتّجاه اليابسة التي فرّوا منها مثل المجانين. قال بلهجة جادّة:

- هؤلاء المسخّرون.. إنّهم أقوياء!

أومأ مايك بابتسامة واسعة:

- وهذا ما يجعلهم مهمّين للغاية.

لم تكن ردّة فعل مايك شبيهة بردود فعل رجاله. كان متماسكًا، بل مفعمًا بالنّشاط بقدر لا يصدّق، كأنّ الهجوم الأخير قد أدّى إلى تأثير عكسيّ عليه!

- كيف تنوي السّيطرة عليهم؟

أخذ مايك يشرح بهدوء:

- إنّهم أشخاص اجتماعيّون، مجتمع صغير ومتلاحم. كلّ فرد ذو أهميّة بالنسبة إلى أهله وعشيرته. ثمّ.. ألم تلحظ أنّ قوّتهم ليست فتّاكة؟

هتف نايت في دهشة:

- لقد فقدنا ثلاثة رجال!

- أعني.. إنّها قاهرة ومدمّرة بلا شكّ.. إلا أنّ قدراتهم لم يكن الهدف منها دومًا القتل.. سيحاولون غالبًا دفع المهاجمين، كما فعلوا اليوم، بطريقة ما، إنّهم لا يعرفون كيف يقتلون.. أو ربّما، ليس القتل العشوائيّ جزءًا من منظومتهم الأخلاقيّة، وهذه ستكون نقطة ضعفهم.

سكت نايت متفكّرًا، لقد لمح اثنين من رجاله يغرقان فيما لم ينهض الثالث بعد سقوطه على الرّمل، لا يعرف ما الذي كبّله مكانه تحديدًا، لكنّه

لم يتمكّن من اللّحاق بالقوارب. لم تكن الخسائر البشريّة جزءًا من تجربته الشخصيّة منذ أمد بعيد، كانت فرقته ترجع مكتملة من مهمّاتها.. دائمًا، وقد ضايقه أن يعرّض حياتهم للخطر السّافر.

استطرد مايك قائلًا:

– ثمّ، حين يكون أهلهم مهدّدين، فلن يجرؤ أحدهم على استخدام قوّته. نحن أسرع، بنادقنا أسرع، وهي قاتلة. لقد رأوا ذلك بأعينهم، حرصتُ على إظهار مدى قوّتنا في اللقاء الأول، ليستوعبوا موازين القوى. إذا لم يأخذونا على حين غفلة، كما فعلوا الليلة، فستكون الغلبة لنا لا محالة في المواجهات المفتوحة والمباشرة.

فكّر نايت:

– إذًا، نأخذ رهائن من النساء والأطفال، لنبقيهم تحت السّيطرة؟

أومأ مايك موافقًا بعد حين همس نايت في شكّ:

– ماذا لو كنتَ مخطئًا بشأنهم؟

– بشأن ماذا؟

– كلّ شيء.. تعاطفهم، تعلّقهم بأهلهم، ماذا لو كان من بينهم متوحّشون متعطّشون للدّماء؟ ماذا لو كان بعضهم أسرع من الآخر؟ ماذا لو كانوا قادرين على القتل لكنّنا لم نلحظ هذا الجانب منهم بعد؟ نحن لا نعرف عنهم شيئًا تقريبًا.. باستثناء ما نقله المخبران من السّكان المحليين ولقاءين قصيرين بالأمس.

هزّ مايك رأسه ببطء، ثمّ قال ببساطة:

– نعم، رغم ذلك سيكون علينا أن نضع نظريات ونجرّب حظنا.

***

لا يبدو أيّ من هذا حقيقيًا.

بعد معاناة الأمس، اندفع السكّان إلى الاحتفال بحماس. ذُبِحت الشّياه وأقيمت وليمة في ساحة القرية تذكّر آدم بأمسية الزفاف التي حضرها منذ شهر مضى، أو بليلة تتويجه مخلّصًا. كانوا يحتفلون بعودة المخلّص سالمًا ورحيل الغرباء العدوانيّين بعد أن دحرهم المسخّرون وردّوهم إلى سفنهم مخذولين، إلّا أنّه لا يصدّق شيئًا من هذا.

لقد أُنفِذ القصاص وعاد المسخّرون عودة المنتصرين، لكنّه لا يعتقد ولو للحظة واحدة أنّ فصل الغرباء سوف ينتهي عند هذا الحدّ. يستقبل الانحناءات الخاضعة والتحيّات الخاشعة بحركة ميكانيكية من رأسه. يوزّع ابتسامات فاترة، فيما تتحرّك عيناه في كلّ اتّجاه في حذر وقلق. لا يعرف إن كانت الأمسية سوف تنقضي بسلام. ربّما.. ربّما كان أوران وصاحبه محقّين رغم طيشهما، ربّما كان عليهم الخلاص منهم نهائيًا على طريقة كوتانا تافي المتوحّشة!

ارتجف عند تلك الفكرة. لم ينس بعد -وأنّى له أن ينسى!- ذبحهم الغرباء بدم بارد على الشاطئ الفضيّ، غير أنّه يكاد يعترف بينه وبين نفسه بأنّهم كانوا -بطريقة ما- محقّين في ريبتهم تجاه الغرباء. هؤلاء الغرباء بصفة خاصّة أثبتوا أنّ العالم الخارجيّ يمثّل خطرًا رهيبًا على الجزيرة والـ«مادرا» التي تتدفّق داخل كهفها.

عليه أن يجتمع بالحكماء في أقرب فرصة، ليطرح مخاوفه، وليعمل الجميع على وضع خطّة ما. لم تكن مواجهة الليلة السّابقة سوى معركة من حرب لا يدرك امتدادها إلّا أنّه لا يجرؤ على إفساد المتعة. همس له عمّار:

- إنّهم يحتاجون إلى هذا بعد عرض الأمس، يتوقون إلى استعادة الثقة في المسخّرين والإيمان بقدرة المخلّص على إنقاذ الجزيرة، من دون هذا الإيمان، سينهار كلّ شيء، امنحهم بعض الوقت.

إلا أنّه يجهل إن كان مايك سوف يمنحهم بعض الوقت. قدّر أنّ الرّجل لن يجازف بهجوم جديد قبل أن يرتّب صفوفه ويضع خطّة محكمة، وفيما يضع هو خططه، يستسلم الحكماء لترف البطن.

كانت السّهرة قد شارفت نهايتها، حين تمكّن من الانسحاب خارج السّرادق المخصّص للحكماء. ابتعد عن السّاحة وسار في اتّجاه المرفأ. كثيرًا ما جلس في تلك النّاحية من الشاطئ، قبل أن يعتقد أنّه قد يرحل، لكن ها هو يعود إلى تلك البقعة مرّة أخرى، كأنّ القدر الذي يربطه بالجزيرة لم ينته بعد!

توقّفت خطواته فجأة حين أبصر هيئة بشريّة تجلس على الرّمال، فاستعاد تفاصيل مساء يبدو بعيدًا الآن. رفعت روان رأسها فلمحته، عندئذ استأنف المسير حتّى وصل عندها، جلس بدوره في صمت وأصغى كلاهما برهة لحركة المدّ والجزر الرّتيبة.

- لقد رجعت.

أومأ ببطء ردّا على كلماتها. لم يجمعهما حديث كافٍ يسلّط الضوء على صراعه الدّاخلي مذ خلّفها سجينة في مقصورة السّفينة، لقد نوى الرّحيل حين ركب القارب الذي أخذه إلى «الأسطورة»، إلّا أنّ أمنيات الأيّام الماضية قد غدت سرابًا، مهما مدّ كفّيه تجاهها فإنّه لا يقبض إلا على الفراغ. أفسد مايك راسل خطّة العودة كلّها!

- ماذا ستفعل الآن؟

يضغط السّؤال على نقطة ألم في داخله، مثل سبّابة تشير إلى موضع الجرح الغائر بدقّة.. لا يعرف، يجهل تمامًا إلى أين تقوده مسارات المتاهة التي ألفى نفسه حبيسها، تحدّق عيناها الآن في صفحة وجهه استقراءً واستنطاقًا، إلّا أنّ السّكون هو كلّ ما يجيده في هذه اللّحظة.

لعلّ مايك راسل يحسبه قد لقي حتفه صباح أمس غرقًا، ولعلّه قد حمل الخبر إلى والده الآن إبّان عودته إلى «الأسطورة»، ليس هذا أهمّ ما في الأمر.. فحياته من عدمها لا تعني مايك كثيرًا، لن يرحل المستثمر المستكشف إلا بعد أن يحقّق أهدافه من الرّحلة. إن كان هدف أشرف الصافي الحصول على حجر واحد من «حجارة الشّمس»، فإنّ مايك راسل يرمي إلى ملء حاويات أسطوله حجارة عن آخرها. هذا.. إن لم يأخذه الطّمع إلى أكثر من ذلك!

ألقى نظرة عابرة على جانب وجهها، وقد عادت إلى تأمّل البحر في شرود، بعد أن يئست من قدوم إجابته. اضطرّ آدم إلى اتّخاذ قرار صعب فجر الأمس.. بسببها، ليس أنّه قد ندم على الإطلاق، إلّا أنّه قد اختار جانبه من المعركة تحت الضغط. وهو يدرك تمامًا أنّه قد اختار الجانب الصّحيح -من أجل والدته، وروان، وحقّ الشّعوب في تقرير مصيرها. ستنصف وثيقة إعلان حقوق الإنسان قراره وتؤيّده لا محالة، إلّا أنّه نتيجة لذلك قد عاد إلى لعب دور المخلّص المدّعي مضطرًّا!

انحنى كتفاه تحت ثقل المسؤولية الافتراضية التي يرزح تحت وطأتها ضميره. أطلق تنهيدة طويلة، ثمّ عاد إلى تأمّل سؤالها: ماذا سيفعل الآن؟ فاجأته الإجابة التي تبادرت إلى ذهنه قبل غيرها، قال على حين غرّة:

- هل تريدين تعلّم إطلاق النّار؟

- إطلاق النّار؟

من المؤسف أنّ المعالجة لا تمتلك قدرة خاصّة تمكّنها من الدّفاع عن نفسها.. ربّما يجدر بك الاحتفاظ بسلاح من العالم الخارجيّ. طالعته بعينين ذاهلتين، وهو يخرج من بين طيّات ثوبه مسدسًا من الحجم الصّغير كان قد احتفظ به من ضمن غنائم اليوم، ردّدت السّؤال الذي جاء على لسان نوح منذ ساعات قليلة:

- هل تعرف كيف تستخدمه؟

قال ببساطة الخبير:

- ينبغي تعطيل صمام الأمان، هكذا.. ثمّ التّسديد في اتّجاه الهدف.

أغمض عينه اليسرى، وحدّق باليمنى في اتّجاه البحر وهو يمدّ ذراعه أمامه حاملا المسدس، ثمّ أطلق الرّصاصة.

دوّى صوت الانفجار عبر الشاطئ المقفر، ففاجأ الصّوت آدم كما فاجأ روان. خيّم عليهما صمت ثقيل لثوانٍ بفعل الصّدمة، قبل أن يفلت آدم ضحكة مرتبكة. لم يسدّد في اتّجاه هدف ما، ولعلّ الرّصاصة سقطت في الماء دون أن ترتطم بأيّ جماد على الإطلاق إلّا أنّه استشعر جلال الموقف، باغتته الحرارة في كفّه، والانفجار في أذنيه، والرّهبة التي قرأها في عيني المعالجة، لم يكن قد أمسك سلاحًا بين كفّيه من قبل، فضلًا عن الرّماية.

مدّت روان راحتها مفتوحة، فجعل المسدس ينزلق حتّى استراح بين كفّيها، حدّقت في قطعة المعدن المصقول بدهشة تصاعديّة، ثمّ سألت في جزع:

- هل يقتل؟

أومأ آدم بحركة من رأسه.

- مثل أيّ سلاح، حين يصيب جزءًا حيويّا من جسم الإنسان، فإنّه يقتل، إذا اخترق الدّماغ أو القلب، سيسبّب تمزّقًا ونزيفًا قاتلًا.

لم يكن أحدهما قد شهد مصرع المسخّر ماتياس بالأمس، إلّا أنّ إصابة ذراعها لا تزال نديّة، رغم تدخّل المعالجة مارتا. ستبقى النّدبة شاهدًا على رصاصة شياطين الـ«مهافيا دياما»، ثمّ يومًا ما -إذا كتبت لها النّجاة من الحرب المرتقبة- سيتحلّق حولها الأطفال، لتحدّثهم عن شهادتها على أهوال تلك الأيّام.

- ماذا إذا أصاب السّاق أو الذّراع؟

ربّما كانت تعرف الإجابة أفضل منه -بحكم التّجربة- لكنّها تطلب المعرفة النظريّة، وهو سيقدّم ما يعرفه:

- ستسبّب الإصابة ألمًا رهيبًا.. لكن لا، لن يموت المصاب، إلا إذا نزف حتّى الموت.

- ماذا عن الكتف أو البطن؟

- قد يحدث ضرر بليغ لكنّك المعالجة.. أنت تعرفين معرفة أفضل إذا كانت الإصابة ستكون قاتلة أم لا!

ضحك ثمّ أضاف:

- الرّصاصة لن تغيّر شيئًا في قوانين الطبّ! إلّا إذا..

- ماذا؟

يفكّر في أنواع متقدّمة من الأسلحة، مثل القنابل العنقودية أو البيولوجيّة التي تحدث ضررًا أكبر من مجرّد اختراق اللّحم والعظم والنّزف.. لكنّه يشكّ في استخدام مايك لهذا النّوع من الأسلحة. لا يستحضر سببًا منطقيًا لحصول المستثمر ومرتزقته على أسلحة محظورة دوليّا.

قال مغيّرًا موضوع الحديث:

- الآن، يجب أن ندرّبك على التّسديد.. حسنًا؟

تركت روان المسدّس ينزلق على الأرض الرّمليّة في نفور وهي تقول:

- لا أعتقد أنّني قد أستخدم هذا الشيء!

التقطه آدم بابتسامة فاترة. هناك أشياء كثيرة لم يعتقد أنّه قد يُقدم عليها يومًا، لكنّه قد فعل في الأيّام الماضية.. مثل السّباحة، وركوب الحوت، وقيادة فريق من المسخّرين الأشدّاء.. يبدو تعلّم الرّماية أمرًا هيّنًا أمامها!

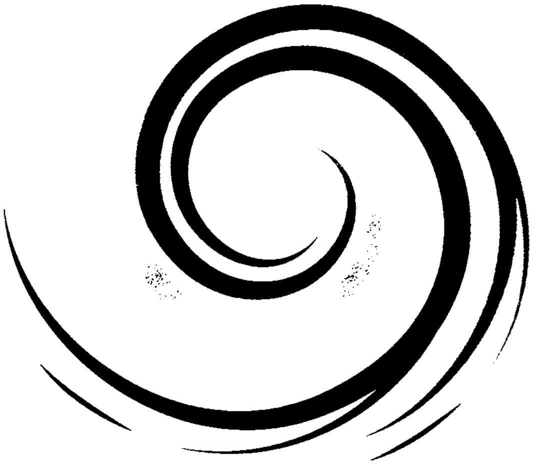

(3)

اليوم الثالث بعد الثلاثين

تنفّس نايت بهدوء تحت الماء وهو يتوقّف عن الحركة ويصغي. كان يرتدي بدلة الغطس الكاملة وعلى عينيه نظارات الرّؤية الليلية، من خلفه توقّف الغوّاصون إذعانًا لإشارته. غير بعد، على سطح الماء، يظهر زورق السّكان المحليّين متأرجحًا. يحصي من زاويته أربعة رجال.. أربعة ضدّ أربعة، معركة متكافئة. إلا أنّ عامل المفاجأة سيكون في صالحه.

في الزّورق، كان أبو ياسر قد انضمّ إلى مجموعة من الحرّاس لمراقبة الحدود ليلًا. لم يظهر الغرباء لليوم الثاني على التّوالي، وكان من الحكمة التخلّص من قطع المطاط الطافية التي تدلّهم على الاتّجاه المؤدّي إلى الجزيرة. أخذ الصيّادون يسحبون الكرات الحمراء المترابطة بالحبال ويحتفظون بها، لا يعرفون بعد ما الذي سيفعلونه بصددها، ربّما تنضمّ إلى نفايات العالم الخارجيّ الأخرى في المدافن خلف التّلال.

في لحظة خاطفة، ارتفعت شباك مصنّعة من الألياف المعدنيّة القاسية، ظهرت من تحت سطح الماء مثل الخطاطيف لتتفتّح على امتدادها في الهواء قبل أن تهوي فوق رؤوس الصيّادين بغتة. خلال ثوانٍ قصيرة، وجد كلّ واحد من الرّجال الشاحبين المذعورين نفسه داخل شبكة مغلقة تكبّل حركته مثل طير حبيس. بحركات رشيقة وسلسة اعتلى نايت ورجاله سطح القارب، قبل أن تمتدّ قبضة أبي ياسر ليصل إلى بوق طلب النّجدة،

كان نايت يدوس على كفّه بقسوة ويستولي على البوق. ابتسم في رضا وهو يقلّب عظمة ساق الجاموس المجوّفة والمنحوتة بشكل مخروطيّ أملس.

رفع أبو ياسر عقيرته بصرخة حادّة، فعاجله نايت على الفور بركلة قاسية من حذائه العسكريّ السّميك، أخرسته. رفع نايت ذراعه ليشير إلى رجاله، فتحرّكوا بسرعة ونظام في بدلاتهم السّوداء القاتمة التي جعلتهم شبيهين بمحاربي النينجا. قيّدوا الحرّاس بالأسلاك وكمّموا أفواههم، ثمّ تحرّكوا يجدّفون باتّجاه اليابسة التي تلوح بعيدًا في الأفق.

***

وقفت روان مُباعدة بين قدميها في وضعية الاستعداد، ومدّت ذراعها التي تحمل قطعة المعدن المصقول أمامها. حدّقت في اتّجاه الهدف بعين واحدة وأرخت جفنها الثاني في محاولة للتّركيز. جهّز آدم موقعًا للتدريب بين التلال، بعيدًا عن القرية، بعد أن أثار صوت الطلقة التي انطلقت مساء الأمس الذّعر وعكّر صفو السكّان النّائمين. خلال دقائق، وصل الحرّاس إلى الشاطئ مستنفرين، وإثرهم المسخّرون، لذلك، كان عليه أن يتخيّر موضعًا مناسبًا بعد أن أعلن خططه للجميع.

على الجانبين، يقف حشد من الرّجال والنّساء يتابعون العمليّة في فضول. أقبل نوح أيضًا، يتبعه عدد من المسخّرين الشّبان، بالإضافة إلى الأطفال ماهر وياسر وأصحابهما. كانت أسلحة الغرباء تثير حفيظتهم، بعد أن أثبتت قدراتها الفتّاكة منذ يومين، إلا أنّ أفضل وسيلة لحماية أنفسهم من الآلات القاتلة هو الإحاطة بها عن قرب.

ألقى آدم التّعليمات مثل خبير مزيّف، ألا يُفترَض به أن يجيد كلّ شيء يتعلّق بمهارات العالم الخارجيّ؟ يدرك -نظريًا على الأقلّ- كيف تعمل الأسلحة: قفل أمان، زناد الإطلاق والفوّهة التي تنزلق عبرها الرّصاصة،

وهو بهذا يتفوّق على أيّ مسخّر أو حكيم. ظنّ هذا بدايةً، حتّى برز الخبير الحقيقيّ من بين الصّفوف.

- هلا سمحت لي؟

تقدّم عمّار بابتسامة صغيرة، لمح فيها آدم مسحة من السّخرية الخفيفة. لم يكن من الحكمة أن يقلّل من شأن المخلّص أمام الحشود. أشار آدم برأسه وأفسح المجال للـ«كوتانا» المخضرم. كان ينبغي أن يدرك أنّ عمّار -الذي أدّى الخدمة العسكريّة في شبابه- سيكون أوفر خبرة منه هو؛ وحيد والديه الذي لم يكن مجبرًا على دخول الجيش.

بحركات بسيطة، عدّل عمّار من وضعيّة قدمي ابنته واتّجاه كتفيها، ثمّ رفع ذراعها الثانية وساعدها على تثبيت المسدّس بكلتا راحتيها لتواجه الهدف بجسدها كلّه.

- الآن!

بضغطة على الزّناد، انطلقت الرّصاصة لتصيب الهدف بدقّة. تعالت هتافات التّهنئة، والتهبت وجنتا المعالجة حرجًا فخرًا.

- حسنًا، كرّري المحاولة بمفردك الآن.

أصغت إلى تعليمات والدها واستعدّت للإطلاق مرّة أخرى. لم تكن تنوي بالأمس أن تكون جزءًا من التّدريب إلّا أنّها أعادت النّظر في موقفها تلك الليلة.. كان آدم محقًا، إذا نوت أن تعرف أكثر عن «مهافيا دياما»، فسيكون عليها في وقت ما أن تحيط بهذا النّوع من الأسلحة. لا تعرف طبيعة الحياة في تلك المدن المكتظّة التي تحدّث عنها آدم آنفًا، ربّما كان النّاس يتجوّلون وتلك القطع المعدنيّة تتدلّى على أذرعهم!

تراجعت في رضا بعد أن أطلقت رصاصتين موفّقتين، وأهدرت واحدة، إثرها وقف رجل كهل يستعدّ للتّسديد بدوره، همس آدم في أذن عمّار وهما يراقبان المشهد:

- التّدريب أمر جيّد، لكنّ مخزون الرّصاص قد ينفد قبل أن نتمكّن من استخدامه بالفعل في مواجهة حقيقية!

أومأ عمّار ثمّ قال بهدوء:

- لا يمكننا تسليحهم دون تدريب.. سيكون السلاح في أيدٍ عديمة الخبرة أخطر منه في يد العدو.

- إذًا، ربّما يصنع المسخّرون رصاصات مطاطية للتّدريب؟

استحسن عمّار الفكرة، سبق أن استخدم ذخيرة مشابهة في أثناء تدريبه العسكريّ، في الحقيقة لم يتعامل مع الرّصاص الحيّ قبل ذلك الوقت، وقد يؤدّي الاستخدام المتهوّر إلى إصابات خطرة.

تركه آدم وجذب نوح جانبًا، وهو يمسك بين كفّيه بندقيّة، هناك نوع آخر من التّدريبات التي يودّ أن يجرّبها.. قال مقترحًا:

- هل يمكنك استخدام طاقتك لطيّ المعدن؟

رفع نوح حاجبيه في دهشة.. طيّ المعدن؟ لم يتعامل المسخّر الكهل مع المعدن من قبل. تلك النفايات الصّلبة التي تستخرج من قاع المحيط، كان مصيرها الدّفن لتعود إلى باطن الأرض، موطنها الأصليّ. قبل أن يجرّب نوح شيئًا سارع آدم يقول:

- ربّما يجدر بنا الحفاظ على الأسلحة، فعددها قليل.. لكنّنا قد نعثر على أشياء مشابهة في مكبّ الخردوات.

أومأ نوح، وتحرّكا مبتعدين عن جموع المتدّربين الذين صار عمّار مسؤولًا عنهم الآن.

تابعت روان بعينيها آدم وهو يسير إلى جوار نوح في اتّجاه التّلال. لم تعد تساورها شكوك بشأنه. تعتقد بثقة أنّه قد أصبح واحدًا منهم الآن، يمكنها الاطمئنان إلى نواياه على الأقلّ، إلّا أنّها تلمس اكتئابه. لم تكن تلك خطّته ولا رغبته، لقد ألفى نفسه محشورًا في الزّاوية، ومضطرّا إلى اختيار جانبه من المعركة. كان قدره أن يخوض معارك لا تخصّه. منذ أيّام قليلة كان يقف في الميدان، يقاتل رجلًا يفوقه قدرة وقوّة نيابة عن والده، ولعلّه سيكرّر ذلك في الأيّام المقبلة.. إنّها تشفق عليه وتتعاطف معه.

وقفت إلى جوار خلود، تمرّر إليها المعرفة التي تلقّتها من والدها، تساعدها على اتّخاذ الوضعيّة المناسبة والتّسديد. لم تكن سبّابتها قد أتمّت الضغطة إلى نهايتها، حين سرت حركة مرتبكة بين المسخّرين، فيما همس عمّار:

- البوق!

لم يكن نفيرًا صاخبًا لشدّ انتباه العامّة، بل نداءً صامتًا عبر موجة منطفئة لا يميّزه إلا المسخّرون، ثم ما لبثت صرخات هلع متفرّقة أن ارتفعت بين الجموع. تركت روان ذراعها تنزلق ببطء وهي تستدير لتتبع اتّجاه النّظرات الفزعة، ثمّ، حين رأت ما رأوه، أطلقت صرخة مكبوتة بدورها.

في الأفق البعيد، في موقع القرية التي خلّفوها وراءهم منذ ساعات، تصاعدت ألسنة لهب كثيفة إلى عنان السّماء، تحفّها أدخنة داكنة تسدّ الفضاء وتسحب الهواء في دوّامتها. أشار عمّار إلى المسخّرين، فانطلق ثلاثة من الشّبان ليختفوا عن الأنظار في لمح البصر.

كان موقع نوح وآدم أقرب إلى القرية، فقد تحرّكا قبل الآخرين بزمن يقصدان مكبّ الخردوات، فاجأهما نفير البوق قبل أن يصلا إلى نتيجة في ما يخصّ طيّ المعدن. كان آدم لا يزال يفتّش في كومة النفايات الصّدئة عن قضبان مجوّفة تشبه فوّهات البنادق. رفع رأسه ليبصر نوح الذي انطلق على الفور مستجيبًا للنّداء، صرخ في احتجاج:

- هذا ليس عدلًا! قلت أنّ المسخّرين لا يطيرون!

توقّف اندفاع نوح بعد أن قطع خطوتين، واستدار باتّجاهه. هزّ كتفيه وهو يقول:

- نحن لا نطير، لكنّنا نقفز، نسحب الخيط ونستمدّ قوّة الدّفع من الـ«مادرا» التي تخزّنها الأرض.. لا أملك وقتًا للشّرح الآن، فهذه حالة عاجلة!

زفر آدم في استسلام وقد نمّت ملامحه عن امتعاض مكبوت، فيما اختفى نوح خلف التلال. لقد خدعته عيناه حين رأى نوحًا من قبل يركب الحوت، فحسبه للوهلة الأولى ينزلق على سطح الماء كأنّما بقوّة دفع محرّك نفّاث، ولم تسنح الفرصة له بعد ذلك ليستفسر منه عن قدرة المسّخر على طيّ المسافات. لو أنّ بوسعه امتلاك هبة من هذا النّوع، فعليه أن يحاول على الأقلّ، أمّا مسألة «سحب الخيط» هذه، فإنّها لا تزال بعيدة المنال.

شعر بثقل هبته عديمة الفائدة وطاقته المهدرة وهو يحثّ الخطى على الطريق التّرابيّة منفردًا. لم يضطرّ على الأقلّ لتحمّل نظرات الاتّهام أو السّخرية من الآخرين. سيسبق جموع المتدرّبين ويحفظ ماء وجهه بوصوله قبل عمّار وروان، ولو بدقائق قليلة!

بعد تواري المسخّرين عن العيون، تحرّك ركب البشر العاديّين بين التلال -وبينهم الحكيم والمعالجة- يجدّون سيرًا على الأقدام رجوعًا إلى

القرية. سيتطلّب الأمر نحو ساعة من الهرولة والمشي والسّريع حتّى يصلوا أخيرًا إلى عين المكان، في أثناء تقدّمهم، استمرّت عيونهم معلّقة بمشهد النيران التي أخذ استعارها يهدأ تدريجيًا ليدلّ على تدخّل المسخّرين أخيرًا.

حين أشرفوا على المساكن الطينية والخشبيّة، كان معظمها قد سُوِّي بالأرض وصار أكوامًا مسحوقة من الرّماد والدّمار. حدّقت روان بعينين دامعتين بفعل الدّخان والحسرة وهي تتلفّت من حولها بحثًا عن أيّ وجود بشريّ في الجوار، إلا أنّها لم تلمح أيّ حركة تنمّ عن حياة تنبض. تقلّصت أساريرها وانقبض صدرها وهي تنهج في كلّ اتّجاه. لا فائدة من هبة العلاج التي تتدفق في أطراف أناملها إذا لم يكن هناك من يمكنها شفاؤه!

لم يكن حجم الأضرار التي لحقت المباني يبشر بخير إلا أنّ أحدًا لم يستوعب طبيعة ما حدث.. كيف انطلقت النّيران وكيف انتشرت وغمرت بيوت القرية برمتّها دون أن يتدخّل أحد من السّكّان لإخمادها في الوقت المناسب؟ زاد السّكون المقيت من وطأة إحساس الرّكب المقبل على موقع الكارثة بالعجز والذّهول.

اتّجه آدم متعجلًا نحو نوح الذي اقترب بخطوات مثقلة وقد لوّث السّخام وجهه الشّاحب وثيابه البيضاء. هتف به بنبرة رجاء:

- هل من ناجين؟

قال نوح يطمئنه:

- لم يتضرّر أحد.. الجميع بخير!

تلجلجت روان وهي تركض إليهما:

- كيف؟ أين ذهب الجميع إذًا؟

أشار نوح إلى نهاية المسار الذي يؤدي إلى دار العبادة:

- لقد أبقوا على المباني العامّة، المدرسة، دار العبادة، المشفى..

صرخت روان ثانية:

- من؟ من فعل ذلك؟

كانت الإجابة جليّة لا تتطلب شرحًا، إلا أنّ السؤال المحيّر الذي عطّل الأذهان الذاهلة: كيف؟ لم ينبئ الحرّاس المرابطون على امتداد حدود الجزيرة بحضور الغرباء في الجوار، انطلق نفير البوق -الذي لطالما عمل بكفاءة- متأخرًا جدّا، لم يكن إنذارًا بتسلّل غرباء ولا طلبًا للنّجدة، بل إعلان متأخّر وساخر يسحب الانتباه إلى مهمّتهم التي نُفِّذت بنجاح، لمعاينة الخسائر وحسب. لا يملك أحدهم تفسيرًا للغارة المفاجئة التي أخذتهم على حين غرّة.

جدّ الحكيم عمّار بخطى ثابتة ليقود المجموعة في اتّجاه دار العبادة. حين انتهوا إلى ميدان القرية، ألفوا جموعًا من الأهالي المحتشدين وقد سيطر عليهم الذّعر، تقبض الأمّهات على أكفّ أطفالهنّ ولاحتواء عبراتهم وبثّهم نوعًا من الطمأنينة، فيما وقف الرّجال وقد هبطت الأكتاف في قلّة حيلة وغمرت الملامح أمارات الاستسلام.

شقّ عمّار طريقه عبر الحشود يتبعه آدم وروان والآخرون. هرول ماهر ليرتمي في حضن والدته، فيما تلفّت أطفال آخرون بحثًا عن آبائهم. ربت عمّار أكتاف المسخّرين الشبّان الذين كساهم السّواد بعد أن كدّوا للسّيطرة على الحرائق. جالت عيناه خلال الحشد، يتفقّد الحاضرين ويبحث عن مروان وريحان، إلا أنّه لم يقف لهما على أثر! ربّما يتواريان خلف الآخرين، لم يكن الوضع مناسبًا لتفقّد أفراد عائلته واحدًا واحدًا، فهناك مهامّ أشدّ استعجالًا بصفته حكيمًا مسؤولًا عن سلامة شعبه. أخذ نفسًا ثمّ تابع السّير ليلتحق بالحكماء المجتمعين في دار العبادة.

في الدّاخل، تحلّق الحكماء على السّجاد بسمتهم الوقور وحضورهم المهيب، إلا أنّ علامات العجز كانت كلّ ما طغى على سحناتهم التي صارت تحاكي الأشباح في بياضها، إن كان بياض الأشباح قد ينافس شحوب شعب «آم»!

ألقى عمّار السؤال المربك:

- ما الذي حدث؟

تبادل الحكماء نظرات مشوّشة، قبل أن يتطوّع «كوتانا» توماس ليشرح:

- لقد هاجمونا فجأة. تسلّلوا في غفلة من الحرّاس حتى وصلوا أمامنا. كرّروا مطالبهم السّابقة.. وهو ما رفضناه بوضوح! إلا أنّهم لم يتراجعوا هذه المرّة وإنما أضرموا النّار على الفور في كلّ البيوت.. تحرّكوا بسرعة، وكانت بحوزتهم مادّة ملتهبة ذات رائحة نفاذة.. خلال دقائق كانت القرية كلها تشتعل! خرج السّكان من بيوتهم مرتعبين، فساقوهم مثل قطيع ماعز في اتّجاه السّاحة.. ثمّ قبضوا على بعض الأفراد -نساء وأطفال- وهدّدوا الشباب بسلامة أهلهم، فأجبروهم على الاستسلام.. وقادوهم أمامهم. أمروهم بتحميل المحاصيل الاحتياطية في المخازن ونهبوا كلّ شيء!

تهدّج صوت الحكيم وهو يواصل:

- لقد حطّموا قنوات المياه وأتلفوا المحاصيل التي يحتفظ بها الأهالي في بيوتهم وأخلوا المخازن! يريدون أن يقتلونا جوعًا!

تعالت الضّربات على جدار صدر عمّار وقد أرهبته الكلمات، لم يكن قلقًا بشأن المحاصيل، ليس بعد.. إلا أنّ شأن الرّهائن يؤرّقه، قال مدقّقا:

- أخذوا نساءً وأطفالًا؟

طأطأ تافي رأسه وهو يقول بنبرة اعتذار:

- لقد أرادوا استدراج المسخّرين لإظهار أنفسهم، صرخوا يطلبون منهم البروز.. لكنّنا لم نرد أن نخاطر بخسارة مسخّر آخر، لقد أردنا حماية المسخّرين، لقد رأيت ما فعلوه بماتياس! المسخّرون هم حماة «آرا» وفخرها، لا يمكنّنا أن نسلّمهم للغرباء ببساطة! حين امتنعنا عن الإشارة إليهم، أخذوا رهائن عشوائيًا.

سكت هنيهة قبل أن يضيف بصوت خافت:

- لقد أخذوا طفليك أيضًا.. أنا آسف حقًا، لم نملك أمامهم شيئًا.

هتف عمّار في اهتياج:

- أين هم؟ إلى أين أخذوهم؟

- إلى الكهف!

تحرّك عمّار بخطوات صارمة متّجهًا إلى المخرج ثم توقّف فجأة حين دلف آدم وروان إلى القاعة، نطق عمّار بتأثر، وقد احمرّت عيناه غيظًا:

- لقد أخذوا أخويك!

في تلك اللّحظة، اندفعت أرابيلا داخل القاعة وقد احتقنت عيناها وتورّمتا. ركضت روان لترتمي في حضن والدتها، عانق عمّار زوجته وابنته الشابة، يواسي بعضهم بعضًا، همهمت المعالجة في تصميم:

- سوف نستعيدهم، أعدك، سوف نفعل!

جاء صوت «كوتانا» تافي من خلفهما، يعلن بارتياح:

- ها قد وصل المخلّص.. وسوف نجد حلًا لهذا الوضع!

تعلّقت عيون الحاضرين بوجه آدم الممتقع، ارتفعت الدّماء إلى وجهه وقد تملّكه الإحراج. لم يكن يومًا مواتيًا حتّى يكون مخلّصًا ينوء بمسؤوليات شعب بأسره!

***

تحرّك مايك داخل الكهف ينظّم حركة رجاله الذين انبروا يكوّمون قطع «حجارة الشمس» داخل عربات اليد ويدفعونها بهمّة خارج السّرداب. مرّ على وجودهم داخل نطاق الظلة خمس ساعات حتّى الآن.

استرجع صور الأحداث السابقة..

بدأ كل شيء حين تسلّلوا لمهاجمة الحرّاس خلسة، ثمّ حين صار الطّريق آمنًا شنّوا هجمتهم، فأغاروا على القرية الغافلة ليضرموا في بيوتها النّار.

تسارعت ألسنة اللهب، ترقص بجنون على أسطح البيوت وكأنّها وجدت في الحطب القديم ضالتها. في لحظات، تحوّلت القرية الهادئة لجحيم متّقد، يتصاعد منه الدّخان الأسود في خطوط ملتوية، تغزو السّماء وتخنق الهواء. تردّد الصراخ بين الأزقة الضيّقة، نساء يصحن بأسماء أطفالهن، ورجال يتخبّطون في محاولة للسّيطرة على الحريق أو إنقاذ من وما يستطيعون الوصول إليه!

كان اللهيب يسبقهم، والرّماد يلاحقهم كظلٍّ شرس. خرج السّكان من بيوتهم وهم يلتقطون أنفاسهم بعسر، حفاة، وقد احمرّت عيونهم من الدّخان، وامتلأت صدورهم برائحة الاحتراق. اندفع الشّيخ الجليل بعصاه نحو كوخه الذي أُضرِم فيه النار، يحاول سحب صندوق خشبي قديم يحتفظ فيه بمخطوطات أثريّة توارثها شيوخ الجزيرة، لكنّ السقف انهار أمامه، فجلس على الأرض ينوح، يملأ وجهه السّخام ودموع حارقة، حتّى جاء صبيّه يساعده على النّهوض ويسحبه بعيدًا عن الخطر.

ركضت ريحان بثوب خفيف بين ألسنة النار تبحث عن أمها، تناديها بين الدّخان واللهب، لكنّ لا جواب سوى صوت الحريق وهو ينهش الجدران الخشب، وقلبها يوشك أن ينفطر من الرّعب. تحرّك ظلّها الصّغير مثل خيال داخل صندوق الدّمى، حتّى أتاها صوت أرابيلا من الخارج،

كانت قد اندفعت لتساعد أبناء الجيران قبل أن تدرك أنّ الحريق قد طال بيتها ذاته.

حين التفتت ريحان وقد اطمأنّ فؤادها إلى سلامة والدتها، أدركت أنّها قد حُبست وراء الحطام وجدار اللّهب. يتناهى إليها صوت الخشب وهو يتشقق مثل نحيب مكتوم، فيما الدّخان الأسود الكثيف يلتفّ حول الأعمدة الحجريّة كأفعى جائعة. التمعت عيناها الواسعتان بخوفٍ صميم والنّار تلعق أطراف البناء وتزحف ببطء نحوها. استمرّ صوت والدتها يصلها متقطّعًا، تحجبه الطقطقة والانهيارات المتتابعة في الحوائط الدّاخليّة المجوّفة. في لحظة يأسٍ وحسم، شقّت طريقها عبر الباب المتداعي متجاهلة النّار التي كانت في استقبالها، غطّت وجهها بطرف ثوبها ودفعت بجسدها النّحيل بقوّة، ارتطمت بالتّراب والرّماد خارج الكوخ، وهرعت إليها أرابيلا تحتضنها وتمسح على رأسها بحنوّ. نهضت ريحان، تتحسّس الخدش على جبينها وتسعل، ووراءهما استمرّت أمواج حالكة من الدّخان الكثيف ترتفع نحو سقف الظلة لتعانقه وتكسبه مسحة سواد.

في الخلف، كان رجال مايك يراقبون المشهد ويتبادلون الإشارات والابتسامات، كأنّهم يسجّلون نصرًا عسكريًّا أمام عدوّ أعزل قوامه النّساء والأطفال والشّيوخ. أمّا مايك، فقد وقف في السّاحة على مشارف القرية، يضع يديه خلف ظهره، يراقب المشهد كما لو كان يتأمل لوحة رسمها بنفسه. في عينيه بريق انتقام بارد، خالٍ من أيّ شعور، كأنّه لا يرى نارًا ودمارًا، بل قطع شطرنج تذوب على الرّقعة. هتف في رجاله:

- دعوهم يتذوّقون الخوف.. لكن لا تمنعوهم من النّجاة بأنفسهم.

- إنهم يفرّون إلى الغابة.

- افتحوا الطّريق في اتّجاه الشاطئ، أريد أكبر عدد منهم هناك. لكن لا تطاردوا الفارّين، لا فائدة من ذلك.

راقب بلا اهتمام الأطياف الشّاردة التي تلوذ بأطراف الغابة، يجرّون أطفالهم أو يحملون جرحاهم على الأكتاف، ومن فوقه استمرّت الظلة ساكنة معتمة ملقية بظلالها الشّاسعة. مكتبة سُر مَن قرأ

ثم جاء صوت البوق مدويًّا من القرية، كانت تلك هي الإشارة المتفق عليها، سخرية أخيرة موجّهة إلى المُسخِّرين، سمعه مايك يتردّد خافتًا عبر جدران الكهف، فتوقّف ليلتقط أنفاسه، كان معنى الصوت واضحًا: تمّت المهمّة، اشتعلت النيران، ووصلت الرسالة.

استدار مايك على عقبيه وتبعه الرّجال بلا تردّد. فيما ينشغل المسخّرون بإخماد النّيران، سيكون قد قطع شوطًا في الخطوة التّالية. وقف على الشاطئ أمام أهل الجزيرة الفزعين الذين دفعهم الهلع إلى التجمّع حيث أرادهم، تحيط بهم فوّهات الأسلحة الناريّة المستعدّة للإطلاق فيما يقايض الحكماء على سلامة شعبهم، انهمك رجاله يسحبون صناديق المحاصيل ويحمّلونها على القوارب، ثمّ دفعوا الأسرى المستنزفين نحو قوارب أخرى، سيكون عليه إرسال أعداد قليلة منهم إلى «الأسطورة»، عدد كافٍ لفرض السّيطرة. في تلك الأثناء، تعمل فرقة ثالثة على استخراج الحجارة من المنجم. ترتيب مثاليّ: إلهاء، انتقام واغتنام فرصة.

غير أنّه يخشى أن ينتهي مفعول الحبوب قريبًا، ولا يودّ استهلاك كثير من مخزونه الذي لا يعرف بعد كيف يجدّده، وهو لا يملك خيار الاستعانة بالسكّان المحليين في مهامّ التّحميل، فهو لا يأمن اقتراب واحد من ذوي الهبات من الحجارة، ومع ذلك، يتوق إلى معرفة إن كان أحدهم مسخّرًا

بالفعل، يحتاج إلى أن يميّز المسخّرين الذين بوسعهم استخراج طاقة الحجر وتفعيلها، فهم المفتاح لكلّ ما يطمح إلى تحقيقه.

- هيا يا رجال، شدّوا الهمّة.. يجب أن نرجع إلى السّفن قبل انتصاف النّهار!

ارتفعت همهمات موافقة من العمّال الذين يتضوّرون جوعًا ويتوقون إلى وجبة مشبعة. كانت علامة الإرهاق قد أخذت تظهر على ملامحهم وتبين من انحناءة ظهورهم وتراخي أطرافهم، إلا أنّه يطمع في استمرار العمل بعض الوقت على الأقلّ. كان هجومًا شرسًا ومباغتة موفّقة، يجب أن يثمّنها باقتناص ما أمكنه من الـ«مادرا». يعلم أنّ الرّدّ سيأتي في أيّ لحظة، لن يتردّد المسخّرون المتخلّفون عن اجتماع الصّباح في عمل شيء لتخليص أهاليهم واستعادة السّيطرة على الكهف إلّا أنّهم منشغلون في الوقت الحاليّ بإخماد الحريق الذي لم يكن إلا عامل إلهاء، وردّ اعتبار أيضًا. يحتاج رجاله إلى رفع معنويّات بعد الصّدمة التي تلقّوها منذ يومين!

اقتربت مانويلا من والدها، أطلقت زفرة طويلة وهي تتأمّل أصابعها النّحيلة التي استهلكها نقل الحجارة منذ ساعات الصّباح الأولى. كانت بثور حمراء دقيقة قد أخذت تظهر على بشرتها وتثير لديها رغبة في الحكّة. قالت في قلق:

- هل تعتقد أنّ التعرّض المباشر لهذه المادة الغريبة فترات طويلة قد يكون له تأثير ما على الجسم؟

زوى مايك ما بين حاجبيه متفكّرا في كلماتها وهو يتأمّل كفّيها. لم تكن المعطيات المتوافرة من مخبريه المختبئين على متن «الأسطورة» تقول كثيرًا عن الحجارة الفضيّة، لم يكن أحدهما قد وطئ ممرّات الكهف من قبل أو تعرّض إلى المادّة المتوهّجة وقتًا طويلًا، باستثناء الذرّات العالقة في الهواء

المحيط. تلك المنطقة التي يتجوّل عبرها الغرباء بحريّة الآن، كانت محظورة على السّكان المحلّيين أنفسهم لدهور، باستثناء أصحاب الهبات! لا بدّ أنّ لذلك سببًا ما، قال أخيرًا في إقرار:

- أنت على حق، لقد تسرّعنا بدخول الكهف دون استعداد.. لم يكن علينا التخلي عن البدلات الواقية بهذه السّرعة، لا نعلم يقينًا كيف ستتفاعل أجسادنا مع هذه المادّة الغريبة.. لقد كانت مخاطرة غير محسوبة!

هتف على الفور يستعجل رجاله:

- علينا المغادرة، حالًا!

تحرّك الرّجال على الفور بخطوات متعثّرة يدفعون العربات خارج الكهف، وقد سرّهم قدوم ساعة الرّحيل أخيرًا. تزاحموا وهم يتّجهون نحو مخرج الكهف على عجالة محمّلين بكميّات أخيرة من الـ«مادرا» يشحنونها نحو الأسطول الرّابض عند الأفق.

سألت مانويلا في قلق:

- هل تظنّ أنّ الأوان قد فات؟

غمغم مايك في استياء:

- سوف نعرف خلال السّاعات القليلة المقبلة.

***

لقد غادر الغرباء.

أعلن الحرّاس الذين انتشروا في الغابة وعلى حدود الكهف والميناء يراقبون حركات الدّخلاء. لم يظهر حرّاس الليلة الماضية بعد، بدا محسومًا أنّهم ضمن الأسرى الذين ألقى مايك عليهم القبض.

كان اجتماع «خليّة التدخل العاجل» لا يزال منعقدًا منذ الظهيرة. لم يأت المخلّص بخطّة حاسمة أخرى. ارتفعت أصوات الحكماء في فوضى عارمة، فيما انسحب آدم إلى ركن هادئ، يتأمّل -أو يتظاهر بالتّفكير، حسب وجهة نظر المراقب، مؤمنًا كان بمعجزته أم مشكّكا- وحين اقتربت روان، بادرها فجأة:

- كم يلزمك من الوقت، لإنتاج كميّة جديدة من حبّات الدّواء؟

كان يتوجّب عليها أن تفعل، من أجل والدها على الأقلّ، فقد استولى الغرباء على كلّ المخزون الذي تحتفظ به، إلّا أنّها لا تدرك ما قصده آدم.. كم يريد منها؟ ولأيّ غرض؟

همس ببطء:

- ربّما نحتاج إلى تنفيذ عمليّة سريّة.. من المسافة صفر!

رفعت حاجبيها في استغراب، لم يبد أنّ أيًا من كلماته كانت ذات مغزى بالنسبة إليها!

- إنّهم يعتمدون على الدّواء، للتحرّك بحريّة على الجزيرة وداخل الكهف. لذلك.. أفكّر في استبدال الحبّات التي لديهم بأخرى.. من نوع مختلف.

التمعت في عينيه نظرة ماكرة وتألقت ابتسامة ظفر على شفتيه. أومأت روان توافقه، لقد فهمت، حبّات دواء مزيّفة، تحتاج إلى وقت طويل لتصنيعها عادة، لأنّ المسخّرين يتبرّعون بدمائهم في أوقات متباعدة، أمّا إذا أمكنها تغيير الدّماء الشّافية إلى أيّ مصدر آخر ذي طبيعة مشابهة، فيمكنها أن تنتج مئات الحبّات قبل طلوع النّهار، قالت تقترح:

- أظنّنا قد نذبح جَديًا على العشاء!

بوسعها الاهتمام بهذا الجانب من الخطّة، عادت لتتساءل في حيرة:

- بعد ذلك، كيف سنستبدلها؟

- ألم أقل لك؟ سأتسلّل إلى السّفينة، إلى عقر دار العدوّ.

استمرّت الابتسامة الفخور تزيّن شفتيه.

تلاشت ابتسامتها سريعًا، إنّها لا تشكّ به، لا يخامرها خاطر محاولته الفرار ثانية. لا، لا يمكن أن يكون سعيه الحثيث من أجل ركوب السّفينة ثانية والرّحيل. تُخمد شرارة الارتياب داخلها. إنّها قلقة وحسب، لأنّ العمليّة خطرة، إنّ الاقتراب من السّفينة وحده سيعرّضه للقنص، فكّيف بالتسلّل خلسة إلى داخل السّفينة، دون أن يلحظه أحد من البحّارة المتنبّهين؟ ثمّ يعثر على مخبأ حبوب الدّواء ليستبدلها؟ إنّها تبدو خطّة محكومة بالفشل!

قالت في قلق:

- هل تعتقد أنّ هذا سينجح؟

همس ثانية:

- كنت أفكّر في هذا.. مايك لا يعلم شيئًا عمّا حصل لي ولك، لم يظهر أحدنا أمامه منذ شاهدنا نغرق، ربّما يظنني صُرعت، بإمكاني العودة إلى السّفينة.. لأتظاهر بأنني ما زلت في صفّه!

- إذًا، أين اختفيت، خلال الأيام الثلاثة الماضية؟

- هذا يعتمد على نجاحي في التسلّل عبر كوّة خلفيّة في السّفينة.

خلال الوقت الذي أمضاه في الماء، متشبثًا بالمرساة، كان أمامه مجال كافٍ لتأمّل جدار السّفينة المعدنيّ من الجهة الخلفية. ظهرت في مرمى بصره كوّة أصغر حجمًا وفي مستوى أقلّ ارتفاعًا، ربّما يمكنه التسلّق للوصول

إليها.. ببعض الجهد. كان قد تحصّل على بعض الخبرة من تسلّقه السّابق للصخّرة مرّات ومرّات.

- لقد كان مايك ورجاله مشغولين في الأيّام الماضية. أشكّ أنّ أحدهم قد أولى اهتمامًا لمراقبة غرف المحرّكات، طالما أنّ السّفينة جاثمة في موقعها دون حركة.. سأتسلّل إليها، وأزعم أنّني كنت مختبئًا هناك طيلة الوقت.. أتسلّل ليلًا إلى الطوابق العلويّة للحصول على الماء والطعام، ثم أرجع إلى مخبئي.

تجاوزت روان بعض التّفاصيل، مثل كيفيّة وصوله حتّى السّفينة دون أن يبصره أحدهم، وتسلّقه الجدار المعدني الأملس، وفتحه الكوّة عنوة من الخارج، وهمست في حيرة:

- لكن، كيف تبرّر مكوثك هناك طيلة الأيام الثلاثة الماضية؟

- الحزن مثلًا؟

- الحزن؟

همس آدم وهو يرنو إلى عينيها:

- يفترض مايك أنّني سأكون مفطور الفؤاد.. بسبب رحيل المعالجة.

تسلّلت حمرة الحياء إلى وجنتيها فأشاحت ببصرها بعيدًا، فيما تجاهل آدم حرجها وعاد يقول:

- يعتقد مايك أنّني راغب في الرّحيل.. فوالدي لا يزال على متن السّفينة. ليس هناك مبرّر يدفعني إلى العودة إلى الجزيرة.. أنا غاضب منه، لا أريد مواجهته.. لكنّني في الوقت ذاته لا أجد مهربًا آخر.. أنا عالق على السّفينة، لأنّها ستأخذني إلى الديار.

أومأت من جديد، يبدو هذا مقنعًا، همست مرّة أخرى:

- قلت إنّها ستكون خطّة سريّة؟

قال بلهجة جادّة:

- لا يحتاج الحكماء إلى الاطّلاع على تفاصيل المهمّة. في نظرهم، سأكون ذاهبًا للتفاوض مع الغرباء لاسترداد الأسرى.

ابتسمت مؤيّدة، حسنًا، باعتباره المخلّص، يجب أن يُرى من طرف قومه في موقع قوّة لا مخادعًا يتسلّل خلسة، سيفعل شيئًا كما تحتّم عليه منزلته المقدّسة ومكانته الفخور، لكنّه سيفعلها على طريقته وبقدراته البشريّة المتواضعة.

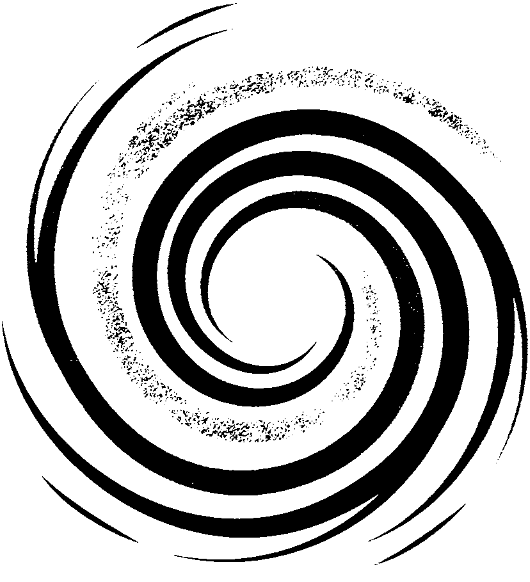

(4)

اليوم الرّابع بعد الثلاثين

عند الواحدة ليلًا، استيقظت مانويلا للمرّة الثانية، وهي تعاني مغصًا شديدًا، تناهت إليها على الفور أصوات الأنين المتصاعدة من المقصورات المجاورة، فتحت بابها برفق وسارت في الممرّ وهي تشدّ قبضتها على بطنها، وجدت الحمّام في نهاية الممرّ مشغولًا، تحرّكت بخطوات متثاقلة حتّى نهاية الممرّ المقابلة، لتلفي الحمّام الثاني مشغولًا أيضًا، تحاملت لترتقي الدّرج وقد اشتدّ ألم معدتها، وما إن وصلت إلى السّطح حتّى سارعت تنحني فوق حافّة السّور وتتقيأ بعنف.

حين توقّفت تقلّصات معدتها أخيرًا، سمعت صوت الضّحكات المكتومة من موقع قريب. كان الأسرى مقيّدين إلى سور السّفينة على السّطح في ركن بعيد، وقد عصبت أعينهم. قرّر والدها إبقاءهم في موقع مكشوف، حيث تظلّلهم مظلة القماش العريضة، إلّا أنّهم سيكونون معرّضين لأشعّة الشمس المباشرة حين يطلع النّهار، ما لم يلتصقوا ويتدافعوا في المساحة الضيّقة. كان ذلك التّدبير كفيلًا بإبقائهم تحت السّيطرة، فلا يُقدِم أحدهم على تصرّف متهوّر.

على مقربة، كان أربعة من المرتزقة يتبادلون الحراسة طوال الليل والنّهار. في ذلك الحين، ينام اثنان منهما على الأرض، فيما يتثاءب الآخران في إعياء.

حدّقت مانويلا في ظلمة الليل التي لا يبدّدها إلا مصباح واحد معلّق على الصّارية، وفوانيس خافتة على امتداد السّور، فيما يمتدّ الضباب على مدّ البصر. حين شعرت بتحسّن، اقتربت من أحد الحارسين وسألت بلطف:

- جاستين.. كيف تسير الأمور؟

هزّ الرّجل كتفيه، ثمّ قال:

- إنّهم هادئون.. لكنّ الوضع في الأسفل يشعرني بالقلق. ما الذي حدث هناك، على الجزيرة، بالأمس؟

لم يكن رجال الحراسة ضمن البعثة التي أغارت على الجزيرة صباح الأمس. كان تدبيرًا احترازيًا من مايك، تحسّبًا لظهور أعراض ما، وهو ما حدث تمامًا. بدا أنّ كلّ الرّجال يعانون المغص والبثور -وهي بدورها- تلك الأعراض التي تحدّث عنها السّكان المحلّيون، والتي تصيب الغرباء الذين لا يحصلون على حبّات الدّواء، إلا أنّها على ما يبدو تصيب الغرباء الذين يحصلون على الدّواء ويغامرون بالاقتراب كثيرًا من المصدر أيضًا!

حصل كلّ أفراد بعثة الأمس على جرعة مضاعفة من الدّواء منذ عودتهم من الجزيرة إلا أنّ الدّواء لم يخفّف من الأعراض إلا قليلًا، لا شكّ أنّ تأثير الكهف كان شديدًا، أشدّ من الإجراءات الاحترازية والعلاجيّة مجتمعة، لقد تخلوا عن حذرهم أسرع ممّا يجب!

تنهّدت مانويلا وهي تهزّ كتفيها، وقبل أن تنطق، سمعت الضّحكات الطفوليّة الرّقيقة ثانية، كانت تأتي من موقع قريب، دقّقت بنظرها تتأمّل وجوه الأسرى الجامدة خلف عصابات الأعين، كان من بينهم سيّدات شابّات وأطفال صغار. انتبهت إلى الفتاة ذات البشرة الحنطية التي تتميّز عن غيرها، حتّى تحت ضوء المصباح الخافت، ورغم آثار الرّماد والسّخام، كان بياض الجلد الشفاف جليّا للعيون، أمّا هي، فلم تكن بشرتها شاحبة

مثل الآخرين، كانت تُخفي ضحكتها، وتجد متعة غريبة رغم الظرف الحالك!

جثت مانويلا حذوها ومدّت كفّها لتزيح عصابة عينيها، فتحرّك الشابّ ذو الثمانية عشر عامًا الجاثم إلى جوارها ليسدّ الطريق في حركة دفاعيّة. كانت ذراعاه مقيّدتين خلف ظهره وعيناه معصوبتين، مثل الآخرين، لكنّ ردّة فعله كانت دقيقة وواثقة، ابتسمت مانويلا وهي ترفع ذراعيها في حركة مسالمة، وقالت بلغة عربيّة واضحة:

- لا أريد الإساءة.. حسنًا؟

لم تختف العدائيّة من ملامح الشابّ إلّا أنّ عضلاته المشدودة ارتخت قليلًا فيما عادت مانويلا لتخاطب الطفلة:

- أنا مانويلا، وأنت؟

- أنا ريحان.. وهذا أخي مروان.

استدار الشابّ بوجهه إلى شقيقته، يلقي إليها نظرة زاجرة لم تخفّف العصابة من قوّتها، معبّرًا عن ضيقه من تفاعلها مع الغريبة الصّهباء.

- كنتِ تضحكين منذ حين؟

التمعت نظرة شقاوة في عيني ريحان وهي تقول:

- كنتِ تتقيّئين! كلهم كانوا يتقيؤون طوال الليل!

ربّما كانت أعينهم لا تبصر شيئًا من محيطهم، لكنّ آذانهم مصغية إلى كلّ دبيب وحركة. ابتسمت مانويلا، ثمّ قالت ترثي نفسها وهي تشير إلى البثور على بشرة ذراعيها:

- أنا في وضع مزرٍ.. فعلًا!

بادلت الطفلة الابتسام بعفويّة، ثمّ قالت:

- أهنئكم.. لديكم نظام دفاع طبيعيّ منيع.

أومأت الفتاة في فخر. في ظلال العتمة المخيّمة، لمحت مانويلا بريقًا خفيًّا تألّق تحت رداء الشابّ الذي يحاذي ريحان، قالت وهي تمدّ أصابعها في فضول:

- هل يمكنني أن ألقي نظرة؟

تحرّك الشّاب إلى الوراء بخفّة ليتجنّب لمستها ويحمي القلادة التي يربطها إلى عنقه، فتحرّك الرّجل المسلّح بدوره ليرفع فوهة بندقيّته. هتفت مانويلا على الفور:

- لا بأس يا جاستين.. لم يحصل شيء.

تراجع جاستين خطوتين، فيما استدار الشابّ في وضع جانبيّ، ليخفي عن عينيها البريق الأخاذ الذي يلتمع على صدره. كانت مانويلا تعرف ذلك اللّمعان مليًا الآن، فقد قضّت ساعات صباح الأمس تجمع الحجارة وتكوّمها في العربات إلا أنّ ما أدهشها كان سرعة حركته، وإدراكه لأدنى نأمة بدرت عنها. استدارت مبتسمة إلى ريحان:

- وأنت، ألا تملكين واحدة؟

هزّت الطفلة كتفيها وقالت ببساطة:

- لا أحتاج إلى واحدة.

رفعت مانويلا حاجبيها في استغراب لم يدم غير ثانيتين، قبل أن تنتصب واقفة بحركة مباغتة. حيّت جاستين بإيماءة سريعة ثمّ هرولت إلى الدّرج المؤدي إلى الطابق الأسفل. طرقت على مقصورة والدها في عجلة، ففتح على الفور. لم يكن نائمًا. كانت علامات الضّيق واضحة على محيّاه، عانى ليلة مؤرقة مثل الجميع. هتفت مانويلا في حماس حين صارا داخل الغرفة المقفلة:

- أعرف كيف نميّز المُسخّرين!

رفع مايك حاجبيه في دهشة. لم يكن ذلك من الاكتشافات التي قد تأتي خلال رؤى النّوم، لكنّ ابنته بدت واثقة من استنتاجها. انبرت تشرح تسلسل الأفكار التي خطرت لها من خلال الملاحظة العفوية التي أبدتها الطفلة منذ حين:

- إنّهم يرتدون قلائد يتعلّق في طرفها «حجر الشمس»، لا يحتاج الأشخاص العاديون إلى الحجر، فهو ليس ذا فائدة محدّدة بالنّسبة إليهم، لكنّه يمنح المسخّرين طاقتهم، ولا بدّ لهم من الوصول إليه بسهولة، في أيّ مكان وأيّ وضع، لذلك يرتدونه حول أعناقهم على الدّوام.

- لقد اعتقدت أنّهم يسحبون الطاقة من الأرض والهواء.. لقد بدا أنّ هذا ما شرع في عمله المسخّر الذي قتلته!

عقدت مانويلا حاجبيها، ثمّ قالت:

- ربّما يفعلون ذلك بالفعل.. لكنّ طاقة الحجر ستشكّل تركيزًا عاليًا متاحًا في كلّ حين، فيما جمع الطاقة المتناثرة في الطبيعة قد يتطلّب وقتًا.. وربّما يتفاوت بعضهم في مستوى القدرات والحاجة إلى الحجر.. أومأ مايك في استحسان، ثمّ سأل:

- هل تعتقدين أنّ هناك مسخّرين من بين الأسرى؟

همست في ظفر:

- أعرف أنّ هناك واحدًا على الأقل!

لم تكن القلادة وحدها سبب شكوكها، فقد عزّز سلوكه ظنونها. إنّه يتمتّع بحواسّ حادّة أكثر من الأشخاص الطبيعيّين، إمّا أنّه كان جاسوسًا محترفًا في حياة أخرى وإما أنه مسخّر.

أخذ مايك نفسًا، ثمّ قال متفكّرًا في كلمات نايت السّابقة:

- حسنًا، قد نذهب إلى السّطح الآن ونكشف المسخّرين.. ثمّ ماذا بعد ذلك؟ لا أعتقد أنّ أيًا منهم قد يتعاون معنا. إنّهم يبقون ساكنين، إخفاءً لهويّتهم، وحمايةً لأهلهم من النّساء والأطفال. لكن كيف نحملهم على العمل لصالحنا؟ ما زلت لم أتوصّل إلى طريقة مناسبة لإخضاعهم..

استمرّ الصّمت برهة، قبل أن تقول مانويلا:

- في الحقيقة، خطرت لي فكرة أخرى.

حدّق فيها مايك بانتباه فأردفت:

- ألا تودّ أن تعرف ما سرّ المسخّرين؟ ما الغريب في تركيبة دمائهم الذي يجعلهم مميّزين؟ ولماذا تستخدم دماؤهم للشّفاء ولصنع حبوب الدّواء التي تُمكِّن من التأقلم مع مناخ الجزيرة؟

ابتسم مايك لفضول ابنته العلميّ، كان قد عرف قليلًا عن المُسخَّرين و«حجر الشّمس» من مُخبريه القابعين في المقصورات المجاورة، لقد سمعا أنّ المُسخَّرين يتبرّعون بدمائهم بغرض العلاج، إلا أنّ المعلومات التي يقدّمانها محدودة ولا تشفي الغليل.. فلم يكن أحدهما مسخّرًا أو معالجًا أو عالم بيولوجيا، قال متفكّرًا:

- لا أمانع في إرسال بعضهم إلى مختبر طبيّ متقدّم لإجراء الفحوصات اللّازمة..

بادلته مانويلا الابتسامة، كانت تفكّر بالضّبط في هذا، إلا أنّ مايك أضاف بعد صمت قصير، وقد اكتست ملامحه عزمًا جديدًا أنساه آلام بطنه وتقلّصات معدته مؤقتًا:

- في الواقع، هناك المزيد لعمله.. أطمع في إنتاج مصل يُحقن به البحّارة والعمّال هنا، فيمكّنهم من الاستغناء عن الدّواء، وصنع الخلايا المقاومة لتأثير المادّة المتوهّجة تلقائيًا!

تألقت عينا مانويلا في بهجة:

- سيكون ذلك مذهلًا!

خلال دقائق، كان مايك ومانويلا ونايت وأربعة من رجاله يحيطون بالأسرى. تحرّك نايت بين السّكان المحليّين الذين قرفصوا على الأرض متلاصقين، مقيّدين ومغطاة عيونهم، وتفقّد أعناقهم. بعد خمس دقائق، تراجع وفي قبضته قلادتان من الخيوط المتضافرة التي تحتضن كلّ منها قطعة من «حجر الشمس» بحجم حبّة عنب. دفع المرتزقة الشابّين صاحبي القلادتين خارج السّرب، فطالعهما مايك في رضا.

- انظروا ماذا لدينا هنا.. مسخّران شابّان، يا للحظّ!

وقف مروان وأوران متحاذيين يتململان في وقفتهما، فيما تتفرّس فيهما العيون الفضوليّة للمرتزقة. حدّق مايك في أوران في دهشة ثمّ هتف:

- أنت! مبعوث المجلس!

قهقه بصوت عالٍ ثمّ أردف:

- كان يجب أن أعرف، لن يرسل المجلس أشخاصًا عاديّين للتفاوض مع الغرباء. مسخّر ومعالجة إذًا.. يبدو هذا منطقيًا الآن.

كان ليشعر بالحسرة لأنّه سمح للمسخّر بالإفلات في المرّة الأولى، إلا أنّه يتنفّس بارتياح الآن وقد عاد إلى قبضته ثانية. استدار إلى مانويلا وسألها:

- إذًا، متى تنوين المغادرة؟

هزّت كتفيها وهي تقول في حماس:

- أنا جاهزة دائمًا. ما إن يطلع النّهار، حتى نكون في طريقنا، سأحتاج إلى أسرع قارب في أسطولك.

أومأ موافقًا، ثمّ أضاف:

- إنّهما خطران.. يجب أن تكوني حذرة في تعاملك مع هؤلاء القوم.

- لا أعتقد أنّهما قد يقدمان على عمل متهوّر في حضور الرّجال المسلّحين، وفي مكان غريب بعيدًا عن عالمهما.. ثمّ، سآخذها معي أيضًا.

استدار مايك لينظر حيث أشارت.

- طفلة؟ لماذا تريدينها؟

- رهينة إضافية لتبقيهما هادئين؟ بالإضافة إلى كونها تتحدّث، على عكس معظمهم. سيكون الحديث إليها مسليّا خلال رحلة الإبحار الطويلة.

***

وقف آدم على الشاطئ، يرقب بوادر الفجر التي أخذت تنتشر في الفضاء رويدًا رويدًا. استقام نوح إلى جواره في وضعيّة صارمة، عاقدًا ذراعيه على صدره، وقد شردت نظرات كليهما نحو الأفق البعيد الذي تحجبه طبقات الضّباب والعتمة والسّكون. رنا آدم إلى معلّمه، كان صمته عميقًا وتجهّمه مطبقًا. لم يكن قد سأله منذ الأمس، إن كان قد فقد أحد أفراد عائلته خلال الهجوم.. لا يذكر أنّ نوحًا قد تحدّث أبدًا عن عائلته في أيّ وقت سابق، فتجرّأ وسأله:

- هل يهمّك أمر أحد الأسرى؟

استدار نوح ليواجهه، ثمّ هزّ رأسه نافيًا.

- إذًا، لماذا تبدو غاضبًا؟

عضّ آدم على شفته ما إن غادرت الكلمات فاه، وجد سؤاله سخيفًا فجأة، فكيف لا يغضب بعد كلّ ما أصاب القرية وأهلها؟ إلّا أنّه يشعر بذلك الغضب المستعر، الشخصيّ جدّا، وهو يختلف عن حزن روان وارتباك الحكماء وفزع الأهالي، كان نوعًا من الغضب الصّافي الموجّه ضدّ كيان بعينه، وقد بدا لآدم نقيّا ونابضًا بوضوح مدهش.

ابتسم نوح وهو يقول بسخرية مرّة:

- كنت أتساءل، على من سيلقون اللّوم هذه المرّة!

- من تقصد؟

- الحكماء!

رفع آدم حاجبيه في استغراب، وانتظر أن يفصح صاحبه. لقد شعر في وقت مضى بالعداء الذي يكنّه المسخّر الكهل تجاه مجلس الـ«كوتانا»، غير أنّه لم يشرح دوافعه في الماضي.

- منذ نحو ثلاثين عامًا، حدث «الطوفان العظيم».. فيضان أغرق القرية.. كان موقعها مختلفًا في ذلك الزّمن، فقد شيّدت البيوت الطينية على الشاطئ مباشرة. استمرّت الأمطار أسابيع طويلة بلا انقطاع وتسلّل الماء من الشقوق وتسرّب عبر الأسقف.. ثمّ في ليلة مهولة، ارتفع الموج فجأة وغمر الأكواخ ليجرفها كلّها!

زفر المسخّر هواءً ثقيلًا، فيما تفكّر آدم في مشهد «التسونامي» المرعب. كان موقع القرية الجديد على مسافة ميلين تقريبًا من الميناء، انتقى مشيّدوها موقعها بحرص لحمايتها من العوامل الجويّة والهجمات البشريّة، تحرسها الغابة من جهة والتلال الجيرية من الجهة الأخرى.. لكنّ هذا لم يكن الوضع في الماضي.

- استيقظت الجزيرة على آثار الكارثة، فقدت عائلات كثيرة أفرادها، لكنّ الخسائر البشريّة لم تكن أقسى الخسائر.. فقد أخذ الماء مخزون الأرز والبقول، وأعدادًا من القطعان، وغرقت الحقول وفسدت المحاصيل.. كانت الحياة عسيرة منذ أسابيع من المطر، لكنها غدت مستحيلة بعد تلك الليلة!

فكّر آدم أنّ الوضع لم يختلف عن حريق الأمس، فالجزيرة ستعاني الجوع في الأيّام القادمة، وقد يقتصر قوت السّكان على السّمك وورق الشّجر وبعض الفاكهة البريّة لبعض الوقت.

- بعد أن استحالت الحياة على الأرض، لجأ السكّان إلى دهاليز الكهف للاحتماء من الماء. لقد جاهد المسخّرون للخروج تحت العاصفة المستعرة للحصول على القوت يوميّا، لكنّ الليالي كانت باردة والخشب الرّطب لا يصلح للاحتراق، فكان المسخّرون ينهكون أنفسهم ليلًا للحفاظ على الشعلة مستعرة للتّدفئة، ثمّ يرهقهم السّعي نهارًا للبحث عمّا يصلح للأكل.. عندها، قرّر المجلس أنّ على الـ«آم» إيجاد سبيل آخر للنجاة، فقرّروا إرسال فرقة استكشاف إلى الأعماق المميتة..

- الأعماق المميتة؟

- نعم.. المسارات السّطحيّة للكهف آمنة، حيث يتدرّب المسخّرون.. لكنّ الدّهاليز تمتدّ أعمق وأطول بكثير، يمكنك السّير فيها لأيّام دون توقّف.. حتّى تصل إلى الأعماق، حيث تعيش كائنات الـ«تانين»!

- الـ«تانين»؟!

- إنّها كائنات عملاقة ومتوحّشة، يقال إنّها تنفث النّيران من أفواهها الضخمة!

- فعلًا؟

نمّت نبرة آدم عن دهشة ساخرة، فقد بدا توصيفه لكائنات الـ«تانين» شبيهًا بما يعرفه عن التّنانين! لم تكن التّنانين سوى أسطورة متداولة في حضارات كثيرة حول العالم، لكنّها ضرب خيال لا وجود له، وقد كان من العجيب أن تضمّ أساطير الـ«آم» كائنات ذات قرابة بالتّنانين!

- كانت محاولة محكومة بالفشل، مجرّد تخبّط عشوائيّ ليبعدوا اللائمة عن أنفسهم ويتخلّصوا من وصمة العجز! أرسلوا الضحايا في مهمّة مآلها الموت دون أن يرفّ لهم جفن.. بعد أيّام، انقطع المطر، وخرج السكّان إلى السّطح.. لكنّ المستطلعين لم يرجعوا أبدًا. وقد كان والدي واحدًا منهم.

تلت تصريحه لحظة حداد صامت، ثمّ جاء صوت نوح مرّة أخرى:

- يقولون إنّ المسخّرين كانوا يروّضون الـ«تانين».. منذ زمن بعيد!

تلبّس آدم الاهتمام.. يروّضون التّنانين، كما يروّضون الحوت القاتل! في تلك اللّحظة، شعر برغبة في تصديق تلك الأسطورة، ألم تكن أشياء كثيرة تبدو له غير معقولة ولا قابلة للتّصديق منذ شهر واحد؟ إذا كان قد صدّق هبة العلاج باليد العارية، ورفع الموج بقوّة داخليّة صافية، فلماذا لا يصدّق أمر التّنانين، والمسخّرين الذين يركبونها مثل المطيّة؟

- لكنّهم لم يعودوا يفعلون؟

- الـ«تانين» لم تعد تخرج إلى السّطح.. منذ قرون لم يرها أحد. ربّما تعيش في الكهوف العميقة والمظلمة، وقد تعوّدت العتمة، فأصبح ضوء النهار يعشيها.

ابتسم آدم في تهكم خفيّ، كأنّ ضوء النّهار من حولهم يعتبر ضوءًا حقيقيًا! لا اعتبار لذلك النّهار الباهت أمام شعاع الشّمس السّاطع. قال في فضول:

- إذًا، كيف تعرفون بوجود التّنانين.. أقصد الـ«تانين».. إن كانت لا تخرج إلى السّطح أبدًا؟ ألا يمكن أن تكون قد انقرضت؟

- لأنّ المحكومين بالذّهاب إلى الأعماق لم يعودوا أبدًا.. انتهى بهم الأمر طعامًا لها. إنّ وجبة بشرية تعتبر وليمة لا تعوّض بالنّسبة إلى كائنات الأعماق التي تقتات على الفطريات وديدان الأرض على الدّوام.

لم يقتنع آدم، استمرّ يقول:

- كيف تعرفون يقينًا أنّها أكلتهم؟ ماذا لو تاهوا عبر الأنفاق؟ أو شحّ الزّاد والماء فقضوا جوعًا وعطشًا؟

قاطعه نوح بلهجة حاسمة:

- لقد تأكدت بنفسي.. بعد أن أصبحت مسخّرًا وحصلت على الإذن بدخول الكهف، اغتنمت الفرصة لاستكشاف الأعماق.. لقد دخلت السّرداب ومشيت لأيام، حتى عثرت على العظام البشرية.. عظام مهشّمة بفعل قوّة ساحقة، مثل فكّي حيوان ضارٍ!

حبس آدم أنفاسه وهو يتخيّل المشهد: رحلة نوح الطويلة عبر الدّهاليز المعتمة ومشيه الحثيث، يبحث عن بصيص أمل، علّه يصل إلى آثار أهله الذين فقدهم منذ عقود.. حتّى يتوقّف أمام البقايا البشريّة المتآكلة. ربّما يكون هؤلاء الأفراد قد قضوا جوعًا أو عطشًا أو تساقطت الحجارة فوق رؤوسهم، ربّما تشوّهت البقايا في وقت لاحق بسبب القوارض، ربّما لم يلتقوا التنانين قطّ، والأرجح أنّ التنانين مجرّد أسطورة خيالية عارية من الصحّة.. وربّما إذا عثر مستكشفو الأعماق على مصدر ماء وغذاء لبقوا على قيد الحياة، إلا أنّ النّقاش في هذا سيكون بلا معنى، فقد فَقَد نوح والده بالفعل، التهمته التنانين أم قضت عليه الأعماق، لا يهمّ، فذلك فارق بسيط في الملابسات، وسيبقى حقده على الحكماء ومجلسهم قائمًا.

التقى روان في وقت سابق تلك الليلة وتلقّى حبّات الدّواء المزيّفة، لقد عملت طوال النهار وجزءًا من الليل برفقة متدرّباتها لصنع المئات منها في وقت وجيز. لن تميّز أيّ عين غير خبيرة الفرق بينها وبين الحبوب الأصليّة، من ناحية الشكل والطعم أو الرّائحة. بدا عليها التأثّر وهي تقدّم جراب الجلد الحافظ من الرّطوبة والمغلّف من الدّاخل بطبقة من شمع العسل العازلة، وتضعه بين كفّيه، همست في قلق:

- أنت واثق أنّك تريد القيام بهذا؟ هل ستكون بخير وحدك؟

وجد آدم من المُرضي أن يحظى باهتمامها أخيرًا، باعتبار العناء الذي يتكبّده من أجل قومها. حافظ على الابتسامة الواثقة وهو يطمئنها:

- لا تقلقي.. أدرك جيّدا ما أفعله.

كانت لديه خطّة ما، تعتمد على قدر وافر من الحظّ والتّوفيق، غير أنّه صار يتصدّر للمهامّ الحرجة دون تردّد، كأنّما قد تقبّل دوره كمخلّص لـ«آم». لكنّ الجمود عاد إلى ملامحه، حالما ابتعدت خطواته، وارتجفت أطرافه حين ولّى وجهه أخيرًا تّجاه الموج والضّباب.

أخذ نفسًا عميقًا، ثمّ قال مخاطبًا نوح:

- إذًا، هل تنادي لولا من أجلي؟

بوسعه استغلال أيّ مساعدة متاحة. سيكون من الحماقة أن يسبح ثانية باتّجاه السّفينة. إذا فعل، فربّما سيكون في حال أقرب لما يتوقّع مايك أن يجده عليه -من ناحية الإنهاك والضعف، بعد ثلاثة أيّام من الجوع والجفاف، لكنّه سيجازف بأن يبدو أفضل حالًا، في سبيل الوصول السّريع.. والمريح. ربّما لن يترقّب مايك وقتًا أطول قبل الإقدام على المحاولة التّالية، لذلك.. لا وقت يضيِّعه.

قبل المجيء إلى الشاطئ ارتدى القميص والبنطال اللذين حصل عليهما من مقصورته في السّفينة منذ أيّام. استعاد الرّداء المريح والسّروال القصير الذين وفّرهما سكّان الجزيرة بعد رجوعه، لكنّه يحتاج إلى أن يكون في وضعه المألوف، كأنّه لم يطأ أرض الجزيرة قطّ مذ غادرها قبل نحو أسبوع. كانت ملابسه المجعّدة والقذرة مناسبة تمامًا. سيفي الغطس في المحيط بالغرض لطمس آثار الطين والرّمل التي علقت بها في أثناء سعيه عبر دروب القرية وتسلّقه للصّخرة.

صفّر نوح، ثمّ ترقّب كلاهما برهة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ربّما عليك أن تعلّمني هذا الصّفير!

ابتسم نوح وهو يومئ برأسه.

- هل تريد أن تجرّب؟

أشار نوح بأصابعه، يفرد الأصابع الثلاثة الوسطى، ويثني الإبهام فوقها ليخلق نوعًا من الفراغ الضيّق بينها، ثمّ يجمع لسانه مثل اللّفافة ويطبقه على الثقب الذي يتخلّل الأصابع، وينفخ. حاول آدم عدّة مرّات، حتّى أطلق الصّفير الحادّ بنجاح. ابتسم في فخر. إنّه ينجح في شيء على الأقلّ! يلزمه هذا القدر من الإنجاز لرفع معنويّاته، باعتبار المخاطرة التي هو بصددها.

- حسنًا، لنجرّب الآن!

كانت الأوركا قد وصلت إلى الشاطئ بالفعل، وأخذت تلوّح بذيلها. أشار إليها نوح، فغطست ثانية واختفت عن الأنظار. ترقّب آدم دقيقة أخرى ليتحقّق من ابتعادها، ثمّ أطلق الصّفير الحادّ. مرّت ثوانٍ ثقيلة قبل أن يظهر ظلّ الحوت في الأفق.

استولت الابتسامة على ملامح آدم وقد غمرته السّعادة. سيكون بخير. إذا شعر بأيّ نوع من الخطر ستكون لديه خطّة بديلة: يصفّر، فتأتي لولا لنجدته. ستكون شبكة الأمان الخاصّة به في هذه العمليّة.

خطا باتّجاه الشاطئ وهو يتحسّس الجراب المعلّق إلى وسطه، سيكون عليه أن يجد سبيلًا لإخفائه حال صعوده إلى السّفينة، لم تكن ثيابه تسمح بمداراة صرّة بهذا الحجم، مدّ كفّه ليربّت خطم الأوركا بلطف ويستعيد ذلك التّرابط العجيب الذي يستشعره في حضورها، همس وهو يمتطيها بحركة رشيقة:

- هيّا بنا يا فتاتي.

قفزت لولا لتغطس على الفور، واستمرّ يوجّهها بتربيت خفيف على جانبها يوحي إليها بالانعطاف يمينًا أو شمالًا. لم يكن يمتلك حاسّة الاتّجاه التي يعتمد عليها البحّارة، حتّى بالنّسبة إلى كونه هجينًا، فهو يدرك غريزيًا اتّجاه «آرا» -وقد تمكّن من تمحيص تلك النظرية بنفسه منذ أيام- غير أنّ حدسه لا يعمل بالطريقة ذاتها بالنسبة إلى باقي الاتّجاهات، ولم يكن ليعثر على موقع «الأسطورة» والأسطول التّابع لها بتلك السّهولة. كان يفترض بالحرّاس أن يسحبوا العلامات المطاطية العائمة التي تدلّ على الطّريق من السّفينة إلى اليابسة -حين تعرّضوا للأسر- وقد كان من حسن حظّه أن تفشل مهمّتهم، فقد كان يعتمد على العلامات ذاتها للتنقّل في الاتّجاه المعاكس.

لاحت «الأسطورة» أخيرًا في الأفق، تجاورها مثيلاتها من السّفن التّجاريّة التي هبّت تؤازرها. أخذ آدم نفسًا عميقًا، ثمّ همس للحوت:

- الآن، علينا أن نغطس طويلًا.. حسنًا؟

يجهل إن كانت الكلمات المنطوقة تعني شيئًا للدّابة، إلّا أنّه يعتمد على استيعابها لحركات جسده. شدّ على زعنفتها العليا بقوّة، فغطست على الفور لتسري تحت الماء. استمرّ يشدّها في إصرار فيما يظهر ظلّ السّفن العملاقة التي تطفو في المحيط، ليزداد قربًا. أحرق الماء المالح حدقيته المفتوحتين على اتّساعهما، وهو يثبّت نظراته على سطح الماء ويوجّه الحوت للبروز في الموقع الصّحيح.

شهق حين انشقّ البحر عنهما أخيرًا، وقد غدا وراء «الأسطورة»، في الموضع ذاته الذي تربّص فيه خائفًا يرتعد وجسد روان فاقد للوعي مرتخٍ بين ذراعيه. سحب أنفاسًا سريعة متلاحقة، ليعوّض نقص الأكسجين طوال فترة الغطس التي لا يدرك كم امتدّت تحديدًا، ربّت ظهر الأوركا في امتنان، لقد أوصلته إلى هنا، سيكون عليه أن يعتمد على نفسه منذ الآن.

تناول من جرابه الثاني سلاحه السّريّ: مغناطيس النيوديميوم، كان قد عثر عليه ضمن قطع الخردة داخل حطام محرّك طائرة. ذلك المغناطيس شديد القوّة، وقد جرّبه قبل ذلك وتأكّد من تحمّله لوزنه، ألقى المغناطيس عاليًا فارتطم بالصفائح المعدنيّة العريضة التي تصنع غلاف السّفينة الخارجيّ بلطخة عنيفة، قبل أن يلتصق بها، شدّ آدم الحبل المتّصل بالمغناطيس عبر خطاف ملتحم ليستوثق من ثباته.

قفز بخفّة، ليتعلّق بالحبل ويشرع في التسلّق، ثمّ سمع صوت «لولا» وهي تستدير لتغطس من جديد. لم تكن الكوّة ترتفع أكثر من مترين عن سطح البحر، كان عليه أن يتشبّث مليّا، ثمّ يخطو إلى الأعلى، خطوتان ربّما، وسيكون في مستوى الكوّة، كانت العمليّة مختلفة عن تسلّق الصّخرة، إلّا أنّ أطرافه المُدرَّبة لم تجد صعوبة في الزّحف فوق الصفائح الملساء معتمدًا

على دعم المغناطيس، يكمن التحدّي في فتح الكوّة ذاتها، لم يكن هناك مقبض خارجيّ، وقد بدت مُحكمة الإغلاق من الدّاخل لأسباب بديهيّة.

لوهلة، بدت الخطّة برمّتها غبيّة. كان آدم يتعلّق بجانب السّفينة، تتأرجح قدماه في الهواء كلّ حين، ثمّ يستعيد توازنه وتستقرّ قدماه فوق السّطح المعدنيّ فيما تتشبث قبضته بالحبل المشدود وتحاول الأخرى فكّ مفصلة الكوّة، إلا أنّ المدخل الوحيد المتاح لم يكن يستجيب لمحاولات الاقتحام.. بعد دقائق من الجهد، كانت أصابعه قد تورّمت، لكنّ الدفّة لم تتحرّك قيد أنملة، تنهّد، ثمّ رفع نظره إلى أعلى، على ارتفاع ثلاثة أمتار فوق رأسه، تظهر نوافذ مقصورات الطّابق الثاني حيث يقيم البحّارة. لم يكن يفترض به أن يظهر أمام أحدهم بعد، إلّا أنّه يضطرّ الآن إلى تعديل الخطّة، كانت هناك نافذة واحدة مفتوحة، ستكون وجهته.

من حسن حظّه أنّه قد استعدّ لاحتمال فشل الخطّة الأولى، ووضع خطّة بديلة. أخرج من جرابه مغناطيسًا إضافيًا، كان قد جهّزه تحسّبًا لضياع الأول أو سقوطه في الماء، استجمع طاقته وهو يسحب نفسًا طويلًا ثمّ ألقى المغناطيس في اتّجاه الأعلى بأقصى ما يملك من قوّة. لم يكن تسديده دقيقًا مثل المرّة الأولى، بالنظر إلى تأرجحه من الحبل وعدم ثبات وضعيّته على جانب السّفينة، فاستقرّ مغناطيس النيوديميوم على مسافة أذرع قليلة من الوجهة محدثًا لطخة أخرى، لم يحمل همّ اللطخة الأولى، فهي على مستوى غرف الآلات الصّاخبة بطبعها، لكنّ غرف البحّارة أشدّ حساسيّة وقد تثير الجلبةُ انتباهَ بعضهم!

مع ذلك، لم يكن بوسعه إلا مواصلة التقدّم، ثنى ذراعيه واحدة إثر الأخرى يتمطى، وحرّك أصابعه الحرّة يخفّف أثر الشدّ العضلي للتشبث المستمرّ بالحبل، ثمّ استأنف رحلة الصّعود. بعد دقائق من التسلّق، أصبح

على مستوى النافذة أفقيًا، لكنّ عليه القيام بقفزة جانبيّة ليصل إلى الفتحة، أخذ نفسًا آخر، يقاوم الإرهاق وتقرّح راحتيه، تلك هي الخطوة الأخيرة قبل أن يصل إلى هدفه. اندفع منزلقًا على جانب السّفينة، وغامر بترك الحبل ليتشبث بكلتا يديه بحافّة النافذة، تهدّجت أنفاسه وهو يرفع جسده حتّى أطلّ داخل الغرفة من خلال الفراغ الدّائريّ، ثمّ حشر رأسه وكتفيه داخله وتدحرج على الأرضيّة.. لم يكن قد تمالك لهاثه بعد، حين قبضت يد قاسية على ياقته وشدّته إلى أعلى في ضجر. قال بلهجة أمريكية شعبيّة:

- انظروا من لدينا هنا!

لقد أثار الانتباه، يلتحم بالعدوّ قبل الأوان، لكنّ هذا ثمن المخاطرة.. تخلّص آدم من قبضته بحركة متمرّدة، ثمّ قال باعتداد:

- خذني إلى مايك راسل.

حدّق فيه البحّار في شيء من الاستغراب، بدا واضحًا من قسمات آدم ولهجته وهيئته عدم انتمائه إلى السّكان المحليّين الذين يحتجزهم ربّ عمله على سطح السّفينة، أمّا ذكره مايك باسمه فيدعو إلى الاعتقاد بأنّهما يقفان على الجانب نفسه من الصّراع، لكنّ تسلّله الغريب مثل اللّصوص دليل إدانة واضح وضوح النّهار، لذلك وجب الإخطار بالواقعة. وجد نفسه في نهاية الأمر مضطرًا للاستجابة لطلب المتسلّل.

وبينما استدار البحّار الأمريكيّ باتّجاه الباب، مدّ آدم كفّه ليفكّ رباط الجراب الجلديّ عن وسطه، تركه يهبط بلطف على الأرض، ثمّ دفعه بقدمه بخفّة لينزلق تحت السّرير المنفرد الذي يحتلّ جانب المقصورة، سيكون عليه أن يعود من أجله لاحقًا.

سار في الممرّ الطويل، ثمّ ارتقى الدّرج يسوقه البحّار الغليظ. طرق الرّجل باب مقصورة مايك ووقف في احترام، حين فتح الباب، قال بلهجة متزلفة:

- آسف لإزعاجك في هذا الوقت المبكّر سيّدي.. لقد قبضت عليه متسلّلًا..

قاطعه مايك وهو يخطو في اتّجاه آدم بذهول:

- آدم! أنت حيّ! يا إلهي، ما الذي حصل لك؟ أين اختفيتَ في الأيام الماضية؟

تراجع البحّار في ارتباك، فيما وقف آدم في وضع عدائيّ وقد اكتست ملامحه علامات الغضب، أمّا وقد فشلت خطّة التسلّل خلسة، فقد قلّب الأمر على وجوهه كلّها في أثناء سيره وراء البّحار، فتوصّل إلى أنّ خير وسيلة للدّفاع هي الهجوم. أشاح بوجهه عن مايك وهو يقول في جفاف:

- أريد أن أرى والدي.

تراجع مايك عنه، وأحاط بهيئته بنظرة مشفقة:

- نعم، بالتّأكيد، لا شكّ أنّك قد مررت بتجربة قاسية، طبعًا، يمكنك أن تذهب للقاء والدك، إنّه في المقصورة ذاتها، أنت تعرف المكان..

استدار آدم وهمّ بالتحرّك، فاستوقفه مايك:

- آدم بنيّ، أنا سعيد بعودتك.. كان بوسعك المجيء إليّ في أيّ وقت، لم أكن لألومك على تسرّعك، يؤسفني أنّ الأمور سارت على هذا النّحو، لا شكّ أنّك مستاء بشأن صديقتك الشابّة.. ليتني أستطيع إصلاح الأمر من أجلك. حسنًا.. سوف نفعل شيئًا ما، أعرف أنّها لن تعود إلى الحياة مهما فعلت، وأنك ربّما لن تصفح عن هذا مطلقًا، لكنّني سأصحّح الوضع، لقد مررتَ بالكثير خلال الشّهر الماضي.. وأنت تستحقّ بعض الرّاحة، حسنًا؟

هزّ آدم رأسه في لا مبالاة، ثمّ سار مبتعدًا، حين وجد نفسه وحيدًا في الممرّ أطلق زفرة طويلة بعد طول سيطرة على أنفاسه القلقة، لقد فاق ردّ فعل مايك كلّ توقّعاته، ونجحت مهمّة التسلّل بعد تعثّرها الأوّل، لذلك يشعر بالامتنان لأنّ حظّه لم يتخلّ عنه بعد. لا تسير الأمور حسب الخطّة، لكنّه يرتجل كما يتطلّب الوضع، تنفّس حين صار تجاه باب غرفة والده الخاصّة، طرق برفق، ثمّ همس:

- أبي، هذا أنا!

سمع جلبة وتعثّرًا في الدّاخل قبل أن تفرج الدّفة عن وجه أشرف الذّاهل، هكذا صارت لقاءاتهما أخيرًا؛ مفاجآت صاخبة ملؤها الدّهشة. عانق البروفيسور ولده الشابّ غير مبالٍ برطوبة ملابسه التي لا تزال تقطر ماءً، سحبه ليجلسا على طرف السّرير، قبل أن يهتف في جزع:

- ما الذي حدث؟ أين اختفيت؟ لقد عاد مايك ورجاله مرّتين خلال الأيام الماضية.. لكنّك لم تكن برفقتهم.. قال إنّك تخلّفت لسبب ما، لكّنه لم يشرح كثيرًا!

ابتسم آدم في سخرية، لقد آثر المستثمر الغموض، لم يُرد أن يواجه الأب بفقدان ابنه في عرض المحيط، همس يحدّثه:

- لقد حدث الكثير.. أنت تعرف بشأن الأسرى؟

- أسرى؟

بدت أمارات الاستغراب في عيني أشرف، ربّما لم يغادر غرفته بتاتًا، تجنّبًا للاجئيْن من السّكان المحلّيين، وتجاهلًا لما يعمل عليه مايك، واصل آدم:

- لقد دحر المسخّرون الغرباء منذ يومين، فردّ مايك الهجوم بشراسة.. لقد أحرق بيوت القرية كلّها، واختطف عددًا من الأهالي!

اتّسعت عينا أشرف في دهشة، تواصل الصّمت للحظات قبل أن يهمس بدوره:

- أعرف أنّ البحّارة ليسوا على ما يرام.. لقد تناهى إليَّ أنينهم طوال اللّيل!

جاء دور آدم ليصاب بالذّهول، لقد كانوا في الكهف، يسرقون الحجارة! لم يمنعهم الدّواء من السّقوط فريسة المرض، إذا تمكّن من تنفيذ مهمّته فلن يشكّ أحد في صلاحيّة الدّواء، لقد كانوا مرضى قبل ذلك، سيشكّون في مناعتهم، وقد يتهيّبون لمس «حجارة الشّمس» مرّة أخرى بعد أن أصابتهم لعنتها، همس من جديد:

- لقد جئتُ في مهمّة.. سأحتاج إلى مساعدتك.

قاطعهما طَرقٌ على باب المقصورة، وقف آدم متأفّفا، كان مايك يفسد الجلسة كلّ مرّة، واجه بوجوم الرّجلَ المستبشر عبر الباب الموارب، يواصل لعب دوره كما يجب، قال مايك بلهجة مرحة مبالغ فيها:

- لديّ أخبار طيّبة يا رفاق: لقد حجزتُ لكما مكانًا على متن يخت يتّجه بعد حين إلى الدّيار! انتهت الرّحلة بالنّسبة إليكما، ستسبقوننا بالرّجوع، طالما أنّ مهمّتنا هنا لم تعد تعنيكما.. أرجو أن تمضيا سالمين، وربّما نلتقي في وقت ما!

تبادل آدم وأشرف نظرات مرتبكة، لقد كان ذلك الخبر السّعيد الذي يهفو إليه كلاهما منذ أيّام قليلة. آن أوان الرّحيل. كان يفترض به أن يطير فرحًا، إنّهما معا، هو ووالده، سالمان، ومعهما الحجر الذي تنتظره والدته في الدّيار، أليس الإقفال راجعين هو المآل المرتقب؟

ظهر وجه مانويلا خلف والدها، هتفت بدورها مرحّبة:

- يا إلهي، آدم! لم أصدّق حين أخبرني أبي بعودتك!

كانت تهمّ بالارتماء في حضنه، لولا أنّها لاحظت هيئته القذرة والمبتلّة، فأشارت إليه وهي تضيف:

- أظنّ أنّ عليك الحصول على حمّام دافئ وتغيير ملابسك أولًا.. ثمّ تجمع حاجياتك لننطلق.. سنغادر خلال ساعة واحدة!

هزّ رأسه ببطء، فيما يعمل عقله بسرعة متزايدة، وما إن غاب مايك وابنته عن نظره، حتّى عاد ليهمس لوالده:

- أمامنا ساعة واحدة لنتحرّك.. عليَّ أن أسترجع جراب الحبوب من مقصورة البحّار، سأحتاج إلى مساعدتك للوصول للدّواء الأصليّ.. يجب أن تعرف أين يحتفظ به مايك، هل فهمت؟

أومأ أشرف في تفهّم ثم استدار ليشرع في جمع أمتعته.

- ماذا تفعل؟ ألم تسمع ما قلته؟

توقّف البروفيسور والتفت ليطالع ولده بابتسامة:

- لقد سمعت، لكنّنا سنحزم حقائبنا أيضًا.. سنستبدل الدّواء، وبذلك نكون أسدينا الخدمة التي يحتاج إليها السكّان المحليّون، وفرغنا من الجزء الخاصّ بنا من المهمّة! أنت لم تنس أنّ والدتك تنتظر أوبتنا، أليس كذلك؟ هذه فرصة جيّدة للعودة، لا أظنّ أنّ علينا تفويتها.

تسمّر آدم مكانه في صدمة، لقد كانت كذلك، إنّها فرصة مثالية، إلّا أنّه وعدها.. قال إنّه سيكون جديرًا بثقتها هذه المرّة، لا يمكنها أن تلومه إذا اختار الرّحيل الآن، لا أحد يمكنه أن يلقي باللّوم عليه! لقد خاطر بحياته من أجلهم وبعد حين، سيكون قد أوفى بوعده ونفّذ مهمّته، لن يرحل قبل أن يفعل.. ثمّ، هل يكون ذلك كلّ شيء؟

ربّما كان أوان الرّحيل قد حان فعلًا.

***

لم تبد ريحان منطلقة حين رافقتها مانويلا إلى مقصورتها الخاصّة، استعدادًا لرحلتها نحو العالم الخارجيّ، رأت أن تفصلها عن باقي الأسرى، بعد أن اقتيد شقيقها والمسخّر الثاني إلى غرفة حجز منعزلة.

حين عادت مانويلا لرؤيتها بعد استقبال آدم، ألفت ملامحها متجهّمة، لم يبد أنّ مزاجها قد تحسّن على الإطلاق مذ تركتها، تلقّت نظراتها الحادّة وهي تطالعها شزرًا برحابة صدر، وهتفت بابتسامة واسعة:

- أنت مستعدّة لرحلتك الأولى خارج الجزيرة؟

لم تردّ عليها الفتاة، رغم الفضول المرتسم في مقلتيها. كانت قد غدت صامتة فجأة، مثل بقيّتهم، كأنّ ثرثرة الأمس لم تكن.

- أنتِ مستاءة مني، أليس كذلك؟

أشاحت ريحان بوجهها ولم تتكلّم.

- لأنّني فصلتك عن أهلك؟ لكنّ شقيقك سيأتي معنا، أليست هذه صحبة كافية؟

نطقت ريحان أخيرًا بلهجة اتّهام لاذعة:

- لقد استغللتني!

زفرت مانويلا، كانت الصّغيرة محقّة، لقد أدّت ملاحظتها إلى اكتشاف المسخّرين، ربّما أدركت متأخّرة أنّ الصّمت كان الخيار الأفضل. قالت تعتذر:

- لم أكن أقصد استغلالك.. لقد جذبتني ضحكاتك، أتذكرين؟ فكّرت أنّنا قد نصبح صديقتين.

- لا أظن أننا قد نفعل بعد الآن!

كانت لهجة الطفلة حاسمة إلا أنّ مانويلا لم تيأس بسهولة، قالت وهي تضع في كفّها قطعة من السّكاكر:

- هل ترغبين في تجربة هذه؟ هل تصنعون الحلوى في قريتك؟

حدّقت ريحان في قطعة السكّر الصّلب ذات اللّون الأحمر البرّاق والملفوفة في ورقة بلاستيك شفاف. كان لونها مغريّا وشكلها الدّائريّ شهيّا. تذكّرت كرات العسل التي تصنعها المعالجة مارتا من أجل الصّغار. كانت تحصل على النّصيب الأوفر منها في كلّ مرّة، إلّا أنّ هذه تبدو مختلفة. قالت مانويلا تغريها:

- إنّها بنكهة الفراولة.. هل تعرفين الفراولة؟

هزّت ريحان رأسها علامة النّفي، فأضافت مانويلا:

- تذوقيها إذًا.. ستعجبك! وحين نصل إلى وجهتنا، ستأكلين فاكهة الفراولة أيضًا.

استمرّت ريحان تطالعها في حذر، فأدركت مانويلا تهيّبها، تناولت قطعة بدورها ووضعتها في فمها وأخذت تمصّها بتلذّذ، ابتسمت في رضا، وهي تلمح الفتاة تفكّ الغلاف وتشرع في لعق قطعة الحلوى بدورها. استدارت لتواجه صوان ملابسها، كان عليها التّحضير للرّحلة مثل الآخرين. أنزلت حقيبة سفرها التي خزّنتها في الرّفّ العلوي، وأخذت تطوي ثيابها وترصّها داخل الحقيبة، فيما ترمق ريحان بنظرة جانبيّة.

- هل تعلمين، ستكون هناك أطعمة كثيرة مختلفة بوسعك تجربتها حين نصل إلى الدّيار..

بترت جملتها وأطلقت صرخة مفاجئة، حين اندفعت ريحان نحو الباب لتنفذ إلى الممرّ مثل قطّة هاربة. غفلت مانويلا عن إيصاد الباب بعد رجوعها، تركت ما بين يديها وقفزت إثرها وهي تهتف:

- إلى أين تذهبين؟

لم تتوقّف ريحان عن الرّكض، حتّى اصطدمت بحاجز بشريّ، رفعت رأسها لتطالع آدم في صدمة، كان قد حصل على حمّامه الدّافئ وارتدى طقمًا من الثياب النظيفة من خزانة ملابسه، رمشت الطفلة في ذهول وهي تحدّق في هيئته المختلفة، ثمّ همست:

- المعلّم آدم!

عبس آدم وتجعّد جبينه، كان عليه أن يحذّرها من كشف سرّه، إلا أنّه لم يملك وقتًا كافيًا. كانت مانويلا تقترب ضاحكة لتقول:

- أنت تعرفين آدم، أليس كذلك؟ سيكون ضمن رفقة السّفر! هل يشعرك هذا بالاطمئنان؟ مزيد من الوجوه المألوفة؟

حرّكت ريحان رأسها اتّجاهه في نظرة مستفسرة، فهزّ رأسه ببطء. تمنّى ألا تنطق الطفلة بأيّ عبارة غبيّة، إلّا أنّها لزمت الصّمت.. «فتاة نبيهة»، فكّر آدم، ثمّ قال مخاطبًا مانويلا بالإنجليزية:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

تنهّدت وهي تشير إلى ريحان:

- أحاول كسب ودّها، لكنّ كلّ ما تفكّر فيه هو الهرب.

ضحك بخفوت ثمّ ردّد بمرارة:

- الهرب؟ أين يسعها الهرب؟ هل ستلقي بنفسها من سطح السّفينة مثلًا؟

استدعت الكلمات صورة ذهنية للمعالجة الشابّة التي قفزت إلى الماء منذ ثلاثة أيّام، فَعَلَت سحنة مانويلا حمرة خجل ناتجة عن إحساسها بالذّنب. قالت أخيرًا:

- معك حقّ.. لن تذهب إلى أيّ مكان، أليس كذلك؟

قال آدم مقترحًا، وقد أوحى له حضور ريحان بفكرة ما:

- يمكنني الاهتمام بها إذا شئت، ويمكنك التفرّغ لاستعداداتك...

تردّدت مانويلا لثوانٍ بسيطة، ثمّ استسلمت لرغبة خفيّة في مراضاته، كانت اللّعبة الذّهنيّة التي يمارسها على مايك وابنته تؤتي أُكلها. أومأت وهي تقول بلطف:

- حسنًا. يجب أن نكون على متن اليخت خلال نصف ساعة!

أشار آدم إلى ريحان وقال بالعربيّة:

- إذًا، ما رأيك في جولة قصيرة على متن السّفينة قبل الرّحيل؟

وضعت ريحان كفّها في كفّه طواعية. بدت هادئة ومطيعة، ممّا بثّ الطمأنينة في نفس مانويلا. ابتعد آدم برفقة الفتاة حتّى انعطفا في نهاية الممرّ. وَشوَشتْ ريحان:

- هل جئتَ لنجدتنا؟

أومأ آدم في صمت، ثمّ سألها:

- أين الآخرون؟

- لقد فصلوا مروان وأوران عن البقيّة، أخذوهم إلى مكان ما.. الآخرون على السّطح.

- حسنًا. سنفعل شيئًا من أجلهم، أعدك.. لكنّنا سنذهب في مهمّة أخرى قبل ذلك.

تبعته ريحان بلا نقاش. تحرّكا على الدّرج وعبر الممرّات، وكان آدم يبادل البحّارة إيماءات عابرة ويمضي في طريقه. لم يتشكّك أحد بشأنه، ولم يوقفهما أحد. توقّف أخيرًا أمام المقصورة التي تسلّل عبرها منذ نحو ساعة. تلفّت في حذر، ثمّ تظاهر بتأمّل لوحة جداريّة حين مرّ أحد البحّارة إلى جوارهما. انتظر حتّى توارى عن الأنظار، ثمّ أشار إلى ريحان:

- ستدخلين المقصورة، تحت السرير الأيمن ستجدين جرابًا جلديًا.. فلتحضريه!

همست:

- ماذا لو كان أحدهم داخل المقصورة؟

- لا تقلقي، لديّ خطّة.. سيسير كلّ شيء على ما يرام.

ابتسمت وهو تومئ علامة الاتّفاق. أدارت ريحان أُكرة الباب، ثمّ صرخت. تناهى إلى آدم صوت البحّار الفظّ الذي قبض عليه سابقًا ذلك الصّباح، وهو يشتم بصوت عالٍ. انتظر آدم لعشر ثوانٍ، ثمّ عشرين، قبل أن يقتحم الغرفة بدوره وهو يمثّل اللّهاث. كانت ريحان تحت السّرير تصرخ ملء رئتيها، فيما يشدّ البحّار ساقها، يجذبها بعنف، وهي تتمسك بقائمة السّرير البعيدة.

هتف آدم وهو يتظاهر بالتقاط أنفاسه:

- هل أمسكتَ بها؟ إنّها سريعة.. أعياني الرّكض خلفها في الممرّات!

رفع الرّجل رأسه في دهشة. كان شكل آدم قد تحوّل بعد استبدال ثيابه وتهذيب هيئته، إلا أنّه تعرّف على الشاب الذي استقبله مايك بحفاوة منذ حين. قال بتلعثم:

- هل.. تريد أن أخرجها؟

- لا عليك، سأتصرّف.

انحنى أسفل السّرير، وقال بالعربيّة:

- هل الكيس بحوزتك؟

أومأت الفتاة، فقال وهو يمدّ ذراعه نحوها:

- إذًا هيّا بنا.

زحفت ريحان خارج مخبئها مثل فتاة مطيعة، واستقامت واقفة وهي تخفي الجراب وراء ظهرها بحرص. طأطأت رأسها لتتجنّب نظرات البحّار الفظّ المتفحّصة، فيما هتف آدم ثانية وهو يحيّي الرّجل:

- أعتذر لإزعاجك مرّة أخرى! نحن راحلان بعد حين على متن اليخت. آمل أن نلتقي.. يومًا ما.

بادله الرّجل التحيّة باحترام، وراقبهما وهما يغادران.

همستْ ريحان وهما يصعدان الدّرج:

- ماذا الآن؟

- سنذهب للقاء أبي.

ألفيا أشرف في غرفته. ألقى نظرة استغراب على ريحان، فهمس آدم:

- كانت برفقة مانويلا.. ساعدتني على استعادة الجراب. هل عرفت أين يحتفظ مايك بالدّواء؟

أومأ أشرف في حماس ثمّ وشوش:

- دع الأمر لي.. هل يمكنك في الأثناء أن تضمن بقاء مايك على السّطح؟

لم تبد مهمّة عسيرة لآدم. يمكنه أن يشغل الرّجل ببعض الأحاديث السّطحية، ويترك له فرصة الاعتذار لفترة أطول. تركت ريحان الجراب

بين كفي البروفيسور، فجعله ينزلق داخل حقيبة سفره، ثمّ سحبها بهدوء وخطا خارج المقصورة، فيما اتّجه آدم إلى السّطح مباشرة.

كان أشرف قد أنهى جولة قصيرة منذ حين بين الغرف، حتّى لمح سلّة الخيزران فوق مكتب مايك. لم يكن ذلك النّوع من الأوعية منتشرًا في الدّيار، لكنّه مألوف على الجزيرة. لعلّ مايك لم يعتقد أنّ أحدًا لن يفكّر في سرقة الحبيبات السّوداء، فلم يكلّف نفسه عناء إخفائها بعناية أكبر. إلّا أنّها داخل مكتبه، ولا يجرؤ كثيرون على دخوله عادةً.

تلفّت في حذر يراقب جانبي الممرّ، ثمّ أدار أُكرة الباب ودفعه بهدوء. قال تحسّبًا:

- مايك، هل أنت هنا؟

لم يظهر أحد في نطاق رؤيته، فزفر وهو يدلف إلى الدّاخل. لا يعلم كم يمكن لآدم أن يشغل المستثمر، لذلك عليه أن يستعجل. لا يريد لأيّ فرد آخر من الطاقم أن يشكّ في أمره أيضًا. سار مباشرة حتّى المكتب، رفع الغطاء عن سلّة الخيزران، ثمّ جمع أطراف خرقة القطن بسرعة، فتح النّافذة الدّائريّة وذرّى حبّات الدّواء في الهواء دون تردّد فتطايرت مع الرّياح. لم يكن من المُجدي الاحتفاظ بها، ستصنع المعالجة كميّات أخرى حسب حاجتها، لكنّ مايك لن يعثر على تلك التي اختلسها قط. دفع كفّه داخل حقيبة سفره وسحب الجراب الجلديّ، أفرغ محتوياته دفعة واحدة داخل السلة فوق الخرقة البيضاء، لتحلّ محلّ سابقاتها.

كان يدفع الجراب داخل حقيبة السّفر، حين فتح الباب وراءه فجأة. رغم الرّجفة التي اعترته والتّسارع في نبضات قلبه العجوز، استدار ليواجه القادم بملامح مطمئنّة. قال بهدوء:

- مايك، أنت هنا أخيرًا. كنت أبحث عنك!

خطا مايك راسل داخل المكتب في صمت وعيناه تنطقان بالرّيبة، سار حتّى وصل إلى المكتب، رفع غطاء سلّة الخيزران وألقى نظرة داخلها. كانت حبّات الدّواء لا تزال هناك، كما خلّفها منذ حين. عاد أشرف ليقول:

- اعذر تطفّلي، لقد طرقت الباب.. ثمّ رأيت السلّة، فغلبني الفضول. لقد تناولت هذا الدّواء كلّ يوم طيلة فترة إقامتي على الجزيرة. لكنّ هذه الحبيبات السّحريّة لا تزال لغزًا محيّرًا بالنّسبة لي.. هل تمانع إن حصلت على واحدة؟

هزّ مايك رأسه ببطء ووضع حبّة دواء في كفّ أشرف. دسّها البروفيسور في جيب سترته في امتنان جليّ. قال مايك أخيرًا وهو يلقي نظرة على حقيبة البروفيسور:

- أظنّك جئت لوداعي إذًا؟ اليخت في انتظاركما على الجانب الآخر من السّفينة.

صافحه أشرف بحرارة، ثمّ استدار مغادرًا المكتب. بدا مثل وداع عادي، ومع ذلك، وبعد كلّ ما حدث، لا شيء يبدو أكثر طبيعية من هذا الصّمت الثقيل بين الرّجلين. في الممرّ، التقى آدم الذي بدت ملامحه ممتقعة وشاحبة. همس الشابّ في قلق:

- هل نجحت؟

أومأ أشرف في صمت، فيما همس آدم مجدّدًا:

- لقد كنّا على السّطح، حين لمحنا فجأة حبّات سوداء تطير في الهواء! لم يكن شكلها واضحًا، فقد سقطت سريعًا في الماء.. لكن ربّما يساور مايك الشك.

- آه.. هكذا إذًا!

لعلّ مايك يرتاب بشأن أصالة الدّواء الذي يقبع في باطن السلّة الآن، ربّما يداخله الظنّ في تخلّصه من الدّواء الأصليّ عبر النّافذة المفتوحة، ولعلّ ظنونه قد تبدّدت بعد أن اطمأنّ إلى وجود الحبوب في مكانها. أيّا كان ما يفكّر به الآن، وحتّى لو لم يطمئنّ إلى استخدامه مستقبلا، فالأهمّ هو أنّه لن يعثر على مخزون جديد.. من هذا المنطلق تكون المهمّة قد تمّت بنجاح.

أمام الكوّة المفتوحة في الطّابق الثاني، أخذ اثنان من البحّارة يدليان سلّم الحبال المجدولة ليتّصل بسطح اليخت الصغير الذي سيقلّ المجموعة العائدة إلى الدّيار. دفع اثنان من المرتزقة مروان وأوران أمامهما ليهبطا أوّلًا. أطلقت ريحان صرخة مكتومة حين لمحت شقيقها يُقاد مثل المساجين. ضغط آدم على كتفيها مهوّنًا، ثمّ التفت إلى مايك في محاولة أخيرة:

- لقد حصلتَ على المسّخرين أليس كذلك؟ ما الذي تريده من النّساء والأطفال؟

حين صعد إلى السّطح منذ حين، ألقى نظرة سريعة على الزّاوية المكشوفة التي حشر داخلها عشرات من السّكان المحليّين. كانت الشّمس قد طلعت وأشعّتها الدّافئة تسلّط على بشرة أولئك الذين يمكثون على أطراف مساحة الحجز، فتحرقها بلا رحمة. مهما تدافعوا وتلاصقوا، كانت الخيوط الحارّة تصل إليهم بزاوية مائلة، وسيزداد الأمر سوءًا مع ارتفاع الجرم السّماوي في رحلة عروجه من الشّروق إلى الغروب. سيكون يومًا طويلًا وشديد الوطأة.

هز مايك كتفيه باستهانة:

- إنّهم مجرد ضمان. طالما أبقيتُهم تحت نظري فلن يجرؤ المسخّرون الآخرون في الجزيرة على مهاجمتنا.

- هل يمكنك على الأقلّ أن تمنحهم عباءات حامية، أو أوشحة يلقونها على أطرافهم ورؤوسهم.

ابتسم مايك وهو يطالعه في تفكّر:

- أنت ذو قلب رحيم يا ولد.. لا بأس بذلك.

ثمّ أشار إلى نايت الذي يقف إلى جواره:

- اطلب من رجالك توزيع بعض أكياس الخيش الفارغة على الأسرى. لا نريد أن يتأذّى أحدهم.. فلنُحسن ضيافتهم، حسنًا؟

ثمّ أطلق ضحكة صاخبة على نكتته السّمجة.

بعد اختفاء نايت، نزل الدّرج رجلان يذكرهما آدم جيّدًا: إبراهيم وأنوش. بالتأكيد، كان عليه أن يتوقّع أن يكونا على متن الرّحلة، ألم يقدّما كلّ المعلومات اللازمة لمايك راسل مقابل تذكرتين على ظهر وسيلة النقل التي ستأخذهما إلى العالم الخارجي!

انشغل مايك بوداع ابنته وتلقينها تعليماته الأخيرة، فيما نأى الرّجلان المحليّان عن المجموعة، يتجنّب أحدهما النّظر إلى الآخرين. كان كلاهما قد حصل على كيس الخيش لحماية الرأس والذراعين في أثناء رحلة الانتقال إلى اليخت. على الجانب الآخر، مكث أشرف وآدم برفقة ريحان التي أصرّت مانويلا على اصطحابها. همس آدم للطفلة:

- لديّ خطة لتحرير الأسرى لكنني أحتاج إلى المساعدة.. هل يستطيع شقيقك أن يصنع إلهاءً؟

هزّت ريحان رأسها في أسف:

- لقد فقد الحجر الخاصّ به.

- ماذا لو أحضرت حجرًا من أجله؟

نظرت إليه ريحان في استغراب، أنّى له بحجر في عرض المحيط؟

عاد آدم ليهمس:

- سأهتم بشأن الإلهاء، ستعودين إلى حيث يحتجز الأسرى.. اصعدي الدّرج خلسة، وحين تعمّ الفوضى، فليقفز الجميع إلى الماء.

كان من الإجحاف أن يكلّف الطفلة بتلك المهمة، لكنّها الأبرع في التّسلل والأفضل في الاختباء. ثم، لم تكن بشرتها الحنطية محل شكّ، مع ذلك، لم تكن أمامه خيارات تحالف إضافيّة، حين يقفز الأسرى إلى الماء سيكونون مكشوفين ومهدّدين، لكنّه يعتمد على قدرة الـ«آم» المذهلة على حبس أنفاسهم تحت الماء. يأمل أن تكون الإصابات محدودة حتّى يتدبّر وسيلة إنقاذ ملائمة.

حين أصبح سلّم الحبال متاحًا، تحرّك آدم بسرعة. همس لريحان:

- الآن!

ثمّ اختطف حقيبة سفر والده وقال:

- سأنزل هذه أولًا!

ترك حقيبته وحقيبة والده تنزلقان باتجاه سطح اليخت المنخفض، ثم لوح لمايك دون تعبير، قبل أن ينحدر خارج الكوّة، لمح بطرف عينه ريحان وهي تتسلّل خلسة لترتقي الدّرج في غفلة من العيون، فسارع ينزل السلم المجدول بخفة. سيكون الوقت المتاح لديه محدودًا.. جدًّا. الوقت الذي يلزم شابة رشيقة وثلاثة رجال متقدّمين في السّن لنزول الدّرج خطوة خطوة.. قبل أن ينتبه أحد إلى غياب الطفلة، أمِل أن يتأنّى كل منهم في رحلة الهبوط. هتف نحو الأعلى، حين أصبح في منتصف السّلم:

- خذوا حذركم! الحبال زلقة بسبب ندى الصّباح!

كانت محاولة بائسة للمماطلة، يدرك ذلك. جرّ الحقيبتين إلى داخل اليخت حيث مقصورات المسافرين، أجال بصره بعصبيّة في جميع الاتجاهات. كان عدد محدود من البحارة يتنقل في الأرجاء. أحصى أربعة، بالإضافة إلى القبطان، واثنين من المرتزقة اللذين ساقا السّجينين قبل ذلك. كانا يدخّنان بشراهة عند مقدّمة اليخت الآن، بعد أن أودعا الرّجلين الحبس. أخذ يفتح الأبواب واحدًا إثر الآخر ليُلقي نظرة سريعة. توقف حين أطل أحد البحارة، قال آدم بلطف:

- أبحث عن مقصورة خالية..

- يمكنك اختيار أي واحدة، باستثناء الأخيرة على اليمين، فهناك تحتجز الرّهينتان.

- شكرا لك.

اختصر ذلك وقتًا وجهدًا. دخل المقصورة الأقرب إليه، ألقى بحقيبته جانبًا وفتح حقيبة والده، فتّش بين حاجياته بفوضى حتى عثر على الجراب الجلدي الذي يحوي «حجر الشمس»، الحجر الذي أحضرته روان من أجل والدته. التقط الجراب وخرج على الفور، لم يعد أمامه وقت كثير، وراءه ظهر إبراهيم، كان أوّل الواصلين من المجموعة، تجاهله آدم وسار على عجل في اتّجاه المقصورة الأخيرة على اليمين، أدار الأكرة ليجد الباب موصدًا.. بالتأكيد، إنّها زنزانة، كان يجب أن تكن موصدة، هزّ الباب بعنف محاولًا الاقتحام، إلا أنّه لم يستطع أن يبالغ في استخدام القوّة حتّى لا يجلب الانتباه إليه.

وقف في حيرة. الثواني تمرّ، قريبًا سيصل الآخرون، في تلك اللّحظة، لمح أنوش في نهاية الممرّ، ربّما يكون والده هو التّالي! كم أمامه من الوقت قبل أن يحين دور مانويلا وتدرك غياب ريحان؟ اقترب منه إبراهيم -خاله-

بخطوات حثيثة. كان قد اختفى عن نظره بعد وصوله، فافترض آدم أنّه يختار المقصورة الخاصّة به. حين صار قبالته، دسّ في كفّه كومة معدنيّة وهمس:

- أظنّك تحتاج إلى هذه!

حدّق آدم في سلسلة المفاتيح مشدوهًا، فيما استطرد إبراهيم:

- لقد رأيتهم كثيرًا خلال الأيام الماضية يستخدمونها لفك أقفال الأبواب، من حسن الحظّ أنّ أصابعي لا تزال بنفس الخفّة والرّشاقة!

أخذ آدم يجرّب المفاتيح بسرعة محمومة، حتّى دار أحدها أخيرًا في القفل. فوجئ أوران ومروان باقتحامه الغرفة على حين غرّة، سارع يفكّ رباط أيديهما وهو يهتف بأنفاس مبهورة:

- تحرّكا، لا وقت أمامنا نضيّعه..

كان لا يزال يعالج رباط أوران حين سمع صوت إبراهيم بالخارج:

- آنستي، أنتِ هنا!

استدار آدم نحو الباب في اللّحظة التي تجاوزت فيها مانويلا العتبة، كانت تشهر مسدسًا ويداها ترتجفان في عصبيّة، حدّقت مشدوهة في وجه آدم وقد شلّت حركتها الصّدمة، همهمت:

- آدم.. أنت؟ لقد ظننت الطفلة...

أجالت بصرها في المكان تبحث عن ريحان التي حسبتها تسلّلت لإنقاذ أخيها. تجهل إن كانت الفتاة قادرة على الإقدام على هذه المخاطرة، لكنّها قد تتهوّر، أمّا ما وجدته أمامها، فهو ما لم تتخيّله أبدًا. قال آدم بصرامة:

- مانويلا، إنّهم مدنيّون! ليس من حقّك ولا حقّ أبيك احتجاز أيّ منهم رغم إرادته! قوانين العالم كلّها لا تسمح لك بتقييد حريّتهم!

قاطعته بصوت حادّ والمسدّس لا يزال في كفّها، موجّه إلى مروان الذي تحرّرت ذراعاه:

- هذا وضع مختلف!

- مختلف؟ بأيّ قدر؟

- إنّه اكتشاف علميّ وحضاريّ وجغرافيّ!

تأرجح اليخت تحت أقدامهم، ربّما اكتمل عدد المسافرين الآن، ورفع البحّارة المرساة، زمجر المحرّك معلنًا اقتراب الانطلاق. ستكون أيّ محاولة بلا فائدة ما إن يبحر اليخت بعيدًا عن «الأسطورة»، كان على آدم أن يتحرّك على الفور، إمّا أن يفعل شيئًا الآن وإمّا أن تفوت الفرصة إلى الأبد!

تكلّم أوران فجأة:

- هلا عقدنا صفقة؟

استدارت إليه الأعين في استغراب، أيّ صفقة قد يقترحها المسخّر السّجين؟

- أنت تريدين مُسخِّرًا.. سيفي واحد بالغرض أليس كذلك؟ من أجل «الكشف العلميّ والحضاريّ» الذي تتحدّثين عنه؟ سوف أبقى!

تحرّكت عيناها بين ملامح آدم المليئة بالرّجاء وعيني أوران الصّارمتين. تحرّك آدم على عجل، يحتاج إلى الابتعاد عن مجال سيطرتها، إنّ مسدّسها سيكون أسرع من أيّ عمل طائش قد يُقدِم عليه المُسخِّر، وهو لم ينته من خطّة إنقاذ الأسرى بعد، قال وهو يدفع مروان نحو الباب:

- إذًا؟ سآخذ مروان.. وسيبقى أوران معك، سيكون هذا كافيًا؟

كان أوران لا يزال مقيّدًا، لم يكن مصدر خطر في نظر مانويلا، فتركت ذراعها المتوتّرة تنخفض ببطء لتتدلى إلى جانبها. إنّها تكره الأسلحة،

وتمقت أن تضطرّ إلى إشهارها في وجوه الآخرين دون ذنب اقترفوه. لقد وضعها والدها في مواقف صعبة خلال الأيام الماضية، وهي تتكبّد عناءً شديدًا لمواصلة لعب دور الشرير في حكاية أحدهم، أمّا وأنّ عليها أن تختار، فإنّ ضميرها يهمس بداخلها لمقاومة نزعة الشرّ التي تكاد تتلبّسها، لم يكن قرارًا سهلًا، ولعلّها ستواجه لومًا وتقريعًا من والدها لاحقًا، لكنّ كفّة الاعتبارات الإنسانيّة ترجح بداخلها. أخذت نفسًا عميقًا وهي تشير إلى آدم:

- فليرحل إذًا!

سيكون عليها أن تتعامل مع غضب والدها في أوانه، لكنّها تسمح للجانب المتعاطف منها أن يأخذ بزمام الأمور في الوقت الحاليّ. تنهّد آدم، ثمّ سأل راجيًا:

- هل يمكننا الحصول على قارب نجاة؟

أومأت وهي تسير برفقته خارج الغرفة، استعادت المفاتيح وأحكمت إغلاق المقصورة، ثمّ أشارت إلى البحّارة بإلقاء قارب نجاة في الماء. تطلّعت إلى الكوّة حيث كان والدها يقف منذ حين، كان قد اختفى مع تحرّك اليخت وعادة الفتحة مغلقة، زفرت تدفع عنها التوتر، لا تريده أن يشهد ما هي بصدد عمله، لكنّها ستشرح في ما بعد.

في مقدّمة اليخت، كان أشرف يقف مشدوهًا، همس آدم وهو يمرّ إلى جواره:

- ابق متيقظًا، سوف ألقي إليك الحجر لاحقًا.

لم يستوعب أشرف كلمة، لكنّه راقب المشهد وقد غلبه الذهول. نزل مروان إلى الزورق المطاطي أولًا، ثمّ تعلّق آدم بالحبل، سألته مانويلا بنبرة قلقة:

- أنت واثق أنّ هذا ما تريده؟ هل ستعود إلى الجزيرة حقًا؟

للمرّة الأولى، لم يكن يحمل أيّ ذرّة تردّد. يعلم أنّ مايك لن يكتفي بذلك القدر، وأنّ استبدال حبّات الدّواء لن يضع حدًا لمخططات الغزو الخاصّة به. يدرك أنّ أمامه مهمّة، أنّ دوره على الجزيرة لم ينته بعد.. أومأ بحركة جادّة وهو يبتسم بثقة، يريد أن يفعل هذا، وعليه أن يتحرّك سريعًا قبل أن يلقي أحد البحّارة القبض على ريحان، وتذهب جهوده سدى.

يعلم أيضًا أنّ أمره قد كُشف، وأنّه لن يتمكّن من إخفاء هويّته عن مايك بعد الآن. حين تتّصل مانويلا بوالدها بعد قليل، سيكون قد أحاط بالوضع كاملًا. قد يظنّها ردّة فعل عاطفيّة، ردًا على قتل المعالجة، لكنّه سيدرك لا محالة أنّه لم يعد في صفّه. لذلك، عليه أن يستغلّ عامل المفاجأة في أقرب وقت، ولتكن مفاجأة رهيبة ومتفجّرة، لأنّها قد تكون الأخيرة!

ابتعد اليخت نحو الأفق فيما جدف آدم ومروان عائدين باتّجاه «الأسطورة». فوق سطح السّفينة، أخذ المرتزقة المسلّحون يتجمّعون، يراقبون في استغراب القارب المطاطي الذي يعود باتّجاههم ويتساءلون عمّا يحدث، حضر مايك أخيرًا، وبرفقته ذراعه الأيمن نايت، وبيد هذا الأخير منظار مكبّر.

أشار آدم إلى مروان ساخرًا وهو يقول:

- ابتسم من أجل الصّورة!

ثمّ تناول الجراب الجلديّ وجعل الحجر ينزلق بين كفيّ المسخّر:

- الآن يا صديقي، أريدك أن تصنع أكبر عمليّة قطع مدمّرة تقدر عليها!

حدّق فيه مروان في دهشة، فأضاف آدم:

- أعلم أنّك قد تخرّجت للتوّ وأنّك لم تقطع المعدن من قبل، لكنّك ستحاول. هناك جمهور غفير يريد أن يشهد أداءك، هذا حجر من الحجم الكبير.. سيكون كافيًا، أليس كذلك؟

كان يزعجه أن يستهلك من طاقة الحجر الذي تحتاج إليه والدته، لكنّه يفعل ذلك من أجل قومها، ستغفر له ذلك بالتأكيد، وربّما سيحصل من أجلها على حجر آخر في وقت لاحق، بعد أن ينتهي من هذا كلّه.

همس مروان في تردّد:

- ألا تستطيع عمل شيء بنفسك؟

ضحك آدم وهو يستمرّ في التّجديف، أليس من المفترض به أن يفعل؟ إنّه المخلّص في عيني الفتى وقومه! قال في تهكّم:

- أنا أعلّمك درسًا هنا، أيّها الصّغير... هل تفهم؟ لا تقلق، إذا لم تنجح محاولتك، سأفعل شيئًا بنفسي، اتّفقنا؟

أومأ الشابّ وقد دبّت في أوصاله الحماسة. فكّر آدم في قلق وهو يجدّ مجدِّفًا، مُقلّصًا المسافة التي تفصله عن السّفينة الكبيرة وجاراتها العملاقة. يجدر بمحاولة مروان أن تنجح، لأنّ المخلّص عاجز عن القيام بأيّ شيء بنفسه!

ترك مروان مجدافه ووضع الحجر أمامه، أغمض عينيه ليركّز، فيما ابتهل آدم في سرّه كي ينجح الفتى. كان يجب عليه أن يرجع بريحان وأخيها إلى الجزيرة سالمين، من أجل روان، ولن يحصل هذا إلا إذا تفجّرت طاقة الحجر عبر جسد مروان.. كان القارب قد غدا على مسافة عشرات الأمتار من السّفينة، صار بإمكانه تمييز الملامح التي تطلّ عليها، ابتسم ساخرًا وهو يتمتم:

- ابقوا أماكنكم أيها الحمقى، لا نريد أن تفوّتوا العرض!

ثمّ رفع مروان كفّه في الهواء، ووجّه ضربة القطع في اتّجاه السّفينة. حبس آدم أنفاسه، فيما ارتجّت النّاقلة الضّخمة، وفقد البحّارة والمرتزقة الواقفون على السّطح توازنهم. سقط بعضهم على الأرض، في حين تخلّى آخرون عن أسلحتهم ليتمسّكوا بالحواجز، إلّا أنّ ذلك كان كلّ شيء! لم يكن التّأثير قريبًا من المرجوّ، لم تنقسم السّفينة شطرين كما فعلت قطعة الخشب! ربّما لم يختلف الأمر عن إحساسهم بمجرّد موجة عالية خلال عاصفة محدودة.

تنهّد المسخّر الشّاب وهو يقول معتذرًا:

- لم أنجح، أليس كذلك؟

قبل أن يعلّق آدم، انطلقت أولى الرّصاصات باتّجاههما، كانت رصاصات طائشة من أيد مرتعشة وأقدام ينقصها الثّبات، أمّا وقد اتّضحت النّوايا، فلن يتردّد الرّجال المسلّحون في قنصهم. هتف آدم وهو يدور بالقارب ليتجنّب الطلقات:

- يجب أن تحاول مرّة أخرى! أنت تنجح غالبًا في المحاولة الثانية، ألا تفعل؟

تضرّجت وجنتا الفتى وهو يستجمع عزمه، لقد فعل ذلك خلال الاختبار. فشل في المحاولة الأولى، لكنّه شكّل طاقته بدقّة في المرّة الثانية في عمليّة قطع مذهلة. عاود التّركيز على الحجر وشحن الطاقة مطوّلًا، بقدر امتصاصه لـ«مادرا»، تكون قوّة التّسخير، إنّما كان على آدم أن يناور في الأثناء حتّى لا يموتا تحت رشقات الرّصاص، قبل أن ينجح مروان في تحويل الطاقة. لم يتمكّن القنّاصة من تسديد طلقات مباشرة إليهما، إلا أنّ بعضها استقرّ في جسم القارب المطّاطي وتسبّب في ثقبه في أكثر من موضع. راقب آدم في قلق غرف الهواء التي أخذت تفقد صلابتها مع تسرّب

الغازات خارجها تدريجيًّا، قريبًا سينهار القارب ويغرق في الأعماق، ربّما يملك بضع دقائق إضافيّة قبل أن يضطرّ إلى إيجاد وسيلة نقل أخرى، وهو ينوي استغلالها إلى آخر ثانية.

ارتفعت صرخة مروان وقد أصابت رصاصة فخذه فشهق آدم وحبس أنفاسه، هل تكون تلك نهاية المغامرة؟ لم يكن المسخّر إلا ولدًا لم يتعلّم شيئًا عن مقدار الأذى في العالم، غير أنّ مروان فاجأه، قاوم الألم الذي يتدفّق عبر جسده متركّزًا في موضع الإصابة، وقال وهو يكزّ على أسنانه:

- لا تشغل نفسك بي، يمكنني التّحمل.

وقد فعل، حتى اقترب القارب من السّفينة والتصق بقاعدتها. فغدا القنص الدّقيق شبه مستحيل في تلك الحالة، بما أنّ القاعدة أقلّ اتّساعًا من الطّوابق العليا، فقد كان على المرتزقة الانحناء بزاوية خطرة خارج الحاجز المعدنيّ من أجل رؤية أفضل، همهم آدم في رجاء:

- سيمنحنا هذا بعض الوقت..

إلا أنّ الرّصاص استمرّ يصيب الجسم المطاطي للقارب محدثًا مزيدًا من الضّرر ومضاعفًا عدد الثقوب التي تُسرِّب الهواء، صمَّ مروان أذنيه عن الصّفير المنذر، وتجلّد متجاهلًا الألم في فخذه، رفع رأسه في تصميم ثمّ وضع كفّيه على جسم السّفينة مباشرة، قبل أن يوجّه ضربة القطع ثانية بحركة صارمة. أحسّ آدم بالهزّة، كانت قويّة وعميقة. إلّا أنّ السّفينة لم تراقص على الماء مثل المرّة الأولى. لوهلة، لم يحدث شيء، ثمّ انفجر صدع في جانب النّاقلة، في الموضع الذي ضربه كفّ المسخّر.. بدأ كشقّ محدود، ثمّ أخذ يتّسع ويمتدّ. أصغى آدم في سكون ورهبة إلى صوت المعدن وهو يتفكّك، تتباعد الصّفائح وتنهار الألواح الخشبيّة التي تبطّنها، بعد ذلك،

أخذ الماء يتسرّب إلى بطن السّفينة، كان الصّدع قد صار بطول أمتار الآن، وأخذت السّفينة تميل إلى جانبها.

أطلق آدم صرخة انتصار بعد أن استيقظ من ذهوله، شدّ على ذراع الفتى في حماس وهو يهتف:

- لقد فعلتَها!

حسنًا. يفترض بذلك أن يكون إلهاءً كافيًا، سوف ينشغل مايك ورجاله بنقل حمولتهم إلى السّفن الأخرى، إنقاذًا لأنفسهم وحماية لأسلحتهم من البلل، سيكون الأسرى آخر همّهم، أضاف وهو يشير إلى قوارب النّجاة الأخرى التي كانت في طريقها إلى الإنزال:

- هل يمكنك قطع الحبال؟

- ماذا؟

- نحتاج بعض القوارب، لإنقاذ الآخرين.

وللنّجاة أيضًا، فقد كان قاربهما قد أخذ يغرق فعليًا.

أومأ مروان بقّوة. تبدو هذه مهمّة يسيرة، مقارنة بما قام به للتوّ.

استطرد آدم بلهجة اعتذار:

- سأترك لك هذه المهمّة.. سوف تنقذ شقيقتك وباقي الأسرى، لا شكّ أنّهم قد قفزوا إلى الماء الآن، ما زالت لديّ مهمّة أخرى..

وجّه مروان ضربات قاطعة ليحرّر ثلاثة من القوارب، فيما أطلق آدم صفيرًا حادًا على الطّريقة التي علّمه إيّاها نوح وأخذ يرقب الأفق في قلق، مضت دقيقتان، أحكم خلالهما مروان ربط بعض القوارب ببعض، فيما ترك القارب الأوّل يغوص تحت الماء، وارتفع عبرها ضجيج البحّارة المنكوبين في فوضى. دوّت صرخات كثيرة لأجساد تُلقي بنفسها أو تقع في

المحيط، وتهاوت أجزاء من السّفينة المتداعية ثمّ، ظهرت الأوركا الفضيّة أخيرًا، ابتسم آدم في ارتياح، ثمّ استدار إلى مروان، قال وهو يأخذ منه الحجر ويعيده إلى الجراب الجلديّ:

- سأحتاج إلى هذا!

ثمّ قفز فوق ظهر الحوت الذي غطس به على الفور.

كان عليه أن يلحق باليخت قبل فوات الأوان.

سيضطرّ الولد إلى التحمّل وقتًا أطول، ثمّ ستهتمّ المعالجة بإصابة شقيقها.

(5)

اليوم الخامس بعد الثلاثين

انفرجت أهدابه ببطء، حدّق في السّقف بعض الوقت بنظرة دائخة، وهو يصغي لوقع قطرات المطر التي استمرّت تهطل طوال اللّيل، لا يزال الإنهاك يكبّل عضلاته ويشدّه إلى الفراش، لا شيء أحبّ إليه في تلك اللّحظة من الانجراف السّريع إلى غمرات الوسن، إلّا أنّ النقرات الرّقيقة للقطرات على السّطح أقضّت مضجعه.

يذكر ليلته الأولى في كوخ الجزيرة، رائحة المطر الطّازجة التي تسلّلت إلى أنفه من فتحات التهوية الخفيّة، وقلقه السّخيف بشأن حذائه المفقود. يبدو كلّ ذلك بعيدًا، بعيدًا بُعدًا لا يصدّق، لم يشعر بالرّهبة بالأمس، ولا ساوره القلق وهو يصل إلى الشاطئ مرّة أخرى.

كان وصولًا أسطوريّا، سيذكره مسجّلو تاريخ الجزيرة لا محالة. ابتسم بزهوّ وهو يستعيد الذّكرى: مشهد المخلّص المبجّل وهو يركب الحوت الفضيّ، ويسحب وراءه قوارب مطاطية يتزاحم داخلها الأسرى المحرَّرون! خرج السكّان جميعهم، بعد أن ارتفع بوق الحرّاس يحمل البُشرى. لقد انهارت إحدى سفن الغرباء، غرقت في الأفق حتّى تلاشت في قعر المحيط، وذلك صنيع أسطوريّ آخر تنسبه الهمسات إليه، رغم أنّه لا يمتّ إليه بصِلة.. حسنًا، لقد كان المحرّك الحقيقيّ للأحداث، وهذا ما

لا يسع مروان نفسه إنكاره، إلا أنّه ترك الفتى بمفرده لبعض الوقت، ولم يخيّب المسخِّر الشابّ ظنّه.

كان عليه أن يلاحق اليخت، لم تبصر مانويلا ما حصل للـ«أسطورة»، ربّما لو فعلت لتراجعت عن المغادرة، قد تفقد الاتّصال بوالدها مؤقّتًا، وحين يتواصلان بعد ساعات، بعد أن يلملم مايك شتات نفسه ويقدّر خسائره، ستكون الفتاة قد ابتعدت بقدر كافٍ لا يسوِّغ العودة، وهو يأمل أن يصل اليخت إلى الدّيار في أسرع وقت ممكن، ليحمل والده الحجر إلى والدته، لذلك عليه أن يلاحقه ليسلّمه الحجر المستعار.

لقد احتجزت أوران، وهو أمر لا يُغتفر، إلا أنّ جزءًا مذنبًا في داخله اعتراه الارتياح، ليس أنه يرى أوران تهديدًا، لكنّ غيابه عن الصورة يعزّز ثقته بنفسه. لن ينسى أبدًا الضّربات الموجعة التي وجّهها إليه في ميدان النّزال، لقد كان حضوره من حوله على الدّوام مزعجًا، لكنّه يرجو أن يبقى سالمًا، ألم تقل روان أنّ مصيره المساهمة في تهجين الأجيال المقبلة؟ لعلّها فرصة جاءت قبل أوانها.

يبتعد عن مجال الظلة وينقشع الضّباب من حوله، فتنتابه وحشة غريبة، يُصاب أناس في شمال الكرة الأرضيّة بالاكتئاب، لغياب الشّمس الطويل في فترات الشّتاء، إلا أنّه لم يسمع قطّ عن اكتئاب يصيب رجلًا يتبدّد من سمائه الضّباب! يهوّن الأمر بوعود ونظريات عن الهجناء؛ حوت هجين ورجل هجين.. كلاهما قادر على إيجاد الطّريق، أليس كذلك؟

حين ظهر اليخت أخيرًا في مجال بصره، حثّ الأوركا على مضاعفة سرعتها.

كان أشرف يقف في مؤخّرة اليخت، يتّكئ على الحاجز في وجوم، حين دخل المقصورة، اكتشف حقيبته مُشرعة، وينقصها الحجر! لن تكون

الرّحلة كلّها ذات فائدة تُرجَى إذا فَقَد الحجر، إلّا أنّ كلمات آدم الأخيرة منحته الأمل، قال إنّه سوف يُلقي بالحجر إليه، إلّا أنّ السّفن العملاقة اختفت في الضّباب بعد دقائق قليلة من الإبحار، ثمّ انقشعت السّحب وتلاشى الغمام، ولم يظهر آدم.

دبّ القلق دبيبًا في فؤاده وهمَّ غير مرّة بمطالبة مانويلا بالعودة، إلا أنّه عزم على الانتظار، ألم يطلب منه ولده أن يمنحه ثقته؟ وقد أثبت جدارته بالثقة غير مرّة في أثناء تلك الرّحلة، يحدّثه حدسه بأنّ ولده -الشابّ الغرّ الذي غادر موطنه منذ نحو شهرين- قد غدا رجلًا مسؤولًا يُعتَمد عليه.

ثمّ ظهر الحوت في البعيد، لم يكن من النّادر أن تُشاهَد الثدييات البحرية وهي تسبح قرب السّطح، دلافين وديعة غالب الأمر، إلّا أنّه لم ير في حياته حوتًا قاتلًا من تلك المسافة، حوتًا فضيًا بلمعة أخّاذة، ظلّ يحدّق في الأوركا مذهولًا، حتّى تبيَّن شكل الرّجل الذي يمتطيها، غطس الحوت واختفى، وكاد أشرف يفقد صوابه وهو يدقّق النّظر في كلّ شبر من سطح الماء عميق الزّرقَة، حتّى انشقّت عنهما صفحة المحيط أخيرًا: الحوت المدهش وفارسه الفخور!

فكّ آدم الجراب الجلديّ المعقود عند خصره ورماه باتّجاه والده، تلقّى أشرف الطرد بكلتا يديه، وعيناه لا تفارقان المشهد غير الاعتياديّ، تلك فقرة أخرى من المشاهد غير المحكيّة التي غادر أشرف الجزيرة قبل أن يعاينها، لقد قال آدم من قبل: أنا مُسخِّر! ولم يستوعب أشرف ما الذي قد يعنيه ذلك تحديدًا، لكنّه يبصر الآن بعيني رأسه عيِّنة ممّا يكون عليه المسخِّر!

لوّح آدم لوالده، فيما يهزّ الحوت ذيله وهو يطفو خارج الماء، ثمّ هتف:

- أراك قريبًا في الدّيار!

ثمّ لكز الحوت ليغطس مجدّدًا، قبل أن يظهر بعد ثوانٍ طويلة وقد تباعد عن اليخت، استمرّ حجمه يصغر ويصغر، حتّى غيّبه المحيط، إلا أنّ الابتسامة الحالمة ظلّت ملتصقة بشفتي أشرف، وقد غمره نوع فريد من الفخر!

يبتسم آدم في استمتاع وهو يسترجع اللحظات المشحونة بالإثارة والأدرينالين. كانت ريحان ورقته الرّابحة، لولا حضورها لما تمكَّن من عمل شيء بمفرده. لقد كانوا فريقًا متكاملًا أسهم كل منهما على طريقته ومن موقعه، مروان وريحان، والده، وخاله إبراهيم، على ذلك الإحساس اللذيذ بالرضا وعلى نسق تهويدة المطر الرّتيبة يغرق في النوم ثانية.

حين فتح عينيه مرة أخرى، شعر بريحان وهي تتسلل إلى الكوخ العتيق. استرجع ذكرى بعيدة، حين كانت الصّبية تحضر إفطاره ووالده كل صباح. ذهب والده وذهبت بيوت القرية في الحريق القاتم، إلا أن زوجة الحكيم ترسل إليه الإفطار كما كانت تفعل دائمًا، تربَّع على سرير الخوص قليل الراحة وطالعها بابتسامة.

كان قد انتقل إلى القرية القديمة فوق الجرف حيث معتزل الحكماء، كما فعل عدد من الحكماء والمسخّرين برفقة عائلاتهم. كان الزاد شحيحًا والجوع مقيمًا. رجع السّكان في الأيّام الماضية إلى حال بدائية من السّعي صيدًا وجمعًا للفاكهة البريّة. بنى بعضهم عرائش مؤقتة عند مدخل الغابة، ولجأ آخرون إلى المبيت جماعات في مباني المدرسة ودار العبادة والمشفى الذي لم تطله النيران، ومع ذلك، فقد حظي المخلّص بطبق العسل والسّمن المعتادين مع كوب حليب طازج ورغيف خبز ساخن!

أخفى تأثره وهو يمسح عينيه النّديتين متظاهرًا بطرد أثر النعاس، لعلّ امتنان زوجة الحكيم له أكبر من غيرها، فهي تحسبه أعاد إليها طفليها من أيدي الغرباء الغاصبين.

قال لريحان يذكرها باتفاق سابق:

- أنتِ لم تخبري شقيقتك بأحداث الأمس، أليس كذلك؟

هزّت الطفلة رأسها بحركة قاطعة، إلا أن الشك لم يختف من نظراته. يعرف كم تكون المعالجة مقنعة أحيانًا، وكم تكون الطفلة متعطشة لتروي بطولاتها. لم يكن يخشى أن تنتشر الحكايات، فهو يعلم أن روان مؤتمنة وكتوم، إلا أنه لم يرغب أن تحيط ببعض التّفاصيل، مثل أن يختًا كان جاهزًا للمغادرة، وأنه قَبِل -ظاهريًّا- الدّعوة للانضمام، وأنه ركب اليخت بالفعل، وربما نازعته نفسه في الرحيل لجزء يسير من الزّمن. لم يرغب أن تعود للشك في نواياه وصدق رغبته في البقاء، قد تظنّ أنه قادر على أن يولّيها ظهره في أي لحظة.. وهو ما لم يعد يفكر فيه!

تنهّد وهو يغسل وجهه وأطرافه في طست الماء النّظيف، البيوت في القرية القديمة لا تتمتّع بقنوات الماء الحديثة، غير أنّ منبع العين قريب. جلس فوق البساط وأخذ يغمّس لقيمات الرّغيف في وعاء العسل.

لن يجرؤ مايك على محاولة جديدة في وقت قريب. لقد فقد المؤن التي سرقها ومخزون «حجر الشمس»، ومُني بخسائر فادحة في الزاد والعتاد، وربما الرّجال. قد لا تكون حادثة السّفينة قد أسفرت عن غرقى، لكنّ معنويات الرجال ستكون في الحضيض، سيدركون أن المسخِّرين لا يرهَبونهم وأسلحتهم بعد الآن، ولن يبيت أحدهم ليلته هانئًا وهو يفكر في هجوم مفاجئ في عتمة الليل.

قد تتأخّر هجمة مايك التّالية، لكنّها ستأتي حتمًا، وسيكون عليهم الاستعداد.

تنحنحت روان خارج الكوخ، فازدرد آدم ثمالة كوبه ونفض كفّيه وخرج متعجّلًا. انحنى تحت أفرع السّقف الواطئة التي تكاد تلامس الأرض، ثمّ استقام واقفًا تجاهها، كانت تبتسم، صارت تبتسم كثيرًا في وجهه هذه الأيّام، وهو الذي عهدها صارمة جامدة، وهو يحبّ أن تطالعه بعين الرّضا، فيزداد فخرًا واعتزازًا. بادرته في رقّة:

- كيف كانت ليلتك؟

لعلّها كانت الأفضل، منذ داهم الغرباء أرض «آرا»، لكنّ الظروف لم تعد كما السّابق، وليس له أن يشكو أو يتذمّر، وقد شمل المصاب جمعهم كلّه، هزّ رأسه بابتسامة راضية.

- جيّدة.

- والدي يطلبك.

أومأ وهو يتبعها.

يفصل منزل كوتانا عمّار الجديد عن كوخ المخلّص كوخان آخران. كانت المسافات قريبة في القرية العتيقة، والبيوت قليلة، ربّما ترك السّكان الموقع حين أخذت أعدادهم تتزايد، ورأوا أنّ البناء قرب البحر يكفيهم مشقّة جرّ صيدهم إلى أعالي التلال.

في الدّاخل، كان نوح ومروان يجلسان قبالة عمّار على فراش بسيط. لم ينج متاع كثير من الحريق، لكنّ الحياة لا تزال محتملة، طالما كانت الخسائر مادّية وحسب، يمكنهم التّعامل مع الوضع دون مشقّة.

حيّته أرابيلا بابتسامة عريضة وإيماءة عميقة من رأسها. لم يغفل عن اختلاسها نظرة مستغربة لهيئته، كان قد احتفظ بثيابه المدنيّة التي ارتداها على السّفينة. أهداه السّكان المحلّيون قميصًا وسروالا فضفاضين من القطن الطبيعيّ من صنع نسّاجيهم منذ شهر، ثمّ مرّة أخرى منذ أيّام قليلة.. لكنّه استبدل بهما في كلّ مرة عاد إلى الحضارة ملابس صناعيّة ضيّقة، ولم يعد يملك ترف الثياب النّظيفة والجديدة بعد الآن.. جفّت ثيابه فوق جلده، ولم يحصل على حمّام يخلّصه من ملوحة البحر بعد. فكّر أنّ عليه الغطس في الأحواض الحارّة حالما يُتاح له ذلك.

دعاه عمّار بلهجة لا تخلو من حفاوة:

- تعال يا آدم، اجلس إلى جواري.

كانت حشيّة من الصّوف قد جهّزت من أجله. لاحظ أنّ ثلاثتهم يجلسون على البساط المجرّد، فيما حظي بالمجلس الأكثر راحة. بعد تردّد قصير، تربّع في الموضع المخصّص له. ربّما عليه أن يتعوّد المعاملة المميّزة، كونه الفرد المتوّج في أعلى هرم السّلطة على أرض الجزيرة! هزّ رأسه يحيّيهم في حرج، فيما لم يتوقّف مروان عن ملاحقته بنظرات لا تخلو من افتتان. بدا متورّد الخدّين ومكتمل العافية، بعد أن استخرجت روان الرّصاصة من فخذه وطبّبت جراحه. تساءل إن كان الشابّ يرى فيه «مُعلّمه الرّوحي» الذي أخذ بيده بالأمس ليطلق طاقته ويحرّر قدراته!

تنهّد وقد غلبته السّخرية من نفسه، ليته يقدر على تحرير نفسه كما يحرّر الآخرين!

قال عمّار بحرارة:

- ما فعلتماه عند السّفينة كان مذهلًا! هل تعتقد أنّ علينا تكرار العمليّة؟ يمكننا أن نرسل عددًا كافيًا من المسخّرين.. فنُغرق السّفن كلّها دفعة واحدة!

يتخيّل آدم المشهد في رأسه، هجمة كاسحة من المسخّرين الترابيّين، يرفعون الأمواج عاليًا في السّماء، فتنقلب السّفن رأسًا على عقب! غير أنّ التّطبيق شأن آخر، قال بلهجة جادّة:

- لقد نجحتْ العمليّة بالأمس لسبب واحد: عامل المفاجأة. لم يتوقّع أحدهم الهجوم. لم يكن يفترض بمروان أن يحمل «حجر الشمس»، ولم أكن عدوًا معروفًا في أعينهم، لقد راقبونا في صمت حتّى اقتربنا بالقدر الكافي.. وحين أدركوا ما نوينا عمله، كان أوان التصدّي قد فات بالنّسبة إليهم!

أخذ آدم نفسًا ثمّ استطرد:

- مشكلتنا فارق السّرعة.. لا يعمل التّسخير مثل طلقة البندقية، ليس هناك زرّ إطلاق لحظي في جسد المُسخِّر، يتطلب الأمر منه وقتًا للتّركيز واستجماع خيوط الطاقة، فيما كل ما يلزم المرتزقة هو ضغطة زناد. لقد استنفدنا فرصة المباغتة يوم أمس، لن يكون بوسعنا تكرارها.. ثمّ، يحتاج المسخّر إلى الاقتراب من السّفينة لضربها، فيما يمكن القنص بالبندقيّة من مسافات بعيدة.

زفر مروان وقد ذوى حماسه:

- أنت تجعل الأمر يبدو مستحيلًا!

ابتسم آدم وهو يربّت كتفه:

- ليس مستحيلًا.. لكنّه صعب في هذه المرحلة. ينقصنا الكثير من التّدريب.

ربّما يتوقّف مايك عن إزعاجهم بضعة أيّام، قد يمنحهم ذلك مهلة قصيرة للاستعداد. فكّر أنّ تحضيراته هذه المرّة لن تكون أفضل من سابقتها، لقد حظي بأيّام قليلة من التّدريب قبل مواجهة أوران! غير أنّ الأمر لا يعتمد برمّته على شخصه، هناك مجموعة من المسخّرين الأكفاء والمخضرمين الذين قد ينجحون في ما يعجز هو عنه!

نظر إلى نوح وسأله:

- هل تذكر ما حدّثتك عنه في السّابق؟

- تقصد التحكّم في المعدن؟

أومأ آدم موافقًا.

- لقد نجح مروان في إحداث صدع بالمعدن باللّمس المباشر. أعتقد أنّنا قد نحاول من مسافة أبعد فأبعد.. يجب أن ننجح في تحطيم الأسلحة وهي بين أيديهم!

فغر مروان فاه دهشًا، ثمّ ارتفع كتفاه وقد عادت جذوة عزيمته تستعر. بمساعدة المخلّص، سيضع أهدافًا جديدة لتدريباته. لا يعرف مدرّبه القديم كثيرًا عن تحدّيات الـ«مهافيا دياما» وحيل الغرباء، لكنّ المخلّص مختلف.

- سأفعل كلّ ما تأمرني به!

رمقه آدم بنظرة مشفقة، بعد انحناءات أوران المبالغة في التّقدير، ها هي نظرات مروان المعجبة تستمرّ في تغذية هالة المخلّص التي التصقت به لا محالة، وقد صار يلعب الدّور باحتراف متنامٍ. لم يجد صعوبة بالأمس

في تقبّل التّحيّات والتهليلات كأنّها جزاء مستحقّ، ولم يعد يتردّد في توجيه الأوامر ووضع الخطط، لعلّ إثارة الموقف استولت عليه، وسيورّط نفسه أكثر في الأيّام المقبلة.

خطا خارج الكوخ وتقدّم حتى بلغ طرف الجرف ليُشرف على الوادي الممتدّ تحته، تظهر بقع سوداء متقاربة في البعيد، هي أثر القرية المتفحِّمة.

- ما الذي تفكّر به؟

جاءت روان لتقف إلى جواره. ابتسم وهو يقول:

- حمّام دافئ؟

ابتسمت في صمت، ثمّ سألت من جديد:

- لا تريد أن تخبرني ما الذي حصل بالأمس بالضبط؟

رمقها بنظرة جانبيّة، ثمّ قال بغموض:

- لقد نجحت المهمّة.. عاد المخلّص بالأسرى!

هزّت رأسها ببطء وتنهّدت في استسلام.

لقد تحدّثت ريحان بإسهاب ليلة أمس. كان عليها أن تكرّر القصّة مرّات ومرّات، بالحماس ذاته في كلّ مرّة، فيما أصغى إليها عمّار وأرابيلا وهي ومروان بنفس الشغف والاهتمام، لتكشف في كلّ رواية عن تفاصيل إضافيّة، عن بطولتها، وكيف ساعدت المخلّص على تنفيذ خطّة الإنقاذ، ثمّ يأتي مروان ليسدّ الفراغات التي غابت عنها، ويخبر بما حصل على اليخت؛ كيف وقف المخلّص أعزل أمام سلاح السيّدة الغريبة، وأقنعها بكلماته الحكيمة وحدها.. ثمّ، كيف كان يناور رصاصات الغرباء المترصّدين فوق السّفينة الضخمة، يدور بالقارب مثل السّاحر، ليمنح مروان فرصة استجماع طاقة الحجر وتوجيه ضربته للجدار المعدنيّ.

لقد كان على متن اليخت، تركه طواعية لينقذ شقيقها، بعد أن خلَّص الأسرى وأغرق السّفينة، كانت أمامه فرصة الرّحيل بضمير مطمئن، لكنّه اختار العودة من تلقاء نفسه، وكانت تلك الفكرة الدّافئة تنشر سلامًا منعشًا بين ثنايا صدرها.

***

جاءت مانويلا لتقف إلى جوار أشرف عند الحاجز الخلفيّ لليخت، كان مستمرًا في مطالعة الأفق حيث اختفت منطقة الضّباب بالأمس، كأنّما يودّع طيفًا أو يحنّ إلى أرض، فيما يبحر «النمر الأبيض» دون توقّف بأقصى سرعته التي تتجاوز الثلاثين عقدة، بفضل محرّكه الحديث عالي الكفاءة. لم يتبادل الرّكاب الأحاديث بعد نهار الأمس الحافل بالأحداث، حاولت مانويلا طوال النّهار أن تتّصل بـ«الأسطورة» لتحادث والدها بالمستجدّات، عبثًا، ثمّ استسلمت لاحتماليّة تعطّل الاتّصالات على متن السّفينة، حين يصلحها التّقنيّون، سوف يبادر مايك بالاتّصال بها.

- آدم، لقد تغيّر!

بادرت مانويلا بقولها. استدار أشرف ليطالعها بابتسامة حالمة، آدم الذي عرفه كلاهما في الدّيار، يختلف عن تلك النسخة المندفعة الثائرة التي ظهرت لهما بالأمس، لعلّه كان طالبًا مسالمًا منعزلًا، قليل الحماس تجاه أيّ شيء، كان من المدهش أن ينقلب إلى تلك الصّورة من الشغف والإيمان.. بأيّ شيء!

همس بهدوء:

- لقد غيّرته الجزيرة!

هزّت مانويلا كتفيها، لا تدري ما الذي قصده بالضبط. هل تُغيّر الجزيرة طباع البشر؟ هل أنّ الـ«مادرا» -تلك المادّة المتوهّجة المشبعة بالطّاقة- لها دور في تحوّله؟ لا تزال خصائصها مغلقة عليها، ربّما بعد إجراء الفحوصات والتّجارب، ستجد إجابات ما، إلا أنّها غير واثقة إن كان هذا ما قصده البروفيسور بكلماته..

قاطع صوته خطّ أفكارها وهو يسألها:

- ما الذي ستفعلينه بشأن المسافرين الإضافيّين؟

ابتسمت بفتور وقالت:

- علينا تدبّر هويّات مزيّفة، على ما أظنّ.

- هل أخبرك بقصّة؟ قصة حصلت منذ خمس وعشرين عامًا..

استدارت لتطالعه في اهتمام، فيما كانت عيناه تتألقان ببريق غامض.

- لقد رافقتني شابّة من سكّان الجزيرة.. حين كنت هناك منذ ربع قرن!

- آها!

- ادَّعيت أنّها زوجتي.. وأنّنا فقدنا أوراق ثبوتيّتها في عاصفة ما.

أشارت مانويلا ساخرة إلى المقصورات بالدّاخل:

- لديّ ثلاثة رجال هنا، شابّ وكهلان!

أومأ أشرف وهو يستطرد:

- أعلم أنّك قد تدفعين لبعض.. *الجهات المختصّة*.. في هذا النّوع من العمليّات، للحصول على أوراق هويّة صالحة لثلاثتهم..

كان ينتقي كلماته بدقّة، للإشارة إلى الجهات المشبوهة التي يتعامل معها مايك راسل للحصول على مرتزقته وأسلحته، وربّما هذا النّوع من الخدمات غير القانونية، دون أن يسيء إليها.

- لم يكن هذا متاحًا لي.. تعرفين، كنت شابّا معدمًا حينها، وقد كان من الضروريّ أن أجد رواية مناسبة تفسّر أصولها، كنت أصوغ حكاية مختلفة في كلّ نقطة توقّف على الطّريق للتزوّد بالطعام والوقود.. إلا أنّ التّحدّي الأكبر كان إدخالها البلاد وحصولها على إقامة نظامية.

كانت مانويلا تصغي باهتمام متزايد، فيما يواصل أشرف:

- لقد كانت بيضاء، بيضاء جدّا مثل هؤلاء الرّجال.. غير أنّها لا تتكلّم أيّا من اللغات الأوروبيّة، ورغم أنّي لم أكن أحيط بالتّاريخ والجغرافيا كثيرًا، فقد كنت أعرف قليلًا عن أحوال العالم. ضمن البلاد المشرفة على المحيط الهنديّ، كانت جنوب إفريقيا تحتوي على العرق الأبيض.. يسمّونهم «الأفريكانيين»، إفريقيون من أصول أوروبيّة. في ذلك الوقت، كانت الحرب الأهليّة في جنوب إفريقيا قد انتهت منذ وقت قريب، فتوصّلت إلى قصّة عجيبة، لكنّها تمنحها نوعًا ما هويّة مختلقة، حين استجوبونا في مكتب الجوازات.. قلتُ إنّ عائلتها هربت من جنوب إفريقيا إبّان الحرب، منذ أكثر من عقد، وهي طفلة، في قارب خشبيّ.. فرمت بهم العاصفة إلى بعض الجزر المهجورة في المحيط الهنديّ، فهلك أهلها ونجت وحدها حتّى عثر عليها بعض الصيّادين، فأخذوها إلى قريتهم.. حيث استقرّت سنوات، فتعلّمت اللغة المحليّة، ونسيت الإنجليزية بمرور الوقت، وقد علّمتها العربيّة خلال الشّهور الماضية.. وتزوّجتها. تعلمين، حين تضع الحرب أوزارها، يحدث شغب كثير. تضيع مستندات وتُحرَق أخرى.. وقد يمضي وقت طويل قبل أن تُصحّح السّجلات، لقد اتّصلت مصلحة الحدود بسفارة جنوب إفريقيا في الدّيار، ولم يكن بإمكانهم إثبات هويّتها أو دحضها، هناك مساحات شاسعة من المرونة.. خلال الحرب!

ابتسمتْ مانويلا في استمتاع ثمّ سألت في فضول:

- هل تزوّجتها حقًّا؟

ضحك أشرف وحافظت ملامحه على غموضها، ثم قال مستدركًا:

- ليس هذا لبّ الحكاية. أقول.. عليك قراءة التّاريخ والجغرافيا، لاختيار الهويّات التي تهبينها للاجئين الذين يصحبونك.. إنّ الهويّات العشوائية قد تسبّب لهم مشكلات، وقد يتعطّل مرورهم عبر الحدود!

تفكّرت مانويلا في اهتمام، ثمّ اقترحت:

- أوكرانيّون إذًا؟

أومأ أشرف في استحسان.

- فكِّري في التّفاصيل الآن، الحرب الروسيّة الأوكرانيّة إطار مناسب، فكيف انتهى هؤلاء الأوكرانيّون اللاجئون إلى المحيط الهنديّ؟

- لقد كانوا على باخرة تعبر البحر الأحمر، في اتّجاه.. لا أعرف!

- معظم الأوكرانيّين لجأوا إلى الجيران الأوروبيّين، مقارنة بأيّ حركة لجوء أخرى، هذا الشعب الأبيض مُرحَّبٌ به، لم يضطرّ أفراده إلى ركوب قوارب الموت فرارًا من جحيم الوطن، لكنّ الحكايات الفرديّة قد تكون مختلفة.. تعلمين، الرّجال الأوكرانيّون الأصحّاء بين سن الثامنة عشرة والسّتين عامًا، ممنوعون من مغادرة وطنهم، وحدهم النّساء والأطفال والعجّز قد سُمح لهم باللجوء! أمامك شابّ في العشرينيات، وكهلان دون السّتين، إنّ أيًا منهم لم يكن ليغادر أوكرانيا -طبعًا في إطار حكايتنا المفترضة- بالسّبل القانونية! إذًا...

تلقّفت مانويلا الخيط بسرعة:

- إذًا، قد يركب أيّ منهم في محاولة يائسة سفينة تهريب تأخذه إلى أيّ مكان من العالم! ولعلّ السّفينة قد توغّلت بقدر ما في البحر الأحمر، حيث

هاجمها القراصنة.. ثمّ انتهى بهم الأمر رفاقًا لرحلتنا، بعد أن انتشلناهم من موت محقّق!

هزّ أشرف رأسه في رضا، هتفت الشابة الصّهباء فجأة في وجوم:

- لكنّهم لا يتكلّمون الأوكرانيّة.. ولا الإنجليزية!

- ستكون معهم جوازات سفر نظاميّة، أليس كذلك؟ ثمّ، أنت ترافقينهم للتّرجمة عنهم وقت الحاجة.. لن يضطرّ أحد إلى الاتّصال بالسّفارة الأوكرانيّة!

غمزها بعينه وهو يضيف:

- على سبيل الاحتياط، يمكنك تجهيز تقارير طبيّة مزوّرة، تبرّر حاجة كلّ منهم إلى مغادرة وطنه للعلاج.

ابتسمت مانويلا في ظفر وقالت:

- لقد كان الحديث إليك مثمرًا، بروفيسور صافي، عسى أن نتعاون مجدّدًا في مناسبات قادمة!

أطلق أشرف ضحكة قصيرة، ثمّ قاطعهما أحد البحّارة. اقترب من حيث يقفان ليقول مخاطبًا مانويلا:

- سيّدتي، اتّصال من أجلك!

- أخيرًا!

هتفت مانويلا وهي تهرول إلى الدّاخل. كانت تترقّب اتّصالًا من والدها منذ زمن. بعد دقائق قليلة، عادت وهي تجدّ في سيرها نحو أشرف، وقد تلبّدت ملامحها بسحب التجهّم. هتفت في ذهول:

- لقد جُنَّ آدم!

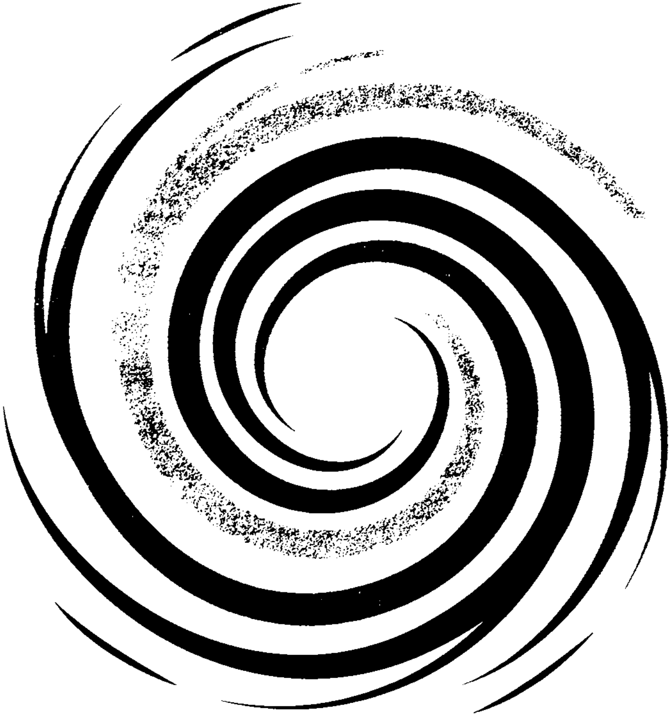

(6)

اليوم السّادس بعد الثلاثين

كان الانغماس في حوض الماء الدّافئ ترفًا مستحقًّا للمخلّص المبجّل، ولولا تباعد المسافات منذ الانتقال إلى القرية العتيقة، لزار الأحواض أكثر. استسلم للخدر الذي يبثّه في أوصاله الماء السّاخن، وأغمض عينيه، يحاول أن يستحضر خيوط الطاقّة المتموّجة، إلا أنّه يدرك أنّها لا تأتي في تلك اللّحظات الهادئة، إنّها لا تحضر أبدًا حين يستدعيها، بل تقفز أسفل جفنيه حين تشتهي ذلك!

تنفّس بعمق، ثمّ سرحت أفكاره بعيدًا. هل يكون والده قد اقترب من الدّيار الآن؟ لعلّ الرّحلة تطول، أسبوع ربّما في طريق مباشرة، خمسة أيّام على الأقلّ إذا حافظ اليخت على سرعته القصوى معظم الوقت، إذا سار كلّ شيء على ما يرام، ولم تعطّل العواصف وعوارض الطبيعة الرّحلة، فسيصل خلال ثلاثة أيّام إلى والدته.

غادر الحوض ليرتدي ثيابه المدنيّة على جلده المبتلّ. في الخارج، كان مروان ينتظره، معوّضًا حضور أوران حوله في كلّ وقت، كأنّه طفل يحتاج إلى مراقبة. يدرك أنّ المجلس يوفّر نوعًا من الحماية، أو الخدمة والمرافقة، فكثيرًا ما كان للحكماء أتباع وصبية، وكذلك لكبار المُسخّرين والشّيخ. كان يجب أن يعتبرها مزيّة، إلا أنّه يضيق بحضور الشابّ إلى جواره، وقد امتلأت عيناه بانبهار لا ينطفئ!

مشى يتأخّر عنه بخطوة، علامة الاحترام والتبجيل، حتّى وصلا إلى الوادي بين التّلال. يتّجه المسخّرون عادة إلى الكهف لتدريباتهم اليوميّة، باستثناء عدد قليل منهم اختاروا التوجّه إلى التّلال. جاء عمار ليتفقّد الشّبان في أثناء تدريبهم، ربت الأكتاف بحركات مشجّعة، ثمّ وقف قبالتهم ليقول بلهجة قويّة:

- هناك قول مأثور يقول: «الأوقات الصّعبة تصنع الرّجال العظماء».. وهذا وقت صعب على الـ«آم». أصعب من أيّ وقت مضى.. وأنتم العظماء الذين نتطلع إلى أن يخرجونا من هذه الأزمة!

تعالت هتافات الشّباب وقد سرت فيهم الحماسة، فيما أردف عمّار:

- تلك السّفن الضخمة تبدو مثل وحوش عملاقة، لكنها في الحقيقة ليست منيعة، بل لديها نقاط ضعفها. إن أصغر صدع في قاعدتها يسمح للماء بالتدفق إلى داخلها سوف يغرقها ولو استغرق وقتًا.. وكذلك نفوسهم الخاوية من الإيمان المترعة بالجشع، إذا تسرّب إليها الخوف، فسوف يهرعون إلى ديارهم ويولّون الأدبار!

ابتسم آدم وهو يتجاوزه متّجهًا إلى حيث وقف نوح. لعلّ عمّار لا يجيد عمل الكثير، إذ لا يحظى بأيّ قوّة جسديّة أو مهارة خاصّة، لكنّه يجيد إلقاء الخطابات المؤثّرة مثل أيّ سياسيّ محترف.. سيعترف له بهذا على الأقلّ.

تطلّع إلى الجانب الآخر من الوادي، حيث كانت روان تدرّب مجموعة من النّساء على استخدام أسلحة الغرباء. كانت قد توصّلت إلى تصنيع بدائل للرّصاصات المعدنيّة من موادّ طبيعيّة غير مؤذية، فيما احتفظت بمخزون الرّصاص الحيّ من أجل المواجهات الحاسمة. لبث يتأمّلها لثوانٍ، وهي تتحرّك بخفّة، تصحّح وضعيّات التّسديد وتُلقي التعليمات بأسلوبها الحازم المألوف الذي يمثّل هويّة الـ«ماغداخا». كان من اليسير

أن تعود لسالف عهدها: السّيدة القويّة الجديرة بالاحترام، لا الصبيّة الهشّة المُشرفة على الانهيار. ما أسرع ما استرجع كلّ واحد منهم ثباته ورباطة جأشه كأنّ مأساة لم تكن!

قال نوح متضاحكًا حين لمحه مقبلًا:

- يريد هؤلاء الشبّان أن يتعلّموا التّسخير على طريقة المخلّص!

مطّ آدم شفتيه في امتعاض. إنّ الدّعاية التي نشرها مروان بشأنه بين أقرانه كاذبة لا محالة، إلا أنّ أيًا منهم لن يقتنع بهذا. استدار ببطء ليحصيهم، كانوا خمسة من المسخّرين حديثي التخرّج. قال آدم مقترحًا:

- إذًا، هل يرغبون في التّدريب على المعدن؟

أمضى ساعات بالأمس ينبش أكوام النفايات، ينتقي منها الأعمدة المخروطية الصّلبة التي تشابه فوّهات البنادق والمسدّسات. تعتمد خطّته الأساسيّة على تصدّي المسخّرين التّرابيين للأسلحة، عن طريق ثنيها لتنفجر في وجوه حملتها، أو توجيه الطلقات في غير الاتّجاه المراد لها، انتقى أيضًا بعض القطع العريضة المسطّحة المشابهة للطبقات الخارجية التي تُصفِّح السّفن، فسيحتاج إلى تحطيمها لتغرق النّاقلات البحريّة.

بعد استماعه لشروحات نوح في ما يخصّ طريقة عمل التّسخير، توصّل إلى أنّ المسخّرين الترابيّين قد يكونون أقرب من غيرهم للنّجاح في تلك المهمّة. يشعر التّرابيّ بالذّرات، يميّز اهتزازاتها حين يمسك بخيطه، فيشرع في قيادتها، يقرّبها من بعضها أو يبعدها، يفكّكها ويجمعها، ويدفعها في الاتّجاه الذي يرغب به. ربّما تكون ذرّات التّراب والماء والهواء حرّة وسهلة الانقياد، لكنّ ذرّات المعدن أيضًا قد تخضع لسيطرة المسخّر، ببعض الجهد الإضافيّ، أم لعلّ دفع الهواء المركّز صوبها يمكّن من زحزحتها، تلك نظريّات تحتاج إلى كثير من التّجربة لإثباتها أو دحضها.

شرح نظريّته أمام الشبّان، ثمّ ترك القضبان والألواح بين أيديهم. أشار إلى نوح ليتبعه، ابتعدا عن الجموع لحديث أكثر خصوصيّة، استدار آدم ليواجه معلّمه وقال في رجاء:

- والآن، هل يمكنني أن أستأنف التّدريب الخاصّ بي حيث تركته؟

عبس نوح وهو يطالعه، ثمّ قال في وجوم:

- عليك أن تنجح في رؤية الخيط الخاصّ بك قبل كلّ شيء..

تنهّد آدم ثمّ قال وهو يضغط بأصابعه على جفنيه المغلقين:

- الخيوط تظهر أمامي كلها، لكنني لا أنجح في الإمساك بأيّ منها!

رمقه نوح في شكّ:

- ماذا تعني بالخيوط كلها؟ إنّه خيط واحد.. خيطك الحليبي!

عاودت آدم حيرته السّابقة، حين تراءت إليه الخيوط أوّل مرّة: هل كانت مجرّد تهيؤات بلا قيمة؟ هل كانت الخيوط المعنيّة فعلًا، أم شيئًا آخر؟

- لكنّ الخيوط كلها تظهر تحت جفني، حين أنجح في استحضارها.. الأبيض، والرّمادي والترابي والأصفر!

توقّف نوح ليفكر، ثمّ قال بلهجة جادّة:

- هناك قصص تُروى عن المعلم الرّوحي.. يقولون إنّه حين يغضب، كان يهيّج عاصفة كاملة، بمفرده!

تشرّب آدم الكلمات على مهل، ثمّ سأل في حذر:

- هل تعني أنّه كان يمتلك خصائص المسخرين الأربعة؟

أومأ نوح برأسه مؤكّدًا، فأردف آدم في لهفة:

- هل تفترض إذًا أنه كان يمسك بالخيوط كلها دفعة واحدة؟

- حسنًا. كانت أسطورة أخرى، لم أعتقد أنّها قد تكون حقيقة! لكن الآن.. طالما أنك ترى الخيوط كلها.. بدأت أفكر أنّ المسخّرين الذين ينشؤون خارج الجزيرة يتميزون بشيء خاصٍ..

التمعت في عيني آدم نظرة حالمة، وقد اتّسعت آفاق الممكنات في ذهنه، لو أنّه ينجح في الإمساك بطرف الخيط.. بل بالخيوط كلّها دفعة واحدة، سيكون أقوى مسخّر على سطح الجزيرة! إلّا أنّها تبقى مجرّد آمال بعيدة المنال في حالة عجزه المزرية.

***

مضى يومان على إبحار اليخت في اتّجاه الشّمال تحت سماء رحيمة وطقس مستقرّ. حين اقترب من مجال الجزيرة العربيّة، دخلت مانويلا أخيرًا نطاق التغطية لهاتفها الخلويّ، وتمكّنت من إجراء الاتّصال الذي كانت تتحرّق للقيام به منذ انطلاقها. هتفت بمرح حين وصلها صوت مخاطبتها:

- بروفيسور كلاوديا، كيف حالك؟

- مانويلا، أين اختفيت كلّ هذا الوقت؟ هل أنت في رحلة استكشافيّة أخرى؟

ضحكت الشّابتان وهما تتناكفان في مرح.

تعرّفت مانويلا إلى كلاوديا منذ سنتين، خلال هاكاثون دوليّ جمع طلاب علوم الحاسب بباحثين في الاختصاصات الطبيّة، لإنشاء تطبيقات وبرامج تخدم المجال الطبيّ. كلاوديا مهاجرة من أصول إفريقية وهي تكبرها بثماني سنوات، ومع ذلك، تآلفتا سريعًا وبقيتا على اتّصال منذ ذلك الوقت.

- أنا في طريقي إليك!

- فعلًا؟ أنت عائدة إلى الدّيار؟ هذا رائع، سأفرّغ جدولي من أجلك. متى تصلين؟

- ربّما خلال ثلاثة أيّام.. قبل ذلك، أودّ استشارتك في مسألة ما.

همست كلاوديا بلهجة ماكرة:

- مسألة علميّة.. أم شخصيّة؟

- علميّة بالتأكيد!

اكتسى صوت مانويلا نبرة جادّة وهي تقول:

- تخيّلي أنّ هناك مادّة تتخلّل الماء والهواء، في منطقة من العالم.. وهي مادّة ضارّة بجسم الإنسان، خلال وقت قصير من التعرّض لها، يصاب الجلد بالحكّة، ويضيق التنفّس، ثمّ تنهار الوظائف الحيويّة تدريجيًا..

هتفت كلاوديا في وجوم:

- هذا يبدو لي خطرًا للغاية، إنّها أسوأ من الإشعاعات النّووية!

- لكنّ هناك مجموعة من البشر، قد تعرّضوا لتأثير المادّة منذ زمن بعيد، فلنقل إنّ أجسادهم تعوّدت عليها.. ربّما تأقلمت عن طريق التكيّف والانتقاء الطبيعي أو الطفرات الجينيّة عبر عقود وأجيال طويلة، حتّى أصبح المجتمع المغلق هذا كلّه منيعًا ضدّ تأثير المادّة.

- آها، هذا يبدو مثيرًا حقًّا!

- إذًا، هل يمكن استخدام دماء هؤلاء الأفراد لاستخراج دواء أو تطعيم، يمكّن الأشخاص الطبيعيين من الحصول على مناعتهم ضدّ المادّة؟

- آه!

أخذت كلاوديا نفسًا، وصمتت لحظات تفكّر، ثمّ قالت:

- نعم، من النّاحية النّظرية، يمكن أن تلعب البلازما المستخلصة من دم الأفراد المنيعين ضد مادّة ضارّة دورًا في علاج أو حماية الآخرين. لكنّ هذا يعتمد على تفاصيل كثيرة أخرى..

أصغت مانويلا في انتباه فيما أخذت البروفيسورة تشرح:

- قد تحتوي بلازما الأشخاص المنيعين على أجسام مضادّة أو بروتينات أو جزيئات أخرى تعطّل أو تخفّف من تأثير المادّة الضارّة.. قد يمتلك هؤلاء الأفراد أيضًا آليات خلويّة أو طفرات جينية تساعد أجسامهم على معالجة المادّة أو التخلص منها بفاعلية.. إذا كانت المناعة ناتجة عن أجسام مضادّة معيّنة، يمكن استخراج هذه الأجسام من البلازما ونقلها للآخرين من خلال التّطعيم السّلبي مثلًا، إلّا أنّ هذا عادة يوفّر حماية مؤقتة.. لأن جسم المستقبل لا يتعلم إنتاج هذه الأجسام المضادّة...

بدا الحلّ المقترح مماثلًا لمفعول الحبوب التي تصنعها معالجة الجزيرة.

- ماذا لو أردنا حماية دائمة؟ أو طويلة المدى على الأقل؟

- في هذه الحالة.. قد يساعد نقل البلازما نقلًا مباشرًا على تقليل تركيز المادّة الضارّة في جسم المريض أو إدخال عوامل حماية.. ومع ذلك، من الضّروري التأكد من توافق فصائل الدّم لتجنّب أيّ مضاعفات..

- آها!

لم يكن هذا ما فكّرت فيه، لديها مُسخِّر واحد متاح، وسيعتمد العلاج على فصيلة دمه، ومن ثمَّ لن يستفيد من العلاج إلا عدد محدود من الأفراد الذين لديهم فصيلة الدّم ذاتها، هناك فردان إضافيّان، إذا غيّرت استراتيجيتها وأجبرت الكهلين على المضيّ معها، لكنّها لا تضمن أن تكون فصيلة دمائهما مختلفة.

عادت كلاوديا لتقول:

- في المطلق، لكي «تعالج» البلازما الأشخاص العاديين، يجب أن تكون التّأثيرات الضّارة للمادّة قابلة للعكس.. فتعمل البلازما إمّا على تعطيل المادّة وإما على دعم الجسم في التّخلص منها.. أمّا إذا كانت المناعة مرتبطة بعوامل وراثية، فلن تنقل البلازما تلك العوامل. في هذه الحالة يا عزيزتي، لن يكون العلاج بالبلازما ممكنًا.. ربّما تكون العلاجات الجينيّة ضروريّة للحصول على حلّ دائم..

شعرت مانويلا بالإحباط. من النّاحية العلميّة، لم يكن ما تسعى إليه مضمونًا بعد، هناك عوامل كثيرة تحتاج إلى دراسة ومعاينة، وربّما تتطلّب وقتًا أطول من المتاح.

- لا أتحدّث بعد عن ردود الفعل التحسسيّة الممكنة، والآثار الجانبيّة غير المقصودة.. طالما أنّ هذه المادّة لم تحصل على دراسة إكلينيكية كافية.. ثمّ، لم نتحدّث بعد عن الكلفة! إن كان هناك عائق أمام استخدام هذا النّوع من العلاج على نطاق واسع فهو كلفته الباهظة!

أطلقت مانويلا ضحكة مغتصبة. تكاد كلاوديا تخبرها أنّ حلمها ضرب من ضروب الخيال. قالت ساخرة:

- شكرًا، لقد رفعت معنويّاتي!

- هل تأتين إليّ من أجل هذا؟ هل معك عيّنة من المادّة وفرد منيع؟

- نعم، كانت هذه هي الخطّة.. في الحقيقة، هناك دواء محلّي يُصنع من دماء أفراد معيّنين يختلفون عن الآخرين. لقد فكّرت.. إذا كان هؤلاء الأشخاص البدائيّون قادرين على إنتاج هذا العقار، فلا شكّ أنّ عزيزتي كلاوديا ستذهب إلى أبعد من ذلك، لكنّني لم أعد واثقة..

اندفعت كلاوديا فجأة وظهر الحماس الشّديد في صوتها:

- اسمعي، سأفرّغ جدولي تمامًا.. سأحصل على إجازة إذا تطلّب الأمر! لم تخبريني، هل هي مادة نادرة؟ هل عثرت عليها في مكان ناءٍ خلال رحلتك؟ أنت واثقة أنّ أحدًا لم يسبقنا إلى نشر أبحاث عنها؟

ضحكت مانويلا للهفة صاحبتها وهي تقول في جذل:

- منذ لحظات، كدت أفقد الأمل! ظننت الأمر ميؤوسًا منه! والإجابات على جميع أسئلتك هي.. نعم! مكتبة سُر مَن قرأ

- يا إلهي! لا تقلقي، ليس هناك أمر ميؤوس منه حين يتعلّق الأمر بالعلم.. بل محاولات حتّى النجاح! تعلمين، لا يمكن أن نجزم قبل أن نتعرّف إلى العامل الواقي في بلازما الأشخاص المنيعين أو هؤلاء ذوي الدّماء الخاصّة.. ويمكن حينها أن نستخدمه في تطوير أدوية وعلاجات جديدة! حتّى لو لم نستخدم البلازما في العلاج المباشر -في حال كانت المناعة ناتجة عن طفرة جينية- يمكن لتقنيات تعديل الجينات أن تكرّر هذه الطّفرة لدى الأفراد العاديين! إذًا، كما ترين.. هناك مجال لا نهائيّ من الاحتمالات!

اتّسعت ابتسامة مانويلا وقد استعادت بهجتها.

جاء صوت كلاوديا عبر الهاتف بلهجة حذرة:

- قولي أنّني لم أفهم فهمًا خاطئًا.. والدك سيموّل هذه الأبحاث تمويلًا كاملًا، أليس كذلك؟ مختبري المتواضع لن يسمح بهذا النّوع من الأبحاث المكلفة!

غرقت مانويلا في الضّحك.

- هذا مؤكد، أنت لم تفهمي فهمًا خاطئًا قط!

تعتقد أنّ والدها سيتوقّع هذا على الأقلّ، لم يرسلها في هذه المهمّة إلا وهو يدرك أبعادها.

(7)

اليوم السّابع بعد الثّلاثين

لم يكن الاستيقاظ صباحًا عسيرًا قطّ كما بدا عليه ذلك اليوم. حين تباعد جفناه، شعر بثقلهما فوق بؤبؤيه. جاهد ليستدعي عزمه على النهوض، مقاومًا رغبة ملحّة في البقاء ملتصقًا بسريره. انتابته حيرة مفاجئة: ما الذي يجعله يشعر بهذا القدر من الإنهاك؟

مرّ نهار الأمس بلا أحداث تذكر. لقد رافق نوحًا بعض الوقت، يحاول عبثًا الإمساك بخيوطه المتفلّتة، ثمّ مشى حتّى موضع القرية القديمة عند تخوم الغابة، حيث بنى السّكان عرائشهم حديثًا. كان عليه أن ينهض ببعض مهامّ المخلّص، من تفقّد لأحوال الرّعيّة، الاجتماع مع الحكماء لاتّخاذ بعض القرارات الرّوتينيّة المتعلّقة بتسيير الحياة اليوميّة في ظلّ الوضع الفوضويّ، والإشراف على تدريبات المسخّرين الشبّان الذين يتطلّعون إليه كمثل أعلى.

آلمه ما آل إليه حال السّكان.. فقد معظمهم كلّ شيء، حرفيًا. القرية كلّها بنظامها الهندسيّ البديع وآلية الإنارة داخل المباني وعلى امتداد الطّرقات، وقنوات توصيل المياه والصّرف الصّحيّ.. كلّها صارت أثرًا بعد عين. لا يستطيع أن يجزم أيّها أثّر فيه أكثر من غيره: البدائيّة التي تردّت إليها معيشتهم، أم نظرات الإباء المليئة بالشموخ التي استقبلوا به زيارته لعرائشهم البسيطة. لقد أمطرت منذ يومين، ولعلّ حاجياتهم القليلة قد تبعثرت، والمياه قد تسرّبت من أسقف سعف النّخل الهشّة، ولعلّ بعضهم

(7)

اليوم السّابع بعد الثلاثين

لم يكن الاستيقاظ صباحًا عسيرًا قطّ كما بدا عليه ذلك اليوم. حين تباعد جفناه، شعر بثقلهما فوق بؤبؤيه. جاهد ليستدعي عزمه على النهوض، مقاومًا رغبة ملحّة في البقاء ملتصقًا بسريره. انتابته حيرة مفاجئة: ما الذي يجعله يشعر بهذا القدر من الإنهاك؟

مرّ نهار الأمس بلا أحداث تذكر. لقد رافق نوحًا بعض الوقت، يحاول عبثًا الإمساك بخيوطه المتفلّتة، ثمّ مشى حتّى موضع القرية القديمة عند تخوم الغابة، حيث بنى السّكان عرائشهم حديثًا. كان عليه أن ينهض ببعض مهامّ المخلّص، من تفقّد لأحوال الرّعيّة، الاجتماع مع الحكماء لاتّخاذ بعض القرارات الرّوتينيّة المتعلّقة بتسيير الحياة اليوميّة في ظلّ الوضع الفوضويّ، والإشراف على تدريبات المسخّرين الشبّان الذين يتطلّعون إليه كمثل أعلى.

آلمه ما آل إليه حال السّكان.. فقد معظمهم كلّ شيء، حرفيّا. القرية كلّها بنظامها الهندسيّ البديع وآلية الإنارة داخل المباني وعلى امتداد الطّرقات، وقنوات توصيل المياه والصّرف الصّحيّ.. كلّها صارت أثرًا بعد عين. لا يستطيع أن يجزم أيّها أثّر فيه أكثر من غيره: البدائيّة التي تردّت إليها معيشتهم، أم نظرات الإباء المليئة بالشموخ التي استقبلوا به زيارته لعرائشهم البسيطة. لقد أمطرت منذ يومين، ولعلّ حاجياتهم القليلة قد تبعثرت، والمياه قد تسرّبت من أسقف سعف النّخل الهشّة، ولعلّ بعضهم

لم يصب شيئًا من النّوم قبل انقطاع الودق، إلا أنّ أحدهم لم يفه بلفظ شكوى أو تذمّر!

تتحوّل الحياة إلى صراع يوميّ من أجل البقاء. على امتداد الطّريق، يلمح الأطفال ينبشون في رماد بيوتهم التي أودت بها النّيران بحثًا عن أيّ قطع صالحة للاستعمال. سيستهلكون وقتًا طويلًا، طويلًا جدًّا لإعادة إعمار القرية، وصنع كلّ شيء.. كلّ ما يلزمهم في حياتهم اليوميّة. ربّما ستنقضي سنوات قبل أن تعود الحياة إلى طبيعتها. لعلّ نمط عيشهم كان بسيطًا مقارنة بحياة المدينة في العالم المتحضّر، غير أنّ ما كانوا عليه يعتبر حضارة لها شأن، إذا ما قورنت بحياة رجل الكهف التي سيعيشون في ظلّها لبعض الوقت. حتّى لو عمل الحرفيون والمسخّرون جنبًا إلى جنب بدأب فلن تكون سرعتهم كافية أبدًا لإعادة معالم الحياة الكريمة قبل موسم الأمطار.

باستثناء المشي الطّويل بين المواقع التي تفصل بينها مساحات شاسعة من الطّرق الترابية التي يظللها السّحاب، وتوزيع عبارات المواساة والتّشجيع، لم يفعل شيئًا خارقًا، إلا أنّ إحساسه يذكّره بإفاقته من الإغماء بعد نزاله وأوران! كان مفرغًا من طاقته، مثل قوقعة فارغة، عظامه هشّة ومفاصله صدئة.. كان في حال يرثى لها من العجز. هل يمكن أن يكون الألم النّفسيّ قد أثقله إلى ذلك الحدّ؟

لا.. لم تكن تلك علّته.

حاول أن يرفع صوته مناديًا مروان الذي يرابط عند بابه. خرجت حشرجة مكتومة من حلقه، إلا أنّها كانت كافية لتنبيه المسخّر متّقد الحواس. رآه ينحني على عجل ليعبر إلى داخل الكوخ، فأشار إليه حتّى يقترب. حين صارت أذن الشابّ عند رأسه، همس:

- روان.. أحتاج إليها!

لم تدم حيرة مروان سوى لحظات عابرة، ثمّ هزّ رأسه وهرول خارجًا.

عاد آدم ليغمض عينيه في استسلام. لم ينتبه إلى قدوم المعالجة، لكنّه شعر بحضورها حين غمرته لمستها الشّافية، لّما أخذت أناملها تتحرّك فوق بشرته بلطف، تمسح عنه الألم وتبثّه راحة وسكينة. همست في قلق:

- ما الذي حدث؟

زفر دون أن يفتح عينيه وهمس:

- لا أعرف!

لم يكن صادقًا تمامًا. يعرف أنّ للأمر علاقة بذاته الأخرى التي تملك زمام أمره من حين إلى آخر دون وعي منه. لم يتكرّر الأمر منذ ليلة النّزال، حين انتبه فجأة ليجد نفسه قد غطس في المحيط حتّى وسطه، كأنّه يحاول الفرار سباحة! تحسّس ثوبه، فألفاه جافًا، لم يبد أنّ مغامرته قد تضمّنت السّباحة هذه المرّة.

- هل ترغب في بعض الرّاحة؟

أومأ ببطء ولم يعقّب. شعر بخطواتها تبتعد حتّى غادرت الكوخ، فغلبته سنة من النّوم. حين انتبه من جديد، كان يشعر بتحسّن كبير. رفع رأسه برفق، وألقى نظرة جانبيّة على المكان. غير بعيد عن مرقده، يجلس مروان مستندًا إلى العمود المركزيّ في وسط الكوخ المخروطيّ، وأمامه وعاء العسل والسّمن. ما إن تحرّك ليستقيم في جلسته حتّى أفاق مروان من غفوته. كانت ساعات قد مرّت منذ زيارة المعالجة، ربما كان النّهار يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ألقى آدم نظرة متفحّصة على المسخّر الشابّ المنتبه، ثمّ سأله في اهتمام:

- كيف نومك؟

- نومي؟

تساءل الشاب في دهشة. كان آدم قد لاحظ سرعة تفاعله وانتباهه إلى أدنى حركة في الجوار. سأل مجدّدًا:

- هل توقظك حركة الآخرين؟ هل تنتبه إذا ترك أحد النّائمين قربك مرقده ليلًا؟

رفع مروان حاجبيه، يتساءل داخله عن مغزى السّؤال، ثمّ أومأ إيجابًا.

- أظنّني لا أستغرق في نوم ثقيل!

- هذا حسن.

تابع مروان المخلّص وهو يتناول الإناء أمامه ويتجرّع اللّبن ببطء.

- منذ الليلة، سوف تنام إلى جواري.

انتظر الشابّ توضيحًا، فاستطرد آدم:

- سوف تراقبني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- في أثناء نومك؟

- إذا تحرّكت خلال نومي.

- إذا تقلّبت في نومك؟

- بل إذا نهضت وغادرت الكوخ ليلًا.. اتبعني!

- هل سنذهب إلى مكان ما.. ليلًا؟

تنهّد آدم، ثمّ حاول أن يشرح:

- أحيانًا.. تصيبني حالة خاصّة، تجعلني أمشي في أثناء النّوم.

- آه!

اتّسعت عينا مروان في دهشة، لعلّه يحسبها هبة خاصّة للمخلّص، فهو لم يعرف أحدًا من قبل يمشي في أثناء نومه.

- إذا رأيتني أمشي أثناء نومي.. اتبعني.

- ثمّ؟ هل يجب عليَّ أن أوقظك؟

- لا تفعل.. فقط راقب، وفي الصّباح، حين أستيقظ، ستخبرني بما فعلته.

- في أثناء نومك؟

- نعم، في أثناء نومي.

أومأ الشابّ وهو لا يزال في حال من الاستغراب للطلب العجيب، ربّما كان اختبارًا من نوع ما. ربّما يتوقع منه المخلّص أن يذهب في مهمّة مراقبة في وقت لاحق، ويختبر قدرته على البقاء متيقظا ومنتبهًا في العتمة. عاهد الشابّ نفسه أنّه لن ينام من الليل إلا قليلًا، وسيكون جاهزًا في أيّ لحظة يتسلّل فيها المخلّص خارج الكوخ، في مهمّته الخاصّة.

تابع آدم في اهتمام التعبيرات الغريبة التي ظهرت على ملامح مروان، فيما يتناول لقيمات من وجبته الوحيدة ذلك اليوم. كان قد نام معظم ساعات النّهار، ويحتاج إلى معرفة ما جرى في الخارج خلال غيابه، لكنّه بات يتساءل بسبب النظرة البلهاء التي ترتسم على سحنة المسخّر الشابّ، إن كان قد أصاب في تكليفه بتلك المهمّة!

ربّما لن يحصل شيء خلال أيّام وربّما أسابيع. يفصله أسبوعان عن مغامرته الأخيرة مع ذاته الأخرى، لذلك لا يتوقّع أن تستيقظ من جديد في وقت قريب.

***

منذ يومين، يقف مايك راسل عند حاجز السّفينة المشرف على جهة الشّمال، يتأمّل بنظرة فارغة ثابتة الموضع الذي كانت تشغله «الأسطورة»، قبل أن يبتلعها المحيط. يقال إنّ صاحب باخرة «التايتانيك» اعتقد أنّها سفينة لا تغرق! ربّما لم تخامر مايك راسل أفكار متطرّفة من هذا النّوع، إلّا أنّ فكرة غرق «الأسطورة» لا تزال مستعصية على فهمه، بعد مضيّ أكثر من خمسين ساعة على الكارثة.

لم تكن الناقلة مجرّد سفينة تجاريّة تسيّر البضائع من أقصى الأرض إلى أقصاها، بل كانت السّفينة الوحيدة التي امتلكها منذ أكثر من عقدين. كان يقتني اليخوت والسّفن كما يشتري غيره السيّارات أو الطائرات الخاصّة، لكنّه كثيرًا ما فرّط فيها بالبيع بعد سنوات قليلة، مصغيًا إلى رغبات جديدة ومتابعًا آخر صيحات التكنولوجيا العصريّة.. إلا أنّه احتفظ بـ«الأسطورة» لسبب يجهله.

لم يكن يركب الناقلة بنفسه كثيرًا، بل غالبًا ما يرسلها في رحلات بعيدة، ليشحن أو يستجلب، لكنّها كانت موضع فخره، فهي أوّل سفينة شحن استهلّ بها سلسلة من الأعمال المزدهرة. ربّما اعتبرها بداية نجاحاته وسبب حسن طالعه.

والآن، لم يبق أثر لفأله الحسن! فهل تكون علامة على إخفاقه؟

اقترب نايت من موضعه وقال:

- ما الذي تريد منّا أن نفعله الآن؟

كان لفريق المرتزقة مهام محدّدة، وهم وإن كانوا يأتمرون بأمر صاحب العمل، فإنّ بوسعهم نقاش الصلاحيات والحيثيات، أمّا وقد منّيت المهمّة بفشل ذريع، فقد تكون إعادة قراءة الخارطة ووضع خطّة جديدة

متاحين، كما الانسحاب وتقليص الخسائر. لبث نايت يراقب ملامح مايك المتشنّجة، حتّى أطلق صاحب العمل زفرة طويلة أقرب إلى الاستسلام.

يعلم مايك أنّه يدفع لهؤلاء الرّجال لتنفيذ أوامره، إلا أنّه عاجز عن التّفكير الآن. لقد كلّفه أشرف وابنه سفينة شحن وطائرة مروحيّة حتّى الآن.. لمح هيكل المروحيّة المحطّمة وهي تستقرّ على الشاطئ الرّمليّ منذ يومين، حين كان رجاله يحمّلون الغنائم على القوارب. لقد كان مشهدًا مؤلمًا، إلّا أنّه عزّى نفسه بوصوله أخيرًا إلى غايته، إنّها مجرّد ثمن زهيد أمام الغنيمة الكبرى. أمّا الآن، فقد ضاع كلّ شيء! لم تنج إلا أحجار قليلة من الغرق، ملأ بها جيوبه فيما تنهار السّفينة على جانبها وتنحدر في أنين صامت نحو أعماق المحيط.

لقد خسر الأسرى أيضًا، فيما سادت الفوضى سطح المركب، كانت أولويّة الرّجال إنقاذ الأرواح والغنائم، لذلك تركوا سكّان الجزيرة يرحلون، أو يغرقون، وإن كان يشكّ في أنّ هؤلاء القوم قد يجدون صعوبة في النّجاة.

- إذا سمحت لي.. أودّ أن أشاركك أفكاري.

استدار مايك نحوه مبديًا اهتمامه، فاستطرد نايت:

- أجهل إن كنت ترغب في العودة إلى الجزيرة.. لكن إن كنت تفعل، فأودّ أن تتناول المسألة بأسلوب مختلف.

- ماذا تقصد؟

أخذ نايت نفس جديدًا، ثمّ أردف:

- لقد خدمتُ في الجيش سنوات طويلة وفكرت في كل مرّة.. ماذا لو فعلنا الأشياء بطريقة مختلفة؟ هؤلاء الناس الذين ندخل حدودهم، نطأ

أرضهم ثم نشرع في قتلهم.. ألا نتوقع منهم أن يردّوا الصّاع صاعين؟ إنّ العنف لن يولّد إلا عنفًا أقوى. قد تعتقد أنّ الخصم أضعف وأقلّ عتادًا واستعدادًا.. لكنّ الأفراد المستضعفين إذا حشرتهم في الزّاوية، فقد يقدمون على تصرّفات لا تخطر على عقلك أبدًا.. سيكونون منهكين ومستنزفين، لكنّهم سيفاجئونك.. إذا لم تترك لهم ما يخسرونه!

رفع مايك حاجبيه في استغراب. كان يعتقد أنّ الرّجال الذين استأجرهم آلات قتل بلا رحمة، ينفّذون الأوامر بلا تفكير، ويعبدون المال الوفير الذي يدفعه لقاء خدماتهم. لذلك، فقد فاجأته حكمة قائد المجموعة الشابّ. ابتسم في سخرية وهو يقول:

- ربّما لم يتركوا لي شيئًا لأخسره؟ ماذا تقول بشأن خسارة «الأسطورة»؟

ظلت ملامح الشاب ثابتة وهو يقول:

- ربّما تودّ أن تعاملهم كبشر مكتملي الأهليّة؟

استولى على مايك الصّمت دقائق طويلة، حتّى حسب نايت أنّه قد غرق في أفكاره مرّة أخرى، إلا أنّه رفع رأسه فجأة وقال بتصميم:

- لديّ مهمّة من أجلك!

تأهّب نايت، وأصغى باهتمام فيما أردف مايك:

- لن أنتظر عودة مانويلا.. قد تتأخّر أسابيع أو أكثر، لا أحد يمكنه التنبّؤ بما قد تحتاج إليه التحاليل الطبيّة والأبحاث المخبريّة من وقت.. ثمّ، لدينا حبوب الدّواء! لا يزال بوسعنا المحاولة من جديد، بدل الترقّب الجامد على الحدود..

كانت لديه شكوكه بخصوص حبوب الدّواء، مذ رأى أشرف يقف عند مكتبه، إلا أنّها مجرّد شكوك تحتاج إلى يقين.

هبطت كتفا نايت قليلًا وقد شعر بالخيبة، لم يبد أنّ مايك قد أصغى إلى كلمة ممّا قاله.

- سوف تتسلّل غدًا إلى الجزيرة!

قال نايت في استسلام، وقد ذهبت جهوده أدراج الرّياح:

- ما الذي سنفعله هذه المرّة؟

تألّقت عينا مايك بنظرة متّقدة وهو يزمجر:

- أحضر آدم!

***

كانت رحلة العودة إلى الدّيار هادئة وبلا منغّصات، لولا قلق أشرف على آدم الذي خلّفه وراءه. لقد افترقا منذ نحو أسبوعين، ولم يعتقد أنّهما سيلتقيان في القريب، إلا أنّ وصول آدم إلى «الأسطورة» بعد ذلك أحيى في وجدانه أمل الرّجوع معًا إلى أرض الوطن. لكنّه ما ينفكّ يتردّى في بئر الهواجس، مرّة إثر المرّة. حسب وهو يركب اليخت أنّ الجزء الرّهيب من المغامرة قد انتهى أخيرًا.. ثمّ لمّا عاد آدم أدراجه برفقة المسخّر، لم يغادره الرّجاء بأنّ السّفن التّجارية سوف ترجع يومًا، وسيكون ابنه على متن إحداها، لكنّ الآمال انتهت بعد مكالمة مايك منذ يومين.

آدم الآن وحيد، ولا يعتمد إلا على نفسه. لا يختلف الوضع عمّا كان عليه منذ أسبوعين، لكنّ مستوى القلق في نفس أشرف قد تضاعف. لم يتخلّ آدم عن تذكرته على متن «الأسطورة» وحسب، بل إنّه قد كسب عداوة مايك وكوكبة من الرّجال الغاضبين.

كان عليه أن يهب ولده ثقته في نهاية المطاف، وهل يملك شيئًا عدا ذلك؟

يودّ الاعتقاد بأنّ آدم قد نضج واكتمل عقله، لقد كان قادرًا على اختيار جانبه من المعادلة ببسالة، ليتحمّل نتائج موقفه الشّجاع، مهما كانت. لم يكن أشرف بنفس القوّة وثبات الجنان. رغم إدراكه للخطأ الذي يقترفه مايك بحقّ السّكان، فإنّه لم يحرّك ساكنًا. حين يصل المرء إلى ذلك المنعطف الخطير، وتكون حياة أقرب النّاس إليه على المحكّ، فإنّ اتّخاذ القرارات الشّجاعة يكون ترفًا لا تبلغه يداه.

خلال الأيّام السّابقة، لم يقترب كثيرًا من رفقاء السّفر المحشورين في الغرف الدّاخلية على الدّوام، كان الاستمتاع بشمس أكتوبر على سطح اليخت حكرًا عليه معظم الوقت، إلا أنّ اقتراب وصولهم إلى الدّيار كان يستدعي اتّخاذ بعض الخطوات المتأخرة.

لقد تعرّف إلى إبراهيم -الشاهد الذي تسبّبت شهادته في متاعب كثيرة له ولآدم- لكنّه يعرف عنه كثيرًا أيضًا من خلال أحاديث هاجر لسنوات مديدة، عن شقيقها الوحيد الذي حسبت أنّها لن تلتقيه بعد أبدًا. مثل كلّ الأشقاء، كانت تجمعهما حكايات ومغامرات أثّثت طفولتهما ونشأتهما معًا وتركت في ذاكرتها مشاهد لحوادث تستحقّ الاستحضار في الخلوات، وفي سهرات الأنس. كانت تجلس إلى جواره، ثمّ تسرح بنظراتها وخواطرها، فتتحدّث وتتحدّث، تغيم عيناها وتشرد أفكارها حتّى يحسبها قد غادرته لتحلّق فوق الجزيرة، مثل روح يتيمة ينازعها الشّوق إلى عالم تركته، كأنّها قد فارقت جسدها ذاته.

ينتبه حين تدمع عيناها، فتتوقّف وقد غلبتها الغصّة، وقد كان بوسعها الاستمرار الليل بطوله، ربّما تكرّر نفس الحكايات، وربّما تناقض نفسها أحيانًا، تراوغها ذاكرتها وتحرّف المشاهد، فتكون الحوادث في كلّ مرة أجمل وأبهى وأدعى للتأثر والإعجاب. كانت لديها تلك الملكة الخلابة للحكي،

وقد ودّ أن يدوّن تلك القصص من أجلها، إلا أنّه حين دخل دوّامة البحث عن الجزيرة المفقودة لم يغادرها قطّ، فشغلته عن كلّ شيء عداها!

ترك مقعده ومشى بخطوات وئيدة، استمرّ يفكّر في الكلمات التي ستجري على لسانه خلال لحظات وهو يقرع باب المقصورة برفق. حين ظهر وجه إبراهيم أمامه، ابتسم وهو يقول:

- هل يمكننا أن نتحدّث؟

ارتبك الرّجل الكهل وعلاه الشّحوب. لم تسمح الظروف بحديث على انفراد، منذ أنقذ أشرف حياته في عرض المحيط، لم يقدّم اعتذارًا قلبيّا مخلصًا وهو راكع على ركبتيه بعد، وقد تخيّل المشهد مرارًا وتكرارًا وجهّز الكلمات المنمّقة التي سيلقيها على مسامع منقذه.. غير أنّ الارتباك أدّى إلى لهوجة لسانه وفقدانه القدرة على النطّق. تأتأ في جزع:

- تفضّل.. تفضل...

كانت المقصورات متشابهة، وهي مريحة رغم مساحتها المحدودة، إلا أنّها ضاقت بالرّجلين الغريبين اللذين تتعثر الكلمات على أطراف لسانيهما.

تجاوز أشرف حرجه أولًا، ليقول:

- كيف حالك إذًا.. منذ غادرت الجزيرة؟

همهم إبراهيم بكلمات شكر وثناء مبهمة، فعاد أشرف ليردف:

- هل فكرت في ما ستفعله حين نصل إلى اليابسة؟

حدّق الرّجل في وجهه مبهوتًا للحظات، إنّه لا يعرف شيئًا عن تلك الأرض الأخرى التي سيصل إليها، غير أنّه لم يفترض كثيرًا، لعلّها تكون أرضًا أخرى وراء المحيط، أكبر قليلًا أو أصغر قليلًا من «آرا»، لكنّها قطعًا مجرّد أرض أخرى، فيها شواطئ وغابات وجبال.. سيتدبّر أمره بطريقة ما.

إنّ الخطر يكمن في قطع المحيط بأمان، حيث لا ظلال ولا سحب تحميه من سطوة الشّمس الحارقة، أما ما يأتي بعدها، فيمكنه التّعامل معه.

سأل أشرف من جديد بابتسامة خفيفة:

- هل تريد أن تعرف ما الذي فعلته هاجر، حين رحلت منذ خمس وعشرين عامًا؟

اتّسعت عينا إبراهيم وقد غلبته اللّهفة:

- هل تعني.. هل تعني أنّها.. حيّة؟

غلبت ملامح أشرف الابتسامة حتى صارت تملأ كامل وجهه، وقد تبلّلت رموشه وهو يومئ إيجابًا، قال يؤكّد آمال صاحبه:

- إنّها بخير.

عاد ليقول مستدركًا:

- لقد كانت بخير حتّى وقت قريب.. حين تركتها منذ شهرين، آمل أنّها ستكون بخير حين نصل إليها.

- هل نحن ذاهبون إليها؟

- في الواقع، أردت أن أقترح عليك مرافقتي.. إذا شئت ذلك.

- أنت ذاهب إليها؟

أومأ أشرف بحركة مؤكّدة، فأصاب إبراهيم ذهول مفاجئ يصاحبه إدراك متأخّر.

- هل كانت تعيش معك.. منذ رحيلها؟

أومأ أشرف مرّة أخرى، فعاد إبراهيم يسأل في لهفة:

- آدم.. ابنك، هو ابنها أيضًا؟

- أنت خاله، نعم.

أصابت الرّجل حالة من الاضطراب وهو يترك مقعده ويتحرّك عبر مساحة الغرفة الضيّقة.

- هل عرفني؟ هل يعرف أنّني.. خاله؟

- أعتقد أنّه قد فعل.. إنّه ولد ذكيّ.

تنفّس إبراهيم بعمق، وقد غلبته العبرة، مرافقة استيعابه التدريجيّ.

- لديّ عائلة.. لديّ عائلة في «مهافيا دياما»!

ابتسم أشرف، ثمّ ما لبثت ابتسامته أن تحوّلت إلى قهقهة مجلجلة. قليلون جدّا، بل نادرون هم أبناء «آم» الذين قد يدّعون امتلاك عائلة في «مهافيا دياما». وقد كان وقع الكلمات غريبًا ومدهشًا في آن.

(8)

اليوم الثامن بعد الثلاثين

غاص نايت تحت الماء معظم المسافة حتّى الشاطئ، كان يودّ الحفاظ على مخزون الأكسجين أطول فترة ممكنة، لكنّ الحذر دفعه إلى البقاء مختبئًا، وكذلك فعل الرّجال الأربعة الذين رافقوه في مهمّة. مثل المرّة الأولى، أفلت تسلّلهم من رقابة الحرّاس، لم يبد أنّ أحدهم قد انتبه لحضورهم داخل نطاق الظلة.

كانت لديه بعض التحفظات على المهمّة، من ناحية طبيعتها وجدواها، وكذلك فرص نجاحها، إلا أنّ خطواته تتقدّم بسلاسة حتّى الآن. فاجأه أنّ الكرات المطاطية الحمراء التي رسمت طريق العبور خلل الضّباب بقيت مكانها طافية على سطح الماء. لا يدرك إن كان الحرّاس قد خشوا ردّة فعل الغرباء فلم يغامروا بمحاولة إزالتها من جديد، أم لعلّ المحاولة الأولى قد تركت أثر مرارة وإخفاق كافيين.

حين وصلوا إلى الشاطئ الفضيّ في ساعات الفجر الأولى، سارع الرّجال بالتخلّص من بدلات الغوص وأسطوانة الأكسجين الثقيلة، ليشعروا على الفور بالتحرّر والخفّة. لم يحاول نايت أن يثنيهم، غير أنّه احتفظ ببدلته وأسطوانته. هل يكون مبالغًا في الحذر؟ من المؤكّد أنّه لا يرغب في تكرار أخطاء المرّات الماضية، إذا ما هاجمهم مسخّرون على حين غفلة.

(8)

اليوم الثامن بعد الثلاثين

غاص نايت تحت الماء معظم المسافة حتّى الشاطئ، كان يودّ الحفاظ على مخزون الأكسجين أطول فترة ممكنة، لكنّ الحذر دفعه إلى البقاء مختبئًا، وكذلك فعل الرّجال الأربعة الذين رافقوه في مهمّة. مثل المرّة الأولى، أفلت تسلّلهم من رقابة الحرّاس، لم يبد أنّ أحدهم قد انتبه لحضورهم داخل نطاق الظلة.

كانت لديه بعض التحفظات على المهمّة، من ناحية طبيعتها وجدواها، وكذلك فرص نجاحها، إلا أنّ خطواته تتقدّم بسلاسة حتّى الآن. فاجأه أنّ الكرات المطاطية الحمراء التي رسمت طريق العبور خلل الضّباب بقيت مكانها طافية على سطح الماء. لا يدرك إن كان الحرّاس قد خشوا ردّة فعل الغرباء فلم يغامروا بمحاولة إزالتها من جديد، أم لعلّ المحاولة الأولى قد تركت أثر مرارة وإخفاق كافيين.

حين وصلوا إلى الشاطئ الفضيّ في ساعات الفجر الأولى، سارع الرّجال بالتخلّص من بدلات الغوص وأسطوانة الأكسجين الثقيلة، ليشعروا على الفور بالتحرّر والخفّة. لم يحاول نايت أن يثنيهم، غير أنّه احتفظ ببدلته وأسطوانته. هل يكون مبالغًا في الحذر؟ من المؤكّد أنّه لا يرغب في تكرار أخطاء المرّات الماضية، إذا ما هاجمهم مسخّرون على حين غفلة.

توقّف على أعتاب الغابة السّوداء المعتمة، وتلفّت حوله متفقّدًا. لا يعرف أين سيكون عليه البحث عن آدم. لقد احترقت القرية حتّى سوّيت دورها بالأرض، لعلّ السّكان قد شيَّدوا مساكن أخرى مؤقتة، ولعلّهم يحتمون بالكهف أو بالغابة.. يجهل أين يكونون، لكنّهم نائمون في هذه السّاعة على الأرجح.

رفع ذراعه وأعطى رجاله إشارة الانطلاق، سيتقدّمون إلى الأمام، يطوّقون الغابة، وقد يتخذ قرارًا لاحقًا بالعبور خلالها إذا ما ارتأى ذلك لسبب من الأسباب. أمّا الآن، فللمهمّة عنوان واحد: الارتجال. وربّما عنوان فرعيّ: الاحتراز. لا يزال يعتقد أنّ الغابة مصدر خطر، لكنّ البقاء مكشوفين ليس خيارًا مثاليًا أيضًا. سيسيرون في الظلال، على أطراف الأجمات التي تبقيهم محجوبين عن الأعين، كأنّما يتقدّمون على حبل الحذر.

بعد ساعتين من المشي، لاحظ أولى علامات الإجهاد على رجاله. لقد حصلوا جميعًا على جرعة حبوب الدّواء قبل مغادرتهم السّفينة، ثمّ على جرعة إضافيّة حين وطئوا أرض الجزيرة، إلا أنّها لم تمنع أنفاس المرتزقة الأقوياء من التهدّج بعد بذل مجهود معتدل من السّير المتمهّل. كان عليهم الرّجوع أدراجهم واستعادة بدلات الغطس التي تركوها في مخبأ من أجل رحلة العودة.

أطعم نايت كلّ واحد منهم حبّتين إضافيّتين من الدّواء، ثمّ حدّق في الكرات السّوداء المستقرّة في راحة يده بشكّ، لا يعرف إن كان الخطأ فيها أم فيهم. لم يشعر نايت بأدنى ضيق، وهو يتنفّس عبر أسطوانته كأنّما يغطس تحت الماء، لقد رأى أن يحتفظ بها فوق ظهره رغم الثقل والرّطوبة، مبالغة في الحذر، رغم أنّه يجهل إن كان مخزونها سيسعفه على طريق العودة، لكنّ رجاله كانوا يتساقطون على الأرض في إنهاك حتّى بعد حصولهم

على الجرعة المضاعفة. ربّما كانت زيارتهم الأخيرة للكهف قد أثّرت في مناعتهم على المدى الطويل، وأضرّت باستعدادهم للتعامل مع الـ«مادرا» التي تُسمّم الماء والهواء من حولهم، وربّما يكون الدّواء قد فسد حين أخذوه إلى خارج حدود الظلة.. أو تأثّر بعوامل أخرى. يشكّ أنّ الماء قد تسرّب إلى سلّة الخيزران بعد غرق الأسطورة، رغم الحماية المكثفة التي حرص عليها مايك، لم يكن واثقًا، إلّا أنّ المهمّة رغم سلاستها الظاهرية، كانت تمنّى بإخفاق ذريع.

فجأة، غلبه الإدراك. يعلم الآن لماذا لم يحاول الحرّاس التخلّص من الإشارة التي تسم الطريق إلى الجزيرة، لقد تركوا الباب مواربًا، وأغروهم بسهولة الوصول ليعاينوا بأنفسهم أنّ حبوب الدّواء لم تعد تنفعهم.

كان عليه أن يعيد رجاله إلى الشاطئ بالسّرعة القصوى، حتّى لو اضطرّ إلى سحبهم سباحة حتّى السّفينة، فالقائد لا يتخلّى عن رجاله. توقّفت حركته بغتة حين أبصر حركة قريبة خلال الأغصان الدّاكنة، في البعيد، يتحرّك شكل بشريّ يخوض في الماء. حدّق في اهتمام، حتّى ميّز الهيئة.. كان آدم!

قبيل لحظات كان يعتقد أنّ المهمّة قد فشلت لا محالة -وهي كذلك بالنظر إلى الحال المزرية التي يبدو عليها مرافقوه الأربعة الملقون على الأرض لا يكادون يتنفّسون- غير أنّه لا يمانع في إضافة جسد خامس إلى مجموعة الأجساد التي سيضطرّ إلى سحبها عبر المحيط.

قبل أن يترك مخبأه، انتبه إلى شكل ثانٍ، يترصّد في الظلال.. كانت هيئة مألوفة لديه كذلك: المسخّر الشابّ الذي قسم «الأسطورة» نصفين منذ أيّام! تراجع في قلق وارتياب وأبقى عينيه مفتوحتين، وسبّابته متأهبّة على الزّناد، لبث يتابع المشهد وقد غلبه الفضول تجاه ما يفعله هذان في جوف الليل.

راقب آدم وهو يتوقّف عن المسير وقد بلغ الماء خصره. حافظ على ثباته لبعض الوقت، حتى تساءل نايت عن هدفه من السّباحة الليّلية، ثمّ رآه يرفع كفّه في حركة مفاجئة، لترتفع أمواج البحر مثل سدّ هائل يهدّد بابتلاعه، ثمّ يخفضها كأنّما يدفع السدّ إلى الخلف، فتمتثل الأمواج كأنّما هي طوع بنانه، فيحرّك ذراعه في دوران لولبيّ، لتستجيب كتل الماء وتتماهى مع حركته!

لم يستطع نايت أن يبعد عينيه عن المشهد الباهر، خاصّة أنّ مُنفّذ العرض لم يكن المسخّر الشابّ، بل آدم! تساءل في حيرة إن كان المسخّر يعلِّم آدم حيلة ما، أم يحرّك الموج من خلفه ليوهمه بأنّه هو من يفعل! غير أنّ ثبات المُسخِّر وسكونه كانا مدهشين، فلا يفسّر الأمر إلا نجاحه في التحكّم العقليّ بحركة الماء! إنّ أيًا من هذه التفسيرات لم يكن مطمئنًا، بل باعثًا على القلق والجزع!

بسرعة، اتّخذ القرار العاجل بالانسحاب. لم يعد إحضار آدم أولويّة، بل إنقاذ رجاله المحتضرين، والعودة بالأخبار المذهلة إلى ربّ عمله!

***

لم تتحدّث مانويلا إلى سجينها منذ بدء رحلة الإبحار، كانت تحاول تجاهل حضوره، أو تخادع نفسها بألا شيء غير قانونيّ يحصل على متن يختها، شعرت بالاستياء لما حدث على الجزيرة، فوجدت الفرصة سانحة للابتعاد بدعوى البحث العلميّ، أمّا وقد اقترب موعد رسوّ المركب في وجهته، فسيكون عليها التحدّث إلى المسخِّر لضمان تعاونه. إنّ آخر ما تودّ حدوثه هو تمرّد أحمق أمام مكاتب الجوازات!

أدارت المفتاح في القفل ودخلت الغرفة بهدوء، التقت عيناها بظهر المسخِّر الذي يعبّر عن إعراضه في احتجاج صامت، كان يتأقلم بشكل

جيّد مع الحياة خارج جزيرته، ويتناول وجباته كاملة، دون أن يخلّف لقمة واحدة في الأطباق التي تصله في مواعيد محدّدة، وقد بدا ذلك مطمئنًا ومثيرًا للقلق في آن.. إنّه لا يسبّب المتاعب بعد، لكنّه يحرص على الحفاظ على قوّته بالتهام كلّ ما يقدّم له من مؤونة.

قالت محاولة أن تحمّل صوتها شحنة من الودّ:

- سوف نصل قريبًا إلى وجهتنا.

ردّ أوران بلهجة جافّة:

- ما الذي تريدينه مني؟

تردّدت لبرهة، ثمّ شرعت تشرح:

- سنأخذ عيّنة من دمك، كانت المعالجة تفعل هذا لصنع حبوب الدّواء.. أليس كذلك؟ سنفعل الشيء ذاته.. سنحتاج أيضًا إلى إجراء تجارب سريرية عليك.. أقصد في المختبر.

لزم أوران الصّمت، فتابعت بهدوء:

- لن نضرّك بشيء، أعدك أنّك ستكون بأمان.. لذلك أرجو منك التّعاون حتى لا يصاب أحد بأذى!

استدار أوران فجأة وعيناه تشتعلان غضبًا:

- التّعاون؟ هل يفترض بنا التّعاون معكم حتى تحصلوا على دواء يمكّنكم من دخول أرضنا بسلام؟ ثم نتعاون حتى تسرقوا الـ«مادرا» الخاصّة بنا.. وهل يجدر بنا التّعاون حين تأخذون أرضنا، ولا نثير ضوضاء بينما تقتلوننا؟!

ابتلعت المرارة العالقة في حلقها، كانت التّحاليل الطبية مجرّد ذريعة للهرب من شعورها الكئيب بالذّنب، لذلك لم تجد كلماته مجحفة، طأطأت رأسها وقالت في اعتذار:

- أنا آسفة بشأن كلّ ما حدث على الجزيرة.

قال أوران متهكمًا:

- ربما لا أعرف كثيرًا عن عالمك لكن هل الاعتذار لديكم شيء ذو قيمة يمكن مبادلته مثل البضائع والخدمات؟

أنقذها الرنين المزعج لهاتفها المتّصل بالأقمار الصّناعيّة، فاغتنمت الفرصة للهروب ثانية، تلقّت اتّصالًا من الوسيط الذي طمأنها إلى جاهزية أوراق الثبوتية والملفات الطبيّة الخاصّة بالمسافرين الثلاثة، حين تصل السّفينة إلى الميناء ظهر الغد، سيكون ممثّل عن الوكالة في انتظارها، زفرت وهي تنهي المكالمة، وقد أثقل القلق صدرها.

- أنت بخير؟

فاجأها صوت أشرف الذي وقف إزاءها في الممرّ، فابتسمت بوهن وهي تومئ برأسها. تذكر أنّ هذه الرّحلة كانت واحدة من أحلامها التي تبعث فيها الحماسة والإثارة: أن ترافق البروفيسور أشرف صافي في مهمّة بحثه عن «جزيرته المفقودة»! تبدو تلك المشاعر البعيدة غريبة الآن. منذ ذلك الوقت، عرفت كثيرًا من القلق والخوف، حين بقي آدم ووالده مفقودين لثلاثة أسابيع، ثمّ الشكّ والخزي وهي ترقب والدها يعامل السّكان المحليّين بوحشيّة، لتنتهي على طعم الغضب والإحباط، بعد أن حطّم آدم «الأسطورة» بلا ذرّة ندم. لم يبق لها إلا التوتّر تجترّه كلّ يوم، حتّى تنتهي من مهمّتها الإضافيّة بسلام!

- أنت منهكة، لا يبدو أنّك تحصلين على كفايتك من النوم!

دفعت زفيرًا طويلًا خارج صدرها، إنّها كذلك، لقد تورّطت.

- إن كنت لا تمانعين، أودّ أن آخذ بعض الحمل عن كاهلك.

نظرت إليه في حيرة، فأردف:

- هل فكّرت في ما تنوين عمله بالنّسبة إلى ضيوفك، بعد وصولنا إلى الميناء؟

- المُسخّر سوف يبقى معي.. أمّا بالنسبة إلى الآخرين، لقد أرادا وسيلة نقل تأخذهما إلى العالم المتحضّر، وهذا كلّ ما أوفّره لهما!

كانت قد انتهت إلى ذلك القرار، بعد أن فكّرت وهلة قصيرة باصطحاب أكبر عدد ممكن من سكّان «آرا» من أجل الفحوصات السّريرية. لا تريد مزيدًا من السّجناء.

- حسنًا، ربما إن كنت تودين تجنّب المتاعب، أعتقد أنّ عليك توفير ما هو أكثر من مجرّد خدمة النّقل.. أنت لا تريدين أن يتحدّثا عن الجزيرة والحجر.. وعن علاقتهما بك وبوالدك؟ ربما يمكنك توفير وظيفة ومسكن مؤقت؟

لم يعتقد أشرف أنّه سيضطرّ إلى التّفاوض باسم سكّان «آرا» في رحلتهم نحو العالم الخارجيّ، لكنّه يفعل إكرامًا لزوجته. بدت مانويلا مرتبكة وتائهة، ربّما لم تفكّر في تبعات ما تفعله على وجه التّحديد، تابع أشرف مقترحًا:

- سوف أخلّصك من أحدهما.. سآخذ معي إبراهيم، وستهتمّين بأمر أنوش. اتّفقنا؟

أشرقت ملامحها بابتسامة ممتنّة، حمل واحد أقلّ.

- بالمناسبة، هل بحوزتك عيّنات إضافية من «حجر الشّمس»؟ سيحتاج كلّ واحد من هؤلاء الرّجال إلى حجر يُبقيه على قيد الحياة!

رفعت مانويلا حاجبيها في دهشة، ثمّ هزّت رأسها في إذعان، كان من حسن حظّها أن احتفظت بأكثر من عيّنة، بالإضافة إلى قلادتي المسخّرين.

***

حين فتح آدم عينيه شعر على الفور برطوبة جسده، ذلك الإحساس الغريب الذي يتبع رحلات غطسه الليلية مجهولة التّفاصيل، والتي لا يذكر عنها شيئًا. رفع جذعه في حركة مباغتة، وقد اتّسعت حدقتاه في تحفّز. بالأمس، طلب من مروان أن يراقبه ليلًا، غير أنّه لم يتوقّع أن يصدر عنه أيّ فعل مريب قبل مرور بعض الوقت.

قبالته، مستندًا إلى عمود الكوخ، كان مروان ينام جالسًا وقد بدا عليه الإرهاق. تسارعت نبضات آدم، وهو ينهض عن مرقده، وتساءل إن كان المسخِّر الشابّ قد شهد أحداث ليلته. ما إن خطا على الأرض بقدميه الحافيتين، حتّى أفاق مروان كليًا. كان نومه خفيفًا واستيقاظه سريعًا لأدنى حركة في محيطه. ابتسم آدم وهو يشير إلى طبق العسل الذي وضع على الأرض عند مدخل الكوخ:

- تعال، فلنتناول الإفطار.

جلسا متقابلين، يتقاسمان رغيف الخبز ويتناوبان التغميس في صحن العسل الذي لم يعد السّمن يرافقه. فكّر آدم أنّ المخزون قد فرغ، والماعز قد تفرّق فرارًا إلى التلال بعد الحريق، وربّما لم ينجح المزارعون في استعادتها بعد. لن يكون على المائدة سمن أو لبن لبعض الوقت، غير أنّه كان محظوظًا كفاية بحصوله على الخبز السّاخن كلّ يوم، وإن كانت جودة الحبوب تدعو إلى الشفقة، وقد خالطتها رائحة رطوبة نفاذة.

راقب صاحبه بطرف عينه، وانتظر أن يحدّثه بأحداث الليلة الماضية. انتبه إلى النّظرات الحذرة التي يختلسها الفتى تجاهه بين لقمة وأخرى، فابتسم مشجّعًا وهو يقول:

- هل نمت جيّدًا؟

قال مروان بلهفة كأنّما ينتظر الإشارة:

- لقد طلبت منّي أن أراقبك في أثناء اللّيل..

أومأ آدم يستحثّه، فأردف الشاب في حماس:

- كنت أعتقد أنّ التحكّم بالرّياح يخصّ المسخّرين من ذوي الخيط التّرابيّ.. وقد رأيتك في أثناء النّزال تتحكّم بالضّوء.. إذًا فالخيط الذي يخصّك حليبي، أليس كذلك؟

حدّق آدم في وجهه بغير فهم، واستمرّ يهزّ رأسه مصدّقًا، فجأة هتف مروان:

- لقد فهمت.. إذًا، هذا شأن خاصّ بالمخلّص!

ضغط آدم على ركبته بلطف وقال مهدّئًا:

- على رسلك.. أخبرني بكلّ شيء رأيته.. كلّ شيء!

توقّفت عينا مروان على ملامح آدم المتوسّلة، ورغم أنّه لم يدرك مغزى الطلب، فقد أخذ يسرد بتفصيل وإسهاب كلّ ما حدث الليلة السّابقة: استيقاظ آدم المفاجئ بعد انتصاف الليل، رحلة المشي عبر الغابة حتّى الشاطئ، وتحكّمه السّلس بالأمواج، ثمّ العودة أدراجه إلى الكوخ في ساعات الصّباح الأولى.

أصغى آدم بعينين متّسعتين، محاولًا أن يشعر بآثار ما فعله على جسده.. كان مبلّلا ومنهكًا لا ريب، لقد مشى ساعاتٍ، ولم يتوقّف إلا ليتدرّب على التحكّم بالماء. رفع كفّيه أمام وجهه وتنفّس باضطراب.. هل فعل هذا حقًّا؟ تلك الخيوط التي تنبض أسفل جفنيه حين يغمضهما، إنّها تصغي إليه وتطيعه في تلك الأوقات التي يفقد فيها تحكّمه بجسده! لم تكن مجرّد خيوط عشوائية بلا معنى، لكنّها كناية عن كلّ القدرات الغامضة التي بوسعه أن يمتلكها، لو أنّه يعرف كيف يفكّ أقفال طاقته في أثناء وعيه.. لا بلا وعي منه!

تذكّر كلمات نوح عن المعلّم سليمان، لقد كان يمسك بزمام الخيوط كلّها، يصنع عاصفة هوجاء بمفرده! ماذا لو.. ماذا لو كان يمتلك الهبة ذاتها؟

***

وصل نايت إلى السّفينة بعد أن ارتفعت الشّمس إلى كبد السّماء. وصل وحيدًا، بلا رجاله، وقد اضطرّ إلى التخلي عنهم في الغابة، يغمره الخزي والعار، بعد إخفاقه في إنجاز المهمّة وفقدانه الفرقة كاملة. سقط الواحد منهم على الأرض إثر الآخر، ولم تنجح الحبوب التي أطعمها إياهم بوفرة في انتشالهم من قعر الغيبوبة التي سقطوا فيها، حتّى تلاشت نبضاتهم تمامًا. ثماني ساعات، كانت تلك الفترة التي احتاجتها الـ«مادرا» للقضاء على حياة أربعة من أكثر رجاله صلابة وقوّة. ربّما لو لم يسبق لهم التعرّض لتأثير الكهف، ربّما كانوا ليصمدوا وقتًا أطول.

احتاج إلى ثلاث ساعات إضافيّة للسّباحة حتّى السّفينة، بعد أن نفد مخزون الأكسجين الخاصّ به على الجزيرة، فاضطرّ إلى استغلال أسطوانات رفاقه. لولا تضحيتهم، لما تمكّن من العودة أيضًا. إنّ أيّ مهمّة تسلّل نحو الجزيرة في المستقبل سيكون مصيرها الفشل لا محالة.

أصغى مايك إلى اعترافاته المفعمة بالأسى، وألقى تعازيه الباردة بشأن الرّجال الأربعة الذين لقوا حتفهم، لتتزايد حصيلة الخسائر البشريّة في تلك الرّحلة الاستكشافيّة. قال نايت بلهجة مثقلة بالذنب:

- إنّها الكارما.. لقد بدأناهم بالقتل، وسيموت منا آخرون!

هزّ مايك رأسه بغير اقتناع، ثمّ سأل في اهتمام:

- ماذا عن آدم، هل وصلت إليه؟

حدّق نايت في وجهه في دهشة، إلا أنّه لا يتوقّع من ربّ عمله الاهتمام بأيّ شيء آخر باستثناء أهدافه الشخصية. قال أخيرًا متناسيًا خيبته وخسارته:

- لقد رأيته، حين كنّا مختبئين في الغابة.. كان من العجيب أن يظهر في ذلك الوقت، وسط المحيط.. لكنّ هذا ليس كلّ ما يدعو إلى الدّهشة!

حكى تفاصيل المشهد العجيب، بينما استمع مايك بانتباه. حين فرغ نايت من قصّته، سأل مايك في حيرة:

- هل تعتقد أنّ التسخير هبة متعدّية، يمكن أن يهبها المسخّر لأيّ فرد آخر؟

هزّ نايت رأسه نافيًا وقال:

- لو كان الأمر كذلك لتحوّل السّكان كلّهم إلى مسخّرين.

شردت نظرات مايك للحظات متفكّرًا، ثمّ عاد إلى نايت:

- لكنّك رأيت آدم يفعل هذا بأمّ عينيك؟

أومأ نايت ثمّ استطرد:

- إمّا أن يكون آدم مجرّد مؤدّ، في حين أنّ المسخّر هو من يحرّك الأمواج ذهنيًا.. وإمّا أن يكون لبعض البشر استعداد جينيّ لتلقي هبة التّسخير.. بطريقة ما!

تأمّل مايك كلماته في اهتمام، ثمّ سار بهدوء نحو المقصورة الخاصّة به في سفينة «سارا». فتح الخزانة وأخرج سلّة الخوص التي تحوي حبوب الدّواء المسروقة من مشفى الجزيرة، ثمّ أشرع نافذة المقصورة، وذرّى الحبوب عديمة الفائدة في الهواء. الآن، وهو يتأمّل الكرات السّوداء التي تطير في مهبّ الرّيح، يستعيد المشهد على سطح «الأسطورة»، ويدرك يقينًا أنّ أشرف كان يفعل الشيء ذاته في مكتبه منذ أيام.

(9)

اليوم التاسع بعد الثلاثين

هو قادر على استعمال الخيط التّرابيّ!

سيطر على تفكيره ذلك الاكتشاف الباهر. إنّ القدرات الكامنة التي يحتويها جسده تجعله أقرب ما يكون من المعلّم الرّوحي، حسب الأساطير الشفوية المتداولة. كلاهما مسخّر من نوع خارق، يمسك بالخيوط كلّها دفعة واحدة، لا بخيط فرديّ مثل الآخرين!

هل يجعله ذلك مخلّصًا حقًّا؟ لطالما رفض اللّقب وتنصّل، اعتبره ادّعاءً سخيفًا وفارغًا، لكنّ الحقائق التي تتجلّى تباعًا تجعله يعتقد أنّه لم يكن بريئًا من المسؤوليّة كما يظنّ! أيّ مؤهلات يمتلك ليكون الشخص المختار لإنقاذ العالم؟ ليس أنّ العالم يتلخّص في سكّان «آرا»، لكنّ إنقاذ أيّ شيء وأيّ شخص باستثناء نفسه يعتبر مرادفًا لـ«إنقاذ العالم»، باعتبار ضآلة تجربته السّابقة في هذا المجال.

كان يودّ أن يخفي الاكتشاف عن الآخرين لبعض الوقت، ريثما يفكّر في ما يفعله إزاءه، إلّا أنّه لا يضمن كتمان مروان لأمره. كان الفتى متحمّسًا لمعاينته قدرات المخلّص الخاصّة، وما فتئ منذ عودتهما من مهمّة إنقاذ الأسرى يكرّر الحكايات الخلابة عن الفارق الذي يصنعه التّدريب إلى جوار المخلّص. يحسب أنّه يتحرّق شوقًا للإفضاء بما شهده إلى الآخرين،

(9)

اليوم التاسع بعد الثلاثين

هو قادر على استعمال الخيط التّرابيّ!

سيطر على تفكيره ذلك الاكتشاف الباهر. إنّ القدرات الكامنة التي يحتويها جسده تجعله أقرب ما يكون من المعلّم الرّوحي، حسب الأساطير الشفوية المتداولة. كلاهما مسخّر من نوع خارق، يمسك بالخيوط كلّها دفعة واحدة، لا بخيط فرديّ مثل الآخرين!

هل يجعله ذلك مخلّصًا حقًّا؟ لطالما رفض اللّقب وتنصّل، اعتبره ادّعاءً سخيفًا وفارغًا، لكنّ الحقائق التي تتجلّى تباعًا تجعله يعتقد أنّه لم يكن بريئًا من المسؤوليّة كما يظنّ! أيّ مؤهلات يمتلك ليكون الشخص المختار لإنقاذ العالم؟ ليس أنّ العالم يتلخّص في سكّان «آرا»، لكنّ إنقاذ أيّ شيء وأيّ شخص باستثناء نفسه يعتبر مرادفًا لـ«إنقاذ العالم»، باعتبار ضآلة تجربته السّابقة في هذا المجال.

كان يودّ أن يخفي الاكتشاف عن الآخرين لبعض الوقت، ريثما يفكّر في ما يفعله إزاءه، إلّا أنّه لا يضمن كتمان مروان لأمره. كان الفتى متحمّسًا لمعاينته قدرات المخلّص الخاصّة، وما فتئ منذ عودتهما من مهمّة إنقاذ الأسرى يكرّر الحكايات الخلابة عن الفارق الذي يصنعه التّدريب إلى جوار المخلّص. يحسب أنّه يتحرّق شوقًا للإفضاء بما شهده إلى الآخرين،

لتكتمل أسطورة المخلّص في أذهانهم، وتنسج قصص بشأنه تضاف إلى التّراث الجمعيّ للـ«آم».

كان نوح أوّل من عرف بشأن خيطه التّرابيّ، ثمّ انضمّ عمّار إلى المساررة.
سأل آدم في حيرة:

- لماذا أنا؟

لم يكن سوى شابّ بائس قليل الشّعبيّة، لم تكن حياته تنطوي على أيّ نوع من الإثارة، ولم يكن مستعدًّا لإنجاز أيّ مستوى من العظمة.. لكنّه يمسك بين يديه فجأة قدرات خارقة لا يملكها مسخّر شجاع مخضرم مثل نوح! تلك مصادفة تفوق طاقة استيعابه وتحليله المنطقيّ.

قال عمّار متفكّرًا:

- لطالما اعتقد البشر أن الحفاظ على السّلالة النقية هو الخيار الأفضل، لكنّ التجربة تثبت العكس. الهجناء يحصلون على سمات الفصيلتين.. تسخير الـ«مادرا»، وتحمّل أشعّة الشّمس!

اعترض آدم متشكّكًا:

- لكن مروان لم يحصل إلا على خيط واحد، وهو هجين مثلي!

تنهّد عمّار ثمّ قال بابتسامة باهتة:

- لقد خشيت ألا يحصل على شيء على الإطلاق! إنّ التسخير هبة نادرة لدى الـ«آم»، ولقد ظنّنا أنّ التّهجين سيحدّ من فرص أبنائنا.. لكن انظر إليّ، أبنائي مسخر ومعالجة.. وربما تكون ريحان معالجة أيضًا.. من يدري؟ نحن لا نعرف كيف تتفاعل الـ«مادرا» مع الجسد البشري، أيّ الجينات تخصّها، وأيّ العوامل تحفزها.. ربما كان تظافر الـ«مادرا» مع الشّمس هو ما يجعل الهجناء الذين يولدون ويعيشون خارج الجزيرة استثنائيين! وربّما

كان لتركيز الميلانين دور في النتائج الملحوظة.. لدينا مثالان مدهشان حتى الآن: المعلم، ثم أنت. لا نعرف كيف ستكون النّتيجة، لو كان التّهجين مع شعوب «بيضاء» أخرى. قد يكون تحفيز الخلايا أقلّ في غياب الشمس، مثال ذلك: مروان.. لهذا أنا متحمس جدّا لمشروع الهجرة.. أعتقد أن الأجيال القادمة لن تكون إلا أقوى وأكثر تفرّدًا!

سأل آدم في وجوم:

- ماذا لو غلبت الجينات الخارجية واختفى تأثير الـ«مادرا» تدريجيًا؟ ألا تعتقد أنّ نوعًا من التّوزان مطلوب للحفاظ على أشكال الهبات التي تمنحها هذه المادّة؟

ابتسم عمّار ثمّ قال ببساطة:

- حسنا، هذا ليس مستبعدًا.. كل شيء ممكن في المستقبل البعيد. لكنّنا لا نستطيع تخمين النّتائج.. وحدها التّجربة ستثبت أيّ الفرضيّتين أقوى...

سحب آدم نفسًا طويلًا، يهدّئ من اضطراب صدره. إنّ إرجاع هبته إلى التحوّرات الجينيّة يشعره ببعض الطمأنينة. ليس «المختار» ولا «المخلّص»، إنّه مجرّد هجين آخر. لو أنّ أيّا من أفراد الـ«آم» قد نجا من النفي في وقت سابق ووصل سالمًا إلى أرض ما، وتزوّج وأنجب، فلن يختلف عنه المولود في شيء.. إلا أنّ القدر أبى إلا أن يكون هو هذا العائد الاستثنائيّ.

تنهّد وهو يرسل بصره إلى خارج الكوخ حيث تمتدّ التلال معانقة الضباب. يخيّم الهدوء على الأفق، لم يحصل شيء منذ حادثة السّفينة، لا يجرؤ الغرباء على الاقتراب بعد تكبّدهم خسارة فادحة. ربّما يمتلك بعض الوقت، حتّى يستفزّ طاقته ويخرجها إلى العيان بوعي تامّ.

قال عمّار فجأة، كأنّما يقرأ أفكاره:

- حدث تسلل ليلة أمس..

التفت إليه آدم في دهشة، لم يجتمع المجلس ولم يُطلب إليه تقديم مشورة أو وضع خطط، في الواقع، لم يأت أحد على ذكر الغرباء منذ أيّام. تساءل في حيرة:

- هل أخذوا أسرى آخرين؟

هزّ عمّار رأسه نافيًا، وهو يضيف بابتسامة زهو:

- عثر الحرّاس على أربع جثث في الغابة!

رفع آدم حاجبيه، ثمّ كست ملامحه علامات الرّضا، إذًا آتت الحبوب أكلها وأثبتت المناورة جدواها. لقد أخذ رجال مايك على حين غرّة، لعلّهم لم يتوقّعوا الفخّ الذي وقعوا فيه على الإطلاق. لا يظنّهم سيقدمون على أي شيء أخرق لفترة أخرى.

***

توقّف عند السّفح، حيث تشرف روان بكفاءة على تدريب السيّدات والشابات على إطلاق النّار من المسدّسات المنهوبة، طالعها بابتسامة فخر، كأنّها طالبته النّجيبة، مع أنّها قد غدت تتفوّق عليه بمراحل، يكاد يحسبها المتفرّج قد أمسكت بندقية طيلة حياتها، وكأنّ الأجزاء المعدنيّة امتداد طبيعيّ لأطرافها!

حين استدارت، التقت عيناها بعينيه، فسرت إليها عدوى الابتسامة. ابتعدت مخلّفة المتدرّبات وراءها، واقتربت بخطوات سريعة تجاهه. أخفى آدم ارتباكه وهو يشير إلى السّاحة خلفها:

- كيف هي التّدريبات؟

هزّت كتفيها، وهي تقول بثقة:

- كما ترى، سيكون فريق السّلاح النّاري جاهزًا لدخول المعركة في القريب!

تساءل في صمت إن كان شقيقها قد حدّثها بشأن رحلته اللّيلية إلى الشاطئ، يعرف أنّ الفتى ثرثار وأنّ المعالجة قادرة على استخلاص الأسرار من أعتى الجواسيس بلا عناء، لذلك اعتبر أنّها تعرف، لا شيء يفوتها على الجزيرة مطلقًا. قال بلهجة جادّة:

- أريد خدمة منك...

أومأت في اهتمام وتركيز، فتابع:

- هل يمكنك تحضير عقار من أجلي، يمنعني من النّوم؟

بدت على ملامحها دهشة عابرة.

كانت نظريّة قد أخذت تعشّش في ذهنه في الأيام الماضية، ويودّ اختبارها، في إطار الهدنة التي تحظى بها الجزيرة. إنّ «التّحول» يحدث حين يغرق في نوم عميق.. في كلّ مرّة، كان يغادر سريره فجأة بعد أن يستسلم للنّعاس. ربما عليه إذًا أن يتوقف عن النوم! لا يدرك بعد ما الذي يجعل حالة المشي نائمًا تتكرر بتسارع أكبر منذ وصوله إلى الجزيرة! بقيت حالته خاملة سنوات طويلة، كان يجهل خلالها عن وجود «ذاته الأخرى». هل أن الـ«مادرا» هي المسؤولة عن ذلك التحفيز؟ ربّما تكون، وربّما هو اجتماع ظروف محدّدة، مثل السّكون والاسترخاء والعتمة.. سيجرّب أن يوفّر ظروف النّوم ذاتها.. باستثناء النّوم! قالت روان وقد تجاوزت دهشتها:

- هناك خلطة أحضرها من أجل مروان حين يحتاج إلى البقاء مستيقظًا للتّدريب.

- هل هذا ما يجعل نومه خفيفًا؟

- ربما يكون هذا من المخلفات بعيدة المدى، لا أعتقد أنه قد حصل على شيء منها أخيرًا..

أومأ آدم، وهو يقول شاكرًا:

- يبدو هذا مثاليًا!

لم تستفسر عن السّبب الذي يدعوه إلى الرّغبة في البقاء مستيقظًا. ربّما افترضت أنّه هو الآخر يخطط للتّدريب ليلًا.. وهو ليس بعيدًا تمامًا عن الحقيقة.

***

حدّق إبراهيم بعينين مفتوحتين عن آخرهما في الشّوارع من حوله، فيما تطوي السّيارة التي تقلّه وأشرف الأرض طيّا، على الطريق السّريعة. راقبه أشرف بابتسامة رضا، وهو يسترجع نظرات هاجر إلى عالمه، حين وطئت قدماها اليابسة على الجانب الآخر البعيد عن «آرا»، منذ ربع قرن خلا.

هيّجت ذكراها عواطفه، كان يجدر به أن يتّصل فور هبوطه في المطار، بل منذ ركوبه اليخت المتّجه إلى الدّيار، لا يعتقد أنّ مانويلا كانت لتمانع إعارته هاتفها المتّصل بالأقمار الصّناعية. إلا أنّه أحجم، وقد غلب الخوف الشوق في صدره. ماذا لو أنّه اتّصل، وكانت الأخبار على غير ما يشتهي ويأمل؟ إنّه لا يملك وسيلة نقل أسرع، ولا كانت بوابات العبور التي تضمن انتقالًا لحظيًا في المكان والزّمان متاحة! لذا كان عليه أن يصبر، ويستمرّ على الطّريق، آملًا في أن يصل في الوقت المناسب.

افترقت سُبل المسافرين على رصيف الميناء منذ ساعة واحدة. كانت مانويلا قد حصلت على الهويّات والملفات الطّبيّة لمرافقيها، فضمنت لهم استقبالًا حسنًا من أمن الحدود. لم يمتدّ التحقيق سوى ساعتين، أفرج بعدها عن المسافرين ومنحوا إذن الدّخول إلى وطن جديد.

لم يستفسر أشرف عن الوجهة النّهائية لمانويلا وفريقها، ولم يعتقد أنّ الأمر يعنيه كثيرًا. لكنّها بدت على عجلة من أمرها، وأنّ رحلتها لم تنته عند ذلك الحدّ. تساءل إن كانت تنوي الرّجوع إلى الجزيرة مرّة أخرى في القريب. رغب في طلب مساعدتها لإعادة آدم إلى أرض الوطن.. لكنّ الطلب بدا نوعًا من التطاول، باعتبار ما فعله آدم بـ«الأسطورة»! لم يعد تمتّعه بخدمات الإيواء والنّقل من طرف مانويلا ووالدها ممكنًا بعد الآن.

يدرك أنّ آدم قد اختار لمن يهب ولاءه، ويأمل أنّه سيكون قادرًا على حماية نفسه. ينسى في خضم الأحداث والتطوّرات أنّ ابنه مُسخَّر! ترسم الفكرة ابتسامة واسعة على شفتيه، صحيح أنّه لم يشهد بعيني رأسه إنجازاته الخارقة، إلّا أنّه لا يتمالك صدره من الانتفاخ فخرًا. تلك قصّة أخرى سيرويها على مسامع هاجر، حين يصل إليها في القريب. في جعبته سيل من المفاجآت.. أوّلًا، الحجر الذي وجد سبيله إليه بعد عناء طويل، ثمّ زيارة غير متوقّعة من شقيقها الوحيد! بعد ذلك، قد يتطلّب الأمر أيّامًا ليروي كلّ شيء ويتمعّن في التّفاصيل.. سيهبها بعض الخصوصيّة كذلك، لتتجاذب أطراف الحديث مع إبراهيم، عن الجزيرة والأهل، ليقطعا الجسر معًا بين الماضي والحاضر.

يطالع ساعته للمرّة المئة منذ ركوبهما سيّارة الأجرة التي تقلّهما مباشرة نحو المصحّة في الضّاحية الجنوبيّة. تتطاول الدّقائق وتتمدّد لتتناسب مع مستوى الجزع واللّهفة. لا يعرف إبراهيم اختراع السّاعة، يتأمّل السّوار المعدنيّ على معصم نسيبه والمكلّل بقرص زجاجيّ تتحرّك داخله أذرع متلاحقة تزحف فوق الأرقام، فيدرك تلقائيًا أنّه جهاز مهمّ، في مثل أهمّية العربة الخارقة التي تفوق سرعتها حركة القوارب فوق الماء والثيران على الأرض!

حين توقّفت أخيرًا، ترجّل المسافران، يسحب أشرف حقيبة سفره وحقيبة آدم التي خلفها على اليخت، فيما كان إبراهيم خالي الوفاض. حصل على لباس مدنيّ يشبه ما يرتديه الرّجال من حوله في الميناء والشّوارع، وداخل ممرّات البناء الذي يخطوان عبرها. وجد السّروال ضيّقًا ومزعجًا، فيما تختنق أصابع قدميه داخل الحذاء الجلديّ. لكنّه لا يتذمّر، إذ إن عليه أن يتماهى مع محيطه ولا يجلب إليه الانتباه. كان الرّجال الثلاثة أصحاب البشرة الشاحبة والشعر الأشقر قد حظوا بحلاقة مرتجلة قبل وصول اليخت إلى الميناء، فقد احتاجوا إلى صور شمسيّة من أجل بطاقات الهويّة. إنّ أشدّ ما يفتقده الآن هو خصلات شعره التي كانت تجتمع في ضفائر تتدلّى على ظهره، ولحيته الكثّة التي تقلّصت لتغدو مجرّد نتف لا تمسكها قبضته.

إلا أنّ أيّا من تلك التّضحيات يهون، في سبيل اللّحظات القادمة.

توقّف أشرف عبر الممرّ حين وصل إلى غرفة بعينها، فكبح إبراهيم اندفاع خطواته بدوره، ها هو ذا.. خلف هذا الباب، تمكث شقيقته هاجر. شرح أشرف على الطّريق وضعها الصحّي، كانت تحتاج الـ«مادرا» لتقف على قدميها مجدّدًا. وبقدر ما سعد بالحياة المديدة التي حظيت بها خارج الجزيرة، فقد أحزنه ما آل إليه حالها من التّعايش مع المرض الطويل.

حين أدار أشرف أُكرة الباب ودفع الدّفة، كتم إبراهيم أنفاسه المضطربة، ثمّ.. سمع صرخة نسيبه المختنقة. تطاول ليكشف المشهد المسبّب للصّدمة، ثمّ تراجع مصعوقًا. هل يمكن أن تتغيّر شقيقته خلال ربع قرن، فتتحوّل إلى هذا الشّكل الغريب؟ لم يتعرّف إلى هاجر القديمة في ملامح السّيدة الرّاقدة على السّرير، لا العينان عيناها، ولا الأنف والشّفاه،

ولا حتّى البشرة! هل يمكن أن يكون مناخ «مهافيا دياما» قد حوّلها إلى ذلك الشّكل القبيح؟

لم يكن قد استوعب الأمر، حين سمع أشرف يهمس وهو يسحبه خارج الغرفة:

- ليست هنا!

تنفّس الصّعداء وقد تبيّن الخطأ، إلا أنّه لم يدرك ما تنطوي عليه العبارة من نذير.. إن لم تكن هنا، فأين تكون؟ هل أخطأ أشرف الغرفة؟ أم أنّها قد انتقلت إلى موقع جديد؟

لم يمهله أشرف حتّى يستفسر، فقد انطلق من جديد عبر الممرّات، بعد أن تخلّى عن الحقيبتين، فأدرك إبراهيم أنّ الأمر جلل.

ارتجفت شفتا أشرف، وهو يقف عند مكتب الاستقبال، يسأل بصوت مبحوح:

- هاجر صافي، نزيلة الغرفة 104، أين ذهبت؟

رفعت إليه الممرضّة نظرة عابرة، ثم أخذت تضرب بضعة أزرار على جهازها في صمت. تساءل في هلع متزايد: هل يكون قد وصل متأخرًا؟ لقد امتدّت رحلة الأسبوعين شهرين كاملين. كان يغيب طويلًا في كلّ مرّة يرحل فيها، وكانت تستقبل رجوعه بابتسامة لا تفتر، غير أنّه تأخر هذه المرّة. لقد خشي كثيرًا كلّما طال به التّرحال أن يعود فلا يجدها، ولم يعتقد أنّ مخاوفه ستغدو حقيقة، هذه الكرّة بالذّات! حين وصل إلى علاجها أخيرًا..

- أين كنت يا سيدي؟ لقد حاولنا الاتصال بعائلة المريضة كثيرًا دون فائدة!

استدار ليقابله وجه مألوف، يعرف تلك الممرّضة التي تطالعه بنظرات مستاءة ومؤنّبة. يفكر لو أنّه طلب من مانويلا استخدام هاتف الأقمار

الصّناعية للاطمئنان عليها، كان عليه أن يتّصل، حتّى لو لم يكن اتّصاله ليغيّر من الأمر شيئًا، لكنّها كانت لتكون أقلّ وحدة، وأقلّ إحساسًا بالفراغ والإهمال، وقد تفرّق عنها كلّ أفراد عائلتها.

استمرّت الممرّضة تقول:

- لقد امتنعت المريضة عن العلاج الكيميائي والإشعاعي، وفي غياب أفراد عائلتها لم نستطع أن نقدم لها شيئًا.. أنا آسفة!

في وقت سابق، تعذّر العلاج بزرع الخلايا الجذعيّة، لأنّ التّحاليل لم تتعرّف على فصيلة دمها، لم يملك الطبّ الحديث شيئًا من أجلها. تلفظ أشرف بكلماته في لوعة، وقد جفّ منه الرّيق والشفاه:

- أين هي؟

- لقد نقلت إلى العناية المركزة، إنها في حالة غيبوبة بسبب المورفين، هذا كل ما أمكننا عمله للسّيطرة على الألم.

تنفّس، عاد الهواء إلى مجراه الطبيعي، بعد لحظات من الانحباس. لم تكن النّهاية بعد، حتّى لو بدا الخطر قريبًا وأكثر تهديدًا من أيّ وقت مضى، لكنّها هنا.. ولعلّه لم يتأخّر بقدر لا يغتفر، ربّما لا يزال يمتلك فرصة أخيرة لإصلاح الأمر.

التفت إلى إبراهيم الذي كان يتابع المشهد في تشوّش، وقال مطمئنًا:

- سيكون كلّ شيء على ما يرام. انتظر هنا حتّى أعود إليك.. ثمّ سيكون بوسعك زيارتها.

أومأ إبراهيم في تفهّم، ولزم مقعده في صالة الانتظار.

قادت الممرّضة أشرف إلى غرفة العناية المشدّدة، فارتدى ملابس الوقاية الخاصّة بالزّوار، ثمّ دلف إلى القاعة المليئة بالأسرَّة والأجهزة. كانت هاجر

غائبة في سبات اصطناعيّ عميق، وقد تمكّن منها الضّعف وأنهكها المرض. خلال شهرين، غارت وجنتاها وبرزت عظامها، وكسا سواد السّقام بشرتها البيضاء، وزحف الشّيب على مفرقها حتّى توحّد اللّون بين الجبين والشّعر. قال مخاطبًا الممرّضة بلهجة حازمة:

- لا مزيد من المورفين.. يجب أن تستيقظ!

لبث ساكنًا فيما عدّلت الممرّضة جرعة الدّواء الذي يسري في عروق المريضة. حين اطمأنّ إلى انصرافها وخلوّ الغرفة إلا منه، رمق هاجر بنظرة طويلة مشفقة، ثمّ دسّ كفّه في جيبه ليخرج الجراب الجلديّ، حيث يستقرّ «حجر الشمس» الذي كانت تترقّبه لسنوات. أمسك بيدها الباردة مثل الثّلج، ومسّد أصابعها النّحيلة بحنوّ، ثمّ وضع الحجر في راحتها وأغلقها عليه. همس بخفوت:

- لقد جئتك بالعلاج، آسف لأنني تأخرت كل هذا الوقت!

كان الحجر يتوهّج ببريق أخّاذ، وقد يكون ملحوظًا لموظفات المصحّة، وقد تفكّر إحداهنّ بالخلاص منه، أو إبعاده كأنّه قطعة حليّ بلا فائدة. فكّر للحظات، ثمّ دسّ الحجر بين طيّات ثوبها، ورفع الغطاء ليحجب القطعة الدّخيلة عن الأنظار المتطفّلة. جذب الكرسيّ القريب وجلس عند رأسها، ربّما عليه ترك إبراهيم في قاعة الانتظار بمفرده بعض الوقت، فالأولى بانتباهه الآن هو أن يؤتي الحجر مفعوله.

تساءل وهو يرنو إلى ملامحها السّاكنة المستسلمة: كم يحتاج جسدها من الوقت ليستقي طاقة الحياة من الحجر؟ تمنّى لو كان يعرف أكثر عن طريقة عمل الـ«مادرا»، وكيفية امتصاص الجسد لها، لو أنّ ظروفًا معيّنة تسرّع من تفاعلها أو تحفّزها. اكتفت هاجر طيلة حياتها إلى جواره بإبقاء الحجر قريبًا منها، لم تكن لديها طقوس معروفة أو خطوات مدروسة. لذلك، كان عليه أن يكتفي بالانتظار، متسلّحًا بالصّبر وحده.

(10)

اليوم العاشر بعد الثلاثين

لم يستطع أوران النّوم.

خلال الأيّام الماضية، عاش تجربة فريدة ومدهشة بالنّسبة إلى سنواته الاثنتين والعشرين، وبالنسبة إلى كونه مسخّرًا شابًا، وفردًا من الـ«آم» لم يغادر «آرا» على الإطلاق!

بعد وصول اليخت إلى الميناء، استقبلتهم معالم الـ«مهافيا دياما» التي تنضح بالوفرة. كانت تلك الفكرة الأولى التي سيطرت على ذهنه: لديهم كثير من كلّ شيء، كثير من المباني، كثير من المركبات، كثير من الآلات، كثير من البشر!

شعر بالهواء يتقلّص داخل رئتيه خوفًا وفرقًا، وهو يتقدّم في الدّهاليز الملساء المكسوّة بطلاء أبيض، حيث يتحرّك رجال مستعجلون في جميع الاتّجاهات، ويحدثون ضجيجًا مستمرًّا لا ينقطع. نعم، عالمهم صاخب وثقيل الرّوائح، مقبض للنّفس وباهر للعين. تسطع الأضواء في الدّاخل والخارج، كأنّها تقاوم العتمة بإصرار.

مع ذلك، كان عليه أن يحاول. رفضت ذاته الأبيّة قدر الخنوع الذي أجبره الغرباء عليه، وحالما ابتعد أشرف مع إبراهيم وانشغلت مانويلا بإجراء اتّصال ما، تحرّكت قدماه من تلقاء نفسها، قفز باندفاع نحو المخرج يروم التحرّر، ثمّ توقّف فجأة كما اندفع فجأة، التصق بالحائط حين وجد

(10)

اليوم العاشر بعد الثلاثين

لم يستطع أوران النّوم.

خلال الأيّام الماضية، عاش تجربة فريدة ومدهشة بالنّسبة إلى سنواته الاثنتين والعشرين، وبالنسبة إلى كونه مسخّرًا شابًا، وفردًا من الـ«آم» لم يغادر «آرا» على الإطلاق!

بعد وصول اليخت إلى الميناء، استقبلتهم معالم الـ«مهافيا دياما» التي تنضح بالوفرة. كانت تلك الفكرة الأولى التي سيطرت على ذهنه: لديهم كثير من كلّ شيء، كثير من المباني، كثير من المركبات، كثير من الآلات، كثير من البشر!

شعر بالهواء يتقلّص داخل رئتيه خوفًا وفرقًا، وهو يتقدّم في الدّهاليز الملساء المكسوّة بطلاء أبيض، حيث يتحرّك رجال مستعجلون في جميع الاتّجاهات، ويحدثون ضجيجًا مستمرًّا لا ينقطع. نعم، عالمهم صاخب وثقيل الرّوائح، مقبض للنّفس وباهر للعين. تسطع الأضواء في الدّاخل والخارج، كأنّها تقاوم العتمة بإصرار.

مع ذلك، كان عليه أن يحاول. رفضت ذاته الأبيّة قدر الخنوع الذي أجبره الغرباء عليه، وحالما ابتعد أشرف مع إبراهيم وانشغلت مانويلا بإجراء اتّصال ما، تحرّكت قدماه من تلقاء نفسها، قفز باندفاع نحو المخرج يروم التحرّر، ثمّ توقّف فجأة كما اندفع فجأة، التصق بالحائط حين وجد

نفسه أمام أمواج متلاطمة من البشر والمركبات، غمرت أذنيه الضوضاء وصدّعت رأسه، فتسارعت أنفاسه واضطربت. ثمّ رفع رأسه إلى أعلى، ولبث يحدّق ذاهلًا في السّماء!

كان لا يزال في منطقة ظليلة لا تطالها أشعّة الشّمس، لم يشعر بالخطر على الفور، فسرحت عيناه إلى أعلى تهيم عبر الزّرقة السّاحرة لرحاب شاسعة بلا حدود. لم يقاوم حين لحق به اثنان من رجال مانويلا ليعيداه بغلظة إلى الدّاخل، فقد عرف غريزيًّا أنّ الفرار لن يقوده إلى أيّ مكان. لو أنّه نوى الصّراخ أو طلب النّجدة، فإنّ عزمه قد تفتّت ما إن أحاط به الغرباء من كلّ جانب، غرباء مشغولون متباعدون، لم يلق عليه أيّ منهم إلا نظرة عابرة.. باستثناء موظفي الميناء الذين اهتمّوا بتدقيق هويّته.

كان يجد طريقه داخل الغابة الكثيفة بلا جهد، رغم تشابه الأشجار فإنّه كان يميّز كلا منها كأنّها كيان مستقلّ ومألوف.. لكنّه يجزع من متاهة المباني العالية والوجوه العابسة المتشابهة على تباينها. أدرك في لحظة ما، أنّه إذا أراد العودة إلى «آرا»، فعليه أن يبقى بجوار مانويلا ولا يتركها تضيع منه. صار يخشى إن هو توغّل في المتاهات المتداخلة ألا يجدها مرّة أخرى!

رغم أنّه لم يتعرّض للشّمس تعرّضًا مباشرًا، فقد لمس أثرها بوضوح حين استرق نظرات إلى السّقف المرتفع للسّماء.

السّماء، لم يدرك أنّ أكثر ما سيدهشه هو مشهد السّماء!

كلّ شيء مذهل في ما يخصّ السّماء: لونها واتّساعها وارتفاعها الشّاهق، والنور الغامر الذي ينتشر عبرها. حين صعد إلى السفينة الضّخمة أسيرًا، كان الضّباب يحجب امتدادها ويغطي معالمها، فلم يعرف حينها كيف تكون السّماء. ثمّ ركب اليخت، وسافر لأيّام حبيسًا في غرفته لا يتركها، حُجْرة بيضاء لامعة، لا تشبه أيّ شيء عرفه من قبل. كانت الجدران ناعمة

أكثر مما ينبغي، باردة على نحو مزعج، وغير طبيعية تمامًا، أمّا الهواء فكان يحمل رائحة معدنية حادّة لا تزول. لذلك، حين تطلّع إلى السّماء أخيرًا، لم تكن تسكنها سحب ولا ضباب، فتبدّت لا نهائية وساحرة!

وهل كان افتتانه بالسّماء ليكتمل لولا الرّحلة الجويّة التي خاضها في عربة تطير؟!

كانت مختلفة عن عربة آدم التي استخرجها الـ«بندار» نوح من قاع المحيط. في فضائها الدّاخليّ، وجد مقاعد وثيرة كافية لسفر المجموعة كلّها، وقد بدا أنّ مزاحمة الطيور في فضاء السّماء كانت فعلًا طبيعيًّا يقترفه الغرباء باستمرار، وهل كانت عشرات المركبات المستقرّة على الأرض تنتظر رحلاتها إلا دليلًا على ذلك؟

رغم كونه مسخّرًا يقترف الأعاجيب، فإنّ الطّيران يبقى من الأحلام المستحيلة التي تداعب أحلام كلّ مسخّر شابّ. وها هو يطير!

راقبته مانويلا خلسة وهو يتطلّع إلى العالم من علٍ عبر نافذة الطائرة الخاصّة التي تحلّق فوق السّحب البيضاء، تمتعها نظرات الافتتان والحيرة في مقلتي الشابّ السّاذج. تستعيد ذكرى رحلتها الأولى بالطائرة، كان ذلك منذ عقدين ربّما، لم تكن سوى طفلة، ولعلّ النظرة ذاتها قد علت محيّاها في ذلك الوقت. حين يتعلّق الأمر بالعالم الواسع، فسكّان «آرا» مجرّد أطفال، وذلك كرم منها، حتّى لا تقارنهم بمسافرين عبر الزّمن، من عصور غابرة!

سرّها أن يتعاون -بعد محاولة تمرّد مبتورة- فقد كانت تحمل همّ السّيطرة عليه دون قيود ماديّة.. إلا أنّها أيقنت بعد ذلك أنّه خائف ومرتعب. على تلك المسافة من موطنه، لم يكن يعرف أحدًا غيرها. يتعلّق بذلك الخيط الرفيع من الألفة، ليس بدافع المودّة، بل بدافع حاجة يائسة، بطريقة ما، تحوّلت في ذهنه من سجّانة إلى مرشدة ومن تهديد إلى طوق

نجاة. أدهشها هذا الإدراك في البداية، لم تكن ثقةً بالمعنى الكامل، لكنها بداية لتواصل ما، ومع تلك البداية، وُلد أمل هشّ: ربّما يمكن لمهمّتها أن تمضي دون قسر أو مقاومة، وربّما -إن استطاعت الحفاظ على هذه الصّلة الدّقيقة- تسير الأمور بسلاسة تفوق ما تجرؤ على تخيّله.

حطّت الطائرة في مطار خاصّ بعد رحلة دامت ساعات طويلة. لم يكن أحدهم قد حظي بقسط كافٍ من النّوم أو الرّاحة، رغم توافر سبلها على متن المركبة الفاخرة. ربّما يفتقد أوران الأرض اليابسة، وتزعجه الثياب الضيقة والحذاء.. وربّما تحنّ مانويلا لسريرها الدّافئ بعد رحلة بحريّة دامت أكثر ممّا نوت، إلا أنّ الرّحلة لم تنته عند ذلك الحدّ.

كانت مانويلا في سباق مستمرّ مع الزّمن، إنّها في مهمّة، ووالدها يترقّب عودتها على الجانب الآخر من العالم، لذلك لا وقت تضيّعه.

استقبلتهم كلاوديا في شقّتها الخاصّة. كانت تجري أبحاثها غالب الوقت في المختبر الجامعيّ، تمكّنها المجموعة البحثية التي تنتمي إليها من الحصول على تمويل لإجراء الاختبارات الإكلينيكية، لكنّ هذا النّوع من الأبحاث، لا يمكنها مشاركته مع الآخرين، ليس بعد. في شقّتها، هيأت معملًا خاصًّا لتجاربها الجانبيّة. مثل كلّ باحث شغوف، كانت تراودها أفكار غير مطروقة من حين إلى آخر، لا تبلغ مرحلة النّضج دائمًا، فتعمل عليها بعيدًا عن العيون.. فما أكثر السّرقات العلميّة في مجالها!

أمّا زيارة مانويلا، فهي تنطوي على مخاطر جمّة، لم تكن مجرّد محطة أخرى في مشروع علمي طموح، بل كانت خطوة خطرة نحو الظلال، تحديًا مباشرًا للحدود الأخلاقية والأطر القانونية، فهذه الأبحاث، رغم ما تَعِدُ به من اكتشافات ثوريّة، كانت قائمة على أرضية أخلاقية هشّة..

لم تكن مجرّد إثارة للجدل، بل انتهاكًا صارخًا لحقوق الإنسان قد يشعل فضيحة قانونية إذا كُشف!

كانت كلاوديا تدرك ذلك، لطالما أدركته، لكن في مرحلة ما، علا طموحها فوق صوت ضميرها، وطمس فضولها حدود الصّواب والخطأ، أقنعت نفسها أن الأمر يستحق المجازفة، ما دام الاكتشاف المحتمل بهذه الأهمية، ثم كان هناك والد مانويلا، نفوذه وتمويله وسلطته، كلّها تمثل مصدر طمأنينة بأنّ أيّ فوضى قد تحدث يمكن احتواؤها.

حدّقت كلاوديا في أوران في دهشة واهتمام، فخفض الشاب عينيه حرجًا. قادته على الفور إلى غرفة المعمل، جعلته يستلقي على سرير الفحص، وقالت وهي ترتدي قفازيها وتتناول الإبرة المعقّمة:

- فلنبدأ العمل الجادّ إذًا.

تصلّبت عضلات أوران وقاوم، فكسى العبوس ملامح كلاوديا.

- يجب أن تسترخي.. لا تخف، لن تتألم!

لم يكن الألم ما يخيفه، ولئن أدرك أنّه سيضطرّ إلى التعاون عاجلًا أم آجلًا، فإنّ أقلّ ما يمكنه هو أن يُبدي الاستياء ويعطّل الإجراءات ويثبت وجهة نظره. تقلّصت ملامحه مع انغراس الإبرة في عروقه، ثمّ سُحب قدر من دمائه إلى داخل الأسطوانة الشفافة. تكلّمت السيّدتان بالإنجليزية، فلم يستوعب كلمة ممّا قيل، لكنّه أدرك غريزيًّا أنّه كان موضوع الحديث.

قالت كلاوديا:

- هل جهّزت مكانًا لإقامته؟

تنهّدت مانويلا ثمّ قالت:

- لقد جئت إلى هنا مباشرة ولم أعرّج على أيّ موقع آخر. آمل أنّنا لن نبقى طويلًا، لذلك.. أفكر في حجز غرف في فندق قريب.

لم يكن خيار الفندق حكيمًا، إلا أنّها لا تفكّر في استئجار شقة في الجوار، لضيق الوقت وقصر مدّة الإقامة المفترضة. عليها أن تفكّر في اعتبارات كثيرة، منها الأمان والسّرية. لا تتوقّع من المسخّر أن يُقدِم على محاولة الهرب، لكنّها لن تخفض مستوى يقظتها وتركن إلى الطمأنينة. لا يزال المرتزقة الذين وظّفهم والدها موجودين للحراسة والحماية طيلة الوقت، لكنّ حضورهم في محيط الفندق سيكون مثيرًا للشبهات.

قالت كلاوديا مقترحة:

- لديّ غرفة إضافيّة للضّيوف.. أعتقد أنّ بقاءه هنا سيكون الخيار الأفضل، ليس من الحكمة أن يُرى كثيرًا على الطريق أو أمام البناية.. ابقيا هنا إذًا، كلاكما.

أومأت مانويلا وقد استحسنت الفكرة، إنّ المكوث في شقة كلاوديا يسمح ببقاء المسخّر تحت المراقبة على الدّوام، وإنّ جدّ أيّ أمر بخصوص المصل أو الدّواء أو أيًا ما تسعى كلاوديا لإنتاجه، فسيكون الحصول على مزيد من العيّنات متاحًا في أيّ وقت. لكنّها تحتاج إلى تأمين سكن لباقي الرّجال الذين يتمركزون خارج البناء مؤمّنين الحراسة على مدار السّاعة. ربّما بوسع المرتزقة تدبّر أمرهم، فتلك طبيعة عملهم -إيجاد الحلول في مختلف الظروف- لكنّها لا تنسى أمر أنوش الذي يقبع في السّيارة الرّابضة في المواقف تحت الأرضيّة. قالت أخيرًا:

- لا أمانع.. لكن عليّ إجراء بعض التّرتيبات.

تركت كلاوديا وأوران في غرفة المعمل وخرجت لتجري بعض الاتّصالات. حين رجعت، كان أوران قد عاد إلى مزاج التقوقع والعدائيّة. بدا أنّ محاولات الباحثة للتواصل معه عبر تطبيق التّرجمة باءت بالفشل.

قادتهما كلاوديا نحو الغرفة المخصّصة للضيوف، فقالت مانويلا لأوران بلطف:

- ستكون هذه غرفتك في الوقت الحاليّ.. هل ترغب في مشاركتنا الوجبات، أم تفضّل أن أحضرها إلى غرفتك؟

قال في وجوم:

- في الغرفة.

تدخّلت كلاوديا لتقول بالإنجليزية مواصلة جهودها الحوارية وقد ملأت الابتسامة وجهها:

- بالمناسبة، ما اسمك أيّها الوسيم؟

تلعثمت مانويلا، لم تكن تعرف اسم ضيفها. كان مُسخَّرًا، وواحدًا من سكّان الجزيرة الغامضة، لكنّها لم تضطرّ حتّى اللّحظة إلى مخاطبته باسمه. تذكّرت أنّ آدم نطق باسمين متشابهين على اليخت، لكنّها كانت مشوّشة ومضطربة لتذكر أيّا منهما. قالت في حرج:

- أنا مانويلا، وهذه كلاوديا.. وأنت؟

- أوران.

مدّت كلاوديا كفّها تجاهه وهي تقول بحماسة:

- تشرّفت بلقائك يا أوران!

غير أنّه لم يعر كفّها اهتمامًا، واكتفى بدخول الغرفة ليغلق الباب وراءه في صمت. هزّت كلاوديا كتفيها، ثمّ قالت في مرح:

- لا يهمّ.. تعالي، سأطلب وجبة العشاء ونتحدّث.

لم يبد أنّ صدوده قد أثّر في معنويّاتها. بعد وصول قطع الدّجاج المقليّ، أوصلت مانويلا نصيب أوران إلى غرفته، ثمّ عادت لتنضمّ إلى صديقتها

على الأريكة. استمرّت ترقب الباب الموصد من حين إلى آخر، فيما تجيب عن أسئلة كلاوديا التي لا تنتهي بخصوص رحلتها والجزيرة التي خلّفت والدها مرابطًا على حدودها. تساءلت إن كان المسخّر يستسيغ طعم الدّجاج المقليّ، ربّما يجده قريبًا من طعم الأرانب البريّة التي ترعى في «آرا»، باستثناء الغلاف المقرمش والقلي. على اليخت وفي الطائرة، كانت الأطعمة مسلوقة أو مطبوخة على البخار غالبًا. انتبهت على صوت كلاوديا وهي تقول:

- ربّما أحتاج إلى معاينة الحجر أيضًا، قد أصل إلى معطيات إضافية..

أخرجت مانويلا الحجارة التي بحوزتها، كانت قد احتفظت بقلادة أوران بعد مصادرتها، ووزّعت الأخرى على المسافرين الآخرين. تأمّلتها كلاوديا باهتمام، فيما سألتها مانويلا:

- كم من الوقت يتطلّب إنتاج العقار؟

- هذا يعتمد على نوع العقار! إذا كنّا نتحدّث عن حماية سلبيّة لفترة محدودة عن طريق البلازما -وهذا أسرع عقار يمكننا العمل عليه بالاعتماد على توافق فصيلة الدّم- في الآجال العادية، أمضي أسبوعًا أو يزيد لجمع العيّنات من المتبرّعين والتحاليل المخبريّة للتأكد من خلوّها من الأمراض.. ثمّ أسبوعًا إلى أسبوعين لاستخراج البلازما وتصفيتها، ثمّ أسبوعًا أو أكثر لإنتاج العقار في شكله النّهائيّ وإجراء اختبارات الجودة.. في النهاية، لا يقلّ الأمد عن شهر أو يزيد!

عبست مانويلا ودمدمت في ضيق:

- لكنّنا لا نملك كلّ هذا الوقت! والدي يتّصل كلّ يوم ليعرف مدى تقدّمنا.

- إذا أردنا أن نحرق المراحل، باعتبار أنّنا سنعمل على متبرّع واحد، وباعتبار العجلة التي يبدو والدك عليها.. وأنّ العقار ليس معدًّا للتّوزيع

على النطاق الواسع بل للتّجربة فقط.. وأنّ هيئة الغذاء والدّواء لن تطاردنا إن نحن أغفلنا اختبارات الجودة حسب البروتوكولات الرّسمية، فقد نختصر الأمد إلى نصف المدّة، أعني أسبوعين على الأقلّ.. مع وضع مستقبلي المهنيّ على المحك!

- لا يزال هذا طويلًا..

ضحكت كلاوديا ثم قالت:

- عمليّة إنتاج المصل في حدّ ذاتها تعتبر سريعة.. عيّنة من الدّم يقع تدويرها في جهاز طرد مركزي لفصل البلازما، هذا لن يستغرق أكثر من نصف ساعة، ثمّ نمرّ إلى مرحلة الترشيح والمعالجة الحرارية للتخلّص من الشوائب، وهذه تحتاج نحو ساعة واحدة.. ثمّ يصبح لدينا مصل جاهز!

هتفت مانويلا في حماس:

- ممتاز.. هذا ما نريده!

- لكن...

عبست مانويلا حين استدركت كلاوديا:

- لكنّ التحاليل الأوّلية ضروريّة للتأكد من خلوّ المتبرّع من الأمراض المعدية.. أنت تعلمين، إنّه ينتمي إلى مجتمع منعزل، وقد تختلف الفيروسات المنتشرة لديهم عن تلك المتداولة في العالم المتحضّر.. ثمّ، المصل لن يكون قابلًا للاستخدام إلا بعد جولات من التّجارب على الفئران، ثمّ على متطوّعين من البشر يخضعون للمراقبة.. بعد نجاح كلّ هذه المراحل يمكننا الجزم بنجاعة العقار..

زفرت مانويلا معربة عن ضيقها، فقالت كلاوديا وهي تتمطّى:

- يمكنك الحصول على قسط من الرّاحة في غرفتي.. أمامي عمل طويل اللّيلة!

حين غابت كلاوديا داخل معملها، نهضت مانويلا وجمعت بقايا الطّعام.. ثمّ نظرت إلى باب أوران ثانية. تساءلت إن كان يحتاج إلى أيّ نوع من المواساة، لكونه غريبًا مجبرًا على التّعامل مع الظروف التي فُرضت عليه. تذكر قراره الشّجاع في اليخت بالتخلّف وإنقاذ صاحبه، فيتعاظم إحساس الذّنب داخلها.

تنهّدت وهي تتّجه إلى غرفة كلاوديا، إنّ كلّ ما يتوق إليه كلاهما الآن هو نومة هانئة.. ثمّ ستتحدّث إليه صباحًا.

***

شعر أشرف بضغطة طفيفة على كفّه ففتح عينيه على الفور، تأمّل ملامح هاجر التي تطالعه بابتسامة مشرقة من مرقدها، وسمعها تهمس:

- لقد عدتَ!

قبض على كفّها المستقرّة في راحته اليسرى، ومسح بيمناه على وجنتها بحنوّ:

- تأخرتُ عليك.

ربّتت كفّه مهوّنة، وهمست وقد تلألأت عيناها بالدّمع:

- لكنّك وجدت الجزيرة.. وعدتَ بالحجر!

ازدرد أشرف لعابه، يخشى وقع الكلمات المقبلة، حين تسأل أين آدم، لن يجد إجابة مناسبة، لذلك قرّر أن يسبقها ويدير دفّة الحديث فلا يصدمها مرّة واحدة:

- هل تعلمين؟ ابننا مُسخِّر!

لم تبد على قسماتها المفاجأة، أومأت وهي تردّ بفخر:

- كنت أعرف هذا.. تحدّثتُ إليه في غيبوبتي..

لم يدر أشرف إن كانت تعني ما تقوله أم أنها هلوسات العائدين من غياهب الغيبوبة المظلمة، إلا أنّه استمع إليها في صمت وهي تتابع بنبرة حنين:

- لقد عرفتُ أنّه طفل مميّز.. منذ كان يتحدّث إلى الحوت في سنّ الثامنة! اكتشفت هبتي في سنّه تقريبًا..

تجاهل إشارتها إلى حديث جمع آدم بالحوت -فقد أدرك أخيرًا أنّ ذلك لن يعجزه، بعد أن رآه بعينيه يركب الأوركا- وسأل في دهشة:

- هبتك؟

ضحكت برقّة ثمّ قالت:

- ليست هبة حقيقية مثل العلاج والتّسخير.. لكنّ شعبنا يمتلك هبات متنوّعة متفاوتة الأهميّة، مثل المهارات المختلفة التي يمتلكها الناس هنا.. وقد كانت مهارتي الحديث إلى الحيتان والدّلافين!

دخلت الممرضة في ذلك الوقت لتقاطع حديثهما. طالعت المريضة العائدة من ضفاف الموت في صدمة، ثمّ سألت غير مخفية دهشتها:

- كيف حالك سيّدتي؟

ابتسمت هاجر، وهزّت رأسها بلطف:

- أنا بخير!

كانت تبدو بخير بالفعل، بالنسبة إلى شخص أعلن الأطباء استسلامهم بشأن حالته منذ أيّام، وترقّبوا رحيله الهادئ الذي قد يأتي في أيّ لحظة. ألقت الممرّضة ملاحظتها بضحكة مرحة:

- يبدو أن الحبّ يصنع المعجزات حقًا!

كانت ترمقهما بنظرة إعجاب مفتونة، فأطرق أشرف وقد خجل من نسبها الإنجاز إليه. انهمكت الممرضة بعد ذلك في قياس مؤشرات المريضة الحيوية ثم قالت بلهجة مطمئنة:

- سوف يأتي الطبيب بعد حين.. سيدهشه ما حدث، لقد كتبت لك حياة جديدة يا سيدتي!

قبل أن تغادر استدارت لتخاطب أشرف:

- السّيد الذي كان برفقتك اليوم، إنه ينام في غرفة الانتظار، ربما تود نقل الخبر السّعيد إليه.

تذكر إبراهيم الذي نسي أمره لساعات، بينما تشحن هاجر بطاريات جسدها بالـ«مادرا»، شكرها بهزّة من رأسه، ثمّ التفت إلى زوجته وقال بابتسامة حانية:

- هناك مفاجأة من أجلك، جئتك بزائر غير متوقع!

تأمّل نظرة التّوق في عينيها، وفكّر أنّ لقاءها بأخيها سيصرف تفكيرها لبعض الوقت عن غياب آدم، وربّما يهوّن عليها فراقه، ويجعلها تغفر له تركه ابنهما وراءه.

***

في موقع القرية القديمة، اجتمع السّكان في أجواء احتفاليّة من جديد. طارد الرّعاة الماعز الشّارد الذي أفزعته النّيران فتفرّق بين التّلال، وعادوا بعد جهد أيّام بجزء لا بأس به من القطيع، ليُذبح عدد منها وتنصب نار الشّواء في الميدان.

كانوا يحتفلون بزفاف آخر. ما زال رماد البيوت المحترقة لم يرفع من مكانه، وما زالت الحجارة مكوّمة والخشب الأسود المتفحّم مكدّسًا، ومع

ذلك، فهم يحتفلون! لم يشيّد البنّاؤون منزلًا حجريًا آخر على طراز بيوت القرية، بل عريشًا مؤقتًا من السّعف عند مدخل الغابة. استمرّ آدم يتأمّل المشهد بصدمة. لا يستوعب كيف تتواصل الحياة بالنسبة إليهم بشكل اعتيادي، كأنّ نوائب الدّهر كلّها لا تمثّل سببًا مقنعًا لتأجيل الفرح. كانوا يلتمسون أسباب الحبور رغم الحصار والدّمار.

تصدّر كوتانا تافي الجلسة مستقبلًا التّهاني بمناسبة زفاف ابنه آشور من حفيدة الشيخ الجليل عاليا، ورقص الرّجال من حوله رقصتهم الرّصينة إكرامًا له. ترك آدم جموع المحتفلين ومشى متمهّلًا، يرقب بعينين مفتوحتين الرّاقصين المتمايلين في السّاحة على إيقاع الدفّ المرتجل. أوقفته ريحان وزمرة رفاقها، قالت بنبرة حماس:

- هل ستقدّم عرضًا اليوم؟

أطلق آدم ضحكة مقتضبة، وهو يذكر عرض المغناطيس الذي ورّطه في تلك المرّة. ألقى نظرة حوله، ودقّق النظر نحو الفتيات المتحلّقات حول العروس، لم يتمكّن أن يميّز روان بينهنّ. تساءل إن كان الشّبان سيقدمون بنفس الحماسة على استعراض مواهبهم.. وفيم تفيد تلك المواهب في زمن مثل هذا؟ هل يسترجعون تفاصيل الحفل السّابق ويتحسّرون.. يذكرون ما أبهرهم به أوران، ويتطلّعون إلى الأفق متسائلين عن مصيره؟

لقد اعتقد أنّ حفلات الزفاف ستتوقف.. بسبب مشروع الهجرة، لكن لعلّ كثيرين لا يعرفون بعد بأزمة الـ«مادرا»، فقد حال هجوم الغرباء المفاجئ دون تنفيذ خطّة النّزوح الخاصّة بعمّار، لذلك يواصل العامة حياتهم الطبيعية. كانت المعرفة حكرًا على المجلس وعدد محدود من المسّخرين والمعالجة. لا يعرف إن كان الشّيخ جزءًا من دائرة الثّقة. أمّا العامّة، فهم يتمرّغون في نعيم الجهل، فيما يستعر الجحيم بداخله.

لكنّ كوتانا تافي -رغم معرفته- لم يؤجّل الاحتفال بولده الوحيد. وإذا تأمّل الأمر، فإنّه يجد تصرّفه منطقيًا ومتّسقًا مع قناعات الرّجل. لعلّ حقده على الغرباء يدفعه إلى التّعجيل بهذا الزّفاف، ليجنّب ابنه مصير الارتباط بواحدة من شياطين «مهافيا دياما»!

قال آدم معتذرًا وهو يخاطب ريحان:

- أنا متعب، أظنني سآوي إلى النّوم مبكرًا اليوم.. استمتعي بالسّهرة!

خلّف ريحان متجاهلًا علامات الخيبة التي كست محياها، وجدّ في سيره نحو الشاطئ. لم يكن ينوي الاستسلام للنّعاس على الإطلاق. في الحقيقة، أمضى السّاعات الأربعين السّابقة متيقظًا رافضًا الإذعان لحاجة جسده إلى النّوم. كان منهكًا، يكاد جفناه المثقلان يسقطان على مقلتيه، لكنّه لم يفتأ يقاوم. لولا خلطة روان المنشطة، ربّما كان لينهار قبل ذلك.

حين أشرف على الشاطئ، كان المكان خاليًا إلا منه. تطلّع إلى البعيد، كأنّما يحاول استشفاف مواقع السّفن المتمترسة في الأفق، يودّ أن يخمّن ما الذي يفكّر به مايك.. ولماذا أخذت مانويلا أوران معها، وكيف سيكون تحرّكهما الآتي.

في لحظة ما، تحرّكت قدماه تلقائيًا لتنغمس في الماء. تنفّس بانتظام وهو يسير بحركة شبه غريزية لا يتحكّم التفكير فيها، ربما كانت حالته أقرب إلى النّوم.. لعلّه استسلم أخيرًا لسِنة من النّوم ففقد السّيطرة على جسده، لكنّه رغم انقياده لا يزال في كامل وعيه، وهو لا يفكّر الآن كيف يكون ذلك ممكنًا.

رفع ذراعيه أمامه، وكفّاه باتّجاه الماء، حين صار الموج يضرب وسطه، شعر على الفور بالخيوط النابضة تحت جفنيه. تحرّكت أصابعه من تلقاء نفسها، بطريقة مدروسة وسلسة لتقبض على الخيط التّرابي. قال مروان إنّه

رآه يفعل هذا، يجمع الرّياح في راحتيه، ثمّ يطلقها، فترتفع الأمواج من حوله، قبل أن تندفع في الاتّجاه الذي يختاره.

تصاعدت حركة الموج عموديًا، فيما تُواصل الأنفاس المنتظمة مسارها الطبيعي عبر أنفه ورئتيه لا يعكّر صفاءها شيء. يرى الآن سدًّا مائيًا على مبعدة مترين من موقعه ارتفاعه متر واحد في الهواء. لم يكن الماء ينهمر مثل شلال كما يجدر به أن يفعل، أو يتدحرج إلى الأمام مثل حركة المدّ، بل يستقرّ مكانه، يتمايل بقدر طفيف لكنّه لا يندلق، والغريب أنّه لم يستشعر الدّهشة التي يستوجبها الموقف، بل حرّك ذراعه ببطء إلى الأمام لتستجيب كتلة الماء الطافية لإشارته. إنّه يتحكّم بالموج كمسخِّر متمرّس.

جعله ذلك الخاطر المفاجئ ينتبه، ففقد تركيزه دفعة واحدة ليسقط الماء في لطخة عنيفة أمامه، مثل «تسونامي» غامر جعله يفقد توازنه، رفع رأسه بعد أن كاد يغرق في عمق ذراعين، وأخذ يسعل ويبصق.. ثم باغته الإدراك، حادًا ومفاجئًا: لقد أخضع الأمواج لإرادته!

استدار إلى الشاطئ المظلم، يبحث عن شهود محتملين. هل رآه أحد؟ ألم يتبعه مروان؟ سار نحو الرّمال بخطوات تكاد تحلّق، ثمّ لمحها. كانت المعالجة الشابّة قد غادرت الاحتفال منذ بعض الوقت، لكنّه لم يلحظ حضورها حين وصوله. هتف بها وهو يجدّ في المشي:

- هل رأيتِ ذلك؟

نظرت إليه روان في تشوّش. ما الذي كان يفترض بها أن تراه؟

أخذ آدم يشرح في حماس:

- لقد تمكّنت من التحكّم في الموج، منذ حين! هل تودّين أن تري ذلك؟

أومأت في اهتمام، ثمّ تبعته في اتّجاه الماء. تقدّم آدم إلى موضعه السّابق، وحاول أن يستحضر الحالة الذّهنيّة التي كان عليها منذ حين، تذكّر الحركات والأنفاس البطيئة المسترخية، مثل النّوم تمامًا، غير أنّه قد غدا متيقظًا ومشدود الأعصاب الآن!

لقد نجح من قبل في الإمساك بالخيط وهو في كامل وعيه، كان غاضبًا حينها، حين عرف بأمر قتل السّكان للغرباء. هل يجب أن يكون غاضبًا؟ لم ينم منذ يومين، عضلاته متشنّجة ومزاجه متقلّب. يحاول أن يرفع الماء، ثم يهيّأ إليه أنه يرتفع بمقدار ضئيل، لكن لا شيء باهر يحدث، ألقى نظرة إلى الخلف، حيث تقف روان مكتوفة اليدين ترقب المشهد في انتباه. قال مداريًا خيبته:

- انتظري.. لقد نجحت منذ حين.. سوف أكرّرها.

أومأت مشجّعة، إلا أنّه كان قد فقد زخم اللّحظة، لم تعد الخيوط تظهر. مضت دقائق من المحاولات اليائسة لإثبات الذّات، بلا جدوى.. قالت روان بابتسامة متعاطفة:

- أنت متعب، عيناك مثل جمرتين، يجب أن تنال قسطًا من الرّاحة.. ربّما هُيّئ إليك، أو تخيّلت..

قاطعها آدم بغضب:

- لم أكن أتخيّل!

استدار بعنف، ورفع كفّيه في حركة ساخطة. حدث ذلك في لمح البصر، تصاعد الموج من حوله مع حركة ذراعيه، وتناثرت في صخب باتّجاه روان. وقف كلاهما مبهوتًا لثوانٍ. لقد حدث ذلك! كان واعيًا تمامًا هذه المرّة، هناك منبع في مكان ما داخله، أخذ يشعر به بوضوح، وحين يفعل يستعيد تحكمّه في الخيوط!

ببطء، سحب نفسًا عميقًا، ثمّ شدّ الخيط الترابيّ الذي ينبض أمام عينيه بجلاء. لم يكن غاضبًا أو نائمًا.. بل في حالة صفاء تامّ. أمام نظرات روان الذّاهلة، ارتفعت الأمواج من جديد، وثبت الجدار المائيّ في الهواء، شهقت بصوت مرتفع، فيما يصنع بكفّيه أشكالًا لولبيّة تتماهى معها كتلة المياه السّابحة في الفراغ.. ثمّ زفر بقوّة وهو يتركها تهوي أخيرًا لترتطم بسطح البحر!

تنفّس بعمق، وارتسمت ابتسامة رضا على شفتيه، حين التفت إلى روان، كانت عيناها تتلألآن بعبرات التأثر. همست وهي تدمع:

- لقد فعلتَها!

أومأ آدم موافقًا. لقد فعلها.. أخيرًا.

لم يكرّر الإمساك بالخيط الحليبي الذي يبعث الضّوء، لكنّه يجرّب شيئًا آخر. ليس أنّه يرغب في تجربة مختلفة، لكنّ الخيوط لا تصغي إليه ولا تطيعه، بل تسفر عن نفسها تلقائيًا. لقد اختار الخيط التّرابيّ البروز هذه المرّة، ولم يكن عليه إلا أن يسحبه. لعلّ «ذاته الأخرى» كانت تتدرّب خلسة على التحكّم به كلّما أمسكت بزمام جسده!

مشى بهدوء إلى جوار روان نحو التلال، حيث القرية الأثريّة التي عادت نخبة المسخّرين والحكماء لشغلها. يستغرق الطريق من الشاطئ الجنوبيّ إلى المعتزل زهاء السّاعتين، إلا أنّ آدم لم يشعر بالتّعب. كان جسده مكدودًا من قلّة النّوم، مفرغًا من الطاقة بعد عمليّة التّسخير، إلّا أنّ خطواته كانت خفيفة ورشيقة، كأنّما يسبح في الهواء. لا، لم يكن قد اكتسب قدرة المسخرين على القفز الشبيه بالطيران، لكنّ نشوة اللّحظات السّابقة تملؤه فخرًا وحماسة، وتنبت في جنبيه جناحين لا مرئيين.

قالت روان مبدّدة كتلة الضباب الحالمة التي تحيط برأسه:

- ريحان تتحدّث عنك بتقديس وتعظيم، أنت بالنسبة إليها «المعلم الرّوحي» الخاصّ بها!

استدار في دهشة، والتهبت وجنتاه حرجًا على الفور، قال في تواضع زائف:

- إنها مجرّد طفلة..

لقد بات يتساءل منذ حين، كيف تغيّر قدرته على التّسخير الفعليّ من موقعه في المعادلة. إنّه مُخلِّص بالفعل، اكتسب صفته ومكانته بمواقفه وإنجازاته، يمكنه أن يعدّدها على أصابعه: إنقاذه لنفسه ووالده من حادثة تحطم المروحيّة، هزيمة أوران في نزال فرديّ، ركوب الأوركا، إنقاذ الأسرى.. أمّا الآن فإنّ التّسخير يجعله قادرًا على قيادة المهامّ بنفسه، وخوض مواجهات مباشرة! يمكنه الآن أن يستعرض مهاراته علنًا، دون خجل من عجزه وقلّة حيلته.

سمع روان تقول مرّة أخرى:

- مروان أيضًا يتحدّث عنك طيلة الوقت، لقد شعرتُ بنضجه المفاجئ منذ أصبح مرافقًا لك.. هل تعلم أنّه يعتبرك قدوته ومرشده؟

ضحك بخفّة:

- أنت تبالغين، كل ما في الأمر هو أن حادثة السّفينة جعلته يقترب مني أكثر!

أضافت روان بلؤم:

- أبي يرى أنّك تأخذ دور المُخلِّص بجدية أكبر، وأنك لم تخيّب ظنه الطيّب فيك!

انتبه إلى أنّ مدحها لم يكن ساذجًا أو مجانيًّا، كانت تستغلّ بذكاء فورة اعتزازه بنجاحه في التّسخير، لتعزّز بداخله شعوره بالانتماء، بأنّه في المكان المناسب، «رجل المرحلة»، ومع ذلك فقد تمنى لو يسألها: (وأنت؟ كيف أبدو في نظرك؟)

في تلك اللّحظة، لم يعد يضايقه أن تراه مُخلِّصًا لقومها، يؤدّي مهمّة نبيلة وسامية، فقد صارت قدراته المعلِنة عن حضورها حديثًا مصدر فخره وزهوّه. كان يشعر أنّه قد غدا كفؤًا للـ«ماغداخا» العظيمة أخيرًا.. وأنّها قد تنظر إليه كندّ لها، كصاحب دماء شافية وهبة حقيقيّة!

وهو يسير محاذيًا لها عبر الطرقات الخاملة التي تتخلّل التلال في ذلك الوقت من الليل، وجد عينيها فاتنتين، تعكسان تألّق الـ«مادرا» التي تتوهّج من حولهما بألف نجمة ونجمة، وطلّتها بهيّة، رغم غياب مظاهر الزّينة والتجمّل، وقدّها ممشوقًا ومشيتها رشيقة، مثل غزالة بريّة تخبّ في الخلاء. انتبه إلى أنّ حضور المعالجة الطاغي ومزاجها المتسلّط لم يعودا يثيران فيه الرّهبة أو الخشية.. مع الوقت، تنامت الألفة بينهما، وغدت بالنسبة إليه مجرّد فتاة شابّة في العشرين، يغمره الارتياح في صحبتها، ويحنّ إلى ابتسامتها الدّافئة حين تغيب.

تسارعت نبضاته، وهو يختلس نظرات جانبيّة إلى ملامحها الصّافية التي تنبض استرخاءً وطمأنينة، وتساءل إن كانت الـ«ماغداخا» تبادله المشاعر، وإن كان حضوره وغيابه يؤثّران في مزاجها.. وإن كان عليه أن يجرؤ على مصارحتها، متجاهلًا الحصار والأزمات التي تتوالى!

إنّهم يفعلون، العامّة! يتجاهلون كلّ شيء، ويستمرّون في النهل من أطايب الحياة، كأنّهم يعيشون أبدًا، وكأنّ الموت لا يترصّد بأحدهم.

فما الذي يمنعه أن يحذو حذوهم؟

(11)

اليوم الحادي عشر بعد الثلاثين

حين استيقظت مانويلا صباحًا، لم تكن كلاوديا على الجانب الآخر من السّرير الذي كان مرتّبًا وباردًا، بدا أنّها لم تأت إلى الغرفة قطّ. تمطّت مانويلا وهي تترك الفراش وتسير باتّجاه غرفة المعيشة، ألقت نظرة نحو الأبواب المغلقة، باب المعمل وباب غرفة الضيوف، ثمّ اتّجهت إلى المطبخ، ستكون مفيدة وتحضّر وجبة الإفطار على الأقل. لا شكّ أنّ كلاوديا قد عكفت على تجاربها في المعمل المنزليّ طيلة اللّيل بلا توقّف.

انشغلت بقلي البيض وتقطيع السّلطة، ثمّ جهّزت ثلاثة أطباق مكوّنة من خبز التّوست وكوب حليب بالإضافة إلى البروتين والخضراوات. طرقت باب غرفة أوران أولًا، ثمّ أدارت الأُكرَة وخطت إلى الدّاخل. ألفته يقف بهدوء عند النّافذة، يطالع العالم بنظرات فارغة من وراء ستائر الشيفون المسدلة، لم يستدر حين أدرك حضورها. وضعت مانويلا الطبق على الطاولة المنخفضة، ثمّ ألقت نظرة راضية على وجبة الدّجاج المقليّ التي لم يتبقّ منها إلا العظام.

تنحنحت لتشدّ انتباهه، فألقى نظرة عابرة من فوق كتفه. قالت وهي تجذب الكرسيّ وتجلس:

- هل نمتَ جيدًّا؟

(11)

اليوم الحادي عشر بعد الثلاثين

حين استيقظت مانويلا صباحًا، لم تكن كلاوديا على الجانب الآخر من السّرير الذي كان مرتّبًا وباردًا، بدا أنّها لم تأت إلى الغرفة قطّ. تمطّت مانويلا وهي تترك الفراش وتسير باتّجاه غرفة المعيشة، ألقت نظرة نحو الأبواب المغلقة، باب المعمل وباب غرفة الضيوف، ثمّ اتّجهت إلى المطبخ، ستكون مفيدة وتحضّر وجبة الإفطار على الأقل. لا شكّ أنّ كلاوديا قد عكفت على تجاربها في المعمل المنزليّ طيلة اللّيل بلا توقّف.

انشغلت بقلي البيض وتقطيع السّلطة، ثمّ جهّزت ثلاثة أطباق مكوّنة من خبز التّوست وكوب حليب بالإضافة إلى البروتين والخضراوات. طرقت باب غرفة أوران أولًا، ثمّ أدارت الأُكرَة وخطت إلى الدّاخل. ألفته يقف بهدوء عند النّافذة، يطالع العالم بنظرات فارغة من وراء ستائر الشيفون المسدلة، لم يستدر حين أدرك حضورها. وضعت مانويلا الطبق على الطاولة المنخفضة، ثمّ ألقت نظرة راضية على وجبة الدّجاج المقليّ التي لم يتبقّ منها إلا العظام.

تنحنحت لتشدّ انتباهه، فألقى نظرة عابرة من فوق كتفه. قالت وهي تجذب الكرسيّ وتجلس:

- هل نمتَ جيدًّا؟

كان الوقت قد فات لتحاول بناء علاقة صداقة، أو حتّى مدّ جسور تواصل ودّي، ليس بعد أن أحرقت القرية تمامًا واقتيد الشابّ مع أبناء شعبه مقيّدين ومعصوبي العيون إلى السّفينة، وبعد أن أشهرت المسدس في وجهه على اليخت.. لكنّها تحاول.

- ليس هناك الكثير لعمله في الوقت الحاليّ.. ستكون كلاوديا مشغولة بالأبحاث، لذا.. نحن وحدنا الآن، أنا وأنت..

كانت تبتسم في تودّد، ثمّ انتبهت إلى الإيحاء الجريء في كلماتها، فسحبت الابتسامة وهي تترك المقعد على عجل:

- إذا احتجت إلى شيء، سأكون في غرفة المعيشة.. لستَ سجين هذه الغرفة.

كانت تهمّ بالانسحاب حين استوقفها صوته:

- متى نعود إلى «آرا»؟

توقّفت لتقول بهدوء:

- في القريب.. آمل ذلك.

لم تكن تملك تقييمًا دقيقًا، ولا كلاوديا تفعل، سيعتمد ذلك على ما ستكشفه لها دماؤه والمادّة المتوهّجة. حين لم تبدر عنه أيّ ردّة فعل، سحبت دفة الباب ببطء وانصرفت.

جلست على الأريكة تتناول وجبتها، بعد أن طرقت باب المعمل وسلّمت كلاوديا طبقها. بدت البروفيسور الشابة منهكة ومكدودة، لكنّها لم ترغب في الانقطاع عن «تحقيق المجد» الذي كانت بصدده. على شاشة التلفاز، كان برنامج كوميدي سخيف يُعرض في الفترة الصّباحيّة. لم تكن الشاشة تحصل على كلّ تركيزها، لكنّها استمرّت تطالعها في شرود وهي تلوك لقيمات التوست.

رفعت رأسها حين فتح الباب. لم تكن كلاوديا.. بل أوران. فاجأها ظهوره في غرفة المعيشة، وهي التي حسبت أنّه قد اختار العزلة حتّى النهاية. أشارت إلى المقعد الوثير المنفرد تدعوه إلى الجلوس، فاستجاب لدعوتها. تابعت في اهتمام حركاته المتردّدة، وانتظرت أن يقول شيئًا ما، لكنّ عينيه توقّفتا على الشاشة التي تبثّ صورًا ملوّنة، للحظات بدا مأخوذًا بالمشهد. ابتسمت مانويلا وقالت شارحة:

- هل تعجبك الشاشة؟ إنّهم ليسوا أشخاصًا حقيقيّين.. بل مجرّد صور تُبثّ عبر الأقمار الصّناعيّة..

شعرت أنّ كلماتها لا تشرح شيئًا، بل تزيد طبقة من التعقيد بعباراتها غير المفهومة، فأحجمت عن قول مزيد.

- لا عليك.. هذا جهاز للتّسلية، يمكنك المشاهدة إذا شئت.. وإذا أردت تغيير المحطّة، تفعل هذا بجهاز التحكّم عن بعد.. هكذا..

أخذت تتنقّل بين المحطات أمام نظراته المركزة. بعد ذلك، انتقل إلى تأمّل الموجودات من حوله. أمهلته بعض الوقت حتّى يملأ عينيه بمظاهر الحضارة المبثوثة عبر الشقة، بداية من الموقد الكهربائي وصولًا إلى الثلاجة.

لم تنفك آيات الحداثة والتكنولوجيا تثير دهشة أوران وارتباكه. كيف يكون العالم البعيد مختلفًا هذا الاختلاف عن «آرا»؟ وكيف يعيش البشر حياة مباينة لما يعيشه الـ«آم»؟ وكيف يكون عالمهم بهذا الاتّساع؟ من نافذة غرفته الواقعة في الطابق الثامن عشر من ناطحة سحاب عصريّة، يطلّ على مدينة مترامية الأطراف، لا يدرك لها حدًّا ولا نهاية! حين كان يصعد إلى التّلال، ويتلفّت على جانبيه، كان يبصر بوضوح حدود الأرض وبداية البحر المحيط بها.. لكنّ ما يراه من النافذة يُمثّل بحرًا من البنايات متفاوتة الارتفاع.. بحرًا بلا حدود!

سأل فجأة في حيرة:

- كم يبلغ اتّساع العالم؟

ضحكت مانويلا، غير أنّ ملامح أوران كانت تكتسي جدّية بالغة، فقالت بعد أن تمالكت نفسها:

- لا أدري! العالم واسع.. جدًا.

في دار العبادة، كانوا يحتفظون بخريطة للعالم، وكان الغرباء القادمون إلى «آرا» يحدّثونها، يضعون علامات على أوطانهم، فيتعلم الـ«آم» أشياء عن الـ«مهافيا دياما»، لكنّ الخريطة المحفورة في الخشب لم تنبئ من قريب أو بعيد عن الحجم الهائل للعالم! صحيح.. كانت «آرا» تبدو مثل نقطة هائمة وسط المحيط، لكنّه اعتبر الأمر مجرّد مبالغة، فالرّسم لا يمثّل الحقيقة ولا يعكسها كاملة، وإلا فكيف تكون التلال والغابات والشواطئ مجرّد نقطة؟

لوهلة، شعر بالخجل لأنّه لم يهتمّ بمعرفة مزيد من الغرباء، وبالحسرة، لأنّه يفوّت كثيرًا بالاكتفاء بـ«آرا» وحدها، ثمّ تناوب عليه النّدم والغضب لأنّ فتنة الشياطين نالت منه خلال وقت قصير.

تساءلت مانويلا وهي تتأمّل تعابيره التي تحوّلت فجأة:

- هل تريد أن نخرج في جولة؟ هناك كثير من الأشياء لرؤيتها.. لكنّنا لن نغادر قبل غروب الشّمس.. سيكون من الخطر أن تتعرّض لأشعتها.

لم تحصل منه على إجابة، كان قد انكمش وعاد إلى وضع الدّفاع الغريزيّ. تنهّدت، ثمّ فكّرت بأنّها قد تطلب خدمة إضافيّة من كلاوديا، حين تفرغ من عملها.

انتبهت حين فتح باب المعمل، ظهرت كلاوديا وقد تخلّصت من مئزرها الأبيض وقفّازتها ونظاراتها الطبيّة، تمطّت وهي تلقي بنفسها إلى جوار مانويلا على الأريكة. همست هذه الأخيرة وهي تمسّد كتفيها برفق:

- هل تناولت فطورك؟ أنت ترهقين نفسك كثيرًا.

أغمضت كلاوديا عينيها وهمست بدورها:

- الأمر يستحق!

تحفّزت مانويلا:

- هل أحرزتِ تقدّمًا؟

- أعتقد أنّ المادّة المتوهّجة مختلفة جدًّا عن كلّ شيء تعاملت معه في السّابق.. أتوقع مفاجأة عظيمة.. أنا متفائلة!

تكلّمتا بالإنجليزية طيلة الوقت، فيما بقي أوران جامدًا ومصغيًا رغم عدم استيعابه لما يقال، عادت كلاوديا لتهمس:

- أرى أنك أحرزت تقدّمًا أيضًا.. كيف أقنعته بترك الغرفة؟

- لم أفعل.. لقد جاء به الفضول!

وقفت كلاوديا وهي تضحك، ثمّ قالت:

- أحتاج إلى بضع ساعات من النّوم، ثمّ سأطلعك على النّتائج، اتفقنا؟

مشت كلاوديا نحو غرفتها وهي تتثاءب بصوت عالٍ، فيما عادت مانويلا إلى أوران بابتسامة ودود:

- ماذا كنّا نقول؟

وقف أوران ليقول بجفاء:

- سأكون في الغرفة.. حتّى غروب الشّمس.

***

ارتدت مانويلا معطفها ولفّت الوشاح حول عنقها استعدادًا للنّزهة الليلية. قبل أن تطرق باب أوران، تسلّلت إلى الغرفة حيث لا تزال كلاوديا تعوّض ساعات النّوم المسروقة من ليلة الأمس. ألفتها مفتوحة العينين، تحدّق في السّقف في شرود. ابتسمت مانويلا وهي تقول:

- هل نمتِ جيّدا؟

- بالكاد! تأتيني أفضل الأفكار حين أهمّ بالنّوم!

ضحكت مانويلا أمام عبوس صاحبتها الظّريف، فيما سألت كلاوديا:

- هل تخرجين؟

- لقد وعدتُ ضيفنا بجولة في المدينة. أحاول أن أبقيه مسترخيًا، وألا يشعر بأنّه سجين أو مقيّد الحريّة.. حسنًا، تقنيًا، لا يُسمح له بالتحرّك منفردًا أو الابتعاد عن الشقة.. لكنّها فسحة اكتشاف وترويح عن النّفس لتحسين مزاجه.

أومأت كلاوديا في تفهّم، ثمّ استقامت جالسة وهمهمت:

- أظنّ أنّ عليّ العودة إلى المختبر! لكن تلزمني عيّنة جديدة من دماء صديقنا.

كانت حماستها من دواعي سرور مانويلا، غير أنّ نظام الحياة المعكوس لم يكن في الحسبان. لكنّها لم تفكر في الاعتراض، فكلاوديا باحثة راشدة ومسؤولة عن نسق عملها، ولعلّ جهودها الحثيثة تمكّن من تقليص أجل الأسبوعين الافتراضيّ.

لم يبد أوران كثير مقاومة هذه المرّة، ولعلّ وعد الجولة المسائية أسهم في تحسين مزاجه. بينما يستلقي على سرير الفحص، وكلاوديا تسحب العيّنة، تساءلت مانويلا:

- هل يمكنك عمل شيء من أجله، للتأقلم مع الشمس؟

فكّرت كلاوديا للحظات ثمّ اقترحت:

- أعرف بعض الباحثين الذين يعملون على علاج تجريبي لنقص الميلانين!

- علاج تجريبي؟ تعنين أنّ نجاعته لم تُختبر بعد؟

- هذه حال كلّ العلاجات التّجريبيّة.. ليس من اليسير الحصول على متطوّعين، في ظل التّضييقات القانونية والرّادع الأخلاقي.. لكنّني لا أعتقد أنّ صديقنا سيمانع إن أجرينا عليه بعض التّجارب؟

ابتسمت كلاوديا في لؤم، فيما هزّت مانويلا كتفيها، وهي تلقي نظرة على ملامح أوران السّاكنة. لقد كانت مستعدّة لتجربة علاج كلاوديا التجريبيّ لتحمّل مناخ الجزيرة! تؤمن أنّ التقدّم العلمي يتطلّب تضحيات وجسارة لطرق السّبل غير المألوفة، وباعتبار آجال والدها المحدودة فإنّ «التجريب» أمر لا مفرّ منه.

- هناك علاجات تهتمّ بتحفيز الخلايا الصّبغية المنتجة للميلانين، مثل العلاج الهرموني، أو العلاج باللّيزر والأشعة فوق البنفسجية ذات النّطاق الضيق.. لكن بالنظر إلى انتشار المهق في شعب بأسره، أشك في وجود أيّ نشاط للخلايا الصّبغية يمكن تحفيزه!

أومأت مانويلا وقالت تستحثّها:

- وغير ذلك؟

- ثمّ هناك العلاج الجيني، وهو يُعنى بتعديل الجينات المسؤولة عن إنتاج الميلانين، باستخدام آليات تصحيح الطفرات.. لكنّها عمليّة معقّدة جدّا، ومكلفة جدّا..

تنهّدت مانويلا، فأضافت كلاوديا أخيرًا:

- هناك نوع ثالث لا يستهدف تحفيز خلايا إنتاج الميلانين، بل يوفّر حماية خارجيّة تعادل حماية الميلانين.. مثل إنزيمات إصلاح الحمض النّووي التي تُوصَّل من خلال الحقن، للتّخفيف من أضرار الأشعة فوق البنفسجية! لكنّ تأثيرها مؤقت..

تألّقت عينا مانويلا بنظرة تفاؤل:

- هل يمكنك الحصول على هذه الحقن؟

- بالتأكيد.. لكنّ الكلفة...

قاطعتها مانويلا بلهجة قاطعة:

- لا تهتمّي للكلفة.. أريد أكبر كميّة ممكنة من هذا العلاج، في أقرب وقت!

حدّقت فيها كلاوديا وقد أخذت الأحلام والخطط تتشكّل في ذهنها وتتشعّب.

- عليَّ أن أزور المختبر غدًا، بعض التحاليل المعقدة لا يمكن إنجازها باستخدام الأدوات البسيطة التي لديّ في المعمل هنا، سأستغل الفرصة لإجراء بعض الاتّصالات والحديث إلى الزّملاء الباحثين.. إذا حالفنا الحظ، فربّما أحصل على بعض الحقن في الغد.

ابتسمت مانويلا في رضا. إذا حصل المُسخِّر على الحقنة، وتمكّن من القيام بجولة نهاريّة تحت ضوء الشّمس بسلام، فربّما تكسب ودّه وتراضيه. تتساءل إن كانت ستنجح في انتزاع ابتسامة من ملامحه دائمة العبوس، وإن كانت تلك اللّفتة الكريمة قد تعوّض شيئًا بسيطًا من الأذى الذي سبقها.

همست توصيها:

- كوني حذرة.

- بالتأكيد.. السّرية قبل كلّ شيء!

***

خطت هاجر داخل شقّتها بلا ذراع تسندها، ومشت مستقلة باتّزان وثبات. اعتبر الطّبيب المعالج استردادها عافيتها بسرعة وقوّة معجزة، وهي التي كانت في غيبوبة منذ يومين وحسب. لم يرض بمغادرتها المصحّة على الفور، بل أخضعها لفحوصات شاملة وأبقاها تحت الملاحظة خلال السّاعات الأربع والعشرين الماضية. لم يقتنع بتعافيها التامّ إلا بعد أن تورّدت وجنتاها وعاد الألق إلى عينيها المنطفئتين.

بالنّسبة إلى واحدة من الـ«آم»، كان التّواصل مع حجر الشمس الذي انفصل منذ وقت قريب عن المصدر كلّ ما تطلّبه الأمر لتستردّ صحّتها، وتتدفّق الطاقة في عروقها من جديد.

تبعها إبراهيم إلى الدّاخل، ليجيل نظراته في المكان في فضول. لم تختلف البنايات التي دخلها في «مهافيا دياما» عن بعضها كثيرًا، بجدرانها الملساء وأسقفها المسطحة ولمسات المعدن اللامع هنا وهناك.

دفع أشرف حقائب السّفر إلى داخل الغرفة، ثمّ قال لإبراهيم:

- يمكنك استخدام غرفة آدم في الوقت الحاليّ.

أومأ إبراهيم في امتنان، وسار إلى حيث أشار نسيبه، في حين تابعتهما هاجر بنظرة صامتة. كانت قد تحدّثت إلى شقيقها كثيرًا في السّاعات الماضية، ملأ حضوره غرفة المشفى ولم يسمح بحديث منفرد بين الزّوجين. عاد أشرف إلى غرفة المعيشة ليقف متردّدًا على عتباتها، لا يزال يخفي عنها حقيقة ما حلّ بآدم، لم يأت أحدهما على ذكره في اليومين السّابقين، باستثناء

هلوستها عن حديثها إليه خلال غيبوبتها، ولعلّ صمته أوقد نار شكوكها وأنبأها بما يخفيه.

جلسا متجاورين على الأريكة، واستعدّ أشرف للحديث الذي أجّله حتى تلك اللحظة.

- أنت لم تسأليني عن آدم...

ابتسمت هاجر ثمّ قالت بهدوء:

- أعرف أنّه في مهمّة!

رفع أشرف حاجبيه وترقّب أن تفصح أكثر، لكنّها لم تفعل. قالت باطمئنان:

- لا تقلق عليه.. أعلم أنّه سيكون بخير.

تفاقمت علامات العجب على محيّاه، كان يُفترض به أن يهدّئها ويطيّب خاطرها، لكنّها من تفعل. قال وهو يتأمّل ملامحها السّاكنة:

- كيف تعرفين أنّه سيكون بخير؟

- أشعر بذلك.

نمّت عبارتها عن ثقة وإيمان عميقين، فضحك أشرف وهو يهتف:

- لقد حسبت أنّ قلب الأمّ قلق جزوع بطبعه، لم أعتقد أن أكون أشدّ قلقًا منك!

- هذا لأنّك لا تعرفه كما أعرفه.

رنا إلى ابتسامتها الصّافية متفكّرًا، ربّما لم يعرفه جيّدًا في السّنوات الماضية، وقد حاول الولد إثبات نفسه وانتزاع احترامه طيلة الشهرين اللذين أمضاهما في عرض المحيط، لكنّه يعرف الآن أنّ آدم لم يعد طفلًا، وأنّه قادر على اتّخاذ قراراته باستقلالية ومسؤولية، وأنّ في جرابه حيلًا بلا نهاية. قال أخيرًا كأنّما يخاطب نفسه:

- لقد كان يركب الحوت!

همست هاجر في شرود:

- كم أودّ أن أرى ذلك!

عاد أشرف ليقول في تجهّم:

- لكنّه لا يواجه أفرادًا عاديّين. لن يستسلم مايك راسل وجماعته قبل تحقيق مآربهم.. وأسوأ ما في الأمر هو أنّني قدتهم إلى هناك بنفسي، وعرّفتهم على وجود «حجر الشمس»، وحدّثتهم عن قدراته المعجزة!

اندفعت العبارات على لسانه دفعة واحدة، يعترف بذنبه ويفصح عن مخاوفه بلا مواربة، ومع أنّ هاجر لم تعرف كثيرًا عن تفاصيل الحوادث التي عاشها وآدم، فإنّها ربّتت ذراعه مواسية وقالت:

- لا تلم نفسك، لقد أخذت ابننا للقاء قومه، وأحضرت «حجر الشمس» من أجلي!

لم تنجح عباراتها في تخفيف ألمه، فعاد يقول:

- أخشى أنّ «آرا» لن تعرف الطمأنينة بعد الآن!

استمرّت تمسّد ظهر كفّه بحنوّ، فيما تحدّث أشرف:

- التّاريخ يكرّر نفسه باستمرار.. هذا ما يحصل منذ القدم، ولا يتوقّف أبدًا! هل تعلمين؟ منذ بضعة أشهر، انتشرت صور التقطها مستكشفون لأفراد قبيلة اسمها «ماشكو بيرو»، ظهرت فجأة في غابات الأمازون في البيرو، قبيلة من الحفاة العراة الهمج، اندفعت خارج الغابات فجأة كأنّها تغادر كتب التّاريخ! ليس أنّهم لم يملكوا حضارة من قبل، بل أنّهم فقدوها حين خسروا الصّراع مع المستعمر الإسباني! هؤلاء الأفراد أمضوا العقود، بل القرون الماضية في معزل عن البشريّة..

أصغت هاجر في اهتمام، فيما ازدرد عالم الحضارات القديمة لعابه واستطرد:

- إذا تركنا الـ«آم» جانبًا، فالـ«ماشكو بيرو» من آخر القبائل القليلة المتبقية -التي يعرف عنها العالم- بلا اتّصال بالعالم الخارجيّ.. في عصر العولمة والإنترنت، و«العالم القرية» لم تعد هناك مجتمعات كثيرة منعزلة. لكنّ هناك قصّة حزينة وراء عزلتهم الاختياريّة. عندما وصل الغزاة الإسبان إلى أمريكا الجنوبية في القرن السّادس عشر، واجهت عديدٌ من المجموعات الأصلية العبودية والمجازر والتحويل القسري إلى المسيحية.. يُعتقد أن شعب «ماشكو بيرو» من أحفاد شعب بيرو الذين كانوا أكثر تفاعلًا مع الغرباء في الماضي.. ومع ذلك، هربًا من العنف والأمراض التي جلبها المستعمرون، لجأت القبائل إلى أعماق غابات الأمازون المطيرة، وتبنّت نمط حياة انعزاليًا. ثمّ، في مرحلة لاحقة، في أواخر القرن التاسع عشر ازدهرت تجارة المطاط، ليصل رجل شبيه جدًّا بمايك راسل.. بارون المطاط «كارلوس فيتزكارالد». انتهج الرّجل أسلوبًا وحشيًا، فتعرض شعب «ماشكو بيرو» للمطاردة والعبودية أو القتل، مما دفع النّاجين من معسكرات المطاط إلى الهروب أعمق في الغابة.. هذه الفترة زادت من عدم ثقتهم بالغرباء، ليعيشوا حياة بدائيّة جدًّا، معتمدين على الصّيد والجمع، رافضين التّواصل مع الإنسان المتحضر الذي سرق منهم كل شيء..

كان صوت أشرف قد ارتفع في غضب، دفع زفرة طويلة، ثمّ قال بنبرة أسى:

- لم تنته القصّة عند هذا الحدّ، بعد انتهاء ثورة المطاط اتجهت الأنظار إلى مناجم الذهب، وبعد الذهب إلى الأخشاب.. ثمّ تجارة المخدّرات! استمرّ عمّال الخشب غير القانونيون وتجّار المخدّرات وشركات النفط في

التعدّي على أراضي السّكان الأصليّين، وكلّ من قاوم منهم يقتل.. لكن أين يذهبون بعد الآن وقد وصلت يد المستعمر إلى أعماق الغابات لتزيلها وتستنزف الموارد الطبيعيّة؟! لم تعد القبائل تجد ملجأ للاختباء، أو مصدرًا للرّزق، فاضطرّت إلى الخروج من مكمنها بحثًا عن القوت.. فكانت النتيجة هي ظهورهم هذا..

كانت أنفاسه مضطربة، وهو يتخيّل النهاية القاتمة للـ«آم» بسببه. ألم يكن هو المستكشف الذي دلّ رجال الأعمال المستعمرين على موقع «آرا»؟ ارتجفت هاجر لمنحى القصّة الرّهيب، لكنّها حافظت على رباطة جأشها وقالت تطمئنه:

- إنّ الـ«آم» يختلفون عن أيّ قبائل أخرى من السّكان الأصليين.. لا يمكن لمايك راسل أو أيّ من رجاله أن يخيف المسخّرين الذين يتحكّمون بالرّيح ويرسلون الصّواعق! لسنا ضعفاء مثل القبائل القديمة التي لا تملك أن تدافع عن نفسها.

بدت واثقة في قومها راسخة في إيمانها، لكنّها لا تعرف شيئًا عمّا يحدث على حدود «آرا» في ذلك الوقت بالتّحديد. لقد سجنت مانويلا مسخّرًا وجاءت به إلى العالم المتحضّر، سمعها تحادث أحدًا ما على الهاتف في اليخت، بخصوص أبحاث تمكّن من تحمّل تأثير الـ«مادرا».. إذا حصل مايك راسل على عقار كهذا، فلن يمنعه شيء من أن يصبح «كارلوس فيتزكارالد» آخر، بارون آخر يسحق الـ«آم» ويمهّد لاستعبادهم وربّما.. إبادتهم!

ابتلع الكلمات التي تزدحم على طرف لسانه وآثر أن يحتفظ بها لنفسه، إنّ مشاركتها كوابيسه الأكثر رعبًا لن تفيد في شيء، وقد تعكّر صفو نقاهتها وهي لا تزال ضعيفة قد غادرت نطاق الخطر للتوّ.

وقفتْ هاجر وغابت داخل الغرفة برهة، ثمّ رجعت وهي تحمل دفترًا سميكًا بين كفّيها. عادت للجلوس إلى جوار زوجها، وهي تبتسم في خفر. سألها:

- ما هذا؟

- في هذا الدّفتر، جمعت وصفاتٍ علاجيّة كثيرة يتداولها النّاس للأمراض الأكثر شيوعًا.. وقد ظننت أنّني.. حسنًا، ربّما.. ذات يوم.. قد أشاركها معالجات «آرا»...

همس أشرف في ذهول:

- هل كنتِ.. معالجة؟

وجد من الغريب أنّها لم تشاركه تلك الحقيقة التي تخصّها على امتداد تلك السّنوات. حتّى بالأمس، حين أفصحت عن هبتها بمحادثة الحوت، فإنّها لم تذكر شيئًا عن العلاج. لكنّ هاجر هزّت رأسها نافية، ثمّ قالت:

- كنت متدرّبة فقط، أساعد في أعمال المشفى.. لم أمتلك الموهبة الكافية. حين غادرت الجزيرة، لم أكن أعرف كثيرًا عن العلاج، باستثناء بعض خلطات الأعشاب. وقد حرصت على أن أستمرّ في التعلّم.

سألها في حنوّ:

- هل فكّرت دائمًا.. في العودة؟

- لا!

أجابت بلهجة قاطعة.

- لا، لم أعتقد أنّ الرّجوع ممكن.. ليس بعد ما حدث. لكنّني.. كنت أشتاق كثيرًا إلى أمي، وقد فكّرت.. إذا أنت وجدتَ طريق «آرا» يومًا، فربّما

أرسل إليها دفتري هذا.. كان مجرّد خاطر سخيف. لكنّ عودتك بالحجر، ولقاء إبراهيم.. كلّ هذا يعيد إليّ أحلامًا قديمة كانت يومًا ما مستحيلة!

كانت عيناها نديّتين وصوتها مبحوحًا من التأثّر. تهوّر أشرف فجأة:

- هل تريدين حقًا أن نرسل الدّفتر إليها؟

حدّقت فيه غير مستوعبة، لقد رجع للتوّ من سفرة طويلة ومنهكة، لا تصدّق أنّه يعتزم الرّجوع بهذه السّرعة لمجرّد توصيل دفتر علاجات قد لا يكون ذا فائدة حقيقيّة. واصل أشرف إجابة الأسئلة التي نطقت بها عيناها:

- لن أغادر، ليس الآن.. لكنّ السفينة التي أقلّتنا قد تعود أدراجها في القريب.

تجدّد الأمل في مقلتيها وهي تهتف:

- حقًا؟

لم يكن على اتّصال شخصيّ بمانويلا في أيّ وقت مضى، لكنّه قد يتدبّر بريدها الإلكتروني من موقع الجامعة، أو بتقصّي بعض أصدقاء آدم وزملاء الدّراسة، سيجد حلًا، لكنّه لا يعرف كيف ستتقبّل طلبه، ليس أنّه على خلاف شخصيّ معها، لكنّ ما فعله آدم بسفينة والدها لم يكن مجرّد حادث عابر يُغتفر بيسر، إلا أنّه سيحاول رغم ذلك.

وربّما، إذا لانت مانويلا، فقد يطمع في كرمها أكثر، ويطلب مساعدتها من أجل عودة آدم.

(12)

اليوم الثاني عشر بعد الثلاثين

أحبّ أوران المدينة.

كان من العجيب أن تجذبه تلك الأنوار المتلألئة التي تملأ واجهات المباني، وتغمر جانب الشّارع وتنبعث من العربات التي تمرّ إزاءه بسرعة مُسخّرٍ يركب حوته في عمق البحر، وإن لم يكن يرى السّماء بعد هبوط الظلام، فقد كان غياب الشّمس يبعث على الاطمئنان.. لقد أحبّ السّماء المشرقة أيضًا، تلك التي يختلس نظرات إليها من وراء ستارة الغرفة، لكنّ المشي بارتياح واسترخاء يمنحه متعة لا تُضاهى.

كان يرجو أن تقترح مانويلا نزهة ليلية أخرى مساء اليوم، لكنّها لم تظهر عند بابه مرّة أخرى، منذ افترقا الليلة الماضية. أمضى نهاره في كنف الغرفة المغلقة، وقد ضاقت به فجأة بعد أن عرف كيف تكون الحريّة في الخارج. أخذ يذرع الفضاء المحدود جيئة وذهابًا، يخفّف من وطأة التوتّر، ويشغل نفسه عن الإصغاء إلى الضوضاء النّابعة من الغرفة المجاورة.

كان اللّيل قد هبط في الخارج، وبدا أنّ مانويلا قد نسيت أمره.

مرّتين خلال النّهار، سمع طرقات خشنة على الباب، دون أن يقتحم عزلته أحد. في كلّ مرّة كان يفتح الدّفة بهدوء، بعد تلاشي الخطوات الثقيلة، ليلفي طبق الطعام على الأرض، في غياب تامّ لأيّ وجود بشريّ. خمّن أنّها مشغولة ربّما. لعلّها لم تكن حاضرة في الجوار، لم يسمع لها صوتًا، ولم يلحظ

(12)

اليوم الثاني عشر بعد الثلاثين

أحبّ أوران المدينة.

كان من العجيب أن تجذبه تلك الأنوار المتلألئة التي تملأ واجهات المباني، وتغمر جانب الشّارع وتنبعث من العربات التي تمرّ إزاءه بسرعة مُسخِّرٍ يركب حوته في عمق البحر، وإن لم يكن يرى السّماء بعد هبوط الظلام، فقد كان غياب الشّمس يبعث على الاطمئنان.. لقد أحبّ السّماء المشرقة أيضًا، تلك التي يختلس نظرات إليها من وراء ستارة الغرفة، لكنّ المشي بارتياح واسترخاء يمنحه متعة لا تُضاهى.

كان يرجو أن تقترح مانويلا نزهة ليلية أخرى مساء اليوم، لكنّها لم تظهر عند بابه مرّة أخرى، منذ افترقا الليلة الماضية. أمضى نهاره في كنف الغرفة المغلقة، وقد ضاقت به فجأة بعد أن عرف كيف تكون الحريّة في الخارج. أخذ يذرع الفضاء المحدود جيئة وذهابًا، يخفّف من وطأة التوتّر، ويشغل نفسه عن الإصغاء إلى الضوضاء النّابعة من الغرفة المجاورة.

كان اللّيل قد هبط في الخارج، وبدا أنّ مانويلا قد نسيت أمره.

مرّتين خلال النّهار، سمع طرقات خشنة على الباب، دون أن يقتحم عزلته أحد. في كلّ مرّة كان يفتح الدّفة بهدوء، بعد تلاشي الخطوات الثقيلة، ليلفي طبق الطعام على الأرض، في غياب تامّ لأيّ وجود بشريّ. خمّن أنّها مشغولة ربّما. لعلّها لم تكن حاضرة في الجوار، لم يسمع لها صوتًا، ولم يلحظ

لها أثرًا في غرفة المعيشة السّاكنة والباردة، ولم تحمل الوجبات لمستها التي ظهرت في وجبات الأمس. جاء طعام اليوم في علب وصناديق.

تساءل في قلق أين اختفت، وإلى متى ستهمله؟ يكره أن يعترف بذلك، لكنّ غيابها يصيبه بالتوتر، مثل طفل تائه يفتقد أمه. حين سمع صوت البوابة الخارجية يفتح خلال المساء، أصاخ السّمع في انتباه، ثمّ تناهى إليه حديث بالرّطانة الأجنبيّة بين الشابتين، الصّهباء والسّمراء. شعر بالارتياح يغمره، وقد عادت الحياة أخيرًا إلى الشقة.

انتظر في نفاد صبر، ولم يجرؤ على الخروج إليهما. بعد دقائق طويلة، جاءت الطرقات المترقّبة، وظهر وجه مانويلا الباسم. كانت وجنتاها متورّدتين بفعل البرد، وهي تفرك كفّيها معًا مستجلبة الدّفء، قالت بلهجة ودود:

- كيف كان يومك؟ هل افتقدتني؟

أشاح بوجهه في إعراض، وقد خشي أن تقرأ في وجهه أمارات اللّهفة، وتدرك أنّه قد افتقد حضورها بالفعل، إلا أنّها ألقت دعابتها بخفّة ثمّ مرّت إلى موضوع آخر:

- لديّ مفاجأة من أجلك.. هل تريد أن تعرف ما هي؟

عاد ليلقي نظرة جانبيّة عليها، وقد تملّكه الفضول. بين كفّيها تستقرّ أسطوانة زجاجيّة شفافة، تحوي سائلًا يميل إلى الصّفرة، رمقها في استغراب وانتظر تفسيرًا.

- هذا العقار، يُمكِّن جسدك من صنع مادّة تحميه من الشّمس! هل تودّ أن تجرّبه؟

رفع حاجبيه دهشة وهو يستدير بكلّيته ليواجهها وقد حظيت بانتباهه كاملًا، كانت تتابع:

- إذا أردت، يمكنك الحصول على حقنة الآن.. في الصّباح، سنرى إن كانت تجربة ناجحة! ربّما ستتمكّن من الحصول على حمّام شمس!

كانت عيناها تلتمعان بنظرة إثارة وحماس، إلا أنّ الارتياب استبدّ به. هل يمكنه أن يثق بها؟ وأيّ ضمان يملكه أمام وعودها المعسولة؟ لعلّ الحقنة تمنحه القدرة على تحمّل الشّمس، لكنّه يجهل الآثار الأخرى التي قد تترتّب عليها. هل تؤثر عقارات «مهافيا دياما» في هِبته؟ بل في جوهره حتّى؟ أم أنّها مجرّد علاجات مؤقتة مثل تلك التي تصنعها معالجة «آرا» من أجل الغرباء؟

- يجب أن تكون ممتنًا، فقد تكبّدتُ عناءً كبيرًا للحصول على هذه العيّنة!

لم يبد أيّ ردّة فعل، فأردفت:

- حسنًا، موعد الحقنة!

رغم توجّسه، رفع أوران كمّ قميصه حتّى أعلى العضد كما أشارت وقد غلب فضوله حذره، سمح لها بغرس الإبرة في العضلة دون أن يهتزّ له جفن. شعر بلسعة عابرة، ثمّ انتهى الأمر.

- سنختبر جدواها صباحًا.. أما الآن فأنا منهكة، وأحتاج إلى كثير من الرّاحة!

حين غابت عن أنظاره وعاد إلى وحدته، ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتيه. في الغد، سوف يعرف كيف تكون المدينة صباحًا، وكيف يكون المشي تحت الشمس مباشرة، وكيف هو دفؤها وملمسها على البشرة.

سيكون أوّل رجل من «آرا» يلتقي بالشّمس ولا تؤذيه، وسيودّ أن يحكي لأهله في الجزيرة عن ذلك الإحساس الغامض والمجهول بعد أن يجرّبه.

سيترك القلق بشأن آثار الحقنة الجانبيّة لوقت لاحق.

***

يشعر بتحسّن كلّما تعمّق في التّدريب، ما بدا مستعصيًا منذ أيّام قليلة صار في متناول قبضته الآن. من العجيب أنّ الإمساك بالخيط التّرابي جاء أولًا إلى مستوى وعيه، رغم أنّه استخدم الخيط الحليبي كلّما تعرّض إلى خطر مميت.. في منزل الشاطئ طفلًا، في الحوّامة الغارقة وفي نزاله وأوران!

لا يزال أمامه كثير ليكتشفه عن ذاته الأخرى، تلك التي تهيم ليلًا وتمارس التّسخير بلا قيود، ويومًا ما سيتوحّد شقّاه المنفصمان، وسيكون حينها أقوى من أيّ وقت مضى. بينما يتدرّج في تدريبه الخاصّ على خطى الإنجاز المتسارع، لم يكن النّجاح حليف فريقه من المسخّرين المتطوّعين للتدرّب على التحكم في المعادن.

كان قد افترض في وقت سابق أنّ المسخّرين التّرابيين هم الأنسب لطيّ المعدن، فهم يمسكون الرّياح في قبضاتهم ويشكّلون حركة الماء.. لكنّ أيًّا منهم -بما في ذلك نوح- لم ينجح في المهمّة. قال مدرّبه بعد جولة أخرى من المحاولات العبثيّة:

- ليس المعدن طيّعا مثل الماء والهواء.. قوّة المسخّر الترابيّ تكمن في جمع الذرّات المنفصلة وتوجيهها بسلاسة، تشكيلها عن طريق التحكّم في المسافات بينها.. فتتقارب وتتباعد وتتسارع وتتقلّص، لكنّ المعدن مادّة صلبة بطبعها.. لا أعرف إن كان أيّ منّا قد ينجح في تشكيلها. ربّما يكون المسخِّرون أصحاب الخيوط الرّماديّة أوفر حظًا!

تفكّر آدم في الاقتراح.. المسخّر الرّمادي يطلق الصّواعق ويشعل النّيران. عامل الحرارة قد يكون موافقًا لطبيعة التحدّي، فطيّ المعدن يتطلّب تحويله إلى مادّة أكثر لينًا.. عن طريق رفع درجة حرارته! أشار إلى نوح معلنًا موافقته:

- منذ الغد، أريد مجموعة من مرسلي الصّواعق لبدء التّدريب.

لم يقترب بعد من الإنجاز المنتظر، لكنّ التّجارب المتنوّعة تحسّن الفرص. عليه أن يطرق كلّ السُّبل الممكنة وألا يستسلم قبل أن يستنفدها دراسة وتمحيصًا.

حين ترك ميدان التّدريب، كانت النّهار قد شارف على نهايته، وأخذت الإنارة تخفت في الأنحاء، مشى بخطوات وئيدة نحو موقع القرية، حيث بدأ السكّان أشغال التخطيط والبناء تحت إشراف عمّار. لا يمكن للعائلات أن تستمرّ تحت أسقف الأكواخ المؤقّتة طويلًا مع اقتراب موسم الأمطار. تحظى «آرا» بمواسم جفاف ورطوبة، تفصل بينهما أشهر اعتدال يتفاوت فيها معدّل التساقطات.. حين تأتي الأمطار الغزيرة التي تستمرّ أيّامًا دون انقطاع، يجب أن يكون تشييد بيوت القرية الجديدة قد اكتمل.

ربّما لن تكون على مستوى المتانة والقوّة السّابقين، لكنّها ستفي بغرض توفير سقف منيع لكلّ عائلة.. وستأتي تحسينات متواصلة في مناسبات أخرى، حتّى تعود القرية إلى سابق عهدها.

استقبله الأولاد الذين يمضون غالب اليوم بين المدرسة ومواقع البناء. كان الأهالي قد منعوهم من التوغّل في الغابة أو التسكّع على الشاطئ، فتلك المنافذ التي يصل منها الغرباء أخيرًا، ولم يعد أيّ منها آمنًا. اقترب ماهر متحرّجًا وقال:

- أيّها المعلّم، أنت لم تحضر إلى المدرسة منذ فترة!

ابتسم آدم في حنين، كان قد ترك حلقة التحفيظ لأسابيع، منذ انشغل بأمر النّزال.. ولم تمنحه الأيّام التالية مساحة استرخاء يخصّصها للأطفال، ربّت كتف الولد وقال:

- سوف نجد فرصة في وقت قريب!

- ماذا عن.. الآن؟

تفكّر آدم برهة، ثمّ هزّ رأسه في إذعان، فتعالت هتافات الأطفال احتفاءً. سار محاطًا بجمعهم نحو مبنى المدرسة في مركز القرية، مثل زفّة صاخبة تبثّ الدّفء والحبور بين ثنايا السّحنات العابسة. بينما يعبر بوّابة المدرسة، حانت منه التفاتة باتّجاه المشفى، حيث تقضي روان جزءًا من يومها، تواصل تدريب الفتيات على أساليب العلاج التقليدية منها والمستمدّة من العلم الحديث. كان يوم عملها يمتدّ ساعات طويلة، مثل كلّ فرد على الجزيرة منذ الفاجعة، تتوزّع الجهود بين إعادة الإعمار وتحصيل قوت اليوم صيدًا وجمعًا للنباتات البريّة القابلة للاستهلاك البشريّ، والتّدريبات الحثيثة على حمل السلاح والتسخير.. بالإضافة إلى كلّ الأعمال اليدويّة الأخرى.

كانت أيامًا طويلة ومنهكة للكلّ.

وقفت روان وسط الغرفة الرّئيسيّة تلقي التّعليمات الأخيرة على متدرّباتها قبل الانصراف، حين شعرت بنظراته عليها استدارت ورسمت على شفتيها ابتسامة مشرقة، يكاد آدم يقسم أنّها تضاهي وميض الحجر المتدليّ من قلادتها!

حيّاها بهزّة من رأسه، ثمّ مشى بسرعة يحفّه الأطفال إلى داخل الفناء. همس ماهر وهو يجلس إلى جواره:

- يجب أن تكون شجاعًا أكثر!

التفت إلى الولد الذي يخطو نحو سنوات المراهقة وقد اعترت ملامحه الدّهشة.

- ماذا تقصد؟

غمزه الصبيّ بجرأة وهو يهمس ثانية:

- المعالجة.. لا تدعها تنتظر طويلًا.

ازدرد آدم لعابه في توتّر. هل كان مكشوفًا عند الأولاد إلى تلك الدّرجة؟ ماذا عن الشباب الأكبر سنًا، الحكماء، المسخّرين، سيّدات القرية.. وروان نفسها؟

أنهى الجلسة بذهن نصف شارد، يتخيّل الكلمات التي قد يتداولها الـ«آم» بشأنه، توقّعاتهم وحكاياتهم. تذكّر اجتماع النّسوة منذ أسبوعين وقت إعلانه مخلّصًا وتساءل إن كنت تلك المجالس تتكرّر من حين إلى حين، وإن كان يأتي ذكره خلالها.. ربّما يعتقد أنّ الوقت ليس مناسبًا لأحاديث الحبّ والارتباط، لكنّ الأمر مختلف عند سكّان الجزيرة. لم تتوقّف مشاريع الزّواج وحفلات الزّفاف رغم كلّ شيء.. فما الذي يجعله يتردّد؟

بقي عليه أن يستجمع شجاعته، ويجد الفرصة والتّوقيت المناسبين.

وهو يغادر فناء المدرسة، كان مبنى المشفى غارقًا في الظلام ولم يكن هناك ما يدلّ على أيّ حضور بشريّ. تلفّت في جميع الاتّجاهات، وحاول أن يخمّن أين تكون.. هل تراها قد عادت أدراجها إلى التلّة؟ أم تمضي الأمسية مع رفيقاتها؟ أم تقدّم خدمات صحيّة لبعض سكّان الجزيرة في مكان ما يجهله؟

عرّج على دار العبادة بعد أن تفرّق الأولاد من حوله، حيث يجتمع الحكماء للنظر في مسائل العامّة. كانت الاجتماعات تعقد غالبًا باللغة الآرامية التي ما زال يجهلها، لذلك لم يكن حضوره ضروريًّا أو مفيدًا. ألقى التحيّة وأصغى بعض الوقت في شرود، ثمّ تسلّل خارجًا بهدوء ومشى في سرحان باتّجاه الشاطئ.

في البداية، لم ير أحدًا، ثمّ انتبه إلى الحركة قرب هيكل المروحيّة الرّابضة على الرّمال الفضيّة. كان الأطفال يلهون حولها ويتداولون على ركوب المقاعد والتظاهر بتشغيل الأجهزة. مضى وقت طويل منذ رافقهم في لهوهم ذاك.. يبقى الشّاطئ مقفرًا في الفترة الأخيرة، ويمنع الأهالي صغارهم من الاقتراب من المناطق المكشوفة للأعداء إمعانًا في الحذر.

كان يهمّ بتوبيخهم، حين انتبه إلى المعالجة الجالسة على الأرجوحة الشبكيّة. تصاعدت الدّماء إلى وجنتيه فجأة لمّا تركت موقعها واتّجهت نحوه، قالت حين صارت قبالته:

- لم تأت ريحان ورفاقها إلى الشاطئ منذ بعض الوقت.. لذلك اصطحبتهم في فسحة قصيرة. لن نطيل المكوث..

أومأ برفق متقبّلًا شرحها، وتمنّى أن تحجب عتمة الليل عنها ارتباكه. وقفا في سكون، يتابعان لهو الأطفال، يفصلهما متر واحد، فيما أخذ آدم يفكّر إن كانت تلك لحظة مناسبة. استمرّ الصّمت بضع دقائق، ولم يبد على المعالجة أنّها قد تُبادر بقول أيّ شيء، فانتابه إحساس ملحّ بأنّ عليه أن يفعل. حين تكلّم، خرج صوته مبحوحًا وعميقًا:

- حين قلتُ إنني كنت مفطور الفؤاد.. لمّا حسبتك غرقتِ.. كان ذلك حقيقيًا.

جاء ذلك مفاجئًا وارتجاليًا تمامًا. لم تنبس روان ببنت شفة، إلا أنّه شعر بالدّهشة التي اعترتها وجعلتها تنكمش، وأنفاسها تنحبس، وعيناها تتّسعان. لم تبدر عنها أيّ ردّة فعل إضافيّة ولم تردّ بكلمة على اعترافه المباغت، فازداد توتّره طبقة إضافية. اختلس نظرة سريعة إلى جانب وجهها يبحث عن إجابة، فلّما لم يجد شيئًا يطمئنه، عاد يقول في تلعثم:

- لقد خشيتُ أن أفقدك.. وكانت تلك الفكرة لا تطاق..

مرَّت لحظات أخرى من الصّمت، قبل أن يجرؤ على مساءلتها بخفوت:

- ماذا عنك؟

غمغمت بصوت شبه مسموع تتلبّسه الحيرة:

- ماذا عني؟!

ابتلعه إحساس مقيت بأنّه لم ينتهج الأسلوب الأفضل، لم يأت الاعتراف شاعريًا بالقدر الكافي، ولا كانت الظروف المحيطة مثالية، فقد استمرّ صراخ الأطفال يملأ أذنيه ويشوّش تفكيره. لا يدري أيّهما كاد ينفد أوّلًا؛ صبره أم الهواء في صدره، لأنّه اندفع دون انتظار:

- كيف تشعرين؟ ناحيتي؟

جاء السّؤال المباشر مثل استجواب وقح.

كانت في العشرين، وهو سنّ مناسب للزّواج وإنجاب الطفل الأول في عرف قومها، امرأة ناضجة بمقاييس الجزيرة.. فيما كان في الثالثة والعشرين شابًا طائشًا وغرًّا في ما يخص العلاقات. شعر بخطئه على الفور حين تولّت عنه محرجة وقالت في ضيق:

- أسئلتك غريبة اليوم!

رآها تبتعد متّجهة نحو الأطفال لتعلن فجأة انتهاء فسحة المرح.

لبث آدم في موقعه مجللًا بالخجل غارقًا تحت وطأة الفشل، فيما انصرفت ومن خلفها مجموعة الصّغار يركضون ويتقافزون. لقد تجاهلتْه! ألم يكن واضحًا كفاية؟ هل كان عليه أن يُفصح أكثر؟ يقول ما يعتمل في صدره مباشرة؟ أم أن تلك كانت طريقتها في صدّه؟ هل تجاوز حدّه وداعب آمالًا بعيدة؟ ربّما لم تره قطّ ندًّا لها. لم يكن عليه أن يصغي إلى همسات الولد ماهر فيتهوّر. لعلّها تراه تافهًا مغرورًا وغير جدير بالثّقة؟ صحيح أنّ فتيات الجزيرة يتزوّجن رغم الظروف، لكنّها ليست مثل أيّ منهنّ، وليست أيّهنّ مثيلة لها. إنّها المعالجة! لقد حدّثته سابقًا بمسؤوليّاتها العظيمة تجاه قومها، وعبئها الذي تحمله على عاتقها.. لعلّه لم يُبدِ حكمة أو تفهّمًا، وانجرف إلى أحاديث العاطفة المبتذلة!

فوجئ حين لمح ريحان تعود أدراجها راكضة ناحيته، قالت تستحثّه:

- ألن تأتي؟

هزّ رأسه ببطء، يجدر به تجنّبها في الوقت الحاليّ، بعد أن أحرج نفسه بمحاولة ساذجة. قال في مرارة:

- اذهبي.. سآتي بعد حين.

- حسنًا.

اقتربت لتضع في كفّه شريطًا حريريًا أحمر اللّون، طالعها مستفسرًا فقالت:

- هذا من روان.

- ما هذا؟

قالت ريحان بابتسامة عريضة مدهشة:

- ربطة شعرها!

استمرّ ينظر إليها في شكّ، فقالت الفتاة وهي تضيِّق عينيها:

- هل ستتزوّج روان؟

ازدرد آدم لعابه فيما يصعد صدره ويهبط في اضطراب:

- ماذا تعنين؟

- لقد أهدتك ربطة شعرها! هذا نوع من النّذور!

- نذور؟

كرَّر في حيرة، يقاوم الفهم المتباطئ الذي يتسلّل إلى وعيه، فهتفت ريحان في نفاد صبر:

- حين تهدي الفتاة ربطة شعرها للشاب فإنها تعاهده على الوفاء! كم أنك ثقيل الفهم!

نطت ريحان مبتعدة وسارعت تقتفي أثر شقيقتها ورفاقها الذين سبقوها، فيما استمرّ آدم مكانه، يتأمّل الشريط الحريريّ بوجنتين ملتهبتين وابتسامة بلهاء.

إنّها تعاهده على الوفاء!

مكتبة
t.me/soramnqraa

(13)

اليوم الثالث عشر بعد الثلاثين

لم تأت كلاوديا للنّوم تلك الليلة أيضًا، وكأنّها قد استعذبت عكس أدوار الليل والنّهار في سياق تجاربها، فتعمل طوال الليل وتستسلم للنّوم صباحًا. كانتا تلتقيان فترات قصيرة، حين تقدّم لها الطّعام، أو حين تحتاج كلاوديا عيّنة جديدة من دم المُسخَّر، وأحيانًا تغيب ساعات خارج الشقة. لم تكن تقول كثيرًا عن تقدّم أبحاثها، لكنّها منشغلة ومتفائلة، ولا تعلن الاستسلام أبدًا.

انشغلت مانويلا طيلة النّهار بتحضيراتها لمهمّة اكتشاف تأثير العقار التجريبيّ على أوران. كانت قد وعدته بجولة خلال النّهار، لكنّها آثرت تأخير الجولة إلى قبيل الغروب. تجهل مدى فاعلية العلاج التجريبي، وإن كان جسد أوران قد يتفاعل مع العقار بكفاءة، لذلك فضّلت التأخير قدر الإمكان، والتعرّض إلى أقلّ قدر ممكن من الأشعة المباشرة وأضعفها أثرًا. لمحت علامات الخيبة على ملامح الشابّ وهي تنبئه بقرارها مع وجبة الصّباح. لعلّه لم ينم طوال الليل يحدوه الشّوق للتجربة، لكنّ الحذر أفضل من النّدم.

لذلك كان عليها التسوّق من أجله، تلزمه عدّة كاملة من وسائل الحماية من أجل جولة نهاريّة، وقد استهلك ذلك ساعات يومها كلّه. فيما تستعدّ للخروج في جولتها الموعودة، دخلت كلاوديا الغرفة وهي تتمطّى معلنة إنهاكها.

(13)

اليوم الثالث عشر بعد الثلاثين

لم تأت كلاوديا للنّوم تلك الليلة أيضًا، وكأنّها قد استعذبت عكس أدوار الليل والنّهار في سياق تجاربها، فتعمل طوال الليل وتستسلم للنّوم صباحًا. كانتا تلتقيان فترات قصيرة، حين تقدّم لها الطّعام، أو حين تحتاج كلاوديا عيّنة جديدة من دم المُسخِّر، وأحيانًا تغيب ساعات خارج الشقة. لم تكن تقول كثيرًا عن تقدّم أبحاثها، لكنّها منشغلة ومتفائلة، ولا تعلن الاستسلام أبدًا.

انشغلت مانويلا طيلة النّهار بتحضيراتها لمهمّة اكتشاف تأثير العقار التجريبيّ على أوران. كانت قد وعدته بجولة خلال النّهار، لكنّها آثرت تأخير الجولة إلى قبيل الغروب. تجهل مدى فاعلية العلاج التجريبي، وإن كان جسد أوران قد يتفاعل مع العقار بكفاءة، لذلك فضّلت التأخير قدر الإمكان، والتعرّض إلى أقلّ قدر ممكن من الأشعة المباشرة وأضعفها أثرًا. لمحت علامات الخيبة على ملامح الشابّ وهي تنبئه بقرارها مع وجبة الصّباح. لعلّه لم ينم طوال الليل يحدوه الشّوق للتجربة، لكنّ الحذر أفضل من النّدم.

لذلك كان عليها التسوّق من أجله، تلزمه عدّة كاملة من وسائل الحماية من أجل جولة نهاريّة، وقد استهلك ذلك ساعات يومها كلّه. فيما تستعدّ للخروج في جولتها الموعودة، دخلت كلاوديا الغرفة وهي تتمطّى معلنة إنهاكها.

مسّدت مانويلا كتفيها بلطف وهي تقول:

- أنت تستنزفين طاقتك بهذا الشكل، لا أريد أن أكون سببًا في انهيارك!

تثاءبت كلاوديا بصوت عالٍ ثمّ ارتمت على السرير، همهمت بصوت ناعس:

- لقد اقتربت..

جاءت مانويلا لتجلس على طرف السّرير في انتباه:

- أحقّا؟

قاومت كلاوديا أطياف النّعاس التي تتسلّل إلى جفنيها وهي تقول:

- لم أرد أن أعدك بشيء قبل أن أصل إلى نتيجة ملموسة.. لكنّني بتّ قاب قوسين أو أدنى من إحراز إنجاز حقيقي! هناك اكتشافان مدهشان حتّى الآن!

رنت إليها مانويلا في اهتمام، فتابعت:

- هناك سبب وجيه لاستخدام دماء هذا الشابّ لصنع الأدوية وحبوب الحماية من المادّة المتوهّجة على الجزيرة! دماؤه تحتوي تركيزًا عاليًا من بروتين غريب، أعتقد أنّه مسؤول عن تحييد مفعول المادّة! تعلمين، في العادة نجمع كميّة كبيرة من البلازما من مختلف المتبرّعين المنيعين للحصول على حقنة مصل واحدة.. لكنّنا محظوظون بما أنّ لدينا متبرّعًا واحدًا، فهو المتبرّع المناسب! أرغب حقًّا في فحص عيّنة لفرد لآخر من سكّان الجزيرة لمعاينة الفرق..

قالت مانويلا وهي تتذكّر أنوش:

- إن كان ذلك يعني لك كثيرًا، فيمكننا الوصول إلى فرد آخر من الجزيرة.. لا أعتقد أنّه قد يمانع بشأن العينة!

أخذت كلاوديا نفسًا ثمّ قالت:

- أمّا الاكتشاف الثاني.. هل تذكرين حين أخبرتك أنّ توافق فصيلة دم الفرد المنيع مع فصيلة دم المستقبل ضروري؟ حسنًا.. لم يعد ذلك ضروريًا!

- كيف؟

هتفت مانويلا في ذهول، فأردفت كلاوديا بنبرة كسول:

- كنت أحاول منذ يومين تحديد فصيلة دم أوران، تعلمين، للعثور على مستقبِل مناسب لإجراء تجارب نقل الدّم.. لكنّ المفاجأة كانت: لا فصيلة دم! ليس أنّه ذو فصيلة مانحة متوافقة مع كلّ المستقبلين.. لا، بل لا فصيلة دم.. حرفيًا!

لم تستوعب مانويلا شيئًا، كرّرت في حيرة:

- كيف؟

استقامت كلاوديا في جلستها وأسندت رأسها إلى الوسادة لتتأهّب للشرح:

- أنت تعلمين، كل فصيلة دم (A, B, AB, O) تُعرف بوجود مستضدّات محدّدة على سطح خلايا الدّم الحمراء. يمكن أن تُسبّب هذه المستضدات استجابة مناعية إذا نُقلت إلى شخص يمتلك أجسامًا مضادّة غير متوافقة.. أوران لا يمتلك هذه المستضدّات!

- هل هي حالة طبيّة معروفة؟

- بل هو تأثير البروتين الغريب الذي يحتويه دمه! لم أتوصّل بعد إلى تفسير دقيق لآليّة عمله.. لكنّ تأثيره مؤكّد في الدّم.. إمّا أنّ البروتين يرتبط بالمستضدّات فيغطيها أو يعدّلها كيميائيًا وإما أنّه يصنع درعًا متوافقة حيويًا حول خلايا الدّم الحمراء يمنع التّعرف المناعي تمامًا.. في الحالتين، ينجح

البروتين في تحييد المستضدّات، مما يؤدي فعليًا إلى «إخفائها»، ومن ثَمَّ لا يتعرّف جهاز المناعة لدى المستقبل على خلايا الدّم الحمراء كخلايا غريبة، فلا يهاجمها!

ابتسمت مانويلا وغمرها التفاؤل وهي تقول:

- هذا يعني أنّنا قد تجاوزنا إشكالية فصيلة الدّم!

- تمامًا.. في هذه الأثناء فكّرت في اختبار تأثير المادّة في البشر العاديّين.. أعرف، لقد أخبرتني بذلك، لكنّني احتجت إلى المعاينة العلميّة. أجريت اختبارًا باستخدام عيّنة من دمي. اختبار بسيط.. وضعت الحجر في علبة مغلقة مع عيّنة الدّم لمدّة أربع وعشرين ساعة.. حين أجريت التّحاليل بعد مضيّ الفترة، صُدمت! في الحقيقة، تغيّرت تركيبة الدّم تمامًا.. تفكّكت الكريّات الحمراء واستحال لونها أسود، بينما صارت البلازما ورديّة بسبب انفجار الخلايا!

- يا إلهي! لذلك هي مادّة خطرة على البشر العاديّين!

- في التّجربة التالية أضفت إلى عيّنة دمي البلازما التي استخرجتها من دم أوران.. هذه المرّة، تمكّنتْ البلازما من تحييد تأثير المادّة المتوهّجة.. وتوقّف تفكّك خلايا الدّم، بل إنّ بعض الخلايا المصابة أخذت في التعافي!

رنت إليها مانويلا في حماس:

- إذًا...

- أعتقد أنّنا قد نتحصّل على عقار صالح للتجربة قريبًا جدًّا!

أعلنت كلاوديا بحركة مسرحيّة، فصفّقت مانويلا في جذل، كلّ خبر من شأنه أن يختصر فترة الانتظار يُشعرها بالرّاحة. عادت كلاوديا لتقول في احتراز:

– العقار الذي يمكن الحصول عليه عن طريق البلازما سيكون تأثيره قصير المدى.. لن تتجاوز الحماية الشهر الواحد إلى ثلاثة أشهر في أفضل الحالات!

أومأت مانويلا متفهّمة:

– سيكون ذلك كافيًا في مرحلة أولى.. في انتظار إنتاج لقاح يوفّر حماية أطول.

– حسنًا.. لا أعرف إن كان اللقاح ممكنًا.

– ماذا تقصدين؟

– اللقاح يعمل غالبًا ضدّ عنصر حيّ ضارّ، مثل الفيروسات.. لكنّ هذه المادّة الغريبة ليست كائنًا حيًّا. لست واثقة أنّ أساليب إنتاج اللقاحات التقليدية قد تفيد! لكن...

تطلعت إليها مانويلا في لهفة:

– لكنّ نقل الخلايا الجذعية من الفرد المنيع إلى الفرد المستقبل قد يفيد. لذلك.. أفكّر في مرافقتك!

– مرافقتي؟ إلى الجزيرة؟!

التمعت عينا كلاوديا وهي تقول بحرارة:

– إذا أمكنني أن أكون قريبة من الموقع، حيث يمكن تجربة تأثير العقار فوريّا، فإنّ مَخبَرًا متنقّلًا سيقدّم خدمة أفضل لمن يحتاج إليها! قبل ذلك، عليَّ اقتناء جهاز فصل الخلايا الجذعية بالتأكيد.. وهو مكلف جدًّا كما تعلمين..

ألقت نظرة جانبيّة على ملامح مانويلا المستبشرة وانتظرت ردّها، فهتفت هذه الأخيرة:

– لا داعي للسّؤال.. مهما كانت كلفة الجهاز، سنشتريه!

***

عبرت مانويلا برفقة أوران بوّابة المبنى السّكني وأفضيا إلى الشارع المزدحم. في البداية، لم ير أوران الشّمس، لكنّه تطلّع إلى السّماء بشغف. كان يرتدي معطفًا ثقيلًا ذا ياقة مرتفعة وقفازين وقبعة ونظارات شمسيّة.. رغم الهدف الصّريح باكتشاف تأثير الشّمس على بشرته بعد حصوله على الحقنة، فإنّ مانويلا لم تسمح بخروجه قبل حجب كلّ جزء من بشرته بالأنسجة الغليظة.

تغيظه مانويلا وهي تسرد كلّ العبارات التي تسند إلى السّماء، يقولون: «السّماء هي الحدّ» إشارة إلى الطموح الذي لا حدود له، «رأسه في السّماء» لمن يفرط في الأحلام غير الواقعيّة، «عالٍ كالسّماء» للأشياء شديدة الارتفاع، و«اسع نحو السّماء» للتّشجيع على السّمو بالأهداف وتحقيق ما هو أفضل.. وقد ألهمته تلك العبارات وأراد أن يضيفها إلى معجمه. لكنّ أبلغ عباراتها كان: «السّماء هي معرض الفنّ اللا نهائيّ فوقنا!»، فقد وجدها أشدّ إبداعًا من كلّ تجليّات الفنّ البشريّ، رغم محدوديّة اضطلاعه بهذا الشأن.

كان يسير ورأسه يميل باتّجاه السّماء، يبحث عن الشّمس في كلّ اتّجاه فلا يُبصرها. تكتسي السّماء لونًا أزرق باهتًا تسمّيه مانويلا «سماويًا». أمتعه أن يُعرف للسّماء لونٌ يُسمَّى باسمها، مثل التّراب والحليب والرّماد.. تلك الألوان التي يعرفها ويألفها.

أصغى باهتمام لأنغام الكلمات التي ينطق بها العابرون، لا يتكلّمون العربيّة أو الآرامية التي يتقنهما، ولا حتى لغة مانويلا التي تحادث والدها وصديقتها الباحثة عبرها. يتعمّق إحساسه بتنوّع العالم، حيث تنطلق الألسن بلغات مجهولة وتتنوّع درجات ألوان البشرة، ويتباين اتّساع المآقي وتختلف قصّات الشعر. والأغرب، لا أحد يقف في طريقه أو يعامله

كأجنبيّ، يفرض عليه سلوكًا محدّدًا أو يحدّد نطاق حركته. مانويلا تفعل بالتّأكيد -لأنّه أساسًا أسيرها- لكنّ أحدًا غيرها لا يفعل.

مقارنة بـ«آرا» حيث يعرف الجميع بعضهم، يكاد يجزم أنّ كلّ واحد منهم غريب بالنّسبة إلى الآخرين، وأنّهم يتحرّكون بلا انقطاع لا يلتفت أحدهم إلى آخر، يسعون كلّهم نحو أهدافهم الخاصّة!

همس أخيرًا باتّجاه مانويلا حين فشل في العثور على ضالته:

- أين الشّمس؟

ندّت عنها ضحكة رقيقة وهي تأخذ بذراعه وتسحبه وراءها:

- تعال.. سترى الشّمس.

قطعا الطّريق بعد أن توقّفت السيّارات المسرعة وأفسحت مجالًا للبشر، ثمّ انعطفا نحو حديقة عامّة في الشّارع المتعامد. حين صارت الأبنية المرتفعة وراءهما، ظهرت الشّمس من خلف الأشجار. كانت قد انحدرت من موقعها في وسط السّماء وأخذت تتدرّج نحو مغربها. بدت أشعّتها المائلة فاترة حين دغدغت وجهه، شعر بالدّفء على الفور، لكنّه لم يتأذّى.. وقد كان ذلك منعشًا ومربكًا، ومغريًا بالمزيد. دون تردّد، نزع النّظارات والقبّعة والقفازات، ووقف وسط الحديقة، يرفع كفّيه ليتلقّى مزيدًا من الخيوط الذّهبية اللامعة.

راقبته مانويلا باهتمام، ثمّ سألت:

- هل تشعر بشيء؟

ضحك وهو يغمض عينيه ويُقبل على السّماء بوجهه كلّه:

- أشعر بالدّفء!

كان من الغريب أن يجد واحد من الـ«آم» نفسه تحت الشّمس، ويستمتع بذلك. لذلك، اعتزم أوران ألا يفوّت الفرصة. فغرت مانويلا فاها وهي تراه ينزع المعطف أولًا ويلقي به على مقعد الحديقة الحجري، ثمّ القميص الصوفيَّ والجوارب ليحتفظ بالقميص الدّاخليّ والبنطال، ويستلقي على العشب الرّطب بزاوية مائلة تجعله يتلقى بأجزاء جسده العارية أكبر قسط من الأشعة.

أطلقت مانويلا شهقة دهشة، وهي تتابع نظرات المارّة والعابرين الذين يكتمون ضحكاتهم ويشيرون ناحية أوران في استغراب أو استنكار. ثمّ ما لبثت أن هزّت كتفيها في استسلام، ألقت حقيبتها على العشب، ثمّ استلقت على مسافة منه وهي تتنهّد.. إن لم يكن بوسعها أن تمنع العرض، فلتكن جزءًا من المتعة!

تأمّلت السّماء بدورها، وقد أخذ الغروب يزحف فوق المدينة، لتنتشر ألوان الكهرمان والعقيق والياقوت. لفّت المعطف حول جسدها بقوّة حين هبّت نفخة هواء باردة، ثمّ التفتت لتبصر جارها ولا مبالاته التّامة بحالة الطقس. همست برفق:

- ارتد ثيابك، وإلا ستمرض!

بدت مثل أمّ توبّخ طفلها الذي لا يميّز الخطأ من الصّواب، ويقترف الأعمال المتهوّرة غير مدرك للعواقب. رأته وهو يستقيم جالسًا ويسحب القميص ليرتديه في إذعان قبل أن يعاود الاستلقاء. ابتسمت مانويلا لنفسها، وقد سرّها سلوكه اليوم، كان يصغي ويطيع، ورغم حضور المرتزقة الذين تستأجرهم في الجوار، يراقبون كلّ حركة ويقفون على الأُهبة، فإنّها لم تعتقد للحظة واحدة أنّه قد يشكّل أدنى خطر عليها.

حركت ساقيها على العشب، إنّه يفوقها طولًا وبنية، ربّما يزيد عليها ذراعًا أو أكثر، عضلاته مفتولة وجسده متين وقويّ، كما يليق بمسخّرٍ ذي قوى خارقة، لكنّه لا يبدو في نظرها أكثر من طفل كبير. قالت ثانية بنبرة مرحة:

- هل اكتفيت؟ أم تريد أن نبقى وقتًا أطول؟

قال في رجاء:

- هل يمكننا أن نبقى أطول؟ حتى تظلم السّماء؟

- حسنًا.

- شكرًا لك.

عادت لتراقب السّماء الصّافية ذلك المساء في صمت. أشعرتها عبارة شكره البسيطة بتحسّن.. لبرهة وجيزة. احتشدت العَبَرات في عينيها فجأة، لقد أجرمتْ في حقّه، انتزعته من بين أهله ومن موطنه وأحضرته إلى عالم لا يخصّه، لتجري عليه أبحاثًا وتجارب.. ومع ذلك، فإنّه يجد في نفسه القدرة على شكرها. خمّنت أنّها لو كانت مكانه، فلن تعتبر فتات الحرّيّة الذي منحته إيّاه أكثر من واجب لا يستحق جزاءً ولا شكورًا.

قالت محاولة ألا تتسرّب البحّة التي تخنقها إلى صوتها:

- ربّما نرجع إلى «آرا» أسرع ممّا توقّعت.

التفت إليها في لهفة:

- حقًا؟

- سوف ينتهي كل هذا قريبًا.

كانت تطلق وعدًا رغم أنّها تجهل ما ستؤول إليه الأمور حين يحصل والدها على الحقن التي تمنحه وسيلة بقاء على الجزيرة دون خوف. لم تكن تملك شيئًا من أجله، لكنّها تتمنّى أن تصلح خطأها.. بطريقة ما.

(14)

اليوم الرّابع عشر بعد الثلاثين

لم يطلع على آدم نهار في الجزيرة أجمل ولا أصفى ولا أدعى للطّرب من صباح يومه ذاك.. باستثناء الصّباح السّابق بالتأكيد. تحسّس الشريط الحريريّ للمرّة الألف خلسة عن مروان وهو يتمدّد في فراشه ويولّي المسخّر الشابّ ظهره، ثمّ غاب في حلم طويل عذب مشرق وهو يحتضن قطعة القماش ويضمّها إلى صدره، ليفيق بطاقة متجدّدة ومزاج رائق.

قبل أن يغادر الكوخ، ربط الشريط الأحمر أعلى ذراعه، ليحتفظ به قريبًا منه، فلا يفقده، وليظلّ خفيًّا عن الأعين في ذات الوقت، فلا يثير التساؤلات أو التّعليقات. وهو يسير باتّجاه ميدان التّدريب، حيث يجتمع المسخّرون أصحاب الخيوط الرّمادية للشروع في جولة جديدة من محاولات طيّ المعدن، تساءل إن كان أحد ما من حوله يعرف بأحداث الشّاطئ التي جمعته بالمعالجة؟

لا شيء ممّا يحصل على الجزيرة يخفى على أحد من أهلها، حتى إن لم تُفش روان الخبر، فإنّ الأطفال سيثرثرون لا محالة! وقد ملأه ذلك الخاطر بهجة وإثارة. كان يتطلع إلى الوجوه، يخمّن الأفكار الكامنة ويستنطق النظرات العابرة. هل كان عليه أن يعلن شيئًا؟ هل تتوقّع منه روان أن يُقدم على عمل محدّد؟ لقد عاهدته على الوفاء، حين أهدته ربطة شعرها -باعتبار معطيات ريحان- لكنّه لم يفعل شيئًا مكافئًا في المقابل.

(14)

اليوم الرّابع عشر بعد الثلاثين

لم يطلع على آدم نهار في الجزيرة أجمل ولا أصفى ولا أدعى للطّرب من صباح يومه ذاك.. باستثناء الصّباح السّابق بالتأكيد. تحسّس الشريط الحريريّ للمرّة الألف خلسة عن مروان وهو يتمدّد في فراشه ويولّي المسخّر الشابّ ظهره، ثمّ غاب في حلم طويل عذب مشرق وهو يحتضن قطعة القماش ويضمّها إلى صدره، ليفيق بطاقة متجدّدة ومزاج رائق.

قبل أن يغادر الكوخ، ربط الشريط الأحمر أعلى ذراعه، ليحتفظ به قريبًا منه، فلا يفقده، وليظلّ خفيًّا عن الأعين في ذات الوقت، فلا يثير التساؤلات أو التّعليقات. وهو يسير باتّجاه ميدان التّدريب، حيث يجتمع المسخِّرون أصحاب الخيوط الرّمادية للشروع في جولة جديدة من محاولات طيّ المعدن، تساءل إن كان أحد ما من حوله يعرف بأحداث الشّاطئ التي جمعته بالمعالجة؟

لا شيء ممّا يحصل على الجزيرة يخفى على أحد من أهلها، حتى إن لم تُفش روان الخبر، فإنّ الأطفال سيثرثرون لا محالة! وقد ملأه ذلك الخاطر بهجة وإثارة. كان يتطلع إلى الوجوه، يخمّن الأفكار الكامنة ويستنطق النظرات العابرة. هل كان عليه أن يعلن شيئًا؟ هل تتوقّع منه روان أن يُقدم على عمل محدّد؟ لقد عاهدته على الوفاء، حين أهدته ربطة شعرها -باعتبار معطيات ريحان- لكنّه لم يفعل شيئًا مكافئًا في المقابل.

لقد غفل عن طلب تفاصيل وتوضيحات من الطفلة، هل يُفترض بالشابّ أنّ يقدّم عربونًا مماثلًا؟ أم أنّ عليه الإتيان بطقس ما؟ شرد في أثناء التّدريب، وحين رفع ذراعه إلى أعلى في حركة تلقائية، تراجع كمّه حتّى أعلى العضد وظهر الشريط الأحمر المعقود في ذراعه للعيان. حين تلفّت حوله، تراءت له ابتسامات متواطئة يخفيها أصحابها عن عينيه، وإشارات صامتة يتشاركونها دونه. هل هُيّئ له؟ أم أنّ أمره قد كشف؟

تساءل إن كان بوسعه مصارحة نوح وطلب المشورة، فهو أقرب رجال الجزيرة إليه فهمًا ووجدانًا. لم يكن قد أقدم على شيء بعد حين ظهر عمّار في السّاحة، ينهض بدور الحكيم المساند والدّاعم. تراجع آدم في اضطراب، وأخفى الشريط في حرص. إنّ معرفة أيّ فرد من الـ«آم» بشأن أحوال قلبه أمر، ووصول الخبر إلى أسماع عمّار أمر آخر.

تابع تحرّكات الرّجل بنظرة متوجّسة. ألم يراوده منذ أسابيع خاطر بخصوص نوايا عمّار تجاهه؟ لقد تساءل إن كانت مخططات الحكيم تضمّ تزويج ابنته من المُخلِّص؟ لعلّه حليف محتمل، ينتمي إلى عالمه، تتشابه بشرتاهما ويجمع والده وإياه ماضٍ وتاريخ مشترك.. لكنّه الآن أمامه يعود ولدًا خجولًا وأخرق، يتحسّس سبل إرضاء والد الفتاة التي يهواها.

وجد نفسه يغادر ميدان التّدريب بلا داعٍ، كأنّما ينفد بجلده قبل أن يُكشف أمره.

تحرّك عبر الطرق والسّاحات، وقابل أناسًا كثر، تلقى التحيّات وعبارات الولاء والاحترام الجمّ، لكنّه لم يجد أثرًا لروان في أيّ مكان. كذلك كان الأمر بالأمس، وقد حسب أنّها قد اختارت التّواري عن عينيه خجلًا.. لكنّ اختفاءها التّام مبالغة، ألا يجدر بهما التحدّث؟ لقد أفضى

إليها بمكنونات صدره، وكان ردّها شريطة شعر ذات رمزيّة ومعنى، لكنّه يحبّ أن يسمع منها كلمات صريحة.

هل يُعتبر ذلك تطاولًا في عُرف الجزيرة؟ هل تمتنع الفتاة عن الإفصاح وتكتفي بالتّلميح؟ لكنّه يحتاج إلى أن يعرف رأيها فيه، أن يسمع تأكيدًا على لسانها ويبصر شوقًا في عينيها. ثمّ ما الذي يأتي بعد ذلك؟ هل يجب أن تحظى علاقتهما بمسمّى واضح؟ ربّما يجدر به أن يرسل هدايا إلى كوخ والديها، أو أن يجلس إليهما يطلب مباركتهما.

بدا ذلك متسرّعًا وتطوّرًا حثيثًا للأحداث. لم يفكّر في أيّ من هذا قبل أن يجرؤ على مصارحتها، كان الأمر يتعلّق بالعاطفة وحدها بالنّسبة إليه، بشغف ملأ صدره حتّى فاض به، وصار عليه أن يُنفِّس عنه.. لكنّه قد لا يكون بتلك البساطة والسّطحية في عرف قومها. إنّه مجتمع ضيّق ومتآلف، ليس بتحرّر المدن الكبرى واتّساعها. تخضع العلاقات للمراقبة الجماعيّة، وتتربّع القوانين العرفيّة على عرشها.

فليكن. إن كان لا بدّ من الحصول على مباركة المجتمع بأسره، فسيفعل ما يتوجّب عليه فعله.. لو أنّه يتمكّن من محادثة روان على انفراد أوّلًا، فيفهم منها كيف تسير الأمور. إلا أنّ نهارًا آخر قد انقضى دون أن تظهر روان.

في المساء، جاءت ريحان إلى الكوخ لتدعوه:

- والدي يريد رؤيتك.

ازدرد لعابه في عصبيّة، وقد أدرك أنّه لن يستطيع تجنّب تلك المواجهة بعد الآن. عاجلًا أم آجلًا كان عليه أن يجتمع به. سألها فيما يمشيان معًا:

- كيف هو مزاجه؟

هزّت ريحان كتفيها ومطّت شفتها السّفلى، ثمّ قالت:

- طبيعي!

الطبيعي يبدو مناسبًا، سيكون من المريح ألا يكون غاضبًا. هل وصله نبأ تجوّل آدم في القرية بشريط ابنته مربوطًا إلى ذراعه؟ أم أنّه يطلبه لأمر مختلف يتعلّق بمهامّ المُخلِّص؟

حاول أن يبدو واثقًا وثابت الجنان وهو يعبر عتبة الكوخ محنيّ الظهر، قبل أن يستقيم ثانية بالدّاخل. قال عمّار وهو يدعوه إلى الجلوس قبالته:

- تعال يا بنيّ.. اقترب.

لطالما دعاه عمّار بـ«بنيّ»، لا شيء مريب يتعلّق بذلك اللفظ، غير أنّ حساسيّته عالية لانتقاء الكلمات. جلس في صمت وانتظر أن يفصح مضيّفه عن مراده، إلا أنّ الحكيم انشغل بعدّة منقوع الأعشاب، عيناه مطرقتان ويداه منهمكتان. دفع كوب المشروب باتّجاه آدم، ثمّ قال بلهجة جادّة:

- أعتقد أنّ علينا التحدّث.. أنا وأنت.

اضطربت أنفاس آدم وهو يهزّ رأسه بهدوء مؤمّنًا وانتظر، فأردف عمّار:

- فلتعلم أنّني لستُ أمانع ارتباطك بابنتي.. لكنّني لا أحبّ أن يتحدّث عنها النّاس في السّاحات.

كاد آدم يسقط كوبه مع كلمات الحكيم الصّريحة والمباشرة. قال متلعثمًا:

- لم يحدث.. ما يستدعي حديث الناس.. أو يستجلب الأقاويل...

لا يعرف بعد أيّ الأحاديث يتناقلها أهل الجزيرة عنها، لقد اعتقد أنّ إهداء ربطة الشعر طقس شائع ومعروف لدى الـ«آم»، ولم يدرك أنّ روان قد تعرّض نفسها إلى الانتقاد اللاذع أو أنّها تخاطر بسمعتها وهيبتها لدى قومها. فاته أنّه مجتمع مصغّر ومتلاحم، وموغل في التعلّق بالتقاليد..

قال عمّار بلهجة جادّة:

- إذاً، ماذا نويت؟

تردّد آدم، بالتأكيد.. يجب أن تصير العلاقة رسميّة لإخراس الألسن الثرثارة، ولطمأنة والدي روان إلى جدّيته وانضباطه، لكنّه لم يتحدّث إلى روان نفسها منذ يومين، ولا يعرف إن كان هذا المسار الطبيعيّ للأحداث. إنّه في الثالثة والعشرين وحسب، لا يتزوّج الشباب في موطنه في هذه السنّ، بل ربّما صارت الثلاثينات أقرب إلى العمر المتعارف عليه للاستقرار وبناء عائلة. إلا أنّه تجاسر على القول:

- يشرّفني يا عمّي، أن أطلب يد ابنتك للزّواج..

جاء نداؤه بـ«عمي» تلقائيًا ليحدّد طبيعة الأدوار والعلاقات، فانبسطت أسارير عمّار المنقبضة وفكّت الخطوط التي جعّدت جبينه، أخذ رشفة طويلة من كوبه، ثمّ قال بارتياح ظاهر:

- آدم، بنيّ، لقد كنتُ شاهدًا على مراحل نضجك وتطوّر شخصيّتك خلال الأسابيع الماضية. قد تعتقد أنّها أربعون يومًا، لكنّ الخبرات التي صاحبتها زادت إلى رصيد عمرك سنوات، مقابل ما تمنحه حياة الدّعة في المدينة المتحضّرة! أقول هذا لأنّني تزوّجت أرابيلا في مثل سنّك.. وقد صقلت تجربة الجزيرة معدني، الطبيعة القاسية ونمط العيش البدائيّ، والاقتراب الشديد من الأرض والماء والصّخر والشجر.. كلّها تترك بداخلك أثرًا وإن كنت لا تنتبه بعد. ثمّ، أعتقد أنّك أثبتّ جدارتك بروان.. ولن أجد لها من هو خير منك!

ارتفع كتفا آدم مع سيل عبارات الثّناء التي تدفّقت من شفتي الحكيم، ثمّ سمعه يقول:

- إذًا، ما رأيك في عقد القران بعد أسبوع من الآن؟

سقط فكّ آدم هذه المرّة في ذهول وتزاحمت الكلمات على لسانه:

- لكن.. لكن.. والدي.. ووالدتي.. لا أحد منهما سيكون حاضرًا.. بعد أسبوع!

- أعتقد أنّ أشرف سيتفهّم.. ولا أشكّ لحظة واحدة في ترحيب هاجر بروان. هل تعلم أنّ والدتك قبل رحيلها كانت تتدرّب لتصير معالجة؟ ستحبّ أن تراك ترتبط بواحدة.

جاءت المعطيات الخاصّة بوالدته مفاجئة وخارج السّياق، غير أنّه لم يملك الفرصة ليسجّل دهشته أو يستطرد في الحديث الجانبيّ، فقد كان الموضوع الأساسيّ يشغل لبّه.

لقد تقبّل فكرة الارتباط والخطبة، أمّا الزّواج؟ وبمثل هذه العجلة؟ ألا يفترض بأحدهما أن يتعرّف إلى الآخر؟ ليس أنّه يجهل عنها الكثير -يستدرك بسرعة- بل لعلّه يجهل أكثر ممّا يعرف. إنّه يعرف عنها ما يعرفه الآخرون، طبعها الحازم ومواقفها الصّارمة، قوّتها في اللحظات الحاسمة، وعطفها على الكبير والصّغير، لكنّه يريد أن يعرف المزيد، أن يكشف الحجاب عن الطبقة الخفيّة تحت القناع، أن يصل إلى جوهرها والثنايا الأكثر هشاشة في روحها، وقد اعتقد أنّ تلك هي المرحلة التي يُقبل عليها، مرحلة الصّراحة والانفتاح، وطرح الأسئلة الحرجة.. أمّا الزّواج مباشرة..

لم يستوعب آدم الحكمة من التعجّل، فتمتم بخفوت:

- هل تنظم الزّيجات هكذا على الجزيرة.. عادة؟

أطلق عمّار ضحكة قصيرة ثمّ قال موضّحًا:

- نحن في وضع خارق للعادة، أنت تعلم.. في الظروف الطبيعية، كان العروسان لينتقيا موقعًا لمنزلهما الجديد، ثمّ يستغرق البناؤون شهورًا

لتشييده.. لكنّ القرية كلّها في حالة بناء الآن، والشعب كلّه يعيش في العرائش المؤقتة..

- إذًا ألا يجدر بنا الانتظار.. حتّى يكتمل بناء القرية؟

- الـ«آم» بحاجة إلى هذا الآن.. زواج المُخلِّص من المعالجة حدث مهم، يرفع المعنويّات ويبثّ الطمأنينة.. نحن نمرّ بأزمة حقيقية، والخطر لم ينته بعد. لذلك، من المفيد أن نتمسّك بمباهج الحياة ونتزوّد لأيّام الضّنك القادمة.

حاصره عمّار من كلّ جانب، وأدرك أنّه قد ولج طريق اللا عودة. وما الذي حسبه سيحدث بعد أن سأل المعالجة عن مشاعرها وأفضى إليها بعاطفته؟ علام التردّد الآن وقد نال مراده؟ أم أنّه لم يفكّر في العواقب جيّدا؟ لا، لقد فكّر كثيرًا.. على السّفينة، وهو يلقي بنفسه في الماء وراءها، وهو يرقب نظرة البهجة في عينيها حين يشاركها أخبار تدريبه.. لقد خشي صدّها، وخاف كثيرًا ألا يرتقي إلى ما ترومه في خاطبها، لكنّه الهلع الذي يصيبه وقت القرارات المصيريّة. أوليس أغلب النّاس يتزوّجون مرّة واحدة؟

ترك نفسًا طويلًا يغادر صدره، ثمّ قال مستسلمًا:

- كما تشاء يا عمّي.

ابتسم عمّار وهو يمدّ كفّه ليصافحه بقوّة.

- لكنّني أريد مهلة إضافيّة.. لأجهّز مهرًا لائقًا على الأقلّ.

- عشرة أيّام إذًا؟ يبدو هذا عادلًا في نظري.

حين غادر آدم كوخ الحكيم، تصاعد داخله شعور متنامٍ بالفزع.

زواجه بعد عشرة أيام!

(15)

اليوم الخامس عشر بعد الثلاثين

رفعت كلاوديا فأرة المختبر بين كفّيها وقالت بلهجة ودود:

- مرحبًا سيليا!

سألت مانويلا في فضول:

- هل تطلقين أسماء على فئرانك؟

- ليس جميعها.. الصّامدة منها! أخشى أن أتعلّق بها وأصادقها ثمّ ينتهي أمرها فجأة بسبب تجربة فاشلة.. لذلك غالبًا ما تحمل رموزًا كأسماء، لكنّ سيليا صديقة قديمة، لقد غنمت اسمها بعد شهور من صراع البقاء في مختبري!

ضحكت مانويلا فيما تعيد كلاوديا الفأرة داخل القفص بعد أن أفرغت محتوى الحقنة في عضلاتها. قالت بابتسامة متفائلة:

- أستبشر خيرًا بسيليا.. أعرف أنّها ستصمد!

من الأفضل أن تظلّ فأرتها الأثيرة على قيد الحياة، وتكون أوفر حظا من الفأرة السّابقة! لقد ظهر تأثير الحجر سريعًا على القارض الأبيض، في غضون ساعات قليلة.. ثمّ خلال اثنتي عشرة ساعة كانت قد فارقت الحياة. عرفت كلاوديا أنّها قد تسرّعت، أدركت الخلل في تركيبتها وتداركت الأمر على الفور، والآن تبدو أشدّ ثقة.

(15)

اليوم الخامس عشر بعد الثلاثين

رفعت كلاوديا فأرة المختبر بين كفّيها وقالت بلهجة ودود:

- مرحبًا سيليا!

سألت مانويلا في فضول:

- هل تطلقين أسماء على فئرانك؟

- ليس جميعها.. الصّامدة منها! أخشى أن أتعلّق بها وأصادقها ثمّ ينتهي أمرها فجأة بسبب تجربة فاشلة.. لذلك غالبًا ما تحمل رموزًا كأسماء، لكنّ سيليا صديقة قديمة، لقد غنمت اسمها بعد شهور من صراع البقاء في مختبري!

ضحكت مانويلا فيما تعيد كلاوديا الفأرة داخل القفص بعد أن أفرغت محتوى الحقنة في عضلاتها. قالت بابتسامة متفائلة:

- أستبشر خيرًا بسيليا.. أعرف أنّها ستصمد!

من الأفضل أن تظلّ فأرتها الأثيرة على قيد الحياة، وتكون أوفر حظا من الفأرة السّابقة! لقد ظهر تأثير الحجر سريعًا على القارض الأبيض، في غضون ساعات قليلة.. ثمّ خلال اثنتي عشرة ساعة كانت قد فارقت الحياة. عرفت كلاوديا أنّها قد تسرّعت، أدركت الخلل في تركيبتها وتداركت الأمر على الفور، والآن تبدو أشدّ ثقة.

بادلتها مانويلا الابتسامة الصّافية، ثمّ تعلّقت نظراتها بالحيوان الضئيل ذي الفراء الأبيض الذي ينطّ بخفّة خلف القضبان المعدنيّة، ثمّ يعود ليتشمّم قطعة حجر الشّمس الدّخيلة على محيطه.

- ما علينا الآن إلا أن ننتظر النتيجة!

أسدلت كلاوديا السّتارة السّوداء التي تحجب داخل القفص، وقالت:

- أفضّل عزل المحيط عن الأشعة الخارجيّة، لمحاكاة مناخ الجزيرة الذي لا تصله الشّمس، ولا أيّ مصدر آخر للإنارة، باستثناء المادّة المتوهجة.

أومأت مانويلا موافقة، ثمّ تحرّكتا معًا لمغادرة غرفة المعمل. قالت وهي تتخذ مجلسًا على الأريكة:

- كنت أفكّر، لماذا تمنح هذه المادّة هبة التّسخير للذّكور، وهبة العلاج للإناث؟ هل أنّها تؤثر بقدر مختلف في الجينات X وY؟

تنهّدت كلاوديا وهي تهتف:

- أعدك، حين نعود من الرّحلة، سوف أخصّص كلّ جهدي لفكّ ألغاز هذا الحجر والكشف عن كلّ أسراره! سيكون سبقًا علميًا مدويًا! أعتقد أنّ طرْق سبيل العلاج الجينيّ قد يحقّق فرقًا.. لكنّه عمل طويل، لن أنتهي منه في القريب!

هزّت مانويلا رأسها في تفهّم، ثمّ سألت:

- متى سنعرف إن كان العقار ناجحًا؟

- يمكن فحص عيّنة من دم الفأرة صباح الغد.. ثمّ أخذ عيّنة إضافيّة كلّ اثنتي عشرة ساعة..

قاطعتها مانويلا:

- ألا بمكن اختصار البروتوكول؟

- ليس أقلّ من ثلاث عيّنات!

تنهّدت مانويلا في استسلام. كانت قد تلقّت اتّصالًا آخر من والدها يتقصّى آخر المستجدّات. تمرّ الأيام طويلة ومضنية على السّفن الرّاسية على حدود الظلة. وكلّ القلوب معلّقة بما يحدث داخل معمل كلاوديا، وكلّ تلك الآمال ترهق كاهلها.

- كيف كانت جولتك مع ضيفنا منذ يومين؟

انتبهت إلى نبرة كلاوديا الماكرة، لكنّها تجاهلت تلميحاتها وقالت بجدّ:

- كان من اللطيف أن يتعرّف على الشّمس دون أن يتأذى.. لا أستطيع أن أتخيّل كيف تكون حياة المرء وهو محروم من هذه النّعمة إلى الأبد! تلك أشياء بسيطة وتبدو حقًّا طبيعيًّا لا جدال فيه، لكنّها حلم مستحيل بالنسبة إلى شعب الجزيرة!

عادت كلاوديا لتحدجها بنظرة ساخرة:

- كم أنّك متعاطفة بالنّسبة إلى مستكشفة رأسمالية صغيرة!

ضاقت مانويلا ذرعًا بلهجتها السّاخرة، فقالت في انزعاج:

- ما الذي تقصدينه؟ ما الذي يمنعني من التعاطف؟

هزّت كلاوديا ذراعيها في استسلام وقالت بلهجة مهادنة:

- اسمعي، أنا لا ألومك. والدك ثريّ، ويمكّنك من السّفر حول العالم ولعب دور المستكشفة.. وحين تروقه جزيرة غريبة لا يعرف عنها أحد شيئًا فلا شيء يمنعه من اختطاف بعض سكّانها لإجراء التّجارب عليهم.. واستغلال مصادر الطاقة على سطحها. هكذا هو العالم.. ولو أنّه يقرّر تهجير السّكان في وقت ما والاستيلاء على الأرض، فربّما يقنع بعض ملوك العالم الثالث باستقبالهم مقابل حفنة من الدّولارات.. حسنًا، كلّ هذا طبيعيّ. لقد حدث مع قومي في عصور سابقة، ليس أنني تأذّيت شخصيًا، ولست أحتجّ حتّى.. بل إنني ربّما أكون محظوظة وقد ولدت ونشأت في

بلد متقدّم وحصلت على تعليم عالٍ واستفدت من كلّ مقوّمات الحضارة الحديثة.. مقارنة ببني جلدتي الذين احتفظوا بالأرض، لكنّهم يعيشون الفاقة ويعانون المجاعات والحروب.. لست أحسدهم على شيء! ربّما إذا سألت أوران عن رأيه بعد أيّام.. ربّما يختار البقاء على العودة، فهذا البلد رائع، لو تعلمين!

أصغت مانويلا بعينين متّسعتين، لم تكن بشرة كلاوديا السّمراء وشعرها الخشن يمثّلان فرقًا حقيقيًا في عينيها قبل ذلك الوقت، لقد ارتادتا المدارس ذاتها وتحدّثتا اللكنة ذاتها، القواسم المشتركة بينهما كثيرة ومتعدّدة، وهي لم تحسب أنّ رفيقتها تكنّ في صدرها ذلك النّوع من التّحامل، رغم كلماتها المغلّفة بالسّخرية.

زفرت كلاوديا قبل أن تستطرد:

- كان هذا حديثًا غير ضروريّ، لقد أفسدتُ متعة الأمسية! إذًا، ألن تحدّثيني عن جولتك مع رجل الدّماء الخارقة؟

حاولت مانويلا أن تبتسم، وأن تطرد الغمامة التي استقرّت في صدرها وظلّلت فؤادها، لكنّ الابتسامة لم تصل إلى عينيها، ونبرة المرح المتكلّفة لم تنجح في تبديد استيائها:

- هذا سرّ!

***

فتح أوران باب الغرفة بلطف ليلفي غرفة المعيشة غارقة في الظلام، توقّف برهة ونظر حوله، أمامه مباشرة غرفة نوم الفتاتين وإلى شماله المطبخ وعلى الجانب الآخر غرفة المعمل. تردّد أيّ الاتّجاهين يسلك وأين تكمن الفرص الأوفر للعثور على قلادة «حجر الشّمس» الخاصّة به.

اختار الانعطاف نحو الجانب الآخر من الشقة، متجنبًا التسلّل إلى المنطقة المأهولة. إذا حالفه الحظّ، فلن يضطرّ إلى تفتيش الغرفة فيما تنام الشابتان.

أشرع باب المعمل بهدوء، وألقى نظرة تفقّدية، لم تكن كلاوديا تعمل في تلك السّاعة من اللّيل، لقد أصغى بانتباه إلى الأصوات في السّاعات الأخيرة، ولم يتحرّك إلا بعد أن تيقّن من خلود الباحثة إلى النّوم، تناهى إليه وقع خطواتها منذ أكثر من ساعة. راقب عقارب السّاعة المعلّقة على جدار غرفته في نفاد صبر بعد ذلك، ليمنحها مهلة كافية للاستغراق في نوم عميق، ثمّ قرّر أنّ أوان تنفيذ الخطّة قد حان.

تحرّك بخطوات حذرة وهو يتلمّس طريقه داخل المعمل، أيّا ما كان موقع الحجر فهو مخفيّ عن العيون، فبريقه لا يُرى. أخذ يفتح الأدراج والجوارير واحدًا تلو الآخر، ثمّ يعيد إغلاقها دون أن تقع عيناه على أدنى توهّج فضيّ، ثمّ انتبه إلى الصّندوق الأسود الذي يقبع فوق المصطبة. رفع طرف السّتارة، فالتقطت عيناه لمعان الحجر على الفور. رفع غطاء الصّندوق المعدنيّ ودسّ كفّه داخله ليقبض على القلادة، فخمشته مخالب حادّة لقارض صغير الحجم توهّجت عيناه الحمراوان في الظلام. تأوّه أوران لكنّه لم يسحب يده، نفض القارض الأبيض عنها واستعاد الحجر.

نفخ برفق على الأخاديد الدّامية التي خلّفتها مخالب الفأرة، ثمّ عاد ينظر إلى القارض الصّغير المضطرب داخل القفص. أيقن أنّ الحجر كان يؤذيها، لكنّ الباحثة لا تبالي. همس بصوت لا يكاد يسمع:

- ستحظين ببعض الرّاحة الآن.

غامر بإقحام كفّه داخل القفص ثانية ليمسّد فرو الفأرة بلطف، ولم يحاول الحيوان إيذاءه مرّة أخرى.

أعاد الغطاء والسّتارة مكانهما ثمّ سار في اتّجاه المخرج، لقد أحسن عملًا باختيار المعمل أوّلًا، والآن سيمضي في سبيله دون أن يلتقي بأيّ منهما. توقّف ثانية أمام الباب الموصد. تلزمه المفاتيح. هؤلاء الغرباء يستخدمون تلك القطع المعدنيّة لفكّ الأقفال، لكنّه سيضطرّ إلى تفتيش أدراج الغرفة هذه المرّة.

أخذ نفسًا عميقًا، إنّه مسخّر، لا يحتاج المسخّر صاحب الخيط الرّماديّ إلى المساعدة لاجتياز الحواجز بعد أن استعاد حجره. لن يكون هروبه سلسًا وطيّ الكتمان بعد الآن، بل اقتحامًا مدويًا سيجلب الانتباه إليه لا محالة، وقد يأتي الرّجال المسلّحون القابعون في الجوار لمطاردته، لمحهم في كلّ مرّة غادر الشقة برفقة مانويلا يترصّدون خلسة على مسافة، لكنّ أيًا من ذلك لن يردعه، فقد اتّخذ قرارًا لا رجعة فيه.

استدعى خيطه الرّمادي وسحب طاقة الحجر، ثمّ دوّت الصّاعقة بصوت مزلزل وهي تشطر الباب الخشبيّ نصفين.

وهو يعبر نحو الجانب الآخر ويلوذ بالفرار، كان آخر ما سمعه شهقة مانويلا من خلفه.

لم يلتفت.

(16)

اليوم السّادس عشر بعد الثلاثين

يتدرّب المسخّرون أصحاب الخيوط الرّماديّة قرب مكبّ المعادن، فيفلحون في طيّ المعدن دون مشقّة، إلا أنّ آدم لم يكن راضيًا عن أدائهم بعد، يشرح مرّة أخرى أمام عيون المسخّرين الشبّان المتّقدة:

- هذا ليس سريعًا بما يكفي! هل رأيتم المسدّسات؟ هل عاينتم كيف تنطلق المقذوفات من فوّهاتها في رمشة عين؟ يجب أن تضاهي سرعة طيّ المعدن الوقت الذي يحتاج إليه المقاتل منهم لضغط الزّناد! هل تتخيّلون المشهد؟!

يهزّون رؤوسهم فيما تعكس مرآة العين الوجوم والإحباط، لا يزالون بعيدين عن الهدف، قال نوح وهو يقلّب صفيحة معدن بين كفّيه:

- هذا الشيء.. «المعدن»، إنّه صلب وقويّ.. إن لم نتمكّن من تخريبه في أيديهم، ألا يمكن أن نستغلّه على الأقلّ في حماية أنفسنا؟

لمعت الفكرة في ذهن آدم مباشرة:

- أنت عبقريّ! كيف لم يخطر ذلك ببالي سابقًا؟ يستخدم المعدن في صنع الدّروع والخوذات! إن لم نستطع أن نختصر وقت التّصدّي للأسلحة، فيمكن للمعدن أن يمنح المسخّرين مهلة إضافية، فيصدّ عنهم الرّصاص فيما يشحذون الطاقة ويُحكمون الهجمة!

في ذلك اليوم، تبدّلت مهمّة أصحاب الخيوط الرّماديّة، صار عليهم انتقاء الصّفائح المسطّحة المناسبة لتشكيل أردية الحماية المعدنيّة، شرح آدم طبيعة الدّروع سهلة الارتداء، وقدّم بعض الرّسوم البيانيّة، ثمّ ترك لساشا قائد الفريق، وهو رجل كهل في منتصف الأربعينيات، إدارة ورشة اللّحام المستجدّة. أمّا آدم، فقد كانت أمامه مهام أخرى.

شغله أمر المهر، يصنع العرسان في «آرا» هدايا مميّزة من أجل العروس، كلّ حسب مهارته وحرفته، يطوّعون الحجارة أو الأصداف أو يجمعون اللآلئ من قاع المحيط، وسيتوقّع من المُخلِّص أن يبهر العيون بشيء مختلف ونادر يليق بمنصبه المتفرّد، وبمكانة المعالجة أيضًا. لذلك كان الضغط مضاعفًا.

لم يكن قد احتفظ بشيء من متاعه القادم من العالم الخارجيّ، باستثناء الهاتف الذي فقد آخر قطرات الشّحن المتبقّية منذ زمن وغدا قطعة من الخردة بلا فائدة. فكّر أنّ المعدن سيكون أفضل المواد الخامّ لصنع هديّة تليق بالمناسبة، إلا أنّه حاول لأيّام خلال عمله في السّوق، دون أن يُحرز تقدّمًا يُذكر.

كان عليه أن يبدأ مرّة أخرى من الصّفر، وهو -وإن كان قد وضع هدفًا محدّدًا- غير قادر على التّنفيذ بمفرده، لذلك كان يدعو مروان إلى مرافقته بدعوى التّدريب، ويسند إليه مهمّة تقطيع المعدن باستخدام هبة القطع الخاصّة به، ثمّ يستمرّ في محاولة تحسين تحكّمه بهِبته في أوقات أخرى، علّه ينجز تفاصيل الحلية كما يشاء لها أن تكون، ويتوقّف عن التذمّر من افتقار مروان للدّقة.

كان يتوارى عن العيون ساعات طويلة، ويعمل خلسة على استحضار خيوطه وتطويعها. بعد الخيط التّرابيّ، كان يطمع في السّيطرة على خيط آخر

على الأقلّ. ربّما كان الخيط الرّماديّ مثاليًا، فهو يمنحه فرصة وضع نظريّاته بخصوص المعدن محلّ تطبيق، فيرشد المسخّرين إلى ما يتوقّعه منهم.. لكنّ الخيط الرّمادي كان أقلّ خيوطه امتثالًا وأشدّها ضبابيّة. لذلك، فقد رأى أنّ الخيط الحليبيّ هو الأجدر بمحاولاته، لا يزال يعتقد أنّه خيطه الأساسيّ. ألم يسبق كلّ الخيوط الأخرى في الظهور؟

يغمض عينيه ويستحضر ذكرياته الضبابيّة، تظهر لولا من وراء زجاج المروحيّة المغمورة بالماء، يصغي إلى ندائها الرّقيق الذي يرنّ داخل رأسه مثل رجع الصّدى، يقاوم الاختناق والغرق الوشيك، فتسحب خلاياه الـ«مادرا» التي تسبح حوله وتتخلّل قطرات الماء والهواء، يكاد يشعر بمسّامه تلتهمها بنهم ثمّ تحوّلها في مسار يتدفّق حتّى أطراف أصابعه.. وفي تلك اللّحظة، ينبض الخيط الحليبيّ تحت جفنه بخفقان حيّ.

فيأخذ في سحب الخيط رويدًا رويدًا.

***

غادر أوران بالأمس، ولم يعد.

لا تزال مانويلا تستحضر لحظة استيقاظها الفزع في عتمة الليل، بعد أن دوّت صاعقة غير بعيد عنها، لوهلة.. هيّئ إليها أنّ عاصفة قد اندلعت في الخارج، لكنّها اشتمّت رائحة حريق فهبّت من مرقدها وعلامات الإنذار تصفّر في أذنيها. حين وقفت أمام الباب المحطّم الذي تصاعدت من تجويفه ألسنة دخان طازج، لمحت ظهر أوران وهو ينزلق بخفّة نحو مخرج الطّوارئ.

لقد حسبته طيّعًا سهل الانقياد، فقد أبدى تعاونًا غالب الوقت، ومنذ محاولة الفرار المبتورة عند المرفأ لم يبدر عنه أيّ سلوك عدوانيّ أو متهوّر، لكنّ ذلك لم يكن إلا تمويهًا، سكونًا خاملًا في انتظار اللّحظة المناسبة.

تلوم نفسها دون انقطاع، لقد خفضت حذرها ونسيت أنّه مُسخِّر، رجل خارق قادر على تجاوز الحراسة وتحطيم العوائق!

جاءها صوت كلاوديا المنكبّة فوق قفص فأرة التّجارب:

- سوف يعود.. سيجده رجال والدك، أنا واثقة!

أومأت مانويلا تجاريها، ترجو أن يفعلوا قبل أن يبتعد ويتوه في شوارع المدينة ويصبح الرّجوع على أعقابه مستحيلًا، باتت تفكّر: كيف أمضى ليلته؟ وأين احتمى من شعاع الشّمس الحارق حين طلع النّهار؟ هل يختبئ في أنفاق المترو؟ أم في ظلال بعض البنايات؟ ثمّ تذكّرت: لقد حصل على الحقنة! لكنّ مفعولها مؤقّت، قد يستمرّ أيامًا.. فهل يرجع إليها قبل أن يصيبه مكروه؟ ماذا عن طعامه؟ هل تدبّر أمر وجباته؟ وكيف يفعل وهو لا يملك نقودًا ولا يسعه التّواصل مع النّاس؟ هل يضطرّ إلى التّسوّل؟ تكاد تجزم بأنّ رفعة نفسه لا تسمح له بتحمّل نظرات الشّفقة من العابرين، حتّى لو مات جوعًا!

نكشت كلاوديا الفأرة بطرف عود خشبيّ، وقلبّتها على ظهرها، أمسكت بها لتتأمّل بؤبؤها وأطرافها قبل أن تأخذ عيّنة من دمها للفحص المجهريّ، ثمّ قالت في وجوم:

- لقد غدا الاختبار بلا فائدة، بعد أن أخذ أسيرك الحجر. لا يمكن الاعتداد بالنتيجة في ما يخصّ العقار.. وليس أمامنا شيء على الإطلاق حتّى عودته!

انكمشت ملامح مانويلا، إنّها تدرك هذا بالفعل، التّجارب ستتوقّف فيما ينفد منها الوقت، لم تخبر والدها بعد بشأن فرار المُسخِّر، تعلّم أنّه سيصبّ جامّ غضبه عليها، ألم تفرّط في المسخّر الثاني؟ ألم تتهاون في مراقبة أوران؟

قرّرت أن تخفي عنه الأزمة حتّى تجد حلًا.

(17)

اليوم السّابع عشر بعد الثلاثين

مشى أوران ساعات طويلة، تحت السّماء الملبّدة بالسّحب. ذلك المساء، استمرّت الشوارع تتنفس رذاذ المطر الذي لم يهدأ منذ الظهيرة. الأرصفة تلمع تحت إنارة خافتة، والرّيح تعصف بالأوراق الصفراء البالية. جرّ أوران قدميه المتعبتين، حذاؤه مبتل وكتفاه منكمشتان تحت طبقة القماش التي تقطر ماء. لم يأخذ المعطف وهو يفرّ من الشقة، لم يفكّر في حماية جسده من عوامل الطّبيعة، لطالما كانت مناعته جيّدة وقدرته على تحمّل تقلّبات الطقس عالية، لكنّه لم يحسب حساب المناخ الأوروبيّ الشتويّ القارس.

أمضى ليلتين في العراء، ينام على الرّصيف، بين نباح الكلاب وأنين المارة المخمورين. اكتفى خلالها بالشّرب من النوافير العامّة -فهي أقرب ما تكون من جداول الماء العذب في «آرا»- وقطف قطع الفاكهة -سيّئة المذاق- من أشجار الحدائق العامّة. لم يكن البقاء على قيد الحياة مستحيلًا، لكنّ الوصول إلى «آرا» يكاد يكون كذلك!

في يومه الأوّل، استمرّ يسير في اتّجاه مستقيم، لا يعرف أيّ الاتّجاهات هو، ولا يهتمّ، قاده التّفكير المنطقيّ إلى أنّ السّير في أيّ اتّجاه سيقوده إلى البحر، ربّما تكون بعض الطرق أقرب إلى البحر من غيرها،

(17)

اليوم السّابع عشر بعد الثلاثين

مشى أوران ساعات طويلة، تحت السّماء الملبّدة بالسّحب. ذلك المساء، استمرّت الشوارع تتنفس رذاذ المطر الذي لم يهدأ منذ الظهيرة. الأرصفة تلمع تحت إنارة خافتة، والرّيح تعصف بالأوراق الصفراء البالية. جرّ أوران قدميه المتعبتين، حذاؤه مبتل وكتفاه منكمشتان تحت طبقة القماش التي تقطر ماء. لم يأخذ المعطف وهو يفرّ من الشقة، لم يفكّر في حماية جسده من عوامل الطّبيعة، لطالما كانت مناعته جيّدة وقدرته على تحمّل تقلّبات الطقس عالية، لكنّه لم يحسب حساب المناخ الأوروبيّ الشتويّ القارس.

أمضى ليلتين في العراء، ينام على الرّصيف، بين نباح الكلاب وأنين المارة المخمورين. اكتفى خلالها بالشّرب من النوافير العامّة -فهي أقرب ما تكون من جداول الماء العذب في «آرا»- وقطف قطع الفاكهة -سيّئة المذاق- من أشجار الحدائق العامّة. لم يكن البقاء على قيد الحياة مستحيلًا، لكنّ الوصول إلى «آرا» يكاد يكون كذلك!

في يومه الأوّل، استمرّ يسير في اتّجاه مستقيم، لا يعرف أيّ الاتّجاهات هو، ولا يهتمّ، قاده التّفكير المنطقيّ إلى أنّ السّير في أيّ اتّجاه سيقوده إلى البحر، ربّما تكون بعض الطرق أقرب إلى البحر من غيرها،

لكنّ اليابسة محاطة بالبحر من جهاتها كلّها، ومهما طال المسير، فسيصل أخيرًا إلى البحر. لقد رأى المشهد من زجاج الطّائرة التي حلّقت بهم إلى المدينة، البحر في كلّ مكان، ومهما امتدّت الأرض فوراءها بحر.

وماذا يأتي بعد البحر؟

في فورة اندفاعه، لم يفكّر كثيرًا في تفاصيل الرّحلة، استبدّ به سعار الخلاص من الأسر، فلم يدرس الخطّة بالقدر الكافي، أمّا ساعات المسير الممتدّة فقد أفسحت المجال لتدبّر العقل، وأفضت إلى استنتاج مفجع: لا يعرف أين تقع «آرا»، ولا كيف يصل إليها! بل هناك ما هو أدهى: حتّى لو عرف أين تكون وكيف يصل إليها، فهو لا يجيد حرفًا من لغة القوم، ولا يملك التّواصل مع أحدهم!

مع كل دقيقة كان وجه مانويلا يزداد وضوحًا في ذهنه، ليس شوقًا، بل لأنّ كلّ شيء في هذه المدينة سواها يلفظه.

مع ذلك، استمرّت قدماه تسعيان بلا توقّف متوغلًا أبعد فأبعد، يدفعه الغضب اليائس والعناد. ثمّ توقّف اندفاعه فجأة، أيقن أنّ الفرار لا يُجدي، والتّيه في أرض الغرباء لن يقوده إلى أهله، لئن أمضى اليوم الأوّل يجدّ مبتعدًا، فقد أمضى يومه الثّاني يحاول العودة! حين قرّر أنّه يريد إيجاد مانويلا وشقّة صاحبتها الباحثة، انتبه إلى تشابه المباني على تباينها وامتداد الطّرقات وتشعّبها، من حسن حظّه أنّه لم يحد عن «اتّجاه البحر» المنشود، لكنّه اضطرّ إلى الانعطاف من حين إلى آخر، متتبّعًا الحدائق والنّوافير! وتلك المفترقات الصّغيرة جعلت العثور على شارعه معضلة مستعصية!

ابتهج أخيرًا حين تعرّف إلى ملامح الحديقة التي شهدت أولى مغامراته تحت أشعّة الشّمس. توقّف أمام بوّابة ناطحة السّحاب التي تضمّ شقّة كلاوديا. كان الخروج يسيرًا، لكنّ الدّخول أمر آخر. بقي الباب الزّجاجي

موصدًا في وجهه، فكّر أنّ استخدام القوّة ليس الخيار الأفضل، فالاقتحام يختلف عن الهروب. لذلك انتظر في الزّاوية قدوم زائر آخر، ليتسلّل على إثره قبل أن تستقرّ الدّفة ثانية.

ارتقى الدّرج حتّى الطابق الثّامن عشر، ثمّ وقف أمام الباب الخشبيّ -الذي أصلحوه!- وتجرّأ على قرع الجرس.

مضت ثوانٍ قليلة قبل أن ينفرج الباب عن وجه مانويلا بشعرها المبعثر، ترتدي كنزة نوم رمادية، وعيناها واسعتان بمزيج من الذهول والفرح، هتفت بصوت مرتجف:

- أوران! يا إلهي، أين كنت؟

لم يجب، ولم تنطق عيناه بذرّة ندم. كان الغضب يستعر بداخله، من عجزه وقلّة حيلته واضطراره إلى العودة نحو آسريه ومغتصبي حريّته، ألقى نظرة نحو الدّاخل، فابتعدت مانويلا لتفسح الطّريق.

سارت دون كلمة إضافيّة نحو المطبخ، فيما جلس أوران على الأريكة في صمت. عادت بعد دقيقة وبيدها كوب من الحليب الدّافئ، فتقبّله بهدوء، ثمّ هرولت ثانية ورجعت لتضع منشفة جافّة على كتفيه في حركة حانية، قبل أن تجلس على الجانب الآخر من الغرفة. تململ أوران وهو يستعذب دفء الحليب ونعومة الدّثار، وشعر بعينيها تتأمّلانه متّسعتين كأنها لا تصدّق عودته.

- أنت مصاب!

بعد دقائق من الصّمت المدقع، كانت تلك كلماتها الأولى. أشارت إلى الخدش الذي تركته مخالب فأرة المختبر المضطربة على ظهر كفّه، والذي يبدو منتفخًا ومتقيّحًا الآن. تحرّكت نحو الحمّام، وعادت بعد دقيقة واحدة

وبيدها صندوق أبيض، قالت وهي تخرج معقمًا سائلًا وقطع الشاش والقطن:

- هل هاجمك حيوان ما؟ يبدو الجرح بحال سيّئة!

استسلم لأناملها التي ثبّتت كفّه فوق جانب الأريكة ثمّ نظّفت الجرح بهدوء قبل أن تلفّه بالشاش بإحكام. حين فرغت، أعادت جمع أدواتها داخل الصّندوق، قبل أن تهمس بخفوت:

- أنت جائع؟

ارتفعت دماء الحرج إلى وجنتيه فتحوّل وجهه الشّاحب إلى الأحمر القاني. كان منهكًا ويتضوّر جوعًا، إلا أنه يأبى الاعتراف بذلك، عادت مانويلا تقول:

- طلبت وجبة العشاء منذ حين.. لم آكل بعد.. هل تودّ مشاركتي؟

استجاب للدّعوة دون تفكير، على مائدة الطعام التي جمعتهما في مناسبات سابقة، استقرّت علبة الدّجاج المقليّ. سال لعابه لذكرى وجبة أخرى، إلا أنّه حين لمس الطّعام ألفاه باردًا. خمّن أنّها وجبة غداء انتهى بها الأمر على مائدة العشاء.. ربّما لم تشعر بالجوع! وربّما لم تكن شهيّتها مفتوحة! وربّما تنتظر وصول صاحبتها لمشاركتها إيّاها.

انغمس يأكل بنهم فأنهى قطعتين في وقت يسير، لفظ العظام النّظيفة بعد أن نهش اللّحم حتّى آخر نتفة، ثمّ لاحظ أنّها لم تنل لقمة واحدة، استمرّت نظراتها متعلّقة به فيما ترتسم ابتسامة راضية على شفتيها، فعاد إليه الحرج.

- لا شكّ أنّ الليلتين الماضيتين كانتا قاسيتين!

شعر بألم غريب يعتصر صدره، وتفتّتت طبقة الغضب التي هيمنت على مشاعره كلّها، ووجد نفسه يهدأ ويستكين. تركت مانويلا مقعدها

دون أن تأكل شيئًا، وبقي وحيدًا يعبث في شرود ببقايا الأكل. عادت بعد برهة وبيدها ملابس نظيفة.

- جهّزت هذه من أجلك.

لا تزال الثياب المتّسخة والرطّبة تلتصق بجلده وترسل الرّجفة في أوصاله، لذلك لم يمانع الحصول على غيار جافّ ودافئ. أخذ عنها العطيّة وسار نحو غرفة الضّيوف التي كانت غرفته لأيّام، رافضًا أن يبادلها كلمة واحدة بعد. جاءه صوتها قبل أن يغلق الباب خلفه:

- يسعدني أنّك بخير!

(18)

اليوم الثامن عشر بعد الثلاثين

انحنت مانويلا فوق كتف كلاوديا التي انهمكت في معاينة الفأرة.

- كيف تبدو سيليا اليوم؟ هل نجح العقار؟
- على رسلك. يجب أن أنهي الفحوصات كلّها قبل البتّ نهائيًا.
- لكنّها تبدو بحال جيّدة؟ هل طوّرت حماية ضدّ المادّة المتوهّجة؟ لا يبدو لي أنّها قد تأثرت بحضورها في مجالها؟

أومأت كلاوديا وهي تقول من وراء قناعها الطبيّ وعيناها تطالعان العيّنة تحت عدسة المجهر:

- إنّها أفضل حالًا من الفأرة السّابقة.. حيّة!
- هذا مطمئن، أليس كذلك؟ متى تعتقدين أنّنا سنحصل على عقار قابل للاستخدام البشري؟

تمكّنت كلاوديا بالأمس من إعادة تهيئة ظروف التّجربة وبالنّظر إلى الوقت المستقطع الذي تسبّب فيه غياب الحجر -وأوران- فإنّ الوقت حرج جدًا بالنّسبة إلى مانويلا.

منذ ثلاثة أيّام، انتشر رجال والدها عبر الأزقّة المجاورة للبناء، واستلمت منهم تقارير دوريّة بلا فائدة، فلم يعثر أحدهم على أثر للمُسخَّر الهارب، لكنّه عاد أخيرًا من تلقاء نفسه، عاد في وقت كانت

(18)

اليوم الثامن عشر بعد الثلاثين

انحنت مانويلا فوق كتف كلاوديا التي انهمكت في معاينة الفأرة.

- كيف تبدو سيليا اليوم؟ هل نجح العقار؟

- على رسلك. يجب أن أنهي الفحوصات كلّها قبل البتّ نهائيًا.

- لكنّها تبدو بحال جيّدة؟ هل طوّرت حماية ضدّ المادّة المتوهّجة؟ لا يبدو لي أنّها قد تأثرت بحضورها في مجالها؟

أومأت كلاوديا وهي تقول من وراء قناعها الطبيّ وعيناها تطالعان العيّنة تحت عدسة المجهر:

- إنّها أفضل حالًا من الفأرة السّابقة.. حيّة!

- هذا مطمئن، أليس كذلك؟ متى تعتقدين أنّنا سنحصل على عقار قابل للاستخدام البشري؟

تمكّنت كلاوديا بالأمس من إعادة تهيئة ظروف التّجربة وبالنّظر إلى الوقت المستقطع الذي تسبّب فيه غياب الحجر -وأوران- فإنّ الوقت حرج جدّا بالنّسبة إلى مانويلا.

منذ ثلاثة أيّام، انتشر رجال والدها عبر الأزقّة المجاورة للبناء، واستلمت منهم تقارير دوريّة بلا فائدة، فلم يعثر أحدهم على أثر للمُسخِّر الهارب، لكنّه عاد أخيرًا من تلقاء نفسه، عاد في وقت كانت

فيه على وشك الاستسلام وإعلان إخفاقها لوالدها، أمّا وقد استأنفت الاختبارات، فإنّها بحاجة إلى تشغيل المحرّكات النفاثة للوصول إلى نتيجة في أقرب الآجال.

رفعت كلاوديا رأسها وأفصحت عن تردّدها:

- هذا مبشّر بالنّسبة إلى النّتائج الأوّلية.. غير أنّه يلزمني مزيد من الوقت، يجب أن أراقب سيليا بضعة أيّام، لمعاينة الأعراض الجانبيّة وتعديل نسب المكوّنات حسب الحاجة.. قبل المرور إلى المتطوّعين من البشر. يجب أن تكون النّتائج ثابتة ومتكرّرة على أكثر من فأرة لنحكم بالنّجاعة.. لا أريد أن يحدث أيّ خطأ فنقع تحت طائلة المساءلة القانونية!

تنهّدت مانويلا فيما عادت كلاوديا إلى فحص العيّنة بتركيز واستغراق.

- لماذا لا تخلدين للنّوم؟ أنت لم تنامي جيّدًا منذ أيّام، هالاتك السّوداء تبدو مخيفة.. استريحي واسترخي، وحين يصبح كلّ شيء جاهزًا... آه!

أطلقت كلاوديا صرخة وهي تلقي نظرة فوق كتفها لتقع عيناها على مانويلا التي تمسك بيدها حقنة فارغة، بعد أن دفعت بالسّائل الذي كان بداخلها منذ لحظات في عضدها! صرخت في غضب وهي تترك ما بين يديها وتتّجه نحوها في اندفاع.

- ما الذي فعلته بنفسك؟ هل جننتِ؟

سحبت مانويلا الإبرة ووضعتها على الطاولة أمامها وهي تطلق ضحكة متشنّجة. تأمل أنّها لم تجنّ فعلًا، ولم تتهوّر مخاطرة بحياتها، إلحاح والدها يضغط على أعصابها، وكان عليها أن تفعل أيّ شيء لاختصار فترة التّجارب، حتّى لو كان غبيًّا وغير مدروس.. وهي تدرك أنّها قد تندم في القريب. لم يكن التهوّر من طبعها -وكذلك الاختطاف وحبس المدنيين!- لكنّها تتحوّل إلى شخص آخر لا تعرفه في الآونة الأخيرة.

قالت وهي ترسل زفرة طويلة:

- ربّما عليك ترك سيليا جانبًا، ومراقبة هذه المتطوّعة البشريّة الآن؟

تنهّدت كلاوديا وهي تترك قفازتها ومنظارها الطبيّ ومئزرها، ثمّ تسحب مانويلا خارج المعمل بخطى حثيثة نحو الغرفة:

- حسنًا إذًا، فلنفعل هذا.. سوف تستلقين هنا بضع ساعات، وإلى جوارك حجر الشمس هذا، ستحصلين على الماء بكثافة للحفاظ على رطوبة جسدك، وسأراقب حرارتك كلّ ساعة.. وبعد ستّ ساعات سأفحص عيّنة دمك.

ابتسمت مانويلا وهي تستلقي على السّرير وتحتضن الحجر:

- شكرًا لك. وأعتذر لأنّني تدخّلت في سير عملك.. لكنّني...

قاطعتها كلاوديا بلهجة حادّة:

- لا تشكريني الآن، ولا تعتذري حتّى! حين نتأكد من سلامتك بعد أربع وعشرين ساعة، حينها سنتحدّث!

أمسكت مانويلا بكفّها وضغطتها برفق وهي تبثّها اعتذارها، فيما أشاحت كلاوديا بوجهها في غيظ، ثمّ سحبت كفّها أخيرًا، تحرّكت في الغرفة لتسدل السّتائر وتطفئ كلّ مصادر النّور ليعمّ الفضاء ظلام كثيف، تابعتها مانويلا بنظراتها وهي تسلّط كشاف الهاتف ناحيتها، أخيرًا، شدّت كلاوديا الهاتف من يدها وهي تقول:

- وهذا أيضًا.. لا مصدر للضوء أبدًا.. باستثناء الحجر!

تذمّرت مانويلا:

- هل هذا ضروري؟

هزّت كلاوديا كتفيها.

- لا أعرف! لم تكن أمامي فرصة كافية لتجربة مختلف الظروف المحيطة.. فكما تعلمين، هناك من استعجل الأمر وأفسد بروتوكول التّجارب!

لوت مانويلا شفتيها في ضيق، فيما انسحبت كلاوديا مخلّفة إياها بمفردها.

تنفّست مانويلا بعمق حين خلت بنفسها، واحتضنت الحجر المستقرّ على صدرها، ترقب عن كثب بريقه الأخّاذ. تساءلت في تلك اللّحظة إن كانت نهايتها ستكون بسبب «حجر الشّمس» هذا، أم أنّ كلاوديا على أعتاب كشف علميّ مدهش. رفعت الغطاء حتى اكتنف جسدها كلّه وحجب ما بقي من نور ضئيل في الغرفة، وصارت وحدها في الظلمة الدّامسة، فتألّق الحجر أكثر وأكثر، مثل شمس ضئيلة تضيء عالمها الصّغير تحت الغطاء. ابتسمت وهي تقلب الحجر في افتتان، إن كانت ستبقى لبعض الوقت في عزلة مفروضة، فستكون بحوزتها رفقة مسليّة على الأقلّ.

(19)

اليوم التاسع عشر بعد الثلاثين

جاءت كلاوديا كلّ ساعة تلك الليلة لمراقبة المؤشرات الحيويّة لفأر التّجارب البشريّ الخاصّ بها، وفي الصّباح، سحبت عيّنة الدّم. بدت مانويلا مرهقة ومكدودة بسبب نقص النّوم، لكنّ أيّ أعراض أخرى لم تظهر عليها. في كلّ مرة دخلت فيها الباحثة، كانت ترتدي قناعها وقفازاتها ومنظارها الطبيّ، كانت تأخذ الحالة بشكلّ جديّ تمامًا.

مازحتها مانويلا حين أحضرت لها وجبة الإفطار:

- لا أعتقد أنّ أيّا ما كان قد يصيبني سيكون معديًا!

رمتها كلاوديا بنظرة غاضبة أخرى، لم يكن ضيقها قد تبدّد، وهي لم تكن لتخاطر بحياة صديقتها من أجل إنجاز بحثيّ أيّا ما كانت المخرجات ومهما كانت قيمة الاكتشاف الذي قد يكون على المحكّ، وكانت ترجو أن تدرك مانويلا ذلك.

أمام صمتها، عادت مانويلا لتسأل:

- كيف هي نتيجة فحص الدّم؟

قالت كلاوديا دون حماس:

- مُرضِية.. إلى حدّ الآن، سنعرف أكثر خلال ستّ ساعات أخرى.

استوقفتها مانويلا وهي تهمّ بالخروج:

- هل تناول أوران إفطاره؟ هل سأل عنّي؟

هزّت كلاوديا كتفيها وقالت ببرود:

- لقد وضعت الطبق على المنضدة. لا أدري إن كان قد أكل، فأنا لست ممّرضة أو جليسة أطفال! كما أنّني لا أفهم كلمة واحدة ممّا يقوله.. لذلك لا تعتمدي عليّ في نقل الرّسائل بينكما!

كان مزاجها السّيئ واضحًا للعيان، وهي لا تفعل شيئًا لمداراة ضجرها. لزمت مانويلا الصّمت منكسة رأسها، ليأتيها صوت كلاوديا بعد حين، وقد تخلّله بعض اللين:

- سوف أغيب بضع ساعات.. أعتقد أنني سأحتاج إلى المساعدة من بعض الزّملاء، أمّا وقد وصلنا إلى هذه المرحلة، فلا أريد أن أترك شيئًا للمصادفة، سأراجع تركيبة العقار من النّاحية التّقنية والكيميائية، فربّما أكون قد أغفلتُ شيئًا.. وإذا ظهرتْ أعراض ما -لا سمح الله- يجب أن أكون مستعدّة.. وأن أضع خططًا بديلة...

أومأت مانويلا موافقة.

- إذا كان هناك خطأ ما في التركيبة.. هل.. يمكن تداركه؟

زفرت كلاوديا في حنق، ثمّ قالت محاولة الحفاظ على هدوئها:

- الآن صرت مهتمّة بالسّؤال؟ الجواب هو لا! لا يمكن تدارك العقار بعد حقنه.. لكنّنا قد نتوصّل إلى طريقة لمساعدة الجسم على التخلّص منه بسرعة أكبر.. لا يُفترض بمفعوله أن يدوم أكثر من بضعة أسابيع إلى ثلاثة أشهر كحدّ أقصى.. لذلك، حسنًا.. إذا كانت التّركيبة خاطئة أو مركّزة.. أرجو أنّ مفعوله قد يذهب خلال أيّام.

ابتسمت مانويلا وهي تلوّح لها مودّعة:

- اذهبي.. سأكون بخير.

لم تعلّق كلاوديا.

حين اختفت، تنهّدت مانويلا بعمق، ثمّ عادت لتدفن رأسها تحت الغطاء وتتأمّل الحجر.

لقد اضطرّها فرار أوران وتعطيل الاختبار إلى عمل متسرّع. أمام والدها كانت المسؤول الوحيد عن سير التّجارب، وهو لم يتوان عن إظهار ضيقه ونفاد صبره، لذلك، كان عليها أن تفعل شيئًا ما، لقد دُفع بها إلى الزّاوية، فارتكبت حماقة بحقّ نفسها!

لكنّها مستعدّة للمخاطرة منذ البداية، ألم تكن كذلك؟

ذلك الكشف العلميّ المذهل، ستكون جزءًا صميمًا منه، بل محرّكه الفاعل.

***

عادت كلاوديا في المساء من المختبر، محمّلة بالدّفاتر والملفات. حين تفقّدت مؤشرات مانويلا الحيوية، وجدتها مفعمة بالنّشاط وقد تناولت وجبتها ونالت قسطًا من الرّاحة، رغم ذلك، حملت ملامح الباحثة قدرًا من الوجوم، داعبتها مانويلا:

- أنا بخير، ألا ترين؟ لن يصادر أحد شهاداتك العلميّة ولن تُطردي من عملك!

لبثت كلاوديا ساكنة للحظات، ثمّ اعترفت:

- لقد تحدّثت إلى زملاء باحثين.. مع أقصى قدر ممكن من التكتّم.. كانت تراودني نظرية ما وأردت أن يؤيّدني أحدهم أو يساعدني على إيجاد الخلل.. حسنًا، أعتقد أنّني أحتاج إلى تعديل التّركيبة..

رنت إليها مانويلا في قلق:

- لكنّ التّركيبة الحالية مُجدية أيضًا، أليست كذلك؟

- باعتبار النّظرية، فإنّ تركيز المضادّات التي تحويها التّركيبة يجب أن يكون أقلّ بدرجة قليلة، لتجنّب ردّة فعل حساسيّة، ربّما لن تؤذيك التّركيبة.. فأنت تبدين بصحّة جيّدة، لم يرفض جسمك العقار، ولم تظهر عليك علامات التحسّس، لكنّني سأنتظر حتى الغد لاتّخاذ قرار بشأن ذلك.. في هذه الأثناء سأعدّل التركيبة وأبدأ جولة تجارب جديدة على الفئران.

ابتسمت مانويلا وقالت بلهجة متسامحة:

- حسنًا.. كما تشائين.

كانت تودّ القول بأنّ العودة إلى تجارب الفئران مضيعة للوقت، لن تنتظر حتّى تنهي كلاوديا بروتوكولها العلميّ الطويل حسب القواعد التي تمليها منظمة الغذاء والدّواء ومنظمة الصحة العالميّة.. عادت تسألها:

- ماذا عن جهاز نقل الخلايا الجذعيّة، هل وصلت إلى واحد؟

أومأت موافقة، وابتسمت هذه المرّة:

- سيكون هنا خلال أسبوع!

ربّما يكون الأسبوع موعدًا قصيرًا بالنّسبة إلى الآجال الاعتيادية الخاصّة باستيراد المعدّات الطبيّة وعمليات التخليص الجمركية.. لكنّها لا تملك أسبوعًا. خلال يوم أو اثنين، يجب أن تكون في طريقها إلى الجزيرة مرّة أخرى. لم تشأ أن تواجه كلاوديا على الفور بقرارها. ستنتظر حتّى الغد، ريثما تطمئنّ إلى استقرار صحّتها وخلوّها من الأعراض التي تخشى صاحبتها ظهورها، بعدئذ ستبدأ التّحضير لرحلة العودة.

(20)

اليوم العشرون بعد الثلاثين

حين حضرت كلاوديا لزيارتها صباحًا، لمست مانويلا غمام القلق في عينيها العابستين. لم تتفوه كلاوديا بالكثير، إنّما اكتفت بتوصيات شاملة شأن توخّي الحيطة والعناية بنفسها والحصول على وجباتها في وقتها، وتناول المكمّلات الغذائية التي أحضرتها من أجلها.. سألت مانويلا بلطف:

- كيف حال تركيبتك الجديدة؟

- أظنّ أنّها ستكون جاهزة بنهاية اليوم.

بدا ذلك مبشّرًا وإن لم تعكس نبرة كلاوديا شيئًا من البهجة، بالإضافة إلى هذا، لم تكن مانويلا تشعر بأدنى نوع من الأعراض الجانبيّة المثيرة للقلق بعد حصولها على جرعة من التركيبة السّابقة منذ أربع وعشرين ساعة.

كانت قد مرّت بضع ساعات على مغادرة كلاوديا الشقة، حين تسلّلت مانويلا خارج غرفتها. شعرت بتصلّب عضلاتها ورغبت في بعض الحركة، فأطفأت أنوار غرفة المعيشة وتحرّكت بهدوء في العتمة، لا تتوقّع أن يُفسد خرقها للبروتوكول التّجربة، فالجزيرة ليست مظلمة أبدًا، خلافًا لكلاوديا، زارت مانويلا الجزيرة بنفسها وتعرف كيف يبدو الوضع هناك، ربما لا تصل أشعة الشّمس المباشرة إليها، لكنّ جزءًا من الإضاءة طبيعيّ تمامًا، لذلك، لا ضير من مغادرة الغرفة التي صارت سجنها.

تجوّلت في المكان على أطراف أصابعها، ربّما لن يشي أوران بها لدى كلاوديا، لكنّها ستتظاهر بأنّها لم تغادر الغرفة إمعانًا في الحذر، عرّجت على غرفة المعمل وقد ساورها الفضول، أرادت أن تطمئنّ إلى وضع سيليا، نظيرتها الفأرة. في الظلام، لم تلمح كتلة القفص، تحسّست طريقها باتّجاه طاولة المعدّات، لكنّها ألفت موضعه خاويًا، عادت لتضغط زرّ الإنارة، وتفقّدت زوايا المكان في اهتمام، لعلّ كلاوديا تكون قد حرّكت الفأرة من مكانها.. لكنّها لم تعثر على أثر للقفص في المعمل!

أدركت أنّ كلاوديا لا شكّ اصطحبت سيليا إلى المختبر! بالأمس، شاركت زملاءها الباحثين تفاصيل عن بحثها السّريّ وطلبت مشورتهم، والآن تشاركهم فأرتها؟ بدت تلك خطوة جسورًا وخطرة، ستوسّع دائرة الملمّين بشأن المادّة المتوهجة، لكنّ مانويلا لا تجرؤ على مناقشتها، فهي ترى مقدار التوتّر الذي تبدو عليه كلاوديا في الأيام الأخيرة. إن كان حصولها على المساندة والتأييد من باحثين آخرين سيشعرها بتحسّن ويعيد إليها ثقتها، فيمكنها التغاضي.

بعد يوم أو اثنين لن يهمّ من يكون على دراية بأمر المادّة وتأثيرها والمصل الذي يطوّر لمقاومتها.. فهي وأوران سيتلاشيان ويختفيان عن الأنظار، وربّما تلحق كلاوديا بهما، بعد أن يصل جهاز فصل الخلايا الجذعية.

وجدت هاتفها على منضدة المطبخ، بعد أن صادرته كلاوديا بالأمس. تفقّدت البريد الإلكتروني الوارد، ثمّ توقّفت أمام رسالة غير متوقّعة من البروفيسور أشرف صافي، خمّنت أنّه قد عثر على عنوانها في موقع الجامعة. قرأت الرّسالة في شرود، ثمّ أعادت تلاوتها من جديد.. كان يستفسر عن موقعها وإن كانت ستبحر نحو الجزيرة في القريب، ويُبدي رغبته في لقائها قبل ذلك، تنهّدت ثمّ أغلقت الهاتف دون أن تردّ.

وجدت نفسها تطرق باب أوران دون تفكير، كأنّما تلجأ إلى رفقته إمعانًا في الفرار من أفكارها الأخرى. فوجئت بالباب يفتح على الفور، قال متلهفًا:

- هل أنت بخير؟

غالبت الابتسامة التي ترغب في إبدائها، فهي لم تشأ أن يعتقد بسخريتها منه. لكنّها سرّت رغم ذلك للقلق الذي تقرأه في عينيه ولخروجه عن صمته أخيرًا.. ألم يناصبها العداء منذ رجوعه مكتفيًا بالنظرات الباردة وممتنعًا عن مبادلتها كلمة واحدة؟ لعلّ غيابها بالأمس كان غير اعتياديّ بالنّسبة إليه، وقد كانت قبل ذلك تهتمّ بشؤونه كلّها، لعلّ اضطراره للتعامل مع كلاوديا التي لا تفقه حرفًا ممّا يقول ولا يجد وسيلة للتّواصل معها شوّشه وعكّر مزاجه.. بشكل ما، صار حضورها يمثّل ركيزة في عالمه.

ألم يحاول الفرار، ثمّ عاد إليها رغم ذلك؟

قالت بهدوء:

- أنا بخير.. لقد شارفت رحلتنا على الانتهاء، ربّما غدًا.. أو بعد غد سنكون في طريقنا إلى الجزيرة!

أرفقت كلماتها الأخيرة بحركة مسرحيّة وهي تعلن الخبر السّعيد، أشرقت ملامح أوران، ثمّ سرعان ما تلبّدت فيها الغيوم.

- هل يعني هذا أنك حصلت على الدّواء الذي تريدينه؟

تنهّدت، ما يمثّل خبرًا جيّدًا لوالدها لن يكون على نفس القدر من الجودة بالنسبة إلى سكّان «آرا». قالت أخيرًا بلهجة جافّة:

- نعم.. ولقد أخذت الحقنة بنفسي أيضًا، هل تمانع إذا ما نزلت ضيفة على جزيرتك؟

لم يجب أوران، كان يدرك الهدف من اختطافه ومن الرّحلة كلّها، وها هي قد أحرزت النّتائج التي رغبت فيها، فما جدوى الغضب الآن؟ لكنّها غاضبة من نفسها، ومن عجزها عن عمل أيّ شيء لإيقاف والدها، بل تورّطها حتّى النّخاع في مخطّطه! بإمكانها أن تنتقد نفسها وتكره ما هي بصدده، لكنّها لا تتحمّل نظرة المساءلة في عينيه.

عادت لتقول بصوت أكثر لطفًا وإن لم يفارقها الاستياء:

- إذا كنت ترغب في جولة أخيرة في المدينة.. قبل رحيلنا.. كن جاهزًا بعد ساعة واحدة.

رغم أنه لم ينشأ في عالم تحكمه المنبّهات والعدّ التنازلي إلا أن عينيه لمعتا حماسًا للعرض المفاجئ.

تركت الغرفة وصفقت الباب خلفها، مشت حتّى المطبخ، وانهمكت في تحضير وجبة خفيفة للإفطار بتشوّش وسرحان، لا يزال الحجر ملازمًا لها، قابعًا في جيب سترتها، لكنّه لا يمثّل خطرًا على أوران. أمّا الخروج في وضح النّهار، فذلك تحدّ سافر لتعليمات كلاوديا الصّارمة بخصوص بروتوكول التّجربة، لكنّها لم تعتقد أنّ كلاوديا تعرف ما تفعله تمامًا، أو أنّ مكوثها في الظلمة ضروريّ. مع ذلك، ستحرص على حجب بشرتها كلّها ووضع نظاراتها الشّمسية وقفازاتها، كما فعل أوران في جولاته الأولى قبل الحصول على الحقنة.

بعد دقائق، سمعت باب الغرفة يفتح، وظهر أوران في غرفة المعيشة، قال بهدوء:

- أنا جاهز.

لم تمنع الابتسامة من الانتشار على محيّاها وهي تقول بهدوء:

- لنتناول الإفطار أولًا.

جلسا متقابلين، وتشاركا قطع التوست بالزبدة والمربى والحليب الدّافئ مع الشاي الإنجليزي والبيض المسلوق. لم يتكلّم أحدهما خلال طقوس الإفطار التي غلب عليها الصّمت الخاشع والاقتصاد في النظرات والحركات ثمّ وقفت مانويلا لتعلن أنّ موعد الخروج قد حان.

***

مشى أوران بخطوات هادئة إلى جوار مانويلا، على امتداد الشّارع الذي تحفه ناطحات السّحاب والمحلات التّجارية، لم يتحادثا منذ إعلانها اقتراب موعد العودة، لم يتحادثا كثيرًا أساسًا، وهو ساكن مثل مقبرة منذ مغامرته وحيدًا في شوارع المدينة، أجال بصره من حوله، يتأمّل واجهات البنايات، يلتقط الأصوات والرّوائح والألوان.. يصنع لها ملفّات في الذّاكرة ويخبّئها بحرص. انتبه إلى تشتّت حواسّه في أثناء محاولة الفرار، استغرقته أفكاره ومخاوفه فلم يغنم كثيرًا من التّجربة، فكّر أنّ رحلته على وشك الانتهاء، وأنّه قد لا يبصر معالم ذلك العالم المدهش ثانية، وأنّ مهمّة السّاعات الأخيرة ستكون تدوين التّفاصيل والاحتفاظ بالصّور الذّهنية.

إنّه يحبّ «آرا»، لكنّه لم يعرف غيرها طيلة حياته، لم يتوقّع أنّ السّياحة واكتشاف «مهافيا دياما» قد تُدخل عليه هذا القدر من المتعة وتأسر روحه، لا شيء يضاهي إحساسه بأشعة الشّمس وهي تدغدغ جلده وتبثّ موجات الدّفء داخله ومرأى السّماء العالية الرّحبة ذات اللّون «السّماوي» الفريد، لا شيء على الإطلاق، حتّى ذكرى نجاحه الأوّل في التّسخير، وإطلاقه الصّواعق في الهواء!

يدرك مدى تضارب خواطره، لو أنّه أراد البقاء إلى الأبد، فإنّه لم يكن مضطرًا إلى العودة، كان متاحًا له الاختباء والاختفاء، لكنّ هذا ليس نوع الحياة التي يريد. لقد تقبّل السّكن الآمن الذي توفّره مانويلا، والوجبات الغنيّة التي تعدّها أو تطلبها من أجله، وتلك الفسح الهادئة التي تجمعهما عبر الأزقّة.. ذلك النّمط يمنحه نوعًا من الرّاحة لم يصبه حين حاول أن يكون بمفرده، ربّما ما يفضّله هو أن يكون سائحًا لوقت محدود، أو ربّما أن يحظى بوسيط يذلّل مصاعب الحياة العصريّة نيابة عنه.

تمكّن منه ذلك الخاطر منذ أيّام وهو يهيم على وجهه، وما زال يراوده من حين إلى آخر: ماذا لو أمكنه أن يقايض هبة التّسخير بفرصة العيش تحت السّماء الشاهقة؟ فكّر أنّ المعالجة قد تكون قادرة على صنع عقار يسمح للـ«آم» بالسّفر إلى العالم.. مثلما صنعت في السّابق حبّات الدّواء التي تُمكّن الغرباء من تحمّل مناخ «آرا»، عندها لن يحدّهم شيء، ولن يمنعهم أحد من الهبوط على الشّواطئ الغريبة بدورهم، لكنّه استمرّ يكبح جماح نفسه ويؤنّبها.. أليس هذا ما سعى إليه مايك حين أرادهم أن يكتشفوا خيرات عالمه، فيعميهم الطمع ويرغّبهم في ترك موطنهم للدّخلاء يسرحون عبره ويمرحون؟

سيكون من المريح أن يعرف الـ«آم» رغم ذلك أنّ «مهافيا دياما» لا تسكنه الشياطين.. وأنّ بوسعهم تجاوز حدود الظلة دون أن يكون الموت متربّصًا بهم في أوّل الطريق، وأنّ كلّ الأساطير التي نشأوا عليها وتناقلوها جيلًا بعد جيل مجرّد أسباب خوف يمكنهم تجاوزها ببعض الشّجاعة.. والعقارات المناسبة.

سيكون ذلك مدهشًا، طالما كانت العودة متاحة متى رغب أحدهم في ذلك.

- أوه!

تأوّه فجأة، حين شعر بالشّمس تحرق جلده بلسعة حارّة، توقّفت مانويلا عن مشيها الشّارد وأقبلت نحوه في جزع:

- ما الأمر؟

فرك البقعة الحمراء القانية التي تكوّنت على ذراعه المكشوفة بلطف، ثمّ سحب كمّه إلى الأسفل ليخفيها بطبقة الصّوف المغزول الناعمة. كانت مانويلا تقول في قلق:

- يفترض بمفعول الحقنة أن يستمرّ بضعة أيّام.. ربّما كان علينا تجديد الجرعة.. هل تودّ أن نرجع الآن؟

بدت مشوّشة ومرتبكة، وقد تحوّل صمتها العميق إلى سيل من العبارات المتلعثمة، قال يهدّئ من روعها:

- لا بأس.. سأكون أكثر حذرًا..

رفع ياقة المعطف وسوى قبعة الصّوف على رأسه، ثمّ دسّ كفّيه في جيوبه العميقة ولاذ بالصّمت، لم تضايقه أشعّة الشّمس منذ أيّام، لحسن الحظّ، إلا أنّه غفل عن المتعة حين كانت في متناول يده وانشغل عنها بهواجس التّيه وطريق الوطن. لن تكون جولته الأخيرة في المدينة كما توقّع، لكنّه لا ينوي قطعها أو تفويت أيّ لحظة منها. لا يزال متاحًا له أن يجيل بصره، ويتأمّل مظاهر الحياة العصريّة، حتّى لو مشى في الظلال وتجنّب التّحديق في السّماء الزّرقاء التي يعشق درجة لونها المدهشة!

ارتفع رنين هاتف مانويلا بعد دقائق، أصغى إلى نغمة صوتها المتعبة وهي تتحدّث بالإنجليزية، خمّن أنّ صديقتها الباحثة هي المتّصلة. انتبه إلى توقّفها المفاجئ في منتصف الشّارع، وعلامات الذعر التي ملأت وجهها

تزامنًا مع انسحاب ألوانه، ازدردت لعابها بجهد واضطربت الأنفاس في صدرها.. همست أخيرًا بعد أن أنهت الاتّصال:

- يجب أن نذهب!

***

تحرّكت مانويلا داخل الشّقة في فوضى وعجلة، وهي تستعيد كلمات كلاوديا على الهاتف منذ دقائق: جاءت وكالة الاستخبارات للسّؤال عنها في المختبر، بعد أن تسرّبت أخبار المادّة المتوهّجة بسبب زميل لم يلتزم بالسّرية!

كانت كلاوديا قد رجعت إلى الشقة منذ حين، لتطمئنّ إلى حال مريضتها، حين وصلتها رسالة من رفيقة لها في المختبر تعلمها بأنّ موظفي الوكالة كانوا يفتّشون مكتبها ويصادرون ملفّات أبحاثها في تلك الأثناء! اتّصلت بمانويلا في فزع حين لم تعثر لها على أثر داخل الشّقة، ثمّ هرولت عائدة إلى مقرّ عملها لاحتواء الأزمة.

لم توبّخها لأنّها خالفت تعليماتها بمغادرة الغرفة بل والشقة كلّها. كان الوضع أكثر إلحاحًا من تلك التّفاصيل غير المجديّة. توسّلت إليها كلاوديا أن تسارع بالهرب والاختفاء حتّى لا يصل إليها رجال الاستخبارات. أمّا بالنسبة إلى أبحاثها، فستجد مخرجًا، يمكنها أن تلفّق أيّ قصة تمكّنها من التّنصّل، وبما أنّها تجهل حقيقة أين تقع «آرا».. فإنّ الوكالة لن تصل إلى أيّ نتيجة تُذكر من استجوابها.

سيصلون قريبًا إلى الشّقة، تدرك مانويلا أنّهم قادمون لا محالة، لذلك يجب عليها الفرار والتبخّر في الهواء بأسرع ما يمكن. دخلت غرفة المعمل، واتّبعت تعليمات كلادويا، داخل البرّاد وجدت أنابيب زجاجية مرصوفة،

تحوي تركيبة العقار المعدّل الذي انتهت منه كلاوديا تلك الظهيرة، جمعت دزّينتين من الأنابيب -وهي كلّ ما يحويه البرّاد- وضعتها في حقيبة طبية عازلة معدّة لغرض نقل المحاليل وقناني الدّواء، ثمّ ألقت نظرة على كيس البلازما الذي يستقرّ فوق الرفّ العلويّ للبرّاد، لم يكن توصيل العقار السّبب الوحيد الذي دفع بكلاوديا إلى ترك المختبر في منتصف اليوم.

الفأرة سيليا.. لم تكن بخير. كانت قرينة مانويلا في اختبار نجاعة تركيبة العقار تعاني فقدان الشهية والخمول، لم تكن أعراضًا متقدّمة أو مهدّدة للحياة، لكنّ كلاوديا فزعة إلى أقصى درجة، كان يفترض بها أن تقدّم لمانويلا محلول البلازما لدفع مفعول العقار والتخلّص منه، يلزمها الجلوس ساعة أو تزيد ريثما يتسرّب المحلول ببطء داخل أوردتها، لكنّها لا تملتك تلك السّاعة! إذا وصل رجال الاستخبارات في الأثناء، فإنّها ستعرّض أوران للخطر، وربّما يفقد فرصة العودة إلى الجزيرة إلى الأبد، ثمّ هناك والدها وعقاره الذي ينتظر!

حشرت كيس البلازما الشفاف داخل الحقيبة العازلة وإبرة الحقن المتّصلة به، بالإضافة إلى حقن تحفيز الميلانين التي احتفظت بها من أجل أوران، ثمّ هرولت إلى غرفة المعيشة حيث وقف المسخّر ذاهلًا، سحبت الحقيبة وقالت بلهجة قاطعة:

- هيا بنا.

تبعها دون نقاش حتّى المواقف تحت الأرضية، حيث ينتظرهما رجال والدها في حالة تأهّب.

تنهّدت حين انطلقت السّيارة أخيرًا عبر شوارع المدينة.. ها أنّ رحلة العودة قد بدأت.

***

وقفت على رصيف الميناء، تراقب الأفق في ضيق، لا تعرف ما الذي دفعها إلى تلبية طلب أشرف صافي، لم تنته الأمور بينها وبين آدم بطريقة سلميّة، وهي تجهل كيف تطوّر الوضع في غيابها، ولعلّها تدرك في داخلها أنّ لقاء البروفيسور سيتمحور تحديدًا حول مصير آدم.. لكنها وجدت نفسها تردّ على الرّسالة في أثناء انطلاق السيّارة باتّجاه المطار الخاصّ، وتضرب موعدًا يحين أجله خلال ساعات قليلة. تجهل إن كان أشرف سينتبه إلى الرّسالة في الوقت المناسب، وإن كان سيهرع لملاقاتها بالسّرعة الكافية، لكنّها قطعًا لن تنتظر.

طالعت هاتفها في قلق، بالإضافة إلى زيارة البروفيسور، تترّقب رسالة من كلاوديا.. لم تردّ الباحثة على اتّصالها رغم المحاولات المتكرّرة لساعات، منذ حطّت الطّائرة بها وأوران خارج الحدود التّرابية، بعيدًا جدّا عن منطقة الخطر وخارج مجال سلطة وكالة الاستخبارات، جاءتها رسالة وحيدة مقتضبة «سأتّصل بك، لا تقلقي»، ثمّ استمرّ الصّمت الطّويل. تخشى أنّ كلاوديا قد ورّطت نفسها في قضيّة شائكة، وأنّ شكوك التآمر على أمن البلاد تحوم حولها، بحيازتها مادّة مجهولة المصدر والمفعول، لا، بل إنّها هي -مانويلا- من ورّطت صديقتها وتسبّبت لها بتلك المتاعب! لو أنّها لم تحضر أوران والحجر إليها، ولو أنّها لم تحقن نفسها بالعقار، لما تهوّرت كلاوديا وكشفت أمر الحجر أمام غرباء! كانت تحاول مساعدتها.. وهذا جزاء شهامتها.

تقلّصت معدتها تقلّصًا مؤلمًا، تحاول أن تقنع نفسها بأنّ أيّ عرض قد يظهر عليها لا يتعلّق بالحجر أو العقار.. بل هو الجوع، أو الضغط النّفسي، لكنّها ستكون بخير.

أقبل أشرف راكضًا من البعيد فيما كانت تفكّر بأنّ موعد الرّحيل قد حان. تنهّدت وهي ترقب سحنته المشدودة تقترب، وعقدت ذراعيها أمام صدرها. وقف أشرف يلتقط أنفاسه المتسارعة، ثمّ هتف بصوت متقطع:

- حمدًا لله.. لحقت بك.. في الوقت المناسب!

أصغت في صمت تنتظر أن يفصح عن سبب اللقاء، فناولها أشرف حافظة جلديّة.

- ما هذا؟

سألت في استغراب، فقال محرجًا:

- أرجوك، لا تطرحي كثيرًا من الأسئلة التي لا أملك إجابات عنها.. سأطلب منك فقط توصيل الطرد إلى معالجة على الجزيرة.. السيدة مارتا.

وقفت متردّدة وقد فاجأها الطلب الغريب وغير المتوقع، ثمّ هزّت رأسها ببطء. ليس هذا أمرًا عسيرًا أو مستعصيًا، قالت بهدوء:

- إذا أتيحت لي الفرصة.. سأفعل.

- نعم، بالتأكيد.

استمرّ الصّمت بينهما للحظات إضافيّة، وسيرة آدم تحلّق بينهما وتخشى الألسن ذكره علانية، قال أشرف أخيرًا بلهجة اعتذار:

- تعلمين.. آدم لم يقصد الأذى، لديه دوافع كافية ليقف أمام خطّة والدك!

حدّقت في سكون، وتجمّدت حدقتاها المتّسعتان وعيناها لا ترمشان. بدت تلك العبارة البسيطة مقنعة وحقيقية تمامًا، وفي اللحظة التالية، تلاشى السّخط الذي سكن صدرها تجاه آدم! أدركت أنّه قادر على عمل ما تعجز هي عن الإتيان به. كان على أحدهم أن يوقف انجراف مايك راسل نحو الهاوية.. وربّما كان قدر آدم أن يكون هذا الشخص.

أطلقت زفرة طويلة ثمّ قالت بهدوء:

- أرجو أن يعود سالمًا إلى الدّيار.. حين ينتهي كلّ هذا.

أومأ أشرف بحرارة، فجأة راودها ذلك الخاطر القديم الذي سبق وأفضت به إليه، لكنّه أنكر، قالت باهتمام:

- تلك السّيدة التي أنقذتها منذ سنوات.. هل هي صاحبة الطرد؟

تسمّر أشرف مكانه ولم يردّ.. في خضم كلّ الأشياء الخاطئة التي أقدمت عليها أخيرًا، فكّرت مانويلا أنّها قد تُسهم في بعض الإصلاح، قالت وهي تندفع نحو اليخت:

- انتظرني هنا!

عادت بعد دقيقتين وهي تحمل بين يديها بضعة أنابيب طبيّة:

- هذا دواء تجريبيّ يساعد الأفراد الذين يعانون انخفاض الميلانين على تحمّل أشعّة الشّمس.. لا يدوم تأثير الحقنة طويلًا، لكنّه سيمكّن متلقي العلاج من الاستمتاع بالدّفء الطبيعي دون أذى لبضعة أيّام!

حدّق فيها أشرف برهة ثمّ دمعت عيناه وهو يستقبل الكيس في امتنان حقيقيّ.

- سوف يعني لها ذلك كثيرًا.

ابتسمت مانويلا وقد حصلت أخيرًا على الاعتراف الضمنيّ.

(21)

اليوم الواحد والعشرون بعد الثلاثين

جاءت ريحان لتجلس إلى جوارها وتثرثر، فيما تسرّح روان شعرها في شرود. لم تغادر الكوخ منذ أيّام، لكنّ ريحان تنقل إليها الأخبار وتعيد على مسامعها كلّ ما يقال في طرقات الجزيرة وأركانها. يستعدّ شعبها كلّه لزفافها، يشغلهم الشّغف بالحدث عن مخاوفهم وهواجسهم، ويؤدّي دورًا محوريًا في إشاعة الطمأنينة والسّكينة.

إنّ وظيفتها كـ«ماغداخا» تجعلها تضع مسؤوليّاتها تجاه قومها قبل كلّ شيء آخر. لم يكن الزّواج ضمن خطّتها العاجلة، ليس قبل تنفيذ مشروع النّزوح الكبير، لكنّ حصار الدّخلاء لـ«آرا» غيّر خارطة الأولويات، إنّ الحفاظ على المعنويات مرتفعة وبثّ أسباب الثبات أهمّ من كلّ شيء آخر.. وذلك ما يحقّقه هذا الزّواج. اتّحاد المعالجة والمُخلِّص يعدّ تدبيرًا مثاليًا لمواجهة الخطر الخارجيّ، بتأكيد التماسك الدّاخليّ لبناء المجتمع.

تبدو تلك الشعارات الخلابة والرّنانة خاوية من المعنى بالنّسبة إلى فتاة العشرين التي تتقوقع في أوقات خلوتها، ويتسلل إليها الإدراك الخام.. بأنّ مصيرها سيرتبط بمصير شخص آخر، مدى الحياة!

تتزوّج رفيقاتها في سنّ أصغر غالبًا، يرتبطن بأقرانهنّ من الشّباب وقد عرف بعضهم بعضًا منذ الطفولة، ينشأون وهم يخطّطون من سيتزوّج من.. يسترقون نظرات الإعجاب والفضول تجاه الجنس الآخر، وينتظرون

اختبارات التخرّج، التي تجعل من الذكور أهلًا للاقتران، ثمّ تنطلق مواسم الأفراح التي خطط لها قبل ذلك بأمد.

لقد انتظرها أوران طويلًا، تدرك ذلك وإن تجاهلته وتغافلت عنه. حين بلغت السّادسة عشرة، كان قد بلغ الثامنة عشرة، ونجح في اختبار التّسخير. لم تظهر هبة العلاج لديها إلا بعد شهور، لكنّ ذلك ليس ما منعها من إهدائه ربطة شعرها. أوران هادئ وصبور، لا يطاردها ولا يلحّ عليها، لكنّ الـ«آم» يتكلّمون. لا شيء يخفى على الجزيرة، وعاطفته تجاهها كانت جليّة رغم المسافة التي تبقيها بينها وبين الآخرين، ورغم هالة الوقار التي تحيط بها.

لكنّها لم تستسلم للضغط الجمعيّ، ولم تُذعن لإرادة المجتمع. كانت بحوزتها قائمة من الأسباب الوجيهة والمقنعة، غير أنّ أيًّا منها لم يكن جوهريًّا. الحقيقة التي احتفظت بها لنفسها هي أنّ أوران لم يكن كافيًا بالنّسبة إليها، وهل يكون أيّ من الـ«آم» كافيًا في نظرها، والمُسخِّر الشاب يعتبر من خيرة شباب الجزيرة؟ مَنْ كانت تنتظر طيلة ذلك الوقت؟ وهل كانت الرّؤى التي تجيئها من حين إلى آخر إلا أضغاث أحلام؟ هل كانت تنتظر الرّجل الذي يظهر في حلمها؟ وهل تعتقد أنّ آدم هو ذاك الرّجل؟

لعلّها ستبدو ساذجة في عيون الآخرين، إن هي أفصحتْ عن الرّؤى التي تأتيها.. ولذلك تبقيها سرًّا، وكيف تكون الـ«ماغداخا» الحكيمة فريسة لوهم بلا ملامح؟ حين عرفت من والدها بخطّة النّزوح، خفق فؤادها بشدّة، وقد أدركت أنّها إن غادرت «آرا»، فإنّها ستلتقي برجل الحلم حتمًا، لكنّه -ربّما- قد جاء إليها؟ وهل يمكنها أن تضع ثقتها كلّها في صدق الرّؤيا، ومستقبلها على المحكّ؟

لعلّ آدم لم يكن كاملًا من نواحٍ عدّة، وهو قطعًا لا يشبه صورة الرّجل المثالي من وجهة نظرها، شكلًا وطباعًا وسلوكًا، غير أنّه ينجح في الاختبارات واحدًا إثر الآخر، ويكسب قلوب الـ«آم» حكماء وعامّة، أطفالًا وراشدين ومُسخِّرين.. لكن أين موضع قلبها من المعادلة؟ إن كانت «آرا» اختبار آدم، فهل يكون آدم اختبارها؟!

لعلّها تبالغ إن هي زعمت برودها تجاهه، بل كثيرًا ما شعرت بالألفة نحوه، وإن لم توافقه دائمًا، فهي تثمّن شجاعته وتقدّر فطنته وتعلم أنّها إن اعتمدت عليه فلن يخذلها، ورغم كونه «أيتورا»، غريبًا قادمًا من «مهافيا دياما»، فقد وجدته دائمًا شبيهًا بها، والتّواصل بينهما ينساب بيسر مثل جدول رقراق، تلك الخواطر أدعى للاطمئنان، لكنّ فؤادها حائر ونفسها مفعمة بالقلق، وكيف لا تكون، وهي أول بنات الجزيرة ارتباطًا بأجنبيّ غريب.. بعد والدتها؟

تتلبّد الهواجس في ذهنها وهي تتأمّل التساؤلات التي تبقى بلا إجابة قاطعة، أوليس ذلك شأن كلّ الزّيجات؟ ألا تراود كلّ فتاة تهمّ بالزواج شكوك مشابهة في الأيّام السّابقة للموعد الحاسم؟ كلّهن يتأمّلن في ريبة، رغم امتداد الخطبة وسابق المودّة: هل أخطأن الاختيار؟ هل هو الرّجل المناسب؟

لكنّ الأمر مختلف بالنّسبة إليها، حتّى لو كانت مجازفة من زاوية نظرها الشّخصية، فهو الرّجل المثالي من منظور شعبها.

وذلك كافٍ حتمًا.

***

مرّ اليوم الأوّل على اليخت في محاولات الاتّصال بكلاوديا وتلقي تعليمات مايك راسل بخصوص رحلة العودة. إن كان طريق الوصول إلى الدّيار مباشرًا وتلقائيًا بضبط إحداثيات الأقمار الصّناعيّة، فإنّ اتّجاه «آرا» ليس بتلك البساطة. كان على القبطان الاستمرار في اقتفاء أثر الإشارات التي ترسلها سفينة «سارا»، حيث أقام مايك مقرّ القيادة العامّة للأسطول.

حين انتبهت مانويلا أخيرًا إلى نفسها، تذكّرت أمر كيس البلازما الذي تكبّدت كلاوديا عناء إحضاره من أجلها، لم تكن تشعر بأدنى أعراض بعد، لكنّها تقديرًا لجهود صاحبتها الباحثة واحترامًا لوجهة نظرها العلميّة، قرّرت أن تصغي إلى توصياتها، ولو بعد لأي.

أخذت كيس العدّة، وطرقت باب أوران، دخلت وعلى وجهها ابتسامة ودود، تعلن حاجتها إلى خدمة من طرفه، على متن اليخت، كان الرّجال الذين يرافقونها من بحّارة ومرتزقة وطبّاخين وميكانيكيين وعمّال غير صالحين لتلك العمليّة الدّقيقة. تقنيًا، لا يعدّ أوران خيارًا أفضل، فهو لا يعرف شيئًا عن طبّ العالم الحديث، فضلًا عن إمساكه إبرة حقن في أيّ وقت سابق! لكنّه مُسخِّر، وهذا يجعله -نظريّا- ماهرًا وموهوبًا، وإن كان التّسخير يتعلّق بأعمال مختلفة تمامًا عن الحقن الوريديّ! لكن ها هي ذي، تقف أمام الرّجل وتشرح طلبها الغريب:

- عليك أن تمسك الإبرة بزاوية مائلة، قرابة ثلاثين إلى أربعين درجة.. وتبحث عن الوريد البارز على الذّراع.. ثمّ تجعل الإبرة تنزلق فيه بلطف.

ربطت عصابة مطاطية أعلى ذراعها، ومسحت منطقة الحقن بمطهر طبي للتعقيم، ثمّ أشارت إليه كي يحاول.

حدّق أوران في الإبرة، وهو يمسكها بين كفيه، ثمّ قرّبها في حذر من المنطقة التي أشارت إليها مانويلا، لم يكن يدرك كيف تقاس الزوايا، ولا

كيف هو شكل الوريد، غير أنّ الإبرة ذكّرته بالحقنة التي تلقاها في شقة الباحثة. ألم تدفع الإبرة في ذراعه مرّة واحدة دون تعليمات كثيرة؟ فما الذي يجعل الأمر مختلفًا هذه المرّة؟

شاهدت مانويلا أوران وهو يمسك الحقنة بمجمع يده ويهمّ بغرسها في ذراعها، فسارعت تأخذها منه:

- توقّف! دعني أريك كيف يكون الأمر.

لم تكن ذات خبرة حقيقية بدورها، لكنّها تلقت محاليل طبيّة في قسم الطوارئ في مناسبات سابقة، وكلاوديا أمدّتها بتعليمات دقيقة.. بالإضافة إلى مشاهدتها مرّات عدّة لفيديو الشّرح على اليوتيوب «كيف تدخل حقنة وريدية» في أثناء رحلة السيّارة، ليس هناك موضوع أو نشاط لا تجد الفيديو الخاصّ به على اليوتيوب. إلا أنّ تغطية البيانات لم تعد متوافرة بعد ابتعاد اليخت عن المياه الإقليمية. كان عليها تحميل الفيديو لتُطلع أوران عليه، لكنّ الحسرة والفزع لا ينفعانها الآن. ستعتمد على ذاكرتها وحدها إذًا.

أعادت تجسيد الحركات أمامه ببطء دون أن تدسّ الإبرة في ذراعها، ثمّ قالت:

- حين تعثر على الوريد، تدفع الإبرة ببطء داخل الجلد.. هل فهمت؟

هزّ رأسه مؤكّدًا، فأعادت تعقيم منطقة الحقن وانتظرت. حين ولجت الإبرة ذراعها انتشر عبر خلاياها ألم حاد جعلها تطلق صرخة مختنقة، فسحب أوران الإبرة على الفور.

- هل أنت بخير؟

أومأت بابتسامة واهنة، ثمّ قالت:

- لنحاول ثانية.. بلطف.

راقبته في توجّس وهو يكرر المحاولة. حين سرت الإبرة تحت جلدها، لم تستشعر الألم ذاته هذه المرّة، بدا أنّ العمليّة ناجحة. ابتسمت في امتنان، ثمّ تلفّتت تفتّش بعينيها عن مشجب مرتفع لتعليق الكيس، لكنّها لم تقف على موقع مناسب، سألها أوران:

- هل لك حاجة أخرى؟

أشارت إلى الكيس في حرج.

- يجب أن يبقى معلقًا حتى يفرغ!

أخذ عنها الكيس، ووقف إلى جوارها رافعًا إياه عاليًا:

- هكذا؟

أومأت في حرج، لا تتوقّع منه أن يقف مكانه ساعة أو نحوها، لكنّها بتحفيز من رغبة طارئة في مناكفته، ودَّت أن تختبر مدى صبره، مرّت بضع دقائق قبل أن تشعر بتململه، ربّما حسب أنّ المهمّة ستنتهي سريعًا، وربّما يرى أنّ تدريبًا إضافيًا على الجلد ودفع قدرة تحمّله لا يضرّ. تذكّرت كم أنّه معتاد على مظاهر الحياة القاسية والمشقة البدنيّة، ابتسمت لنفسها وهي تفكّر في كيفية تزجية الوقت حتّى تمرّ السّاعة، لا يزال الوضع بينهما مشدودًا، لم يتحادثا كثيرًا منذ مغادرتهما الشقة، باستثناء المعطيات الأساسية، بادرت تقول بعد برهة تردّد:

- أنت سعيد، لأنّك تعود إلى موطنك؟

تحرّك في موضعه قليلًا، ينقل وزنه بين ساقيه، ولم تبد عليه الرّغبة في مجاراتها. ذلك النّوع من الدردشة الجانبيّة بين الغرباء لإذابة الجليد وتخفيف التّوتر، لقد تجاوزا كلّ ذلك.. سألها فجأة بلهجة صادقة وخالية من السّخرية:

- هل أنت سعيدة؟

لم يحدّد موضوع سعادتها، حصولها على العقار؟ عودتها إلى سفينة والدها؟ لرفقته؟ التّرحال حول العالم؟ الانتماء إلى العالم المتحضّر؟ أم أنّه يقصد السّعادة الصّرف بغضّ النظر عن مسبّباتها؟ هل كانت سعيدة في تلك اللّحظة؟

قدّرت أنّها لم تكن سعيدة فعلًا، كان شيء ما يضايقها بشدّة، يضغط على معدتها ويجعل الغصّة تتصاعد إلى حلقها، وحين انتبهت إلى ذلك، اعتصر الألم صدرها على حين غرّة ممّا جعلها على حافّة البكاء ثمّ توقّفت عيناها بغتة على الانتفاخ في ذراعها! كان ذلك مصدر ألمها الغريب، ألم متسلّل تدريجيّ يزحف تحت جلدها دون أن تنتبه، ثمّ في لحظة ما يصبح لا يطاق! جذبت الإبرة بحركة حادّة لتخرجها من مكانها، ومسّدت موضع الحقن المتورّم، لم يكن السّائل يسري في وريدها، بل يتجمّع تحت جلدها. فشلت المحاولة!

زفرت في استياء، ثمّ احتضنت وجهها بين كفّيها. تردّد أوران.

- هل أحاول مرّة أخرى؟

رفعت رأسها، تقيّم الاقتراح، إن لم يفعل، فهل سيكون أمامها حلّ آخر؟ قالت دون انفعال:

- لنحاول على الذراع الأخرى، فقد تورّمت هذه.

انتقل إلى جانبها الآخر، وانحنى فوق ذراعها، يكرّر التّعليمات السّابقة بهدوء يكاد يكون احترافيًا، لاحظت أنّه سريع التعلّم، منذ دقائق كان يمسك بالحقنة لأوّل مرّة في حياته، والآن يحاكي حركات المختصّين بثبات.

فجأة ارتجّ اليخت، كانت الإبرة على مسافة سنتيمترات قليلة من ذراعها، لكنّ الرّجة جعلت أوران المنحني يفقد توازنه، ليسقط على جانبه على الأرضيّة، وتصطدم الإبرة في يده بحاجز السرير المعدنيّ. انثنى الفولاذ المقاوم للصدأ والتوى، فيما تناهى إليهما عواء الرّياح بالخارج، وارتطام الأمواج العاتية بجسم اليخت، وصراخ البحّارة وخطواتهم المهرولة للقاء العاصفة، بينما استمرّ الارتجاج والتّأرجح.

حدّقت مانويلا مصدومة في الإبرة التالفة، لم يكن بحوزتها غيرها! شعرت بهلع الشابّ الذي أدرك فداحة الأمر، فأرادت أن تخفّف عنه الملامة.. هزّت كتفيها في استهانة وقالت ببساطة:

- يبدو أنّني لن أحصل على البلازما، في نهاية الأمر!

مدّت كفّها لتساعد أوران على الوقوف، لكنّه تجاهلها وهو يعاين الإبرة بسحنة مهمومة:

- ألا يمكن إصلاحها؟

- لقد انتهى أمرها.. وانتهينا هنا.

جمعت العدّة بجبين متغضّن وسحنة شاحبة، ستكون ليلة عسيرة بسبب العاصفة. غادرت المقصورة على عجل، كأنّها تفرّ من شيء ما، لعلّ تغيّر الجوّ يوفّر غطاءً مثاليًا لانسحابها، إلا أنّها في الواقع تتجنّب سؤاله السّابق، تخشى أن يستأنفا الحديث حيث توقفا، لتواجه الحقيقة العارية: أنّها ليست سعيدة.

(22)

اليوم الثاني والعشرون بعد الثلاثين

لعلّ شيئًا لم يختلف في حياة القرية في الأيام السّابقة، ينغمس كلّ فرد في عمله بالتفاني المعروف لدى الـ«آم»، ويمارسون الحكي والرّقص والغناء في جلسات الأصيل الخاملة، ثمّ يسهرون في جماعات يتسامرون في خلوّ بالٍ وصفاء حال، كأنّ أمر السّفن البعيدة التي لا تبرح مواقعها عند حدودهم لا يشغلهم، وحتّى إن كان يفعل، فهم لا يظهرون ذلك!

لعلّ سفن الدّخلاء أصبحت مع الوقت جزءًا من المشهد المعتاد، فما عادت تثير دهشة أو رعبًا، والسّكون المخيّم عليها، والذي يرصده الحرّاس في جولاتهم، يُسهم في تجاهلها وإغفال حضورها، إنّما هي أطلال ثابتة لم يعد أحد يحسب لها حسابًا.. باستثناء آدم القلِق بطبعه.

لا.. يعرف على الأقلّ أنّ الحكماء لا ينفكّون يتشاورون ولا ينقطعون عن الثرثرة المحتدمة عالية النّبرة، وأنّ المسخّرين يتدرّبون بلا هوادة ولا يتلكؤون، وما مشروع زواجه نفسه إلا مظلة سلام افتراضية يبسطها شخصه المبجّل ليعيد الوئام إلى ربوع الجزيرة ويبثّ الطمأنينة في نفوس العامّة الغافلين!

وهو يتجوّل عبر طرقات القرية، يلحظ زحف السّكّان باتّجاه بيوتهم القديمة تدريجيًا. تعود العائلات إلى أحضان الجدران المتداعية، يدفعون الأذى ويتخلّصون من الرّكام المحترق، ويجلسون في كنف الزوايا المألوفة

ويركنون إلى الحنين. لم تعد القرية مجرّد أثر لحياة سابقة، بل إنّها تنبض بالحياة في كلّ وقت من النّهار، إنّما يكمن الاختلاف في تجلّي معالمها للجميع، بعد أن ذهبت الأسقف، وصارت مكامنها مكشوفة للعيون، ولعلّ تلك المشاركة الوجدانيّة هي ما شجّع أهل الجزيرة على استيطان البيوت من جديد، لا يتركونها إلا حين يجنّ اللّيل وترتع خيالات العتمة، فينسحبون إلى مواضع نومهم.

بالإضافة إلى روتين الحياة التي تستعيد طبيعتها، تنبت بذور التغيير ويتّقد الحماس بسبب الأفراح التي تهلّ في الأفق. يتحدّث الـ«آم» بلا انقطاع عن الحدث العظيم الذي ينتظرهم بعد أسبوع، ثمّ خلال أيّام.. وها أنّه قد صار على مرمى حجر وموعده الغد! زواج المُخلّص والمعالجة لم يكن مناسبة عابرة، ولا عُرسًا آخر مثل غيره من الأعراس.. بل هو «حدث العام»، بل «حدث القرن» ربّما! ذلك النّوع من الأحداث الذي لا يعيشه المرء أكثر من مرّة في حياته كلّها -تمامًا مثل ظهور المُخلِّص، واقتحام الغرباء- فقد كان عامًا فريدًا ومدهشًا بالنّسبة إلى «آرا».

تنضمّ السيّدات إلى أرابيلا تحت العريشة قرب الغابة منذ أيّام، تنهي بعضهنّ نسيج أثواب العروسين من صوف الماعز الرّقيق النّاعم، فيما تنغمس أخريات في سحق التوت البريّ الذي جمعنه من الغابة بأرجلهنّ، يحضرن الصّبغة الحمراء التي سينقع فيها النّسيج لدبغه. أمّا وقد فرغن من عملهنّ وتركن الثوبين ليجفّا، فإنّ اجتماعهنّ لا ينقطع، فيتمايلن ببطء وهنّ يرفعن أصواتهنّ بنغمة نشيد هادئة ورقيقة، أمّا الرّجال فيقضون أيّامهم عبر التّلال، يطاردون القطيع الهائم ويجرّون مزيدًا من الأضاحي الشّاردة، يجهّزونها من أجل وليمة الغد التي لن تضاهيها وليمة أخرى. يلمح آدم

الحركة الدّؤوب من حوله، ويتلقى التحيّات والتّبريكات بغزارة، غير أنّه لا يرى أثرًا لفرد واحد في الجزيرة كلّها: روان!

يكاد يجزم بأنّها قد اختفت فجأة منذ عشرة أيّام. بعد أن أرسلت إليه ربطة شعرها مع ريحان ذلك المساء على الشاطئ، لم تعد المعالجة تظهر أمامه أبدًا! لا يعرف يقينًا إن كانت تحتجب عمدًا، كنوع من التّقاليد العريقة لدى شعبها، والتي تفرض بقاء العروس في خدرها أيّامًا، على سبيل الحياء والحشمة.. أم أنّها تختبئ عنه تحديدًا، لأنّ العادة تدعو الشابة إلى الحفاظ على مسافة من رجلها، تأجيجًا للشّوق بينهما في انتظار اليوم الموعود؟ أم أنّها تتجنّبه.. لسبب يجهله!

لم يجد من المنطقي أن تتنازل المعالجة عن مهامها لعشرة أيّام كاملة، وهي التي كانت حتى ذلك الوقت أكثر من يهتمّ لشؤون الآخرين، وأكثر من يسعى لقضاء الحاجات.. بل إنّها كانت تراقب أحواله دائمًا، وكثيرًا ما تظهر من حوله في أوقات لا يتوقّعها.. فكيف تتلاشى فجأة؟ أيًا كانت أسبابها ودوافعها، فقد كانت استراتيجية فعالة. في غيابها، يظل يستحضر طيفها في كلّ مكان، ويشغل التفكير فيها كلّ لحظة من يومه. يتطلّع إلى جدران كوخ «كوتانا» عمّار في فضول، وهو يقطع السّاحة صباحًا وحين يرجع مساءً، ويتساءل إن كانت تحتمي بها ولا تغادرها؟ أم تراها تقيم داخل المشفى، تواصل النّهوض بمهامّها فلا تعطّل سير الحياة على الجزيرة؟

وقد تهوّر بالأمس ودخل مبنى المشفى دون سبب ظاهر، وقف وسط الغرفة يجوّل بعينيه في كلّ شبر فلا يُبصر شبحها في أيّ زاوية، بل كان حضور جدّته مارتا ما فاجأه! لقد حظيت بالعفو الرّسميّ من المجلس منذ أسابيع، بعد أن جعلها تغادر حبسها الاضطراريّ، غير أنّه لم يرها كثيرًا منذ ذلك الحين كأنّها تعوّدت حياة العزلة وألفتها، لكنّها الآن تباشر مهامّ

العلاج علنًا نيابة عن روان. أدرك حينها أنّ مخطوبته تخضع لاحتجاب العرائس لا محالة! وأنّ التقليد من الأهميّة والخطورة بمكان إلى درجة إعادة الـ«ماغداخا» المعزولة إلى منصبها.

كان عليه إذًا أن يصرف تفكيره إلى أمور أخرى، ويشغل نفسه عنها، علّ افتقاده لها يخفت. وقد كانت تلك الوحشة في صدره لغيابها ممّا يؤكّد مكانتها في فؤاده، ويدعم صواب قراره. لقد كانت صداقتها وحضورها مصدر دعم منذ بداية رحلته، ولقد استمرّت حليفة وشريكة في كلّ خطوة أقدم عليها.. وقد كانت الشخص الوحيد في الجزيرة الذي أبدى تفهّمًا لوضعه، واهتمامًا بعالمه، وتعاطفًا مع والديه، ورفقًا في أزماته. كان لديه ما يكفي من الوقت في تلك الأيام ليسترجع كلّ موقف ومشهد ولحظة جمعتهما، كلّ عبارة وحكمة وعتاب جاءت على لسانها.. ليدرك كم يشتاق إلى صُحبتها وكم يتوق إلى انتهاء فترة الاحتجاب حتّى يفضي إليها بكلّ خاطرة راودته بشأنها.

ومع ذلك، فقد كان منهمكًا في كلّ أعماله الأخرى.. تجارب تشكيل المعدن مع فريق المسخّرين الرّماديّين، متابعة الأحوال العامّة، الاجتماع مع الحكماء لفضّ النّزاعات والتحكيم في الخلافات، حلقة القرآن مع الصّغار، ثمّ، وحين ينفرد أخيرًا في آخر النّهار، يتدرّب منفردًا على التحكّم في قدرات المسخّرين التي لا تزال تتفلّت منه، ويُنهي صنع القطعة الفريدة التي ستكون مهرها.

وبما أن موعد الزّفاف قد اقترب، فقد أراد أن ينجز شيئًا حقيقيًّا باهرًا يقدّمه هدية لها، المهر الماديّ شأن، والهديّة التي يتوق إليها شأن آخر، المهر المادي كان متوقّعًا.. تقليد علني يُقاس بالقيمة والثروة ويخضع لتدقيق كل عين، أمّا الهدية.. فمقدّسة وحميميّة، ليست للعرض ولا للحكم، فهي

موجّهة لها وحدها، تهمس بالعاطفة والاهتمام، وبرباط أعمق من مجرّد الواجب، زِنَتُها تفوق أي شيء مخيط أو منقوش أو قابل للعدّ!

لقد رأى نظرة الذهول التي ملأت عينيها حين كان يشكّل الأمواج ويرفعها في الهواء.. وقد أحبّ أن يكون مصدر فخرها ومحطّ إعجابها، وإنّه يرنو إلى تجديد تلك النظرة في مقلتيها مرارًا وتكرارًا.

إذًا، فقد كان أمامه عمل كثير بعد.. حتّى الغد!

***

في أثناء رحلة العودة، لم يكن أوران سجين غرفته، بالإضافة إلى تطوّر نوعيّة التّواصل بينه وبين مانويلا، فإنّها لم تكن تخشى أن يحاول الهرب أو يقدم على عمل طائش فيما يتّجهان إلى الجزيرة. لقد تعاملا بثقة متبادلة خلال الأيّام الماضية، ويعرف أنّه يمتلك مساحة من الحرّية، حتّى إنّها قصدته حين احتاجت إلى العون، رغم ذلك، لم يغادر المقصورة كثيرًا.

كانت الليلة الماضية رهيبة ومربكة لأعصابه، مع تواصل انهمار المطر وتخبّط السّفينة وسط الأمواج الصّاخبة، ولم تكن الوحدة إلا لتزيد وضعه سوءًا. تساءل طيلة الوقت عن مدى متانة المركب وقدرته على التصدّي لهجمات الطبيعة، ثمّ ذهبت خواطره إلى مانويلا، ما الذي تفعله في تلك الآونة شديدة الوطأة؟ وكلّما زمجر الرّعد وضرب البرق سطح الماء، اهتزّ ثباته ثمّ فكّر فيها على الفور.. كيف هو فؤادها الرّقيق، وكيف تتحمّل لحظات الرّعب بمفردها؟ توقّع أكثر من مرّة أن يراها تهرع إلى مقصورته، تطلب حماية ورفقة، لكنّها لم تفعل.. وحين هدأت الزّمجرة وفتر التلاطم، استسلم للنّوم أخيرًا.

أشرق اليوم الجديد على صحو ووداعة، واستمرّت الرّحلة هادئة وآمنة.

باستثناء زيارتها له بالأمس، وبعد عمليّة نقل البلازما الفاشلة، لم تأت مانويلا لرؤيته، ارتاب طويلًا في غضبها بسبب حادثة الإبرة، أو تفاديها إيّاه لسبب آخر يجهله.. لكنّه سرعان ما عاد لينأى بأفكاره عنها وينغمس في التأمّل في ما ينتظره حين عودته إلى «آرا».

لقد انفصل وجدانيًا عن الـ«آم» منذ أكثر من أسبوعين، حين أصبحت نجاته الشخصية كلّ ما يشغله، أمّا الآن، وقد اقترب من الوصول إلى أرض الوطن أخيرًا، يسترجع تفاصيل الأيام السّابقة للرّحيل: هجمات الدّخلاء على القرية، الأسرى، المُسخَّر القتيل ماتياس، لا يعرف ما الذي حدث في غيابه، وكيف تطوّر الوضع، إلا أنّه يثق في المُخلِّص، يودّ الاعتقاد بأنّ الـ«آم» في أمان، وأنّ السّلام قد حلّ على «آرا» من جديد!

كانت مانويلا على اتّصال بوالدها في أثناء إقامتها بالمدينة، وإن لم يكن يفقه حرفًا واحدًا ممّا يقولانه، فإنّه يدرك مقدار غضب الرّجل من نبرة صوته التي تصله أحيانًا، لم تكن الأحداث تسير كما يشتهي، وذلك مطمئن إلى حدّ كبير.. غير أنّ الوضع على وشك الانقلاب لصالح الغرباء إذا ما عادت مانويلا وبحوزتها العقار الذي يسمح لهم بتحمّل مناخ «آرا»، كان عليه أن يجد وسيلة لإفساد الأمر، رغم امتنانه لحسن معاملتها، ولمنحها إياه فرصة التعرّض للشّمس بأمان، سيكون عليه الوصول إلى حقيبة العقار وإتلافه، أو رميها كلّها في البحر.. إذا ما تمكّن من التسلّل إلى غرفتها حين تكون خالية منها.

إلا أنّه لا يفعل شيئًا حتّى الآن، ويدرك بمرور الوقت أنّ اليخت يقترب بسرعة كبيرة من موقع «آرا»، وأنّه لن يصنع فرصًا إذا ما استمرّ في الاختباء داخل غرفته.

تجرّأ أخيرًا على فتح باب المقصورة والتّسلل خارجها. يعمّ الهدوء المكان غالبًا، باستثناء صوت المحرّكات التي تزمجر باستمرار، والماء المتطاير حول اليخت الذي يسابق الزّمن. يبقى رجال مايك راسل المسلّحون متأهّبين ومتمترسين في مقدّمة السّفينة، يراقبون الأفق البعيد بالمناظير تحسّبًا لأيّ خطر داهم، ويتولّى البحّارة تعديل خطّ السّير باستمرار، لضمان البقاء على المسار الصّحيح. يجهل كيف تعمل تلك الآلات، ولا يهتمّ كثيرًا، رغم افتتانه بكلّ العجائب التي اكتشفها في «مهافيا دياما»، فقد انتهى أوان الفضول وحان موعد الحسم.

لم يظهر أحد أمامه وهو يتقدّم داخل الممرّ بهدوء، يتوقّف أمام كلّ غرفة ويصغي بانتباه للأصوات المحيطة، تحسّبًا. يعرف أنّ غرفة مانويلا تقع في نهاية الممرّ. حين وصل عند بابها، تناهى إليه صوت ضعيف كالأنين، استيقظت حواسّه، وهو يصيخ السّمع، يلتقط الإشارات بتركيز.. لم يبق لديه شكّ بأنّ الهمهمة تصدر عن مقصورتها، كان ينوي الاقتحام السّريع والفرار، حتّى لو كانت داخل الغرفة، فإنّ حركته المباغتة ستمكّنه من إتمام المهمّة قبل أن تستوعب حقيقة نواياه.. لكنّ الأنين شغله عن هدفه الأوّل.. طرق الباب بهدوء وانتظر، مرّت الثواني دون أن ينقطع الصّوت الخافت أو تفتح الدّفة، فتجاسر على الدّخول.

على السّرير، كانت مانويلا تستلقي نائمة، تبدو وجنتاها محتقنتين، وجبينها متعرّقًا، وهي تجزّ على أسنانها وتتأوّه في ألم مكبوت، نسي على الفور أمر العقار الذي وجب عليه التخلّص منه، واقترب من السّرير وقد

استبدّ به القلق. كانت الفرصة مثالية للبحث عن الحقيبة ورميها في البحر، لكنّه لا يفكّر في العقار الآن.

هزّ كتفها برفق ونادى اسمها، لكنّها لم تستجب.. لامست أطراف أصابعه ظهر كفّها الذي ينقبض بشدّة، فألفى بشرتها ملتهبة، لم يعرف ما الذي ينبغي له عمله، هل عليه أن يطلب المساعدة؟ لكنّه لا يعرف كيف يخاطب هؤلاء الرّجال الغلاظ، وحدها مانويلا تتكلم لغته، قد ينجح في جرّ أحدهم إلى الغرفة ليلقي نظرة عليها، إلا أنّه يجهل ما قد يترتّب عن انتشار خبر مرضها، كيف سيعاملونه؟ وماذا سيكون مصيره؟ إنّه يخشى إن أصابها مكروه أن يفقد كلّ الدّعم الذي حصل عليه بفضلها، أن يعود سجينًا وغريبًا منعزلًا!

وهل كان يومًا غير ذلك؟

كان ينبغي أن يفكّر في العقار في تلك اللّحظة، لكنّه لا يفعل.. يستمرّ في إبعاد الفكرة عن وعيه وينفيها إلى الأعماق، كان عليه أن يفعل شيئًا من أجلها، أحضر قارورة ماء بارد، بلل منشفة ومرّرها برفق على وجهها وأطرافها، لم يكن يومًا ضليعًا بالاعتناء بالمرضى، لكنّه يدرك على الأقلّ أنّ الماء هو الوسيلة المثلى لمقاومة الحرارة. ساعدها على الجلوس وأسند رأسها إلى كتفه، ثمّ جعلها تبتلع بضع جرعات من السّائل، سعلت بخفوت، ثمّ فتحت عينيها، بدا عليها التشوّش وهي تنقل بصرها حولها، ثمّ حين حطّت نظرتها عليه.. ابتسمت!

شعر فجأة بتلك القبضة القاسية تمسك بصدره، مثل ضربة رعد خاطفة حبست أنفاسه، ثمّ أفلت الهواء مضطربًا ولّما تستقرّ الطبول التي تُقرَع في أذنيه بعنف. تحرّكت مانويلا، لتبعد رأسها عن كتفه، فساوره بعض الارتياح. كان يفضّل أن يبتعد، أن يترك أكبر مسافة ممكنة بينهما،

لكنّها لا تزال ضعيفة وواهنة، ارتجفت أطرافها، فجذب الشال الذي يتدلى على طرف السرير ولفّه حول كتفيها، عادت لتبتسم في امتنان، فسألها متجنبًا نظراتها:

- أنت مريضة؟

تكلّمت بصوت ضعيف متهدّج:

- يبدو أنّها ردّة فعل مناعيّة.. ضدّ العقار.

لا يعرف تمامًا ما يعنيه ذلك، عادت لتقول بهدوء:

- سأكون بخير.. هل يمكنك أن تناولني الدّواء؟

أشارت إلى خزانة قبالتها، ساعدها على الاستناد إلى الوسادة ثمّ اتّجه إلى حيث أشارت.. حين فتح الدفة، هاجمه هواء بارد يتدفّق من جوفها. توقّف مبهوتًا، ثمّ استعاد ثباته، على الرّف وجد صندوقًا أبيض -مماثلًا لذلك الذي استخدمته في شقة الباحثة لعلاج جرح يده- طلبت إليه إحضاره، على الرّف الذي يليه مباشرة، تستقرّ حقيبة أكبر حجمًا ذات شكل مألوف، كان ينوي سرقتها، ازدرد لعابه وهو يسحب الصّندوق ويتجاهل الحقيبة، ثمّ أغلق الدّفة التي تحبس البرودة.

راقبها في صمت فيما تبتلع حبّة خافض الحرارة، وتساءل إن كانت جرعات العقار ستسبّب للآخرين الأعراض ذاتها! قد يتراجع مايك راسل ورجاله عن استخدام العقار إذا ما عرفوا بتأثيره.. ربّما، إذا استمرّ مرض مانويلا لأيّام إضافيّة، فقد يكون ذلك في صالح قومه، وربّما إذا ازداد الأمر سوءًا، فستفشل الخطّة كلّها!

غير أنّه في قرارة نفسه يرجو بصدق ألا يصيبها مكروه.

ندّت عنها تنهيدة طويلة متعبة، فسألها باهتمام:

- هل أكلتِ شيئًا؟

هزّت رأسها ببطء، لا شهيّة لديها. أغمضت عينيها في استسلام كأنّها على وشك الإغماء، فاستمرّ يرنو إليها في قلق لا يخفيه، هل يحدث هذا لها لأنّها لم تحصل على حقنتها منذ يومين؟ هل أصابها ما أصابها بسبب حماقته؟ يغلّفه إحساس عميق بالذنب، ويستمرّ الخفقان المرتبك على جدار صدره.

بعد دقائق، بدا أنّها قد غرقت في النّوم مجدّدًا، انتظم تنفّسها واستكانت ملامحها. إلا أنّها لم تعد تتألّم، أخذ نفسًا عميقًا، ثمّ آخر، قبل أن يبعد نظراته عنها ويتأمّل المكان من حوله، عاد ليركّز على الخزانة المغلقة، حيث رأى الحقيبة منذ حين. أمامه فرصة سانحة، وسيكون مغفّلًا إن لم يغتنمها، ازدرد غصّة عالقة في حلقه مع لعابه، ثمّ اتّجه إلى الخزانة في إصرار.

قبل أن يفتح الدّفة، سمع خبطات عنيفة على الباب، ثمّ اقتحم اثنان من المرتزقة الغرفة محدثين صخبًا وهرجًا، تكلّما بأصوات عالية، ولم تصل كلمة منها إلى فهمه، إلا أنّه التفت إلى مانويلا الغارقة في النّوم، وقد خشي أن تعكّر الضوضاء صفو سباتها.. في الأثناء نفسها أحاط به الرّجلان وقاداه بقسوة خارج الغرفة، كأنّ حضوره هناك قد أثار سخطهما. ألقى نظرة أخيرة على مانويلا التي تتقلّب في سريرها وتفتح جفنيها بصعوبة، ثمّ انقاد إلى أذرعهما تسوقه إلى مقصورته. دفعاه إلى الدّاخل، ثمّ سمع صوت المفتاح يدور داخل القفل ليوصد بابه، أدرك فجأة أنّه قد عاد سجينًا، وأنّ زمن الحريّة قد انتهى!

حدث كلّ شيء بسرعة شديدة، فلم يدرك مآله حتّى ساد السّكون من حوله من جديد.. تطلّع عبر زجاج نافذة المقصورة الدّائريّة، ففاجأه الضّباب الكثيف الذي لفّ اليخت من كلّ جانب. إنّهم يقتربون من «آرا»، لقد ضيّع فرصته الأخيرة للخلاص من العقار، ولن تسمح الظروف بعد

الآن بأخرى، وقد استلم المرتزقة زمام القيادة على متن اليخت.. مانويلا مريضة، وربّما تكون قد فقدت الوعي بما يحدث حولها، لقد أصبح مصيره بين أيدي هؤلاء الرّجال المتعطّشين للأذى، وهو يجهل ما ينوونه بشأنه!

خفق فؤاده بنبضات مرتبكة، وقد سرحت نظراته عبر الضّباب الذي يتلبّد أكثر فأكثر، لقد عاد أخيرًا، في مكان ما خلف الغيوم يختفي وطنه الذي يحبّ، وقريبًا ستبدأ معركة أخرى بين قومه والدّخلاء.

(23)

اليوم الثالث والعشرون بعد الثلاثين

هذا يوم زواجه.

تستعصي تلك الكلمات على فهمه، رغم تكراره إياها في سرّه وعلنه منذ أيّام. جاء مروان ليوقظه صباحًا، ثمّ تلقّفته زُمرة المسخّرين الشّبان في حماس ونشاط. كان ليوم العُرس طقوسه الخاصّة التي اكتشفها منذ أيّامه الأولى على الجزيرة، وإن لم يكن جزءًا منها. فيما ينشغل الرّجال بنصب السّرادق وتجهيز الذّبائح، تنهمك النسوة في تحضير الأرز والخضار، لعلّ قائمة الطّعام ستختلف باعتبار الظروف الرّاهنة وإن كان اللّحم والدّهن أساسيّين، أمّا العروسان، فلهما طقوس أخرى تخصّهما وسيكون عليه أن يختبر نصيبه منها.

ساقه الشّباب في جوقة من الغناء والمرح نحو الأحواض السّاخنة، سيحظى بحمّام ممتدّ يساعده على الاسترخاء، أو على الأقلّ يحاول أن يسترخي. هذا يوم زواجه. تعيد الفكرة التي تتردّد في رأسه التشنّج إلى عضلاته والاضطراب إلى أنفاسه. الهدوء على الحدود لا يشعره بالطمأنينة، وهو قد بات يخشى أن يحدث هرج في هذا اليوم بالذّات.. ليس حدسًا، بل مجرّد خوف، أن تنقلب السّعادة إلى دمار. لقد لزم

(23)

اليوم الثالث والعشرون بعد الثلاثين

هذا يوم زواجه.

تستعصي تلك الكلمات على فهمه، رغم تكراره إياها في سرّه وعلنه منذ أيّام. جاء مروان ليوقظه صباحًا، ثمّ تلقّفته زُمرة المسخّرين الشّبان في حماس ونشاط. كان ليوم العُرس طقوسه الخاصّة التي اكتشفها منذ أيّامه الأولى على الجزيرة، وإن لم يكن جزءًا منها. فيما ينشغل الرّجال بنصب السّرادق وتجهيز الذّبائح، تنهمك النسوة في تحضير الأرز والخضار، لعلّ قائمة الطّعام ستختلف باعتبار الظروف الرّاهنة وإن كان اللّحم والدّهن أساسيّين، أمّا العروسان، فلهما طقوس أخرى تخصّهما وسيكون عليه أن يختبر نصيبه منها.

ساقه الشّباب في جوقة من الغناء والمرح نحو الأحواض السّاخنة، سيحظى بحمّام ممتدّ يساعده على الاسترخاء، أو على الأقلّ يحاول أن يسترخي. هذا يوم زواجه. تعيد الفكرة التي تتردّد في رأسه التشنّج إلى عضلاته والاضطراب إلى أنفاسه. الهدوء على الحدود لا يشعره بالطمأنينة، وهو قد بات يخشى أن يحدث هرج في هذا اليوم بالذّات.. ليس حدسًا، بل مجرّد خوف، أن تنقلب السّعادة إلى دمار. لقد لزم

مايك موقعه كلّ هذا الوقت، لم تتحرّك السّفن قيد أنملة، فما الذي يمنعها من الإغارة هذا اليوم بالذّات؟

يأخذ أنفاسًا عميقة ويزفر بلطف، يقاوم الهلع الذي يأبى إلا أن يفسد عليه يومه.

بعد الحمّام، ارتدى ثيابًا نظيفة. منذ نحو أسبوعين لم يستبدل ثيابه المدنيّة التي ارتداها على متن «الأسطورة»، لكنّ النّسوة عملن في الأيام الماضية على نسج مزيد من الأثواب. لم يكن الـ«آم» يبالغون في التأنّق، وإن كانت النظافة جزءًا مهمًا من هويّتهم، يحتفظ كلّ منهم بثوبين على الأقلّ، يرتدي واحدًا فيما يغسل الآخر ويجفّفه. لكنّ الوضع اختلف بعد الحريق الذي أودى بكلّ المتاع والزّاد. عزّت الثياب النظيفة، وها هو أخيرًا يحصل على واحد، ربّما يحصل عمّار وأرابيلا -كوالدي العروس- على حلل جديدة أيضًا. فكّر أنّ جدّته قد تحصل على ثوب بدورها إذا توافر مزيد من النّسيج، إلا أنّ أحدًا باستثناء عائلة حميه لا يعلم برابطة الدّم بينهما، حزّ في نفسه ساعتها أنّها لن تقف إلى جواره في أثناء المراسم باعتبارها فرد عائلته الوحيد على الجزيرة!

ينسى أحيانًا أنّ لخاله إبراهيم أبناءً، وأنّه في الظروف الرّاهنة لم يجدّ في التّواصل معهم. لقد دفعه الفضول إلى البحث عنهم خلال الأيّام الماضية، ودومًا ما كانت ريحان دليله للوصول إلى الأشخاص الذين يرغب في اقتفاء أثرهم، لكنّه اكتفى بالمتابعة عن بعد دون احتكاك مباشر. توما وراما يكبرانه بسنوات قليلة، ولكلّ منهما زوجة وأطفال، ينحنيان تجاهه باحترام كلّما توقّف وأرسل بصره تجاههما، فيضطرّ إلى الانسحاب والتّجاهل حتّى لا يثير فضوله الشّكوك.. إلا أنّه المخلّص، وكلّ سكّان الجزيرة أهله!

لم يكن شعره قد طال بقدر ما تطول شعور شباب الجزيرة وكهولها، يدلّي كلّ واحد منهم ضفائر سميكة على ظهره، أو يترك خصلاته منسدلة حرّة على كتفيه، فقد كان الشعر الأشقر الثخين ميزة للرّجال كما هو زينة للنّساء، أمّا شعره فكان أسود وقصيرًا.. رغم محاولات مروان ويونا، لم يفلحا في توشيته بالخرز الخشبيّ الملوّن. اكتفى بتشذيب لحيته التي طالت عن العادة، وإن كان يفضّلها أقصر، فإنّه لم يرغب في أن يشذّ كثيرًا عن عادات أهل الجزيرة.. فقد كان مختلفًا بما يكفي.

تساءل طيلة النّهار عمّا تفعله روان.. ربّما كانت الفتيات يحطن بها يزينّها ويجهّزنها، يسرّحن شعرها ويناكفنها، لا شكّ أنّ زواج المعالجة أخيرًا يثير حماسة البنات الشّابات اللواتي يتطلّعن إليها كقدوة ومثل أعلى.

رافقه الشبّان طيلة النّهار، ولم يطلق سراحه حتّى هبوط الليل، كأنّ مهمّتهم إبقاؤه مشغولًا. حين جاء موعد المراسم أخيرًا، دخل السّاحة محفوفًا بالهتافات والتّبريكات، صار يعرف الطّقوس بعد حضوره حفلي زفاف خلال الأسابيع المنصرمة. في منتصف السّاحة، جاء الشيخ الجليل يتبعه صبيّه، ثمّ وصل عمّار ومروان، وليّ العروس وشاهدها، ومن ورائه برز نوح، شاهد العريس.. وأخيرًا، تقدّمت العروس نفسها، برفقة والدتها وشقيقتها، تتبعهنّ حاشية من الفتيات اليافعات، ليتوقّفن على حدود الساحة، فيما انضمّت روان وحدها لإتمام عقد القران.

ألقى آدم نظرة بعيدة على السّيدة مارتا التي وقفت في الصّفوف الأولى، تضمّ كفّيها إلى صدرها وتتابع حركات حفيدها بعينين دامعتين من التأثّر، لعلّه الزّفاف الأوّل الذي تحضره لواحد من أحفادها، باعتبار إقامتها الجبريّة خلال ربع القرن الماضي! ثمّ استرق نظرات خجلى إلى عروسه التي التصقت عيناها بالأرض حياءً. تكلّم الشيخ بالآرامية ثم العربيّة،

فأجابه آدم وقبلت روان، ثمّ أخرج العريس من جرابه حلية تحت العيون الشّاخصة بفضول وشوق. تألّقت سلسلة المعدن تحت إنارة المساء الخافتة، ليعكس المعدن المصقول نار المشاعل وتوهّج الـ«مادرا» التي تتخلّل الأرض والهواء. رفع آدم السّلسلة فوق رأس عروسه، وجعلها تنزلق حول عنقها. كتمت روان أنفاسها فيما امتدّت أناملها لتعانق «حجر الشّمس» الذي تدلّى من الطّرف المعدنيّ. ابتسم عمّار وهزّ رأسه استحسانًا، مهر مميّز يليق بابنته المعالجة، وكذلك تعالت هتافات الإعجاب والتأييد من حولهم.

حدّقت عينا آدم في وجهها الصّغير بشوق، تبدّت روان في غاية الجمال والألق وقد التمعت عيناها ببريق مشرق. امتلأ صدره نشوة مُسكِرة: لقد صارا زوجًا وزوجة!

قبل أن يرجعا كلّ إلى موقعه من السّاحة، أخرجت روان سكينًا من صدف المحّار وهمّت بقصّ خصلة من شعرها لتلقي بها في نار الموقد المضطرمة أمامهما. أوقف آدم كفّها وسحب منها السّكين بلطف.

- هذا طقس وثني لا طائل وراءه.. لا حامي من الشياطين إلا الله!

لعلّها لم تستوعب كلّ كلمة قالها، لكنّها امتثلت بلا نقاش، فيما سرت همهمة اعتراض من حولهما بعد أن تراجعا عن إتمام الطّقوس كما تملي تقاليد الجزيرة. لكنّ أحدًا لم يجرؤ على الاعتراض جهارًا.. ربّما يفترضون أنّ المُخلِّص والمعالجة لا يحتاجان إلى الحماية مثل الأفراد العاديّين، وربّما تحمل أفعال المُسخِّر حكمة تتجاوز أفهامهم المحدودة.

ألقى آدم نظرة جانبيّة على ملامح روان، لم يعرف إن كانت الحمرة التي علت وجنتيها من تحت الغلالة حرجًا أم حرارة سببها النّار. تَفكّرَ حينها في ركونه البليد إلى السّلبيّة، لم يفعل شيئًا منذ تنصيبه مُخلِّصًا ليحدث تغييرًا في عادات القوم، لم يرفع صوته ليصدح بأيّ اعتراض على التجاوزات التي

يقترفونها. لعلّه لن يتمكّن من منعهم من استهلاك دماء المسخّرين النّجسة، في غياب وسائل علاج أخرى تضاهيها نجاعة، لكنّه قد يبدأ بإرساء الصّلوات الخمس في اليوم واللّيلة حسب تعاليم الإسلام. اشتعلت في صدره الحميّة، وهمّ بملاحقة الشيخ ليفضي إليه بالتّعليمات الجديدة.. إنّه المخلّص المتوّج، سيطيعونه إذا أمر بإحداث تغييرات جذريّة في الطّقوس، لن يكون جبانًا مثل عمّار.

أيقظته لمسة روان على ذراعه وهي تهمس:

- ما الذي تفكّره به؟

استعاد وعيه بالمكان والزّمان، ربّما يؤجّل حديثه إلى الشيخ إلى وقت لاحق، فهذه ليلة عُرسه! عاد إليه رشده، وهو ينتبه إلى روان التي لا تزال تقف إزاءه والحيرة تغمر محيّاها. همس بلطف:

- لديّ مفاجأة من أجلك.

رفعت إليه بصرها بنظرة متسائلة، فأردف:

- لاحقًا.

ثمّ ابتعد ليعود إلى موقع تجمّع الشّباب، وتبدأ عروض القوّة والمهارة. تتابعت فقرات الحفل ليتخللها ضرب الدّفّ والغناء الشعبيّ، ورقص رصين على نغمات ناعسة تارة وحماسيّة تارة أخرى، فيما استمرّ آدم يختلس النّظرات إلى عروسه، وهو لا يكاد يصدّق أنّ ما يعيشه حقيقة. غاب فجأة في شرود رغم الصّخب المحيط به، يتخيّل دهشة والديه، وتوليفة المشاعر التي ستجتاحهما حين يعرفان بزفافه. تساءل عمّا يفعلانه في الدّيار، هل تكون والدته قد تعافت الآن بعد حصولها على الحجر؟ وكيف يجدان الحياة في غيابه؟ أمّا بالنّسبة إليه، فقد أخذه نسق الحياة على الجزيرة، فلم

يفكّر فيهما إلا في أوقات متفرّقة.. ورغم الحضور المهيمن لسفن مايك على الحدود، فإنّه ينسى أحيانًا أنّ الخطر لا يزال على الأبواب!

ما كان منبع قلق وليالٍ مسهدة منذ أسابيع، يتحوّل إلى جزء من الرّوتين الجديد. لا يزال عالم الـ«آم» مهدّدًا بالانهيار، الدّخلاء يحاصرونهم، وتدفّق الـ«مادرا» يتباطأ غير عابئ بالظروف القاتمة التي تواطأت عليهم، إلا أنّ الحياة تنساب بنسقها المعتاد مثل نهر جارٍ لا يوقفه حاجز.. ينهض السّكان في نشاطهم الدّائم، يؤدّون المهامّ المنوطة بهم ويواجهون التغيّر المطّرد بثبات واتّزان، مثلما ينحت مجرى النّهر الصّخر ليواصل تدفّقه.

وكذلك يفعل آدم، كأنّما هو جزء من سيمفونيّة الحياة التي تستمرّ عازفة على أوتار القدر. من العجيب في ظلّ أسباب الفزع تلك أنّ نوبات الهلع لم تعد تزوره. تعود آخر نوبة إلى أسابيع كثيرة، بل إنّه يكاد يعتقد باستعادته للسّيطرة على جسده، بعد أن فقدها في مناسبات متكرّرة منذ وصوله إلى الجزيرة.

لم يعد إتقان التّسخير يأتيه في أوقات غياب وعيه، بل صار عمليّة واعية يملك زمامها، ولم ينبئه مروان بخروجه في جولات ليليّة غامضة منذ تلك المناسبة الوحيدة. لعلّ قوّته وتأثير الـ«مادرا» به لم تعد تثير رعبه كما فعلت في الحوادث الأولى للقائه بطاقتِها. لقد توصّل أخيرًا إلى لمس مصدر القوّة في داخله برباطة جأش وثبات جنان، فلم يعد ذهنه يُسلِم مقاليده ويتوارى خلف واجهة مزيّفة يحتمي بها من مخاوفه ويعوّض بها ضعفه!

وقريبًا يكتمل اتّحاد شقّيه المتنازعين، ليكون ذاتًا واحدة صامدة.

***

احتفى مايك ورجاله بوصول يخت مانويلا بعد تسعة عشر يومًا من الغياب، تسعة عشر يومًا من الانتظار والمحاولات الفاشلة والقلق المزمن. حمل نبأ جاهزيّة العقار الواقي من مناخ الجزيرة موجات الأمل والبهجة، بعد الخسائر البشريّة التي تكبّدوها بسبب حبوب الدّواء الفاسدة.. لا شيء يُشعرهم بالاطمئنان بقدر علاج حديث قادم من مختبر متطوّر!

حال رسوّ اليخت قرب سفينة «سارا»، اقتيد أوران سجينًا على عجل إلى غرفة مظلمة في باطن المركبة الكبيرة، حيث لا يبلغه ضوء الشّمس ولا يصله صدى الأحداث التي يشهدها السّطح، في الأثناء نفسها كان طبيب الرّحلة، الدّكتور كريس، يعاين الحقن التي نقلتها مانويلا في الحقيبة الطبيّة الحافظة للحرارة.. كان من الضّروريّ الالتزام بسلسلة التّبريد منذ التّصنيع وحتّى الاستخدام، كانت الحاوية العازلة مغلفة بطبقة من الجل المبرّد، أمّا على متن اليخت، فقد كانت الحقيبة داخل البرّاد طيلة الوقت.

أومأ الطبيب بعلامة الرّضا، فأعلن مايك بحماس:

- إذًا.. ربّما يجب أن نُخضع العقار للتّجربة!

كان مايك نفسه المتطوّع الأوّل لتلقي الحقنة، ووقف محاطًا برجاله المتلهّفين، فيما غرس الطبيب الإبرة في عضده ودفع محتويات الحقنة داخل جسده.. ترقّب مايك أن يشعر بتغيير ما، لكنّ أيّا من ذلك لم يحدث، سأل في شكّ:

- كم يفترض الانتظار، قبل أن يبدأ مفعول العقار؟

تذكّرت مانويلا كلمات كلاوديا، فقالت:

- ساعة أو اثنتان..

- هل حصلتِ على واحدة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

أومأت مانويلا بهدوء، لم تحصل على حقنة مطابقة، لكنّها من الفصيلة ذاتها، مع بعض التّعديلات.. أمر مايك بصوت جهوريّ:

- لدينا دزينتان من الحقن هنا، من يرغب في الحصول على واحدة فليتقدّم!

تهافت الرّجال في صخب معلنين حماستهم، فأطلق مايك ضحكة استمتاع وهو يخلّفهم وراءه ليتدبّر الدّكتور كريس أمر تنظيم عمليّة الحقن. خطت مانويلا برفقته خارج الغرفة، لتشعر بالغثيان على الفور، انثنت قامتها متألمة، فسارع والدها يستفسر:

- أنت بخير؟

- أشرع بالدّوار والغثيان.

- لا شكّ أنّ الرّحلة الطويلة قد أثرت فيكِ، استريحي اليوم.. فغدًا يوم عظيم!

أومأت في إذعان، وسارت نحو المقصورة التي خصّصت لها على متن «سارا» وإحساس الضّعف يتزايد مع كلّ خطوة، تدرك أنّ وضعها الصّحيّ لا يتعلّق بالرّحلة ولا بإرهاق السّفر، بل بالحقنة الذي حصلت عليها منذ أسبوع، لكنّها لم تخبر أحدًا بعد!

ارتفعت حرارتها بالأمس، وعانت آلام المفاصل والعضلات، بدت الأعراض مثل نزلة برد، وقد شعرت ببعض التّحسّن منذ ساعات.. أمّا الدّوار الذي أصابها منذ حين فيمكنها أن تعزيه إلى الرّحلة البحريّة، تدرك أنّ أيّ محاولة منها لن تثني والدها عن المخاطرة تحسّبًا لأعراض جانبيّة محتملة، في حين أنّه لبث يترقّب عودتها كلّ هذا الوقت متقلّبًا على نار الجمر. في نهاية الأمر، ربّما تخفت الأعراض وتختفي تدريجيًّا، ربّما تكون بحال أفضل صباح الغد، بعد أن تحصل على بعض الرّاحة، ثمّ إنّ التّركيبة

التي حصلت عليها مختلفة عن التّركيبة النهائيّة، حتّى إن عانت هي التوعّك، فإنّها تودّ أن تعتقد بسلامة الحقن الجديدة.

استلقت على سريرها واستحضرت تفاصيل يوم أمس. لقد جاء أوران إلى غرفتها، سقاها ماءً وزوّدها بخافض الحرارة، باستثنائه، لم يعرف أحد على متن اليخت بأمر وعكتها.. ابتسمت لذلك الخاطر والتهبت وجنتاها، ليس بمفعول الحرارة، بل خجلًا. لقد استسلمت لنوم عميق بعد ذلك، وصوته آخر اتّصال لها بالعالم، كانت تسقط في قعر الغيبوبة، ولم تدرك إن كانت المشاهد الأخيرة حقيقة أم من وحي هلوستها، لعلّها خشيت ألا يعامله مرتزقة والدها بلطف، فهُيّئ لها ما هُيئ لها!

لم تصح من نومها العميق إلا منذ ساعات قليلة، حين دنا اليخت من السّفينة.. لم تجرؤ على زيارة قُمرته بعد ذلك، لقد خجلت من مواجهته، وهي تدرك أنّه لن ينال حرّيته قريبًا. تشعر بقرصة ندم في صدرها، ألم يكن عليها أن تطلق سراحه حين كانت تملك الفرصة؟ لعلّ إطلاقها للمُسخِّر الأوَّل كان سببًا كافيًا لتستفزّ ثورة والدها، فلم ترد أن تزيد الطّين بلّة.. لعلّها فضّلت أن تهادن والدها وتراضيه أوّلًا ثمّ تنظر ما الذي ينويه بشأن السّجين. تودّ أن تبحث عنه الآن، تعرف أين يحبسه رجال والدها، وتخفّف ألم وحدته وحسرته، لكنّ الصّداع اشتدّ بها فتكاد لا تملك أن ترفع رأسها عن الوسادة!

سمعت طرقات هادئة على بابها، فأذنت للطارق بالدّخول. ظهر وجه الدّكتور كريس مبتسمًا. كان شابًا في منتصف الثلاثينات، لم يسبق لها لقاؤه قبل اليوم، من المؤكّد أنّه لم يكن مرافقًا لهم على متن «الأسطورة»، ربّما وصل في وقت لاحق، مع باقي سفن الأسطول، بعد أن رأى مايك أنّ رجاله سيحتاجون إلى عناية طبيّة بالنّظر إلى طبيعة المهمّة المجازفة، وقد تساءلت منذ حين عمّا يدعو طبيبًا شابًا للانضمام إلى رحلة بحريّة كتلك،

مخلفًا وراءه حياة الاستقرار في ظلّ الحضارة وأجور المستشفيات الخاصّة، أم لعلّ عرض والدها كان مُرضيًا أكثر؟

- قال مايك إنّك تحتاجين إلى معاينة..

أومأت في استسلام، فخطا إلى الدّاخل.. وضع حقيبته الطبيّة على طرف السرّير، ثمّ انحنى فوقها، ليصغي إلى نبضاتها وينظر في بؤبؤ عينيها وداخل حلقها، ثمّ رفع كمّ قميصها ليتأمّل أثر الحقنة.. عاد ليقول مطمئنًا:

- لا يبدو لي أنّ مؤشّراتك تدعو إلى القلق.. هل عانيت ارتفاع الحرارة؟

- بالأمس.. حصلت على خافض حرارة، ثمّ استقرّ الوضع.

- بمَ تشعرين الآن؟

- الصّداع والدّوار.. والغثيان المستمر كلّما حاولت الحركة.

- إذًا ستلزمين السّرير اليوم، وتحصلين على كثير من السّوائل.

كان الطبيب يجمع معدّاته حين بادرته مانويلا على استحياء:

- دكتور.. هل يمكن أن أطلب منك خدمة؟

رفع كريس عينيه في انتباه، فأضافت:

- هل يمكنك أن تجد شخصًا من أجلي؟

***

حين شارف الحفل على نهايته، سار آدم حتّى سرادق الفتيات وقال مقاطعًا سمرهنّ:

- آنساتي، هل لي أن أسرق العروس منكنّ؟

تفرّقن بسرعة وهنّ يتضاحكن، فيما طالعته روان في مزيج من الخجل والدّهشة من وراء غلالتها الشفافة المنسدلة على وجهها، همست في استغراب:

- ما الأمر؟

تجاسر على الإمساك بكفّها وقال:

- تعالي، لقد حان الوقت.

سحبها برفق، فانصاعت وتبعته ليبتعدا عن جموع المحتفلين. تعالت من خلفهما الهتافات الحماسيّة والصّفير والضحك الصّاخب، مناكفة للعروسين. لقد كانا غريبين منذ ساعات قليلة، والآن تستقرّ كفّها الصغيرة في كفّه دون خجل! لم تكن تلك تقاليد الـ«آم» المعتمدة، بل يتوجّب على جموع الحاضرين أن يزفّوا العروسين في نهاية الحفل حتّى مسكن الزّوجيّة في جوقة غناء هادرة، لكنّهما المخلّص والمعالجة! وتلك المناصب الشّرفية تسمح لهما بخرق العادات وتجاوز العُرف.

حين صارا وحيدين على الطّريق التّرابيّة، اتّسعت خطوات آدم وتسارعت حتّى تحوّلت هرولة، وركضت روان وراءه وهو لا يترك كفّها، هتفت مقطوعة الأنفاس:

- إلى أين نذهب؟

التفت ليلقي نظرة على وجهها المحتقن من وراء الوشاح وقال بحماس:

- إلى الشاطئ!

في السّابق، كانت خطواتها دومًا تسبقه، كانت تقوده عبر مسارات الجزيرة ومهما حاول مجاراتها كانت تمسك بزمام الأمور. أمّا اليوم، فهو يقودها، وهي تلهث وراءه، وقد استعذب تبدّل الأدوار وهو يأخذ بيدها نحو الموقع الذي شهد كثيرًا من لقاءاتهما في الماضي.

وقفت روان تلتقط أنفاسها على الرّمال الفضيّة، فيما ابتعد آدم حتّى لامست قدماه مياه المحيط، ثمّ استدار ليواجهها وعلى شفتيه ابتسامة

غامضة، رأته يغمض عينيه محاولًا التّركيز، فتساءلت عمّا ينوي عمله. بعد لحظات، انحنى لتلامس كفّه الأرض في ضربة حاسمة، قبل أن يرفعها إلى الهواء.. وحينها، تناثرت النّجوم في الجوّ، مثل صواعق صغيرة متفجّرة! شهقت وهي تهتف في جذل:

- لقد فعلتَها! أنت تمسك بالخيط الرّمادي!

كان يقف في اعتداد وشفتاه تتّسعان في ابتسامة فخر واعتزاز، كان يتدرّب على ذلك العرض منذ عشرة أيّام، منذ صافحه عمّار معلنًا موافقته على الخطبة، قرّر أنّه سوف يهديها شيئًا استثنائيًا، شيئًا مذهلًا يسرق حواسّها، لذلك أراد أن يهبها إنجازه ذاك، يظلّ يسترجع مشهد أوران في حفل الزّفاف الأوّل منذ شهر ونصف، وحماس الحشود وبهجتهم، ويتخيّل ردّة فعلها، فيزداد إصراره وتتضاعف عزيمته.. والآن، يملؤه الرّضا، لأنّه يقرأ في عينيها الشّغف الذي أراده وتمنّاه.

- هل أعجبك؟

يطلب تأكيدًا لفظيًا يُشبع غروره، سمعها تهمس برقّة وعيناها تومضان في العتمة:

- مدهش!

التقط كفّها ثانية، فمالت عليه حتّى تلامس كتفاهما، ثمّ أخذت تدفع الماء بقدميها بمرح طفلة، جاراها في نزقها مستشعرًا جانبًا آخر من شخصيّتها لم يكن يعرف بوجوده، جانب براءة واندفاع يفصح عن نفسه أخيرًا، وكأنّها تترك لنفسها العنان للمرّة الأولى، وقد سرّه أن تخصّه بعفويّتها وتترك قناع الجدّ الذي ترتديه غالبًا. ولم لا تفعل؟ أوليس زوجها؟ رنّت الكلمة في أذنيه بنغمة حلوة، وهما يسيران متجاورين على الشّاطئ. همست روان فجأة وهي تسحب كفّه، وتتألق عيناها بنظرة إثارة مغرية:

- تعال، سآخذك إلى مكان ما..

تبعها مستسلمًا لكفّها تسحبه، وقد غمره الفضول وأسكرته متعة اللّحظة. توغلا داخل مسارات الغابة الملتوية، وروان تتبّع أمارات يجهلها، فتخطو بخفّة غزال بريّ شارد عبر العتمة. وراء أجمة كثيفة متوارية، ظهرت لعينيه فرجة منبسطة خلت من الأشجار. عند تلك البقعة، كان الجدول الضيّق الذي ينساب من أعلى التلّة يتّسع، فيتدفّق الماء بقوّة في شلال عذب يهبط في بركة قليلة العمق مناسبة لحمّام بارد في الخلاء.

همست روان مجدّدًا:

- ما رأيك؟ هذا المكان.. يُسمّى «مخبأ العشّاق»!

ابتسم في استمتاع لاعترافها الموارب.. مثل مخبأ الأطفال خلف الصّخرة، يحصل العشاق على خلوة بعيدًا عن الأنظار في عمق الغابة. تحت نظرات الحرّاس اليقظة، كان لا بدّ من تدبّر المخابئ لإضفاء بعض الحميميّة.

سارا حتّى موقع أرجوحة شبكية رُبطت بين شجرتين على مسافة قريبة من الشلال المنهمر، فتعالت نبضاته بنسق مجنون. توقّفت روان واستدارت ناحيته، ثمّ قالت بصوت خافت يغلّفه الخجل:

- أودّ أن أهديك شيئًا بدوري!

أحنت رأسها تتأمّل القلادتين اللتين تستقرّان على صدرها، قلادة المعدن إلى جوار تلك المصنوعة من الخيوط المجدولة، عانقت أناملها الحجرين، ثمّ سحبت أحدهما لتفكّ قلادتها القديمة وتضعها في كفّ آدم. كان مجرّد «حجر شمس» آخر، يشبه ذاك الذي استخدمه لصنع قلادة المعدن، والقلادة قديمة ومهترئة، تحملها المعالجة حول عنقها منذ سنوات، ربّما مذ اكتشفت هبة العلاج لديها، لكنّ عبرات التأثّر تجمّعت في عيني آدم

وهو يستقبل عطيّتها. ربّما تكبّد عناءً طويلًا لصنع قلادة المعدن، لكنّها تبقى مجرّد حلية بلا قيمة عاطفيّة، في حين أنّ قلادتها هي «قلادة المعالجة»، جزء من تاريخها وماضيها ووجدانها.

رفع الحجر إلى شفتيه وقبّله في خشوع، ثمّ بادلها الابتسامة الصّافية.

بعد ذلك، جلسا متجاورين على الشباك، فأخذ يتمايل ببطء تحت ثقلهما، يملأ أذنيهما صوت الماء الهادر ويزكم أنفيهما فوح العشب النديّ والحشائش البريّة، وتسرق البهجة منهما باقي الحواس. انزلق غطاء رأسها إلى الخلف وتحرّرت الخصلات التي تبقيها مجدولة طيلة الوقت، تجرأ آدم وأمسك بطرف جديلتها النّاعمة، ثمّ أخذ يفكّها بلطف لينسدل شعرها الكثيف على كتفيها بحريّة. خفضت روان عينيها حياءً ولم تعترض.

قال آدم وقد امتلأ صدره بالنّشوة، حتى كاد ينفجر:

- هل تعتقدين أن من حقنا أن نكون سعداء فيما الخطر على الأبواب؟

قالت برقّة:

- لا تقلق. الليلة.. كل الـ«آم» سعداء!

أخذ نفسًا طويلًا، يستمدّ من عبق الليل سكينة تهدّئ فؤاده الثّائر، فيما أردفت تقول بوشوشة ساحرة، والهواء يدفع خصلاتها الشّقراء حول وجهها المليح:

- هل تذكر الرّؤيا التي أخبرتك عنها في السّفينة؟ في الحقيقة، لم يكن ذلك كلّ شيء.. لطالما شعرتُ أن الرّؤيا تخصّني.. فقد رأيتك تأخذ بيدي لأركب معك السّحابة في النّهاية! حين صعدنا إلى السّفينة معًا، حسبت أن ذاك هو تأويل الرّؤيا، لكنني الآن أعرف أن هذا هو تأويلها..

أصغى إلى اعترافاتها، فيما تبتسم في خفر، وتلقي برأسها على كتفه، وتتخلل أصابعها أصابعه. رنا إليها آدم في صمت، وقد خالجه إدراك غريب ومتأخّر. الآن يتذكّر أنها كانت تبقي عينها عليه على الدّوام، سواء بإرسال ريحان لمرافقته في السّابق، ثمّ مروان، أو بظهورها المفاجئ من حوله في لحظات غير متوقّعة. كانت تعتقد منذ البداية أن مصيرهما واحد، وبقدر ما فاجأه ذلك وأسعده.. فإنّ بذرة الحيرة نمت على حين غرّة.

- إن لم يكن بسبب الرّؤيا.. ألم تكوني لتوافقي على الزّواج؟

رفعت روان رأسها وهمست:

- ماذا تعني؟

- أعني.. هل الرّؤيا هي كل شيء؟ هل هي السّبب لما نحن فيه؟

احتدّ صوته فجأة ودون مبرّر.

تذكر أنّها تهرّبت من سؤاله عن مشاعرها، لم تخاطبه منذ ذلك اليوم واكتفت بإرسال ربطة شعرها مع ريحان، ثمّ استلم والدها تسيير الأمور عنها. لم يسمع منها موافقة صريحة أو تعبيرًا واضحًا عن رغبتها في الزّواج منه، أو مبادلتها مشاعره، لقد تجاهلت اعترافه، وربّما فكّرت بعد أن غادرته بأنّها اللّحظة المناسبة لتفعيل مشروع النّزوح الذي يحلم به عمّار وتؤيّده فيه المعالجة، لعلّه كان قرارًا عقليًّا يستند إلى المنطق وحده.

تصاعد التّوتر في صدره فجأة مثل مدّ جارف أغرقه فيما تراجعت السّكينة، ملأه الإحباط وأغرقته المرارة:

- هل ترينني مجرّد وسيلة لتحقيق القدر الذي تؤمنين به؟ مُخلصًا لقومك وبوّابة العبور للعالم الخارجي؟

سحبت كفّها وغامت عيناها، لم يعد كتفاهما تتلامسان لكنّها لا تزال جالسة على الأرجوحة:

- آدم، أنت منفعل، اهدأ من فضلك!

حمل صوتها رصانة المعالجة المسيطرة التي عرفها سابقًا، السيّدة الممسكة بزمام الأمور، والتي تنظر إليه مثل طفل يستحقّ عطفها ورعايتها. عادت ترتدي القناع الصّارم والهيئة الجادّة كأنّ استراحتها القصيرة قد انقضت، ولولا خصلاتها الحرّة التي استمرّت ترفرف حولها لاعتقد أنّ الدّقائق الأخيرة لم تكن إلا حلمًا. آلمه إحساسه بالصّغار أمامها وقد حسب أنه عنى شيئًا في وجدانها.. لكنّه واهم، لم تره يومًا ندًّا لها.. ولن تفعل. لقد تزوّجته من أجل الخير العام، لأنّ المُخلِّص والمعالجة متوافقان من ناحية الوضع الاجتماعي وارتباطهما يحقّق الاستقرار والتّوازن!

انسلّ بهدوء لينزلق حتى لامست قدماه الأرض، ابتعد عن الأرجوحة الشّبكية وقد تصاعدت في حلقه الغصّة:

- أحتاج إلى بعض الوقت منفردًا...

تحرّك ببطء ليتوغّل داخل الغابة المظلمة.

لم تحاول إيقافه.

(24)

اليوم الرّابع والعشرون بعد الثلاثين

في عتمة الليل، ركب مايك قاربًا صغيرًا برفقة نايت، وجدَّفا باتّجاه منطقة الخطر فيما يتجهّز الرّجال للعمليّة المرتقبة. يثق في نجاعة مانويلا وحرصها، لكنّها ليست باحثة ولا مطوّرة أدوية، لذلك كان عليه أن يُجري تلك التّجربة، قبل أن يدفع بعشرات الرّجال نحو المجهول.

بعد ساعتين قضاها الرّجلان في عرض المحيط، في نطاق الظلة، رجعا إلى السّفينة الأم «سارا» سليمين معافين. لم تظهر عليهما أيّ من الآثار المعروفة للـ«مادرا» والتي تصيب الغرباء الذين لا يحصلون على حبوب المعالجة وما إن وطئت قدما مايك سطح السّفينة حتّى أعلن بصوت جهوريّ:

- فلتتجهّز فرقة العمليّات! لا وقت نضيّعه!

تعالت هتافات الانتصار من الرّجال الذين تجمّعوا على السّطح في انتظار الإشارة. لقد مضت عشرون يومًا من الخمول والمراقبة، وحانت السّاعة التي ترقبها كلّ واحد منهم أخيرًا. كانوا مستعدّين، مشحونين بالغضب والعزم، توّاقين للانطلاق في اتّجاه «آرا» في أيّ لحظة.

حين تلقّوا الإشارة الحاسمة، تزاحموا للقفز إلى القوارب، في ملابسهم العسكريّة المموّهة، متخفّفين من بدلات الحماية والمعدّات الثقيلة، لا

يحملون غير أسلحتهم ونظارات الرؤية الليلية، ارتفعت الصّيحات المتعطّشة للثأر، وقد أمكنهم التخلّص من الرّكود الذي لازمهم طويلًا.

حدّق مايك في وجوه الرّجال بقوّة ثم هتف:

- هل أنتم مستعدّون للأخذ بثأر رفاقكم؟

زمجرت الحناجر بصرخات وحشيّة، وأطلق أدولف رصاص رشّاشه في الهواء في إثارة، ثمّ انطلقت حركة التّجديف بجدّ وعنفوان.

حين أشرفت القوارب على الشّاطئ الفضيّ، كان الظلام يلفّ الجزيرة، باستثناء لمعان الـ«مادرا» الذي تتألّق به الرّمال. في تلك السّاعة من الليل، عمّ السّكون وسيطرت السّكينة، إلا أنّ عيون الحرّاس لا شكّ انتبهت إلى تسلّل الغرباء، ليس أنّه كان تسلّلًا حذرًا خلسة، بل إنّ مايك ورجاله لم يبذلوا أيّ جهد للتّخفي والتّواري، جاؤوا هذه المرّة معلنين عن وجودهم.

قبل وصولهم إلى الشاطئ، انطلقت الرّصاصات الأولى.

عبر نظارات الرّؤية الليلية، رصد المهاجمون الحرّاس الذين يجوبون الشّاطئ في العتمة، فقنصوهم دون تردّد، سقط الرّجال الأربعة واحدًا وراء الآخر، ربّما نجح أحدهم في إطلاق بوق الإنذار لتنبيه النّائمين، غير أنّ أيًّا من ذلك لم يزعج مايك أو يُثير قلقه، فليأتوا وليهبّوا من نعاسهم عن بَكرة أبيهم، ليستقبلوا عاصفة القتل الجامحة!

حين وطئت أقدام الغرباء الأرض، عاينوا الجثث الهامدة، هؤلاء الحرّاس كانوا سببًا أساسيًا في تعطيل مهامّهم وخسارة رفاقهم، ليسوا مذنبين بدرجة أقلّ من المُسخِّرين، ولذلك فقد استحقّوا الموت!

ثمّ جدّوا يتقدّمون إلى الأمام دائمًا.. وجّه المرتزقة بنادقهم ورشاشاتهم في اتّجاه الغابة الكثيفة التي تخبئ ظلمتها أعداء محتملين، وأمطروها بوابل

من الرّصاص الحيّ.. تحسّبًا، في حال كان المُسخِّرون ينتظرونهم، يشحنون طاقتهم ويتجهّزون للهجوم، فلن تكون أمامهم الفرصة للمباغتة، كان عليهم استقاء الدّروس من الأخطاء السّابقة، تسترجع الأذهان هجوم الشاطئ الليليّ، حين لم يُبصر أحدهم العدوّ بعينيه، لكنّ أثره كان مزلزلًا، لن يسمحوا لهم بتكرار المناورة.

تحرّكوا بعد ذلك في اتّجاه القرية، فتحوا النّار على أيّ شيء يتحرّك، غير مميّزين بين طفل وامرأة وشيخ وشاب.. في ظلمة الليل وثورة الفوضى سيكون من الغباء التمهّل ومحاولة انتقاء الأهداف، سيسمح تردّدهم للمُسخِّرين بردّ الهجمة، أمّا الضّحايا الأبرياء من المدنيّين، فأولئك «أضرار جانبيّة» لا يسعهم تلافيها. استمرّوا يزحفون بخطوات ثابتة، يوزِّعون الرّصاصات بسخاء في اتّجاهات عشوائية، كأنّ ذخيرتهم لا تنفد. خلال أسبوعين من الجمود الاضطراريّ، لم يضيّع مايك راسل الفرصة، وأرسل في طلب مزيد من السّلاح والذّخائر، ترقّبًا ليوم الملحمة الكبرى هذه!

حين بلغوا مركز القرية، كان السّكان النيام قد هبّوا من مضاجعهم وتدافعوا في هلع من الخطر الذي يسعى إليهم صاخبًا، معلنًا عن نفسه بلا مواربة.

توقّف مايك أمام المدنيّين العزل المرتجفين خوفًا وفرقًا، ولمَّا يخمد بركان غضبه بعد إلا أنّ صوت التعقّل تسللّ إلى وعيه وقد تركت الهجمة الصّاعقة الأثر المطلوب، فشدّ لجام اندفاعه برهة قصيرة وأعلن بصوت مزمجر:

– اركعوا عند قدميّ واطلبوا الصّفح، وإلا فسيكون الموت مصير كلّ فرد منكم!

لم تكن مانويلا حاضرة لتترجم، ولا عمّار، غير أنّ ذلك لم يشكّل أدنى فرق بالنّسبة إلى مايك.. لبث يحدّق في العيون الفزعة التي تطالعه دون أن تُقدم على حركة واحدة، ثمّ تقدّم بخطوات ساخطة، وقف أمام الرّجل الأقرب إليه وضرب ترقوّته بعقب بندقيّته، لينثني ألمًا ويسقط على ركبتيه، صرخ ثانية:

- اركعوا، هكذا.. هل فهمتهم الآن؟

تبادل الرّجال نظرات مرتعبة، في حين تراجعت النّسوة وهنّ يحتضنّ أطفالهنّ الذين أخذوا في النّشيج بأصوات متقطّعة، إلا أنّ أحدًا منهم لم يركع كما يُفترض به.. تشنّجت عضلات مايك الذي لم يعد يطيق صبرًا، هل يستفزّونه؟ يتجاهلون أوامره متعمّدين؟ رفع بندقيّته فجأة وأطلق ثلاث رصاصات في اتّجاه الحشد. ارتفعت شهقات الذّعر حين سقطت ثلاثة أجساد كانت تتمتّع بالحياة منذ حين، ثمّ ساد الهرج والمرج وأخذ النّاس يركضون في كلّ اتّجاه.. صرخ مايك ثانية:

- قلت اركعوا!

ثمّ استلّ رشاشًا من كفّ رجل العصابات الأقرب إليه وأطلق الرّصاص بلا حساب، وكانت حركته إشارة الانطلاق التي منحت الرّجال المشحونين بالغضب الإذن لينفّسوا عن طاقتهم السّاحقة المكبوتة.. خلال ثوانٍ قصيرة، سقط العشرات على الأرض مضرّجين بالدّماء، عقابًا لعصيانهم وعدم امتثالهم للأوامر، إلا أنّ النّزعة الوحشيّة لم تتوقّف عند ذلك الحدّ.. فيما تفرّق أبناء «آم» المذعورون والنّازفون يركضون فرارًا من آلات القتل المدمّرة، طاردهم الرّجال المسلّحون نحو أعماق الغابة وداخل المباني وعبر أطلال القرية المحترقة، كأنّ كلّ تلك الدّماء لم تشف غليلهم!

كانت الأوامر «اقتلوا كلّ من يقاوم»، وذلك الفرار فعل مقاومة ما، إذا تمثّل «عدم المقاومة» في الاستسلام والخضوع.

- قال اركعوا! اركعوا لحماية أنفسكم!

ارتفع صوت أنثوي يصيح بالآرامية، عاليًا رغم ارتجافه، ممزّقًا سيمفونية الرّصاص والصّراخ، فأصغى الـ«آم» مع ارتياعهم، وأخذت أجسادهم تنحني نحو الأرض في خضوع واستسلام، يلتصقون بأديمها ويضغطون جباههم على التّراب وهم ينتحبون مشفقين، ويحتذي بعضهم ببعض، يُصغون إلى النّداء ويمتثلون.. توقّف مايك عن إطلاق النّار وهو يلهث، وأشار إلى رجاله ليفعلوا بالمثل، ثمّ جال بنظراته عبر الأجساد المنحنية والرؤوس المنكسة، وسأل بصوت جهوريّ:

- من الذي تكلّم؟

لم يأته جواب على الفور، استمرّ الصّمت لثوانٍ طويلة، فحرّك رشّاشه في نفاد صبر مهدّدًا بنوبة جنون أخرى، عندئذ، تجاسرت امرأة شابة على رفع رأسها. استدارت الأنظار إلى تاليا، المعلّمة التي بلغت منتصف الثلاثينات من عمرها، ظهرت في عينيها نظرة إباء رغم الجزع التي تنمّ عنه أطرافها المرتعشة.. ابتسم مايك وهو يشير إليها بالاقتراب:

- لا تخافي، لن أوذيكِ.

لم يكن وعده ذا قيمة تُذكر، باعتبار الجثث المكدّسة التي تملأ السّاحة.

- أنت تتحدّثين الإنجليزية؟ تفهمين على الأقل؟

أومأت تاليا ببطء وهي تستجمع رباطة جأشها.. استمرّ مايك يقول:

- عظيم، كنت أحتاج إلى مترجم، في غياب ابنتي.. من الضّروري أن يتحقق التّواصل السّليم بيننا وبينكم.. أنت ترين بعينيك ما قد يؤدي إليه سوء الفهم!

ازدردتْ تاليا الغصّة التي تسدّ حلقها ولم تنطق.

- سوف تأتين معنا.. أين الحكماء؟ أريد أن أعلن قرارات مهمة!

***

سار آدم عبر الغابة شاردًا بلا وجهة، تضرب قدماه الحافيتان الأرض التّرابيّة بانفعال.

يمكنه ببعض المرونة أن يتجاوز مسألة الرّؤيا والواجب ومصلحة الشّعب التي تسيطر على تفكير المعالجة. تلك كانت الأسباب، وقد انتهت إلى جمعهما برباط الزّواج المقدّس.. إلا أنّ هاجسًا جديدًا راح يتسلّل إلى ذهنه حتّى استحوذ عليه.

كانت تعرف موقع «مخبأ العشّاق».. هاجمته تلك الفكرة المؤلمة، لقد مضت في مسار مسطور لا تحيد عنه، تمشي مشية العارف الذي تردّد على المكان سابقًا وألف الطريق إليه، هل كانت تأتي المخبأ في السّابق، برفقة شابّ آخر؟ أوران؟ تمكّنت منه الغيرة حتّى أعمت البصيرة وغيّبت العقل، وتكاتفت مع إحباطه وتأرجح ثقته بنفسه.. بات كلّ شيء موضع شكّ، وانقلبت ليلته السّعيدة وبالًا عليه!

هام على وجهه عبر سُبل الغابات بلا هوادة، ثمّ انتهى بين التّلال، فتحسَّس طريقه نحو مكبّ نفايات العالم الخارجيّ. كان المسخّرون ذوو الخيوط الرّمادية قد عملوا على تشكيل المعدن في الأيّام الماضية، تكاد الدّروع الصّلبة التي يجدلون صفائحها ويقوّمون اعوجاجها تستوي في شكلها النّهائيّ.. بين يديه صدريّة مقاومة للرّصاص، شبيهة بما كان فرسان العصور الوسطى يرتدونه في المعارك، ربّما يستخدم رجال الشّرطة والوحدات الخاصّة في العالم المتحضّر أنوعًا أخرى من الأنسجة أخفّ حملًا

وأشدّ متانة من دروعه تلك، لكنّها ستفي بالغرض، أخذ يعدّ القطع التي ستكون جاهزة للاستخدام قريبًا، فأحصى دستة منها وعددًا مماثلًا من الخوذات المجوّفة.

في عتمة الليل؛ ليلة زفافه، يقف وحيدًا بين التّلال محاطًا بالمعدن. لوقت لا يعلم مداه غاص بين أكوام الخردة يقلّبها بلا هدف. نسي بعد حين ما كان بصدده. استمرّ يرفع القطع ثمّ يرميها خلفه بلا تمييز، فيما تسرح أفكاره بعيدًا. ما الذي يبحث عنه بالضّبط؟ هل يفتّش عن الفرح الذي كان يسكن جنباته بداية السّهرة، ثمّ خسره في لحظة غفلة؟ استمرّ يحفر وينبش في الظلمة، كأنّما يستخرج كنزًا من بين الأنقاض، يشغل حواسّه ويعطّل عقله، حتّى تورّمت أصابعه ودميت كفّاه.

شعر فجأة بأزيز عميق يهاجم رأسه، مثل نعيب بوم بعيد لكنّه صادر عن أذنه الدّاخليّة في نفس الوقت! أمسك أذنيه يقاوم الصّفير الحادّ المزعج، وخيّل إليه أنّ نوبة هلع أخرى مقبلة، لكنّ الأزيز خفت بعد لحظات، وانتهى كلّ شيء، وقف لاهثًا ومشوّشًا.. ما كان ذلك؟ إلا أنّه لم يعرف ما أصابه منذ حين.

انتظمت أنفاسه أخيرًا واستقرّت نبضاته.. بعد نوبة السّخط وفورة الجنون، هدأت سورة الغضب وتسلّلت إليه السّكينة، جلس مستسلمًا عند سفح تلّة مرتفعة، واتكأ إلى جدارها.. لقد كانت روان ذات يوم فتاة يافعة، ولعلّها تسلّلت مع رفيقاتها ليلقين نظرة فضول على الموقع الممنوع، وهل هناك مكان يجهل واحد من سكّان الجزيرة بشأنه فوق رقعة الأرض المحدودة تلك؟ وهل يجهل الأطفال شيئًا أساسًا حتّى تجهله المعالجة المطّلعة على كلّ خبيئة؟

لان قلبه، وهو يفكّر في خيبتها بعد أن خلّفها وحيدة وقضى سواد الليل بعيدًا. وقف ونفض كفّيه، وقد قرّر أن يعود إليها.. لبث متلفّتًا يفكّر، هل تراها لا تزال في الموضع ذاته؟ أم تراها قد رجعت إلى الكوخ وحيدة تجرّ أذيال الحسرة؟ ماذا تراها تقول في مواجهة أهلها؟ وكيف تردّ إن سألوها عن مكان زوجها؟ خمّن أنّها قد تكون توارت في مكان ما تجنّبًا للحرج.. المشفى مثلًا؟

لم يكن قد قرّر الاتّجاه الذي ينبغي عليه السّعي إليه، حين ارتفعت طلقات الرّشاشات الصّاخبة في الأجواء.. كادت الأرض تميد تحت قدمي آدم من هول الصّدمة.

لا، لا، لا!

لم يكن ذلك الوقت المناسب!

وهل هناك وقت مناسب للقتل؟ طاش عقله وهو يندفع في اتّجاه القرية، أيًا كان موقع روان الآن فإنّها ستكون في طريقها لنجدة قومها، وهو يرجو أن يسبقها في الوصول.

- آدم!

جاء نداؤها من العدم، مثل فرامل صوتيّة أوقفت اندفاعه مرّة واحدة، استدار لتنبثق هامتها من غلالة الظلام ويجدها ماثلة أمامه، إلا أنّها لم تكن بمفردها، ترافقها زمرة من سيّدات الـ«آم» في مختلف المراحل العمريّة.. بدين جميعهنّ سالمات وإن كان الخوف يرجّ نفوسهنّ!

توقّف يطالعها في لهفة، بدت عيناها محتقنتين.. لقد بكت! أراد أن يهرع نحوها ويطيّب خاطرها، لكنّه لم يجرؤ أمام النظرات التي تحفّهما.. قالت موضّحة:

- لقد صدح بوق المسخّرين.. سمعه مروان والآخرون!

شعر بالانكسار في صوتها وهي تخاطبه، ربّما تَخفى البحّة الخفيفة عن غيره لكنّه يشعر بها، هزّ رأسه في تفهّم.. إذًا لقد عادت إلى المعتزل، ولم تخجل من تساؤلاتهم عن عودتها وحيدة؟ لم يرد أن يعرّضها للانتقاد -وربّما نظرات الشّفقة!- في ليلة كتلك، لكنّه الغباء حين يُعمي صاحبه!

لم يسبق له أن سمع نفير بوق المسخّرين، ولا يعرف كيف يكون صوته.. إن كان المسخّرون قادرين على تمييز النّغمة عبر ذبذبات تخصّهم وحدهم، فهذا يعني أنّه لم يرتق بعد ليكون واحدًا منهم، إلا أنّ الأوان ليس أوان تقييم مدى تقدّمه على سلّم التّسخير بل أوان التحرّك وتلبية النّداء.

اعتراه إدراك مفاجئ.. ذلك الأزيز الذي ملأ أذنيه، هل يكون صوت البوق؟ لقد سمعه! لقد فعل دون أن يعلم.. بقدر ما يشعره ذلك بالفخر والابتهاج، بقدر ما يجدر به أن يسارع إلى الميدان بعد أن تخلّف عن الرّكب، سأل:

- ماذا عن الحكماء؟

- لقد ذهبوا أيضًا.

لقد تأخّر، فيما سبقه الآخرون، المُخلِّص غائب فيما الخطر يداهم الجزيرة.. هل شكّوا في سبب غيابه؟ هل أمطروها بالأسئلة؟ لعلّ المخدوعين من الحكماء والمسخّرين والعامّة حسبوا أنّه قد سبقهم جميعًا إلى الخطوط الأماميّة.. لكنّ الآخرين يعرفون: هي وعمّار ونوح. قرّر حينها أنّه سيبدأ من الغد التدرّب على القفزات الخارقة للمسخّرين لطيّ المسافات.. لو أنّ مايك يمنحه فرصة الحياة حتّى الغد.

عادت روان لتقول:

- لا شكّ أنّ الغرباء قد عادوا!

بعد صمت رهيب زهاء الأسبوعين، لم تكن عودة الدّخلاء تنذر بخير. لم يكن مايك ليُقدم على أمر إلا وبحوزته وسائل دمار جديدة. في البعيد، لعلع الرّصاص بزمجرة عنيفة مرّة أخرى. رغم المسافة الفاصلة بينهم وموقع القرية، جاء الصّوت شديد الوضوح والقوّة في انفجارات متتالية مرعبة.. سأل آدم روان:

- هل هؤلاء متدرّباتك؟ هل هنّ جاهزات؟ سيكون قتالًا حقيقيًا!

كانت مجموعة من السيّدات والشابات الفزعات لا يتجاوز عددهنّ الدزينتين، يقفن في غير انتظام في العتمة، تلمع في أيديهنّ القصبات المعدنيّة للأسلحة التي تدرّبن على استخدامها في الأيّام الماضية، وقد حُشيت ذخيرة حيّة.. كان ذلك الجيش الاحتياطيّ الذي دربّته المعالجة بنفسها، والآن قد حان وقت تقييم الأداء في الميدان.

- هيا بنا إذًا!

بالإضافة إلى المسخّرين، كانت تلك السيّدات المدد الوحيد للتصدّي للدّخلاء، لم يدرك آدم الحكمة من هبّة الرّجال الطاعنين في السنّ والعاجزين عن القتال للقاء العدوّ، سيكون من السّهل أسرهم أو اقتناصهم، إنّ الانطلاق لنجدة المواطنين العزل من هجوم الغرباء عمل نبيل لا ريب، إلا أنّه تصرّف متهوّر لا ينطوي على أدنى حكمة أو حسن تصرّف!

سحب آدم نفسًا عميقًا وهو يرقب خطوات السيّدات الماضيات نحو الأعداء ببسالة، يسعين في ظلمة الليل والتّلال وشبح الخوف الجاثم على الصّدور.. رافقه خاطر كئيب وهو يمضي وراءهنّ: *أنت المُخلِص، يفترض بك أن تتصدّر المشهد وتواجه الدّخلاء، لا زمرة العجزة هؤلاء!*

لا فائدة، ليس مستعدًا!

ومتى كان مستعدًّا لأيّ من هذا؟

تتسارع نبضاته في جنون، وتضطرب أنفاسه، لم يكن الوقت المناسب لنوبات الهلع.. يذكّر نفسه: *أنت مُسخِّر!* لم يعد دعيًا بالكليّة، أحرز تقدّمًا يستحقّ الإشادة، الخيط الرّماديّ والحليبيّ والتّرابيّ كلّها طوع بنانه، وإن لم يكن قد نجح في طيّ المعدن بعد، لعلّه يتفوّق على كلّ المسخّرين في الجزيرة، يملك خصالًا لا يتمتّع بها أيّ منهم، إلّا أنّ الذّعر يكاد يشلّ حركته، يتخلّل نداء روان هلاوسه السّمعيّة وانقباضاته اللا إرادية:

- هل لديك خطّة؟

اعتصر عينيه بقوّة، وجمع أطراف تركيزه الذي يهدّد بالتّلاشي، ثمّ تسلّلت اليقظة إلى وعيه تدريجيًا، استدار ليواجهها أخيرًا، بمقلتين دمويّتين وسحنة شاحبة، سألت في قلق:

- هل أنت بخير؟

- مجرّد وعكة عابرة.

رغم محاولته التّوازن، جاء صوته مبحوحًا مختنقًا، كان يُفترض به أن يصالحها ويعتذر عمّا بدر منه منذ ساعات، لكنّ المثير للشّفقة هو أنّه بدا بحاجة إلى مساعدة، فيما ظهرت ثابتة الجنان.

دفع آدم زفرة توتّر وهو يجدّ في السّير عبر الطريق التّرابيّة المؤدّية إلى القرية، فيما يتردّد صدى الرّصاص الصّاخب في البعيد بوقع موجع، معلنًا ارتفاع حصيلة الخسائر البشريّة مع كلّ ثانية تمرّ، عادت روان لتعلّق في اهتمام:

- لا تبدو بخير.

حانت منه ابتسامة ساخرة، وهل يُفترض بأحدهم أن يكون بخير هذه الليلة؟ يعتصر الألم معدته ويشعر بالبرودة تسري في أطرافه، ولا يردّ، إلا أنّ اهتمامها بحالته يغلّف فؤاده دفئًا، أن يكون صاحب الأولويّة في تفكيرها رغم قتامة الوضع، هذا يعني أنّها لا تحقد عليه كثيرًا، سيكون كثيرون مفتقرين إلى «الخير» حين يصلون أخيرًا إلى موقع المعركة ويكتشفون مقدار الدّماء المراقة، وسيتحمّل النّتائج كاملة.

- هل لديك خطّة؟

تسأله للمرّة الثانية.. كان صاحب الخطط السّابقة كلّها، الهجوم الليلي الصّاعق، تبديل حبوب الدّواء وإنقاذ الأسرى.. لكنّه لا يجد الصّفاء الذهنيّ الكافي ليفكّر الآن، لقد عاد مايك، وهذا لا يعني خيرًا أبدًا، يتخيّل الأسوأ.. هل اكتشفتْ مانويلا شيئًا عن طريق أوران؟ هل عادت ومعها سلاح ممنوع دوليًا؟ لقد مضى أكثر من أسبوعين على حادثة «الأسطورة»، ولا يحسب الانتقام سيأتي إلا مدوّيًا، يعترف بصوت يغمره التوتّر:

- ليست لديّ خطّة.. لكنّنا سنفعل ما بوسعنا، سنكتشف الوضع حين نصل.. ونتصرّف على ضوء المعطيات.

لقد سبقهم المسخّرون بقيادة نوح، ثمّ فريق الحكماء.. لم يطلب أحد مشورته هذه المرّة، يُشعره ذلك الخاطر بالارتباك.. لعلّ نوح لا يعترف بسلطته المعنويّة أو يضع حسابًا لرأيه، إنّه مجرّد مُسخِّر مبتدئ مقارنة بالآخرين، ونفير البوق كان عليه أن ينذره لكنّه لم يفعل. بادروا بالمغادرة على الفور، لأنّ هذا ما يفعلونه منذ عقود، يلبّون النّداء. مع ذلك، كان عليهم أن يطلبوا مشورته، وهل يملكون انتظار عودته أو اقتفاء أثره وقد اختفى عن الأنظار؟ أم أنّهم منحوه ترف الرّاحة في ليلة زفافه؟ وماذا كان

ليفعل أو يقول على أيّ حال؟ ألم يكن ليأمرهم بالذّهاب للاستطلاع وحماية السّكان العزل؟ ألم يكن ليتخلّف عنهم في نهاية الأمر؟

تذكّر الدّروع والخوذات التي كان المسخّرون يعملون على تصنيعها منذ أيام، فانتابه الهلع: لم يأخذوا أيًّا منها! ربّما أنساهم الاستعجال أمرها، وربّما كانت لتثقل حركتهم وهم يهبّون استجابة لنداء الواجب، وربّما لم يقتنع أحدهم بجدواها أساسًا.. الأكيد هو أنّ جهودًا أهدرت دون فائدة، فلأيّ هدف يصنعون الدّروع إن لم يكن ليوم كهذا؟

- توقّفن!

أعلن بصوت حاسم في زخم الرّصاص.. الدّروع والخوذات، يجب أن يستفيد منها أحد على الأقلّ، جعلهنّ يرجعن أدراجهنّ باتّجاه مكبّ الخردة، لم يتحمّسن وهنّ يتلقّين الصدريّات المعدنيّة، فقد كانت تتّسع على أجسادهنّ الضّئيلة، لقد صُنعت لتناسب المسخّرين ذوي الصّدور العريضة والعضلات المفتولة.. ارتدى آدم بدوره الخوذة والدّرع، ستثقلهم المعدّات الحربيّة، لكنّ السلامة تأتي أوّلًا، لم تكن الدّروع المتاحة تغطي عددهنّ، فحصل بعضهنّ على خوذة فقط، وقد وجدنها أخفّ حملًا من الصّفائح العريضة وتهافتن عليها أكثر من الدّروع، حين فرغن من توزيع أدوات الحماية، استأنف الجمع المسير.

توقّف الرّصاص أخيرًا.

أطلقت روان تنهيدة طويلة نابضة بالألم.. لا تعرف كيف سيبدو الوضع حين وصولها، لكن سيكون أمامها كثير من العمل، يُطمئنها أنّ المعالجتين مارتا وقمر تمكثان قريبًا من القرية القديمة، ولعلّهما قد بادرتا منذ حين لنجدة المصابين. يهوّن عليها ذلك للحظة، ثمّ تتلاطم أمواج القلق في صدرها، كان يجدر بها البقاء قرب القرية، في المشفى مثلًا.. ربّما

لو أنّها تسلّلت إلى هناك بعد خلافها وآدم -كما خطر ببالها لبرهة- لكانت في الموقع المناسب وقت الحاجة، لكنّها حسبت أنّها ستجد آدم في الكوخ، ولذلك عادت نحو المعتزل بعد أن استنفدت قدرتها على البكاء.

بعد نحو ساعة من السّعي الحثيث، تجلّت أمام عيونهم آثار المعركة أحاديّة الجانب.. على أطراف الغابة، ظهرت أولى الأجساد التي اخترقها رصاص الدّخلاء، هرولت روان في لهفة، وأخذت تتحسّس النّبض، ثمّ تركت الضحيّة الأولى لتمرّ إلى الثانية فالثالثة.. فلا تجد إلا الجثث الهامدة! احتشدت العبَرات في عينيها، وهي تسدل الجفون على المقل الخاوية من الحياة، ثمّ أشارت إلى السيّدات حتّى يساعدنها على جمع القتلى جانبًا في خطّ واحد، فيما استمرّت تفتّش عن المصابين الذين يحتاجون إلى رعايتها.

تسمّر آدم مكانه وقد اشتدّ به الانقباض، تتطلّع نظراته نحو مركز القرية القديمة، حيث تملأ الأجساد الطّريق الممتدّ أمامه فلا يسعه حصرها ولا عدّها، لقد جنّ جنون مايك وتملّكته شهوة قتل عارمة! هل حسب أنّ رجال العصابات كانوا يطلقون الرّصاص في الهواء ترهيبًا منذ ساعة؟

إلا أنّ السّكون المسيطر على الجزيرة لم يفلح في تهدئة أعصابه، أين اختفى الغرباء؟ وماذا فعل المسخّرون؟ لا يودّ التفكير في فناء الـ«آم» جميعهم، باستثناء فريق السيّدات المشغولات إزاءه بإعداد الجنائز.

غير أنّ تلك الفكرة القاتمة تلتهم روحه من الدّاخل.

***

حين وصل الحكماء إلى دار العبادة، كان مايك قد بسط سيطرته على المباني العامّة التي لجأ إليها جزء من السّكان منذ أسابيع، في انتظار إعادة بناء القرية. على امتداد الطّريق إلى مركز القرية، تراكمت الجثث ولّما يطلع

عليها النّهار بعد. لم يميّز عمّار معظم الأجساد التي امتلأت بها السّاحات، لكنّه تعرّف إلى جثّة الشيخ الجليل واثنين من المُسخِّرين المُتمرّسين. انقبض صدره واحتشد الغضب في مسامّه حتّى كاد وجهه الأحمر القاني ينفجر. لقد خاض الـ«آم» معركة وحشيّة ضارية لا يضاهيها شيء في تاريخ «آرا» القديم والحديث. تفرّس في كلّ اتّجاه وهو يقطع الطّريق حتّى دار العبادة، متمنيًّا ألا تقع عيناه على ابنه مروان الذي بادر بالرّحيل ضمن زمرة المُسخِّرين.

استقبلهم المرتزقة عند مدخل دار العبادة. كانوا يقفون متأهّبين وفخورين، يوجّهون أسلحتهم إلى الجماهير الرّاكعة ورؤوسها إلى الأرض في استسلام. أشار إليهم أدولف بحركة فظة للعبور إلى داخل المبنى. كان مايك وحاشيته يتصدّرون المجلس، وقد وقفت المُدرّسة تاليا وسيطة تنقل أوامر الغرباء إلى قومها.

- أخيرًا.. الحكماء المبجّلون!

دلف الحكماء بخطى رزينة سمتها الوقار والثّبات، رغم المصاب الجلل. توقّفوا وسط القاعة الفسيحة التي غدت مقرّ عمليّات الدّخلاء، كان هؤلاء قد شغلوا المصطبة ووطئوا السّجاد بأحذيتهم العسكرية الثقيلة ودنّسوا المكان الذي كان قبل ذلك خاصّا بالعبادة ومشاركة الحكمة.. امتقعت ملامح الرّجال الشقر الملتحين وقد ألفوا ركنهم محتلًا، فلبثوا يتململون، لا يعرفون أيّ موقع يجدر بهم اتّخاذه.

تكلّم مايك وترجمت تاليا بشفاه مرتجفة:

- لقد تأخّرتم.. كان يجب أن نبدأ الجلسة منذ ساعة على الأقلّ!

صرخ «كوتانا» توماس في غضب:

- أيّ حديث تعني بعد ما اقترفتْ يداك من جرم!

مطّ مايك شفتيه في امتعاض، ثمّ انتصب واقفًا في تحدّ.. قال دون أن يرفّ له جفن:

- لقد جئت أعلن سلطتي على هذه الأرض.. أعني الجزيرة كلّها، بما فيها من بشر وشجر وحجر.. صارت ملكي!

عاد توماس يزمجر محتجًا:

- بأيّ حقّ؟!

- نعم، ألم أشرح هذا مسبقًا؟! هذه الأرض في الحقيقة ميراث تركه جدّي الأكبر.. سليمان بن إبراهيم، تعرفونه باسم «المعلم الروحي»!

تقدّم «كوتانا» تافي ليعلن ازدراءه بدوره:

- ما هذه الترّهات؟ ما الذي يثبت صلتك بالمعلّم الرّوحي؟

- حسنًا.. الدّماء التي تجري في عروقي تثبت ذلك!

مشى مايك بين الرّجال منتفخ الأوداج دافعًا صدره في زهوّ.

- ألا ترون أنّني أتنقّل في الجزيرة منذ ساعات دون أن يصيبني أيّ ضرر؟ ألم تُتلفوا مخزون الدّواء الذي حصلنا عليه في السّابق؟ والآن، نحن نعود سالمين.. أليست هذه معجزة؟

قهقه مايك فيما تواصل صمت الحكماء المرتبكين.. تدخّل عمّار أخيرًا:

- ليس هذا دليلًا كافيًا.. وليس عذرًا مقنعًا لبسط نفوذك على «آرا» وسكانها! إنّ المجلس هو الكيان الوحيد المخوّل لتنصيب حاكم أو إقرار وريث.. وأنت اعتديت على كلّ القوانين والأعراف!

ابتسم مايك متملّقًا وهو يقول:

- المجلس، بالتأكيد.. المتمثّل في هؤلاء الأفراد المبجّلين، أليس كذلك؟

عمّ السّكون برهة، قبل أن يستطرد:

- إذًا، يُفترض بي أن أحصل على تأييد المجلس ومباركته؟

استدار نحو «كوتانا» تافي وقال بلهجة متملّقة:

- أيّها الحكيم الموقّر، هل تعترف بي وريثًا للمعلّم الرّوحي؟

بصق تافي بلهجة قوية:

- ستكون خيانة لشعبي وأرضي.. وازدراءً لإرث أجدادي، نسل سليمان بن إبراهيم!

رفع مايك حاجبيه في اهتمام بعد أن ترجمت تاليا الكلمات.

- إذًا، أنت من سلالة المعلّم؟ جميل!

ثمّ، ودون ذرّة تردّد، سدّد مايك فوّهة مسدّسه إلى رأس الحكيم مباشرة وضغط الزّناد لتنطلق الرّصاصة وتستقرّ في جبينه، مخلّفة ثقبًا دمويًا يتصاعد منه الدّخان. ارتفعت الشّهقات في حناجر الـ«آم» المحتشدين لمراقبة مشهد المواجهة بين الحكماء والدّخلاء المحتلّين، وتراجعوا في فزع حين انهارت جثّة تافي العظيمة مثل جبل يُدكّ، وتهاوت على الأرض جامدة بلا حراك.. حدث كلّ شيء في ثوانٍ معدودة وتحت نظرات الشّهود الكثر، إلا أنّ الصّدمة أعجزت أيا منهم عن الإتيان بردّة فعل، باستثناء التّحديق الذّاهل. كبّلهم العجز وسيطر عليهم الخوف، وقد أيقنوا أنّهم إزاء عدوّ لا يهمّه المنطق ولا تعنيه القواعد والأعراف. بالنسبة إلى هؤلاء الغرباء المتوحّشين، لا تمتلك الحياة البشريّة أدنى حُرمة، يستوي في ذلك الحكيم والمسخّر وعامّة النّاس.

تكلّم مايك ثانية بهدوء شديد:

- أعتقد أنّنا فقدنا حكيمًا للتوّ.. يلزمنا خليفة له في المجلس، أليس كذلك؟ هل لدى الفقيد أبناء ذكور؟

سرت موجة تكاد تكون ملموسة من التردّد المذعور، ثمّ تباعدت الجموع في انصياع ليظهر من بينها شاب دون العشرين مرتجف الأوصال، قال مايك مستحسنًا:

- هذا الحكيم الجديد! تفضَّل، لا تخف، انظمّ إلى جمعنا رجاءً.. قل أيّها الحكيم المبجّل، هل توافق على كوني وريث المعلّم الرّوحي؟

أومأ آشور برأسه ذاهلًا وأطرافه لا تنقطع عن الاختلاج.

- ممتاز، حصلتُ على الصّوت الأول! هل نجري تصويتًا الآن، أم أنّنا نحتاج إلى أن نستبدل أيّ حكماء آخرين قبل ذلك؟

كانت دماء تافي الطازجة لا تزال تسيل على الأرض بسخاء، وعيناه الجاحظتان ترنوان إلى الجمع في نظرة فزع لا نهائيّ رغم خلّوها من الحياة. طأطأ الآخرون رؤوسهم في خنوع وتحاشوا نظرات العامّة المترقّبة، مجلّلين بالعار والخذلان، لم يجرؤ أحدهم على الاعتراض، فقال مايك راضيًا:

- أظنّ أنّ القرار قد اتّخذ بإجماع من المجلس.. أنا ممتنّ لكرمكم وسخائكم أيّها الحكماء الموقّرون!

لم تغب نبرة السّخرية في كلماته عن أحد، لكنّ السّكون المستسلم كان كلّ ما عبق في الأرجاء وردّدت صداه الجدران الصّماء. كان مايك المتكلّم الوحيد في جلسة شعارها الصّمت الخانع، وتفوح بين ثناياها رائحة الموت، وقد تبيّن أنّ للكلمة الواحدة ثمنًا باهظًا لا يكادون يقدرون عليه!

- إذًا هل نبدأ العمل؟ أين المُسخِّرون؟ فليتقدّم المُسخِّرون!

زمجر صوت مايك عاليًا، ورفعت تاليا صوتها بالنّداء المختنق، ثمّ انفرجت الجموع ثانية، ليتقدّم المسخّرون مقيّدي الأيدي وراء ظهورهم يسوقهم المرتزقة المسلّحون، تأمّلهم مايك بابتسامة عريضة، وهو يستعيد

في فخر تفاصيل فخّه المحكم. لقد توقّع مجيء هؤلاء الفرسان النّبلاء لنجدة قومهم، واستعدّ لاستقبالهم.

تحت غطاء الليل الكثيف، تسلّق القناصة برشاقة أسطح المباني المتقاربة على أطراف الحيّ القديم. تحرّكوا مثل الأشباح وسكنوا منبطحين على بطونهم، مستعينين بأجهزة الرؤية الليلية. من مواقعهم تتكشّف لهم الطّريق المؤدّية إلى التلال وزوايا الساحات التي توقّعوا أن يظهر منها المُسخِّرون.

في الأسفل، بدأ أوّل المسخّرين بالظهور، فرادى ومجموعات صغيرة، يتقدّمون بحذر، يتحسّسون مصادر الخطر. لم تمضِ سوى دقائق حتى دوّى أول إطلاق نار، سقط أوّلهم أرضًا قبل أن يُدرك من أين جاءه الموت. تلاه آخر بطلقتين لا أكثر، واحدة في الرأس، وأخرى في الصدر. لم يكن الهدف التّصفية، بل التّرويع والانتقاء.

كانت تعليمات مايك صارمة: «لا تفرطوا في القتل، نريدهم أحياء». قد يضطرّون إلى إزهاق أرواح من الأفراد العاديّين الذين لا فائدة منهم -إذا تطلّب الأمر- لكنّهم بحاجة إلى المُسخِّرين، عدد معقول منهم. كان يدرك أنّ المسخّرين، رغم قوّتهم، يمكن ترويضهم إن باغتهم وحاصرهم وبثّ في صفوفهم الاضطراب، إنّ كثرتهم ستغريهم بالمقاومة، والقيادة الحكيمة ستنظّم صفوفهم.. لذلك كان قنص قادتهم ضروريًا، أولئك الكهول المتمرّسين الذين يجمعون حولهم الشباب ويغرسون فيهم الولاء والجرأة!

رُصد ثلاثة من القادة الكبار، يتحرّك من خلفهم عدد من الشبان، كأنّهم يستعدّون لإلقاء أوامر أو لبدء طقوس التّسخير الخاصّة بهم، خلال لحظات، تهاوت أجسادهم تباعًا، قنصًا دقيقًا شلّ الصفوف، حسب أدولف، العقل الاستراتيجي للعملية، أنّ هذا كفيل بإخضاع الباقين، خاصّة الشباب، ظنًّا منه أنهم سينهارون بفقدان مدرّبيهم ومرشديهم.

لكن الواقع خالف الحسابات، اندفع الشبان نحو مصدر النار في موجة عارمة من الغضب، وقد تفجّرت قواهم.. استدعى أحدهم ريحًا عاتية نشرت الغبار في عيون المسلّحين، ورفع آخر ذراعيه فاهتزّت أوراق الشّجر ثمّ اندفعت مثل أسهم تخترق الجلد وتمزّق اللحم، فيما ألقى ثالث بصاعقة شقّت الهواء وخطفت الأبصار قبل أن تشعل النّار في سقف المخزن ويضطرّ القنّاص الرّابض فوقه إلى الالقاء بنفسه على الأرض!

التهبت المعركة متكافئة رغم تفوّق المسلّحين الأوّليّ وفقدوا سيطرتهم لبرهة. لكنّ ما افتقر إليه المسخّرون الشباب هو القيادة والتخطيط، انفجر كلّ واحد منهم في جهته، يقاتل بمفرده، يدافع بشراسة دون تنسيق، وهنا استعاد المرتزقة اليد العليا، فكلّما اشتبك مسخّر، التفّ حوله مقاتلان أو ثلاثة، يشتّتون تركيزه، يستنزفونه حتّى يُنهك.. جرح بعضهم، وحوصر آخرون، وتمكّن قليل منهم من الفرار!

في النهاية، بعد نحو ساعة من المناوشات، كان المسخّرون مقيّدين ومنهكين، وتحت السّيطرة.

تقدّم مروان ويونا وآخرون من رفاقهم إلى داخل دار العبادة، تتقّد عيونهم غيظًا وقهرًا، تبادل عمّار وابنه نظرة منكسرة، فيما يستمرّ مايك في استعراض القوّة.

- والآن، أين المعالجات؟ هل هناك معالجات هنا؟

جاءت المعالجتان مارتا وقمر تاليًا تجرّان أذيال الهوان، بعد ساعات من محاولات الإنقاذ البائسة للصّرعى، ثمّ رفع مايك بصره ليتأمّل الحشود قبل أن يهتف فجأة كمن تذكّر شيئًا:

- وأين آدم؟! أحضروا آدم!

***

توقّف آدم عند حدود منطقة التلال متواريًا عن الأنظار، يُرسل بصره إلى البعيد مستكشفًا.. لم يكن السّكون السّابغ يورثه أدنى قدر من الطمأنينة، إن لم تكن معركة طاحنة فلن يعرف موقعه من معادلة الفوز والخسارة، أشار إلى السيّدات اللواتي يتبعن خطاه بالتوقّف، ثمّ أخذ يتسلّق التلّة المنخفضة ليُشرف على ما وراءها.

في البداية، لم يميّز شيئًا من خلف الغابة الممتدّة، ثمّ بدأت عيناه تلتقطان بوادر الحركة، كان القنّاصة في مواقعهم فوق مبنى دار العبادة، والمرتزقة المسلّحون ينتشرون على حدود القرية، لاحظ أنّهم لا يرتدون بدلات الحماية البيضاء التي كانت عليهم في المناسبات السّابقة، فتأكّدت شكوكه.. لا أثر للمُسخّرين أو الحرّاس، تراجع بفؤاد خافق وعقل مشتّت.

همس لروان حين لامست قدماه الأرض:

- لقد سيطروا على القرية.. لا أرى أحدًا من الـ«آم».

باستثناء الجثث المنشّرة.. إنّها الهزيمة إذًا، لم تتح لهم فرصة القتال فضلًا عن الانتصار، همست روان من بين أسنانها في إصرار:

- يجب أن نفعل شيئًا!

ألقى نظرة عابرة على فريق النّساء الفزعات اللاتي يحتضنّ سلاحهنّ مثل حبل نجاة وهميّ ويسبحن داخل الدّروع المتداعية.. ما الذي ستفعله مجموعة كهذه أمام القتلة المحترفين؟ إنّ المخاطرة بالظهور الآن تعدّ انتحارًا جماعيًا سريعًا. ما إن يُبصر القناصة الأسلحة في أيديهن حتى يطلقوا النّار فورًا، لن يُسمح لهن بالاشتباك أساسًا! قد تحميهم الدّروع بعض الوقت وتدفع عنهم الإصابات المباشرة في أجزاء الجسد الحسّاسة، إلا أنّها لن تمنعهم من تلقي الرّصاص في الأعضاء المكشوفة، والنّزف طويلًا والاحتضار ببطء.

أخذ آدم نفسًا طويلًا وتخيّر كلماته:

- لا يمكننا عمل شيء الآن.. لا ندري ما الوضع هناك.. لا يمكننا أن نكشف أنفسنا فنكون ضحيّة سهلة.. يجب أن نختبئ في الوقت الحاليّ، ونضع خطّة!

لا يزال ذهنه متشظيًّا لألف قطعة وقطعة، لا يعرف ما الخطوة المنطقية السّليمة التّالية وهو يسير على حاشية الهلع، يخشى أن ينزلق في نوبة مريعة أخرى، لكنّه يتماسك.. لأنّ هؤلاء السيّدات الشجاعات يعتمدن عليه، ولأنّه -ربّما- الأمل الأخير للجزيرة، بعد أن وقع المُسخِّرون والحكماء في قبضة المحتلّ.

- نختبئ؟ هل نعود أدراجنا؟

برقت الفكرة في رأسه فجأة:

- لا، لا فائدة من المكوث في المعتزل.

رغم موقعه المرتفع المشرف على الشاطئ والغابة، فإنّ المعتزل لا يقدّم أيّ نوع من الحماية الاستثنائية في وجه السّلاح الرّشاش.. لكنّ موقعًا آخر قد يفعل. قال في ثقة:

- سوف نختبئ في الكهف!

- الكهف؟

هتفت روان، فيما شهقت رفيقاتها، معظمهنّ لا يعرف شكل الكهف من الدّاخل، بعضهنّ متدرّبات في المشفى وتعاملن مع حجارة الشّمس من قريب، لكنّ الكهف يبقى مساحة المُسخِّرين الخاصّة.. قال آدم شارحًا:

- في الكهف متاهات كافية للتّواري عن الأنظار، كما أنّ الغرباء يخشون تأثير الـ«مادرا» فلن يتوغلوا في الأعماق.. ربّما بحوزتهم عقار

يسمح بتحمّل مناخ «آرا»، لكنّ تركيز الـ«مادرا» عالٍ قرب المصدر، وقد تسبّب لهم بالمتاعب في مناسبة سابقة.. لذلك، سنكون بأمان لبعض الوقت.. حتّى نفكّر بما سنفعله بعد ذلك.

أومأت روان في استسلام، سيكون عليهم الالتفاف على الجانب الآخر من الغابة والتسلّل إلى مدخل الكهف دون أن ينتبه إلى وجودهم أحد، قبل ذلك يحتاجون إلى جمع الماء والمؤونة الكافية لبضعة أيّام، لا يعرفون بعد كم من الوقت عليهم الاختباء.

وهكذا، انطلقت فرقة السيّدات المسلّحات بقيادة المعالجة والمخلّص، في مهمّة النّجاة المستحيلة.

***

تسلّل آدم بحرص بين التّلال يتبع خطوات روان، ليُشرف جمعهم على طريق فرعيّ يؤدّي إلى مركز القرية، فيما يقود الاتّجاه الآخر نحو المرفأ البحريّ، أمّا قبالتهم مباشرة فيظهر مقطع جانبيّ لمدخل الكهف.. أعطت روان إشارة التوقّف، فكبحت السيّدات اندفاعهنّ الحثيث، وصلصل المعدن الذي يرتدينه، كانت المعالجة قد اتّخذت وضع الصّدارة تلقائيًا، فهي خبيرة بمسارات الجزيرة وطرقها المختصرة.. كثيرًا ما كانت تتوغّل في الغابة وتهيم بين التلال الجيرية تجمع الحشائش وتنقّب عن الأعشاب العلاجيّة النّادرة، لذلك فقد كانت مُخوَّلة أكثر من غيرها لأخذهم عبر طريق آمنة وخفيّة عن عيون الدّخلاء.

ولئن كانت السّبيل المطروقة حتّى تلك اللّحظة مضمونة، فإنّ مدخل الكهف مكشوف تمامًا.. أمامهم مباشرة على مسافة عشرات الأمتار، كانت مجموعة من المرتزقة قد أوقدوا نارًا وتحلّقوا حولها يتسامرون في صخب؛ ستّة منهم. كان الموقع بعيدًا عن موضع القرية -القديم والحديث- وعن

المباني المركزيّة، لذلك ربّما لم يكلّف الدّخلاء أنفسهم عناء الحراسة الجادّة.. كانوا قد تخلّوا عن حذرهم وتركوا أسلحتهم جانبًا، فكانت الفرصة مثاليّة.

تهدّجت أنفاس آدم، وهو يهمس إلى السيّدات وراءه:

- العدو أمامنا.. يمنع عنّا الوصول إلى الكهف دون اشتباك، يجب أن نهاجم!

اهتزّت الرؤوس مؤمّنة، رغم ارتجاف الأوصال.. إنّهن جاهزات للمحاولة، حتّى لو كان الثمن حياتهنّ، استدار آدم إلى روان وسألها:

- مَن أفضل متدرّباتك؟ نحتاج إلى فرقة طليعة للتّغطية.. فيما تتّجه الأخريات مباشرة نحو الكهف.

أشارت المعالجة إلى أربع من مرافقاتها، ثمّ أضافت:

- سأقودهنّ.

رَغِبَ في الاعتراض، لكنّه يعرف أنّها لن تصغي.. ستكون أوّل من يُعرّض نفسه للخطر بغريزة القائدة التي تحمي فرقتها، أومأ بلا نقاش وهمس:

- سأقود الأخريات إلى الكهف.

لم يتدرّب على الرّمي بالبنادق مثلهنّ، لذلك سيكنّ أوفر حظًّا أمام الرّجال المسلّحين، يخجل من الاعتراف ببطء عمليّة التّسخير لديه، هي بطيئة عند الآخرين كذلك، لكنّه يستهلك وقتًا أوفر من أيّ مسخّر آخر لسحب خيوطه.

عند الإشارة، انطلقت العمليّة.. ركض الجميع باتّجاه الكهف، ثمّ توقّفت فرقة الطليعة لتوجّه فوّهات البنادق نحو الرّجال المنهمكين، انتبه المرتزقة مع وقع الخطوات وقعقعة المعدن، وحين واجهوهنّ، كانت

الطلقات تغادر فوّهات الأسلحة النارية بين أيدي السيّدات بالفعل.. كانت مباغتة فعّالة، فالمرتزقة غير جاهزين للردّ الفوريّ، كان ينبغي لهنّ النّجاح، إلا أنّ الرّصاصات طاشت في جميع الاتّجاهات، باستثناء رصاص روان الذي أصاب رجلًا في كتفه وفخذه، فسقط يتلوّى، أمّا رفاقه، فسرعان ما تسلّحوا وأخذوا يردّون الطلقات، لقد تبيّن سريعًا أنّ التّصويب نحو هدف ثابت بقدمين راسختين وجسد متخفّف من الأثقال أيسر بكثير من الإغارة المفاجئة على أهداف بشريّة متحرّكة مع أحمال من المعدن!

في الأثناء نفسها، كان آدم وباقي المجموعة يسعون في اتّجاه الكهف.. توقّف آدم في منتصف المسافة، وقد أدرك فداحة ما ارتكبه، لقد خلّف زوجته تواجه العدوّ، في حين يولّي هاربًا! تصاعدت الدّماء إلى وجهه وتغمّده العار والنّدم، كان عليه أن يفعل شيئًا، أغمض عينيه، رغم الرّصاص الذي يتبادله الفريقان، واستدعى خيطه الحليبيّ.. كانت مناورة روان ومتدرّباتها تسمح له بترف التّركيز، تحرّكت السّيدات متعثّرات، وهنّ يواصلن التّسديد الشارد، إلا أنّ الدّروع والخوذات نجحت في حمايتهنّ من رصاصات مميتة.

قبل أن ينفجر الضّوء، صرخ نحوهنّ:

- احتمين!

استدارت روان في اللّحظة المناسبة لتدرك ما هو بصدده.. حين انتشرت موجة الضّوء كانت المقاتلات قد انبطحن أرضًا، فيما ارتدّ الرّجال إلى الوراء بعد أن أفقدهم المدّ المفاجئ توازنهم، باعتبار المسافة، لم تُحدث الهجمة أذى كثيرًا، لكنّها تمنح الفريق فرصة الوصول إلى مدخل الكهف بأمان.. كانت لديهم بعض الأسبقيّة، ومعرفة أفضل بداخل الكهف بقيادة روان، إلا أنّ الرّجال سرعان ما انتصبوا على أرجلهم وانطلقوا وراءهم.

توقّف المرتزقة برهة قصيرة عند مدخل الكهف يتشاورون، كانت التعليمات صارمة بشأن دخول الكهف، لكنّ الوضع حرج ويتطلّب تصرّفًا سريعًا. لم يدم التردّد كثيرًا قبل أن يندفع الرّجال وراء الطّريدة مشحونين بغريزة القتل.

استمرّ آدم يتلفّت وراءه ويصغي إلى وقع الخطوات التي تجدّ خلفهم رغم توغّلهم مسافة بعيدة عبر مسالك متعرّجة.. كانت المسافة التي تفصلهم تتقلّص وقد أثقل المعدن والفزع حركات السيّدات وجعلهنّ يلهثن مع كلّ حركة، وقريبًا ستكون الفرقة في مرمى رصاص العدو، كان عليه أن يجد حلًا.. مرّة أخرى هتف بصوت صارم:

- تراجعن داخل الممرّ!

أطاعت السّيدات في إذعان وتدافعن داخل مسار جانبيّ ذي سقف منخفض، فيما وقف آدم في وضعيّة تركيز، أمامه بضع ثوانٍ، وسيكون عليه أن يضع قدراته محلّ تقييم، لم تكن الهجمة الأولى بالقوّة الكافية، يتعيّن عليه أن يصرعهم هذه المرّة.. أخذ نفسًا عميقًا وأسدل جفنيه، استجاب الخيط الحليبيّ ونبض، فأخذ يسحبه، لعلّه رفيق الليلة المناسب، فقد امتدّ إلى أصابعه منذ حين بلا صعوبة تذكر.. أمّا الآن، فعليه أن يلحق أذى حقيقيًا بالدّخلاء الذين يطاردونهم.

تعالى صدى الخطوات معلنًا وصول المطاردين عند المنعطف ولعلع الرّصاص مجدّدًا لتستقرّ المقذوفات داخل الجدران.. حرّك آدم ذراعيه عاليًا، ثمّ أطلق موجة النّور في اتّجاه الطرف المقابل من الممرّ، بغتة، تصدّعت الأرض تحت قدميه ومن حوله مع انفجار الطاقة خارج جسده، تناثر الضياء الباهر وارتجّت أركان الكهف، ثمّ أخذت الحجارة تتساقط معلنة انهيارًا وشيكًا، لقد أدرك آدم متأخّرًا أنّ استخدام قدراته داخل الكهف لم

يكن الخيار الأفضل.. ألم يسبق أن حذّره نوح؟ إنّ تركيز الـ«مادرا» بالقرب من المصدر مرتفع جدًّا، وامتصاصه لها سريع وفعّال، ممّا يجعل جسده قنبلة موقوتة، هتف وهو يركض إلى الخلف:

- تراجعن!

إلا أنّه لم يتمكن من قطع أمتار قليلة قبل أن يتلقى ضربة مباشرة على الرّأس، لينكفئ على وجهه بلا حراك.

***

وقف مايك راسل أمام جدار الحجارة الذي يسدّ الممرّ بحاجبين معقودين وجبين متغضّن. جاء الرّجال منذ حين لإنبائه بالأحداث، مجموعة من السيّدات المسلّحات برفقة مُسخِّر دخلوا الكهف، فاضطرّت الفرقة إلى مطاردتهم، متجاوزين الأوامر الصّارمة بعدم التوغّل قرب مصدر الـ«مادرا».

استنادًا إلى أوصاف المُسخِّر -صاحب البشرة الدّاكنة- تبيّن أنّه لم يكن إلا آدم. لقد عرف منذ زمن أنّه يمتلك هبة التّسخير -بطريقة ما- وإن لم يستوعب كيف يكون ذلك مُمكنًا، تحدّث نايت عن تحكّمه بالأمواج، والآن يقول النّاجي الوحيد من الخمسة الذين طاردوه داخل الكهف، إنّه قد أطلق كتلة من النّور ألقت بهم أمتارًا إلى الوراء وصدّعت جدران الكهف التي انهارت في أكثر من موضع. لم يعرف على وجه الدّقة إن كان هلاكهم بسبب الرّضوض والنزيف الدّاخلي، أم بسبب الحجارة التي تساقطت فوق رؤوسهم، أمّا الجدار السّميك الذي يرتفع أمام عينيه، فهو شاهد على قوّة الهجمة، رغم كلّ شيء، لم يرد أن ينتهي الأمر هكذا.

- آسف يا صديقي.. لكنّ هذا الكهف سيكون مثواك الأخير!

تنهّد بعمق، وهو يعود أدراجه نحو الرّجال الذين ينتظرونه عند المدخل. كانت حصيلة اليوم فادحة، أربعة قتلى وجريحان بسبب تحدّي الأوامر المباشرة، لقد قَتل كثيرين، العشرات من الـ«آم»، قبل أن يشفي غليله لفقدان «الأسطورة»، لكنّ نفوق أربعة من الرّجال المنيعين ضدّ مناخ الجزيرة مثّل ضربة موجعة!

ترنّ كلمات نايت في رأسه.. «إنّهم بشر، وخسائرهم البشرية ليست أقلّ أهميّة من خسائرنا»، لكنّه لا يزال يعتقد أنّ الأربعة الذين فقدهم يساوون عشرات الأرواح التي أزهقها هجومه، لقد تكبّدت مانويلا رحلة طويلة ومشقة جمّة لتحضر الحقن الأربع والعشرين، وإهدار كلّ واحدة منها يثير غيظه وسخطه!

كان الرّجلان المصابان على قيد الحياة، لكنّ أحدهما ينزف بشدّة بعد أن أصابته طلقات ناريّة مباشرة في الفخذ والذراع، فيما سُحقت عظام الثاني وقد تحتاج ساقاه إلى البتر، كلّ ما أمكن لنايت تقديمه لهما هو مسكّنات الألم قبل أن يعلن آسفًا:

- يجب أن ننقلهم إلى السّفينة.

ربّما يكون ذلك هو القرار المنطقيّ، قد يتمكّن الدكتور كريس من عمل شيء ما، لكنّه لا يقترف المعجزات.. سيكون الرّجلان عاجزين بقيّة حياتهما، وبلا فائدة على الإطلاق بالنّسبة إلى عمله، بحسابات عقلانيّة صرفة، سيكونان في عداد الأموات، مثقلين ميزانيته بمصاريف بلا داعٍ، رنّت الكلمة في رأس مايك بنغمة أخّاذة: *معجزة.. إنّه يحتاج إلى معجزة!*

- فلتحضروا المعالجة!

لقد سمع كثيرًا عمّا تنجح في عمله أولئك السيّدات صاحبات اللمسات الشافية. يودّ أن يعاين بنفسه قدراتهنّ، كما سبق وشهد قدرات المُسخِّرين،

ثمّ، إذا حدثت المعجزة فسيكون قد أنقذ رجلين وتجنّب إهدار الحقنتين، بعد دقائق، جاءت سيّدة طاعنة في السّنّ، يسحبها اثنان من المرتزقة، فتقاوم برباطة جأش وتتلكأ في مشيها، أشار مايك إلى المعلّمة تاليا التي تلازمه للترجمة، فنقلت كلماته إلى اللغة الآرامية:

- هل يمكنك علاج الرّجلين؟

نظرت مارتا شزرًا إلى المصابين، ثمّ ابتسمت في شماتة قبل أن تقول بلهجة متعالية:

- فلينفقا مثل الهوام، كما قتلا أبناء قومنا!

همست تاليا:

- إنّها ترفض.

احتدّ مايك وقد أدرك أنّها تلفظت بأكثر من مجرّد الرّفض:

- ترفض؟ أليس لديكم «ميثاق شرف» أو «قسم أبقراط» أو ما شابهه؟ ألا يلتزم الأطباء بعلاج كلّ مريض بغضّ النظر عن هويّته ودينه وجنسه؟

هزّت تاليا كتفيها استهانة، فاستطرد مايك في غضب متزايد:

- إذًا أحضروا أبناءها!

- ليس لديها أبناء.. لقد فقدتهم جميعًا.

أعلنت تاليا ببرود، فجزّ مايك على أسنانه، ثمّ استلّ مسدّسه ووجّهه إلى رأسها وصرخ:

- هل تريدين الموت أيّتها العجوز الشمطاء؟ هل أجعلك تلحقين بأهلك؟

طفت ابتسامة ساخرة على شفتي مارتا وهي تغمغم مسبلة جفنيها:

- أظنني عشت بما يكفي، ولن أندم على الرّحيل بكرامة!

تشنّجت كفّ مايك على مقبض المسدّس، لكنّه لم يجرؤ على قنصها، بل وجّه الفوّهة إلى رأس تاليا التي أرهبتها المفاجأة، لكنّها ثبتت في موضعها دون أن يرفّ لها جفن.

- إن لم تقنعيها بالتّعاون، ستفقدين حياتك.. هل فهمت؟

دمدمت تاليا بكلمات آراميّة، لم يحتج مايك إلى تفسيرها ليدرك فحواها البذيء. إنّهما تتحدّيانه، سيّدتان ضعيفتان حياتهما بين يديه تعصيان الأوامر وتصمدان أمام السّلاح، وتفعلان ما عجز عنه جموع الرّجال، حتّى الحكماء لم يجرؤوا على ذلك! فكّر في إحضار مزيد من النّساء والأطفال، سوف يرديهم قتلى واحدًا بعد الآخر أمام عيون المرأتين المتحذلقتين وسيرى حينها إن كانتا ستستمرّان في تحدّيه، يمكنه أن يكسر نفسيهما ويمرّغ أنفيهما في التّراب.

جاءه صوت العقل والضّمير على لسان نايت:

- سيّدي.. أرى أن نتوقّف هنا، سنرسلهما إلى السّفينة لتلقي العلاج.

حدجه مايك بنظرة صامتة.. لعلّه قد اكتفى من القتل تلك الليلة، ويلزمه نصيب من الرّاحة مثل الجميع، كانت حصيلة الهجوم ثقيلة على الـ«آم»، وبعد خضوعهم يجدر به أن ينتهج أسلوبًا مختلفًا ليؤكّد أنّ تعاونهم يُجدي نفعًا واستسلامهم يضمن حياتهم.

قبل أن يُنهي العرض، سدّد ضربة قاسية إلى صدغ المعالجة بعقب المسدّس، فسقطت أرضًا والدّماء تسيل من رأسها، لن يقتلها، ليس بعد، ربّما يجد ورقة ضغط لاحقًا تجعلها تطيع أوامره.. لكنّه يعرف على الأقلّ أنّ إقصاء المعالجة المسنّة لن يسديه أيّ معروف.

- لقد انتهينا هنا.

تململ المتفرّجون وتفرّقوا عائدين إلى المباني الرّئيسية حيث أقاموا مركز العمليّات، يتوق الجميع إلى قسط وفير من النّوم بعد ليلة دامية.

لم يبق إلا ثمانية عشر رجلًا، بالنّسبة إلى المدى البعيد، سيكون عليه إرسال مزيد من المسخّرين إلى الدّيار لصنع كميّات أوفر من العقار، لعلّه لم يخطّط للأمر كما يجب، لم يكن يجدر بمانويلا العودة وبرفقتها المُسخِّر، إنّه يحتاج إلى كليهما هناك، في المختبر، ما يضمن تصنيع العقار باستمرار وتدفّق إمدادات الحقن بلا توقّف، سيسمح لها باستراحة قصيرة بضعة أيّام، ثمّ سيرسلها مرّة أخرى.. مع مجموعة أكبر من المسخِّرين، لمضاعفة الكميّة، وسيكلّف جهة وسيطة بعمليّات الشّحن، فتنقّل مانويلا غدوًا ورواحًا تضييع للوقت.

حين أقبل نايت ناحيته، كانت الأفكار قد أخذت تتشكّل وتنتظم في ذهنه. لديه مشاريع كثيرة لهذه الجزيرة المثيرة، وعليه أن يضع كلًّا منها على المسار فورًا. انتبه إلى قناع العبوس الذي يكسو ملامح ذراعه اليمنى، فزجره:

- ما الأمر؟ هل أثار مشهد الدّماء عاطفتك؟

دمدم نايت بنبرة لوم:

- لقد تجاوزنا الحدّ يا سيّدي!

قال مايك بابتسامة لزجة:

- ما يحدث في «آرا» يبقى في «آرا»...

جاءه صوت نايت متردّدًا:

- أليس هذا.. إرهابًا؟

نطق الكلمة المحظورة مثل خطيئة تثقل ضميره، فردّ مايك بحزم:

- لا، لا تخلط الأمور.. يُعد إرهابًا فقط عندما يُرتكب ضدّنا، أما عندما نرتكب بحقهم ما هو أسوأ، فلا يعد إرهابًا.. بل هو دفاع مشروع عن النّفس!

لم يكن في السّابق شخصًا عنيفًا -باستثناء الفترات التي قضاها في الخدمة العسكريّة- ولا ينفعل سريعًا، لكنّه يتحوّل إلى آلة قتل متعطّشة للدّماء! من الصّعب التّصديق بأنّ هذا يحدث له، لو كان في الدّيار لما أقدم حتمًا على عمل مشابه، بل في أيّ موضع من العالم المتحضّر، كان ليحسب للقانون ألف حساب!

انقطاع الجزيرة عن العالم واختفاؤها من إشارات الرّادار والقمر الصّناعي في مصلحته حتمًا، من المدهش أن يمتلك ذلك القدر من حريّة التصرّف بلا رقابة، في وقت صارت فيه الحروب تنقل على الهواء مباشرة عبر بثّ مواقع التّواصل الاجتماعيّ، ويتابع النّاس حول العالم تفاصيلها الدّقيقة من دفء بيوتهم! يعدّ نفسه محظوظًا لأنّ حربه القذرة تنفّذ في ظلّ تعتيم إعلاميّ شامل. إنّه آمن هنا، لا يخشى ملاحقة ولا عقابًا ولا حتّى تنديدًا من مناصري حقوق الإنسان.. ومن أمن العقوبة أساء الأدب، وتجرّأ على اقتراف ما لا يخطر له أنّه قادر عليه في كنف الحضارة.

إلا أنّه يجد لنفسه المبرّرات، ألم يسبقه هؤلاء الهمج إلى تحطيم سفينته المثالية؟ ألم يقتلوا قرابة الرّجال العشرة، غرق بعضهم فيما نفق آخرون بسبب المُسخِّرين أو الدّواء الفاسد؟ لقد كان يرجع دومًا بطاقم مكتمل العدد، لا يردعه قراصنة البحر الأحمر ولا يهدّد سلامته خارجون على القانون.. فكيف لأعصابه الاستمرار في التحمل لأكثر من شهرين دون أن تنهار؟ لقد دفعوه إلى هذا دفعًا، فوجب أن يدفعوا الثّمن.

- اختر رجلين لمرافقة المصابين إلى السّفينة.. على أن يرجعا آخر النّهار وبرفقتهما المعدّات، والدكتور كريس أيضًا، نحتاج إليه هنا، وحين يطلع النّهار، سوف نبدأ التّحضير للأشغال.. العمل لا ينتظر.

تثاءب نايت بصوت مسموع، رغم محاولة الكتمان، فزجره مايك:

- لم يحن وقت النّوم بعد.. فليُبق الرّجال أعينهم مفتوحة!

لم ينم مايك ورجاله تلك اللّيلة، ولئن كانت العمليّة ناجحة في المجمل، فإنّ أيّ تقاعس قد يتسبّب في إفلات السيطرة من بين أيديهم، لن يحصل أحدهم على راحة حقيقيّة حتّى يحكموا قبضتهم على المُسخَّرين، إنّهم مساجين مقيّدون الآن، إلا أنّهم قد يتجرأون على التمرّد في أيّ لحظة، لذلك يريد كريس هناك في أقرب وقت.

- إنّهم مرهقون وجائعون..

- سوف نتدبّر أمر الطّعام، لكنّ النّوم سينتظر بضع ساعات إضافيّة.

سكت نايت ولم يعقّب، فيما أضاف مايك:

- تلزمنا أدوات المسح الترابي ابتداءً من الغد.. سنقوم بجولة شاملة للإحاطة بجغرافيا المكان..

زوى نايت ما بين حاجبيه، ثمّ سأل باهتمام:

- هل تبحث عن شيء محدّد؟

- أريد أن أرسم خارطة دقيقة للجزيرة.. ثمّ، سنحدّد موقعًا مناسبًا للمنتجع السّياحي!

- منتجع سياحيّ؟

لم تكن تلك الخطّة في البداية، تستمرّ خططه في التطور والتغيير، ليست «آرا» مصدرًا للطاقة وحسب، بل إنها أرض مثمرة وغنيّة بالفرص، أمامه الكثير لعمله لاستثمار إمكانات المكان كاملة. شرع مايك يقول وهو يشير بيديه في حركة مسرحيّة:

- هذا الموقع سيكون مصدر ثروة وفيرة، إذا جعلناه قبلة سياحيّة لمحبيّ المغامرة من أثرياء العالم.. تخيّل العناوين العريضة للدّعاية: «رحلة العمر إلى الجزيرة الخفيّة!» أماكن محدودة وقائمة حجوزات بلا نهاية، أسعار خرافيّة وخدمات على أعلى طراز.. يخوت فاخرة يسافر على متنها ثلة من المحظوظين للوصول إلى مكان لا مثيل له في العالم! تجربة فريدة من نوعها نحتكر كلّ تفاصيلها من النّقل إلى الإقامة إلى الخدمات الطبيّة المرافقة..

سيتعيّن عليه أن يدفع كثيرًا من الرّشاوى ليخرس الأفواه ويحصل على الدّعم، سيستخدم كلّ الرّوابط التي تجمعه بأصحاب القرار، وسيضطرّ إلى قبول شركاء محتملين يقاسمونه الكعكة، سيفعل ما يتعيّن عليه فعله، وسينجح هذا الأمر.

- ماذا عن السّكان؟

استدار مايك كمن لدغ فجأة، ثمّ أطلق ضحكة عالية.

- لا تقلق، لن أظلمهم.. سأمنحهم الخيار: البقاء والانضمام إلى مشروعنا العظيم، أو تقاضي أجورهم والرّحيل إلى العالم الواسع!

- الانضمام إلى المشروع؟

- حتمًا سيكونون مفيدين لنا.. حين ندرس الموقع بدقّة، سنجد مكانًا ملائمًا لبناء قرية للعمالة في موقع جانبيّ لا يعطّل سير الأعمال.

جاء وصف السّكان بالـ«عمالة» تلقائيًا بالنّسبة إلى مايك ونشازًا في أذني نايت. تردّد قبل أن يتجرّأ على الاعتراض:

- عذرًا سيّدي.. هل تطرد السّكان من قريتهم، لبناء منتجع للأثرياء؟

حدّق فيه مايك بثبات للحظات، لا يعرف إن كان الرّجل يردّد كلماته على سبيل التأكيد أم الاستنكار؟ ألم تكن نواياه واضحة كفاية، بعد مجزرة الليلة الماضية؟ هل يعتقد أنّ التّراجع ممكن بعد الآن؟ لقد سلك هذا الطّريق بجلاء بصيرة وإدراك تامّ للعواقب. قال بهدوء ردًا على السؤال المطنب:

- نعم، هذا ما سنفعله تمامًا.

مرّت لحظات من الصّمت لم يكّرر خلالها نايت المساءلة أو الاحتجاج، فأردف مايك:

- إذًا، هلا اخترت اثنين من رجالك لمرافقتنا؟

***

انتحب مروان في صمت، في زاوية غرفة المخزن التي أخليت من محتوياتها بعد أن أتلف المحصول منذ أسابيع إبّان هجمة الدّخلاء الأولى. تعبق الجدران برائحة السّمك المملّح التي تطغى على كلّ الرّوائح الأخرى، بما في ذلك رائحة الخوف والغضب.

اهتزّ جسده في ارتجاف مكبوت، تؤلمه الألياف المعدنيّة القاسية التي تحيط معصميه وتسحج جلده، إلا أنّه لا يبكي ألمه الجسديّ، لا تزال صورة معلّميه وهم يسقطون واحدًا إثر الآخر وقد خرّم الرّصاص أجسادهم المهيبة ماثلة أمام عينيه، مثل مشهد يتكرّر بلا نهاية.. لقد حسب أنّ فقدان «بندار» ماتياس كان خسارة فظيعة، فكيف برحيل خمسة من البندار المتمرّسين دفعة واحدة؟

برز نوح في الطّليعة، «بندار» الخيط الترابيّ الأقوى، سبقهم جميعًا وقبل أن يدرك أيّ منهم ما يحدث، اندفع وابل المقذوفات تجاهه بدقّة وشراسة، فأصيب في رأسه وصدره وقضى نحبه على الفور، تبعه بعد ذلك ساشا وسام، اثنان من «بندار» الخيط الرّماديّ الأشدّاء، أطلقا الصّواعق التي سرعان ما تلاشت في الهواء حين أصابتهما الرّصاصات في مقتل، في الأثناء نفسها تحرّك الـ«بندار» الشبّان في لهوجة واضطراب، تخبّطوا محاولين استجماع شتات أنفاسهم، وكالوا هجمات مبعثرة بلا قوام، لكنّ سلاح الدّخلاء لم يطاردهم كأنّهم لا يعيّرونهم بالًا. انصبّ تركيزهم على الأكبر سنًا، سقط بعد ذلك عابد وزارا، معلّمان من حملة الخيط الأصفر.. كان زارا معلّمه سنواتٍ، يعود إليه فضل كلّ التّقنيات التي يعرفها، يحزّ في نفسه أنّه لم يقض برفقته وقتًا كافيًا بعد تخرّجه، وخاصّة بعد أن اختار الانضمام إلى جماعة المُخلِّص.. والآن، لن يرافقه بعد أبدًا!

انحنى يونا على صاحبه يهمس له:

- كفى بكاءً، أنت لم تعد طفلًا!

لقد كان طفلًا منذ أسابيع قليلة، لم يبلغ منزلة المُسخِّرين إلا منذ وقت وجيز، حتّى بعد أن خاض مغامرة منقطعة النّظير برفقة المُخلِّص، لا يزال مبتدئًا تعوزه التّجربة والمهارة، وهو قطعًا لم يكن مستعدًا للفقد.. مات كثيرون الليلة، أكثر ممّا يموت خلال السّنة الواحدة، بل السّنوات المتتالية، لا يذكر أنّه قد حضر جنائز بذلك العدد في حياته كلّها، وهو لا يعرف بعد إن كان قد فقد أيًا من أفراد عائلته!

يضغط الألم على صدره فيصدّعه من الدّاخل، كأنّ القشرة الهشة التي تحمي فؤاده من الجزع قد طالتها الشقوق، فهل يسعه أن يستقبل آلامًا بعد؟

اقتحم الغرباء الغرفة بأسلوبهم الهمجيّ المتعجرف، فانتصبت شوكة الشبّان المقيّدين وتهيؤوا لأمر ما.. وقف الرّجال المسلّحون على جانبي المدخل، موجّهين الفوّهات الغادرة إلى صدورهم في تهديد صريح، فيما تقدّم رجل ثالث يرتدي بدلة الحماية البيضاء التي شوهد باقي الدّخلاء يرتدونها في زيارتهم الاستطلاعيّة الأولى.

بعد ذلك، أخذ المسلّحون يجرّونهم واحدًا تلو الآخر، ليخضعوا لطقس مجهول، قاوم مروان بأنفة حين سُحب إلى وسط الغرفة، وكتم ذعره المتصاعد وعبراته المنذرة بالهطول وتجلّد، فيما كشف الغريب المتواري خلف القناع ذراعه. ابتسم الرّجل. تجرّأ على الابتسام، كأنّما يستخفّ بجسامة الموقف، يسخر من آلامهم ومآسيهم، فعبس مروان في وجهه بما يملكه من إرادة، ثمّ شعر بألم ممضٍ حين انغرس جسم حادّ في أعلى ذراعه العارية.. قبل أن يعيده سجّانوه إلى موقعه.

همس يونا في أذنه:

- ما كان ذلك؟

إلا أنّ لسانه ثقل فجأة، فلم ينبس ببنت شفة، استولت عليه موجة استرخاء عاتية أخذت تسحبه إلى قعر المحيط، استسلمت أطرافه ثمّ انسدل جفناه بلا مقاومة، ثمّ أخذت الأصوات من حوله تخفت فيما غمرت ذهنه سحابة كثيفة، قبل أن يصيب وعيه الشلل الكامل، طفت فكرة واحدة على السّطح.

المخلّص، سيفعل شيئًا بالتأكيد.

(25)

اليوم الخامس والعشرون بعد الثلاثين

عاد الدّكتور كريس إلى السّفينة بعد يوم حافل، كانت تلك رحلته الأولى إلى الجزيرة. تحرّك الرّجال من حوله برشاقة وخفّة، بعد أن تلقّى كلّ منهم حقنة من العلاج الذي جيء به من مركز أبحاث متطوّر في العالم المتحضّر، أمّا هو فلم يحصل على واحدة.. كان بوسعه طلبها، لكنّه لم يفعل، لا يتوقّع أن يتردّد كثيرًا على «آرا»، بل إنّ موقعه سيكون غالب الوقت على السّفينة الرئيسيّة، إذا أصاب هؤلاء الرّجال مضاعفات تتعلّق بالعقار، فعليه أن يكون متاحًا للمعاينة، لا أن يقع ضحيّته بدوره!

رغم امتهانه الطبّ وإيمانه بعلاجات العالم الحديث، فإنّه يتعامل مع العقارات التجريبية بحرص وحذر.. لذلك كان يرتدي بدلة حماية كاملة في أثناء زيارته القصيرة تعوق مشيه وتثقل حركته، إلا أنّ التّجربة اكتست مسحة من الإثارة.

تقدّم عبر الممرّات التّرابيّة التي تتألّق ببريق فضيّ تناهت أخباره إليه منذ أيّام على لسان الزّوار السّابقين للجزيرة، غير أنّ المعاينة لم تخل من سحر إضافيّ لا تضاهيه كلّ الحكايات التي تبدو كالأساطير. تلك المادّة المدهشة حقيقة لا يستوعبها العقل!

(25)

اليوم الخامس والعشرون بعد الثلاثين

عاد الدّكتور كريس إلى السّفينة بعد يوم حافل، كانت تلك رحلته الأولى إلى الجزيرة. تحرّك الرّجال من حوله برشاقة وخفّة، بعد أن تلقّى كلّ منهم حقنة من العلاج الذي جيء به من مركز أبحاث متطوّر في العالم المتحضّر، أمّا هو فلم يحصل على واحدة.. كان بوسعه طلبها، لكنّه لم يفعل، لا يتوقّع أن يتردّد كثيرًا على «آرا»، بل إنّ موقعه سيكون غالب الوقت على السّفينة الرئيسيّة، إذا أصاب هؤلاء الرّجال مضاعفات تتعلّق بالعقار، فعليه أن يكون متاحًا للمعاينة، لا أن يقع ضحيّته بدوره!

رغم امتهانه الطبّ وإيمانه بعلاجات العالم الحديث، فإنّه يتعامل مع العقارات التجريبية بحرص وحذر.. لذلك كان يرتدي بدلة حماية كاملة في أثناء زيارته القصيرة تعوق مشيه وتثقل حركته، إلا أنّ التّجربة اكتست مسحة من الإثارة.

تقدّم عبر الممرّات التّرابيّة التي تتألّق ببريق فضيّ تناهت أخباره إليه منذ أيّام على لسان الزّوار السّابقين للجزيرة، غير أنّ المعاينة لم تخل من سحر إضافيّ لا تضاهيه كلّ الحكايات التي تبدو كالأساطير. تلك المادّة المدهشة حقيقة لا يستوعبها العقل!

سبقه الرّجال ممهّدين الطريق، يدلّونه إلى الاتّجاهات الصّحيحة، وحفّته نظرات السّكان الوجلة من مخابئهم خلف الجدران المتشقّقة والخمائل الشّاحبة، إلا أنّه لم يكن إلا غريبًا إضافيًا ضمن زمرة الغرباء المنتشرين في كلّ مكان، مشرعين الأسلحة ومعلنين سيطرتهم على الأرض وأهلها.

لديه مهمّة محدّدة: داخل غرفة مكتظة، وجد دستة من الشّبان شاحبي البشرة، الذين لا يختلفون كثيرًا من ناحية الشكل والهيئة عن الأطفال الفضوليين الذين أطلوا عليه في أثناء مسيره، إلا أنّهم مقيّدو الأيدي والأقدام، والسّلاح موجّه إلى رؤوسهم باستمرار، كانوا أكثر الأفراد خطرًا وأدعى للريبة، ولذلك أنيطت به تلك المهمّة.

وضع حقيبته على الأرض، وأخذ يجهّز الحقن.. فيما حصل مرتزقة مايك راسل على عقار يمكّنهم من التنقّل بأمان على سطح الجزيرة وتحمّل مناخها العدائيّ، سيكون عليه حقن الشبّان مفتولي العضلات من السّكان المحليين بمهدّئ طويل المدى -من النّوع الذي يستخدم في مصحّات الرّعاية النّفسيّة للتحكّم في النّزلاء في حالة الهيجان- استعدادًا لنقلهم إلى السّفينة.

لم يكن ذلك من الأعمال المريحة بالنّسبة إليه، ولا يشبه في شيء توقّعاته تجاه المهمّة التي قبلها ابتداءً.. لكنّ الظروف تتطلب التعامل مع المعطيات الجديدة.

- دعونا ننتهي من هذا سريعًا.

حاول أن يبتسم من وراء الخوذة الزّجاجيّة، إلا أنّ ادّعاءات اللّطف لم تكن مقنعة من وجهة نظر عملائه المكرهين على تقبّل خدماته.. أحضر المرتزقة الرّجال البيض الغاضبين واحدًا إثر الآخر أمامه، ليحقنهم وهم يتملّصون ويتمرّدون رغم قوّة السّلاح التي تحاصرهم، مع كلّ حقنة

«ميدازولام» أفرغها في عضد أحدهم، تنامى داخله إحساس بالخزي والعار.

ليس هذا ما يطمح إليه أيّ طبيب يعتزّ بشرف المهنة، إلا أنّ الرّبح السّهل قد يغري أيًا مَن كان، لا ينكر أنّ ما جعله يلتحق بخدمة مايك راسل هو الطّمع وحده، لكنّ ربما أن الأموال المجزية التي سيتلقاها لن تنجح في إخماد ثورة ضميره طويلًا!

أنهى المهمّة الثقيلة على مضض، مداريًا ضيقه واستياءه من نفسه وانصرف. إثر ذلك شرع المرتزقة في نقل الرّجال المخدّرين إلى القوارب في عمليّة اختطاف سلسة، التّخدير سيضمن عدم مقاومتهم أو محاولتهم الإقدام على أيّ حماقة خرقاء في أثناء العبور.. إبّان وصولهم، سيُودَع كلٌّ منهم غرفة ضيّقة عفنة ليحبس إلى أجل غير مسمّى، إلى جوار صاحبهم الذي سبقهم منذ زمن.

على امتداد رحلة العودة في القارب المطاطي لازمته أفكار احتجاج وثورة يُدرك أنّها ستظلّ مجرّد خواطر ليلية سيتناساها أو يتجاهلها حين يطلع النّهار. ليس من اليسير أن يكون المرء مثاليًا وفاضلًا حين تواجهه معضلة المال والشّرف.

ما إن وطئت قدماه سطح «سارا»، حتى سرّه أن ينزع عنه الجلد الصّناعيّ، كأنّما يتخلّص من الأدران التي علقت به، مثل أفعى تستبدل بجلدها آخر جديدًا! تحت مياه الصّنبور الفاترة فرك كفّيه بقوّة وهو يغّسلهما، ثمّ قرّر أنّه سيحظى بحمام متكامل. كان استخدام الدّش ترفًا لا يحظى به يوميًا، لكنّه شعر بالحاجة الماسّة إليه في تلك اللّحظة.

بعد أن حسب أنّه قد طّهر نفسه بالقدر الكافي من عوالق التّجربة المنفرة، استلقى على سريره منهكًا، وغرق في نوم عميق حتّى الصّباح.

حين استيقظ، كان قد استعاد نشاطه وهمّته، غادر مقصورته ليتفقّد المرضى الحقيقيين الذين يقيمون على متن السّفينة.. زار الرّجلين المصابين أولًا، كانت إصابات الأوّل سطحيّة فنجح في استخراج مقذوفات الرّصاص من فخذه وكتفه، إلا أنّه لم يستطع أن يفعل كثيرًا بالنّسبة إلى الثاني. حاول مساعدته بتقديم المسكّنات وربط موضع الإصابات لإيقاف النّزيف، في انتظار تلقيهما علاجًا حقيقيًّا في أقرب مشفى حضريّ. الجروح المفتوحة معرّضة للتعفّن، إذا لم يسعفا خلال ثلاثة أيّام على أقصى تقدير. يفترض بكليهما الانطلاق قريبًا على متن اليخت الذي ستركبه مانويلا نحو الدّيار. ربّما لا تعرف السّيدة الصغيرة بعد بتعليمات والدها في ما يخصّها، لكنّ الطاقم تلقى بالأمس أمر الاستعداد للإبحار عاجلًا.

طرق كريس باب غرفتها، ثمّ دلف بابتسامة لطيفة، إلا أنّها أكثر حيويّة وتلقائيّة من تلك التي اصطنعها أمام السّكان المحليّين، واستعدّ لإبلاغها بالمستجدّات، غير أنّ ابتسامته غارت على الفور وهو يبصر مانويلا في حالة تشنّج عصبيّ حادّ.

كان جسدها يهتزّ ثمّ يتصلّب كلّما سرت فيه نوبة الصّرع، وسالت رغوة بيضاء من شفتيها المنفرجتين، فيما تحدّق عيناها المتّسعتان في السّقف بنظرة فزع عالقة. هرول ليُحضر عدّته الطبيّة من غرفته، حين رجع كانت النّوبة قد انقضت. بسرعة حقنها بدواء مضادّ للتّشنجات، ثمّ راقب نبضاتها في عبوس، فيما كانت تلهث بإجهاد، كانت بحال أفضل حين تفقّدها بالأمس.

- هل هي النّوبة الأولى؟

همست مانويلا بصوت مختنق:

- الأولى لهذا اليوم...

- والأمس؟

- اثنتان.

في أثناء انهماكه في أعمال غير أخلاقيّة مخجلة، تتعرّض المريضة الحقيقيّة لنوبات متكرّرة بلا مراقبة أو عناية، تصاعد داخله الغضب الخانق.. بعد أن تأكّد من استقرار حالتها، سارع بكتابة رسالة إلى مايك راسل، قريبًا سيحضر القارب لنقل معدّات ولوازم مختلفة يحتاج إليها المرتزقة على الجزيرة، سيسلّم الرّسالة إليهم.

***

حاولت ريحان أن تمنع العبَرات من التجمّع مرّة أخرى في مقلتيها والاسترسال في النّزول على وجنتيها، تتهالك نفسها لأنّه لا يجدر بها البكاء. وقفت مع الواقفين في طابور طويل لتتلقى وجبة الغداء؛ الوجبة الأولى التي توزّع عليهم ذلك النّهار، بعد انقضاء يوم أمس دون طعام. جاء الرّجال الدّخلاء صباحًا وساقوا عددًا من السّيدات خارج مبنى المدرسة الذي فُصل داخله النّساء والأطفال، وبعد ساعات، كانت الوجبة جاهزة.

تأمّلت ريحان في دهشة محتويات طبقها: يخنة داكنة اللّون لم تميّز لها شكلًا أو نكهة مألوفة. ابتسمت أرابيلا مشجعة وهي تنهمك في ملء أطباق الأطفال الآخرين، تحافظ على بشاشة وجهها وانبساط ملامحها لتُلهم الأمل رغم طبقات الحزن التي تغلّف صدرها، همست ريحان:

- هل يمكنني الحصول على طبق من أجل ياسر؟

دفعت والدتها طبقًا إضافيًا نحو الطفلة وأشارت إليها بالانصراف سريعًا، لتترك المجال لغيرها. عادت ريحان أدراجها نحو الغرفة توازن الطّبقين في كفّيها، وقد عادت إليها رغبة البكاء، لا تعرف إن كانت تلك

اليخنة عديمة المذاق تستحقّ المشقة، إلا أنّها استعادت رباطة جأشها وهي تُقبل على ياسر.. قالت بصوت حانٍ مثل أخت كبرى:

- يجب أن تأكل!

لا تزال سحنة ياسر مكتسية قناع الصّدمة منذ الأمس، لم ينبس الولد ببنت شفة، ولم يذرف دمعة واحدة، بعد أن شهد سقوط والدته برصاص المحتلّ، فيما صُرع والده على الشاطئ وجُرّت جثته لاحقًا لتكدّس إلى جانب باقي الجثث في قبر جماعيّ، كأنّ ملامحه تحتفظ بتلك اللّحظة إلى الأبد، وعيناه تستحضرانها باستمرار فتتكرّر الفاجعة في ذهنه إلى ما لا نهاية.

وضعت ريحان الطّبقين على الأرض بينهما، ثمّ تذوّقت شيئًا من طبقها، لم يكن الطّعم شهيًا، لكنّه مستساغ، ميّزت حموضة غنيّة، كأنّها ورق شجر ما. لم يسبق لوالدتها طهو الورق الأخضر، لكنّ العنزات تحببنه، وإن كانت السيّدات قد طبخنه فهو بالتأكيد صالح للاستهلاك. كانت الأيّام السّابقة عسيرة، لكنّ الوضع شهد تحسّنًا ملحوظًا بعد عودة القطيع، أكلت لحمًا كثيرًا منذ يومين، في حفل زفاف شقيقتها! بدت تلك الليلة الزّاهية كحلم جميل وبعيد، تثير ذكراه الشّجن، لذلك لم تعتقد أنّ أكل يخنة الورق خيار مثالي. هل استأثر الدّخلاء باللّحوم والأسماك والطّحين، ولم يتركوا لهم إلا الورق لأكله؟ عادت العَبَرات لتملأ مقلتيها وسال أنفها، إلا أنّها ابتلعت الغصّة التي تسدّ حلقها وهي تزدرد اليخنة بإصرار.

يجلس الأطفال من حولها، يأكلون فرادى أو جماعات في صمت مقيت، تزدرد الأفواه الصّغيرة الطعام الردّيء بلا شكوى أو تذمّر. في الأوقات العاديّة، كانت الأصوات لتتعالى مطالبة بوجبة أفضل، كميّة أكبر، وكان آخرون ليُعرضوا عن الأكل، يركض بعضهم نحو الغابة لالتقاط الفاكهة

البريّة أو نصب الفخاخ للطّيور.. لكنّهم جوعى ومنهكون. يعرفون غريزيًّا أنّ أيًا من المحاولات النّزقة لن يجدي.. إنّه يوم حداد رماديّ حزين.

رأت ريحان جثثًا كثيرة، قُتل رجال ونساء وأطفال.. رأتهم يسقطون فجأة، كما سقط «بندار» ماتياس منذ أسابيع. كان الموت بتلك الطريقة المفاجئة مرعبًا، يدوّي الصّوت المخيف ثمّ تتداعى الأجساد على الأرض. استمرّت تهتزّ في مكانها وتشهق كلّما رنّ الدّويّ في رأسها، أو حولها، لا تعرف على وجه اليقين.

رأتهم يسوقون شقيقها مروان مع المسخّرين الآخرين، وشاهدت والدها يحاجج المحتلّ ببسالة، لكنّها لم تر روان وآدم. لم ير أحدٌ العروسين منذ حفل الزّفاف، ولا أحد يعرف مصيرهما. يتهامس الآخرون، يرجون أن يكونا سالمين، مختبئين في مكان ما، يجهّزان لهجمة مرتدّة. يتذكّر الجميع خطط المُخلِّص الحاسمة، لقد نجح في وقت سابق في مهاجمة الغرباء على متن سفينتهم ذاتها، ليحرّر الأسرى! لذلك يعتقدون أنّه قادم لا ريب، لن يتأخّر كثيرًا.. إذا صبروا بضع ساعات، أو بضعة أيّام، فإنّه سيأتي ويحرّرهم.

فلتثق في ذلك.

لعلّه الأمل الوحيد.

***

مرّرت روان كفّيها بحنوّ على رأس آدم المستقرّ في حجرها، فيما توزّعت السيّدات الباسلات من حولها، يستندن إلى الجدران ويستغرقن في نعاس خفيف تقظّه أدنى الأصوات التي تردّدها متاهة الكهف.

كانت ليلة عصيبة على الـ«آم»، بدأت بأهازيج الفرح وانتهت على صدى شهقات الموت. لكنّها لا تزال صامدة، عليها أن تكون صامدة،

فجميعهنّ يعتمدن عليها. تحرقها الدّموع التي تحارب لتبقيها سجينة في مآقيها، إنّها ركيزة من ركائز مجتمع «آرا»، فمن لهنّ إذا انهارت الرّكائز كلّها؟

آدم، المُخلِّص، الركيزة الكبرى، ينام منذ الأمس مثل خرقة بالية. لم ينهر بعد عمليّة التّسخير وفراغ جسده من الطاقة، بل بسبب الحجارة التي تدفّقت من السّقف مثل شلال منهمر ورضّت أطرافه وشجّت رأسه، لا تزال بقع دمائه الجافّة تلوّث الأرض رغم توقّف النّزيف.. لقد فعلت ما بوسعها لرعايته، وقد تعافت الجراح الخارجيّة ظاهريًا، لكنّه لا يستيقظ بعد.

تطلّعت إلى أعماق الكهف حين شدّتها الحركة المقبلة، ثمّ سرعان ما أصبحت الفتاتان المستطلعتان في مرمى بصرها، حدّقت نحوهما في لهفة، ثمّ سرعان ما تبخّر الأمل في عينيها حين أبصرت الخيبة الجليّة في ملامحهما.. لقد انطلقتا منذ ساعات لاكتشاف الموقع، إذا كان المسار إلى الوراء مسدودًا، فقد يقود السّعي إلى الأمام إلى مخرج آخر، لكنّ المتدرّبتين تُقبلان بسحنة شاحبة وعيون منطفئة:

- إنّه طريق واحد يستمرّ بلا نهاية!

كان عليهما أن تعودا أدراجهما بعد أن استبدّ بهما الجزع وهما ما تفتآن تبتعدان عن المجموعة وتتوغلان في أعماق الكهف المجهولة، اتخذتا قرار الرجوع خاليتي الوفاض لتضعا القرار بين يدي المعالجة.

- سوف نتدبّر أمرًا.

همست روان تطمئن الفتيات المتحلّقات حولها.. لو أنّ آدم يستيقظ! ستكون بجعبته حيلة ما، دائمًا ما كان ذهنه تتفتّق عن الخطّة المناسبة!

شملهنّ السّكون ثانية، فأصغت روان إلى أنفاسه تتردّد قريبًا منها، لقد اختلفا منذ ليلتين، كانا سعيدين ثمّ انقلبت الحال فجأة.. لم يكن عليها أن

تذكر الرّؤيا! لقد خبّأتها في صدرها عن الجميع، لأنّها اعتقدت أنّها لن تقنع أحدًا، لا أحد سيصدّق إيمانها السّخيف بقدر خاصّ يعنيها.. لكنّها حسبت أنّه سيكون مختلفًا، إنّه زوجها! لذلك ظنّت أنّه الوحيد الجدير بمشاركته مكنونات صدرها.. كلّ ما احتفظت به داخلها سنواتٍ، ستكون قادرة على إبرازه أمام عينيه دون احتراز، غير أنّها أخطأت التّقدير!

حين يفيق، ستعرف كيف ينبغي لها التّعامل معه، لقد كانا شريكين في السّابق، يعتمد أحدهما على الآخر، وينسجان الأهداف والخطط، كان ينبغي أن تظلّ الأمور على ما هي عليه، لن تجازف بالبوح المبالغ فيه بعد الآن، سوف يسمع منها الكلمات التي يريدها، وسوف تتقن دور الزّوجة المثالية كما تعلّمت أن تفعل.

لقد بكت تلك الليلة حين تركها عند الأرجوحة الشبكيّة وابتعد، لبثت وهلة يغمرها صمت ذاهل، ثمّ شعرت برذاذ الماء المنهمر من الشلال الصّاخب يلامس وجهها، فاستدعى ماء عينيها للسّقوط، بكت في صمت وهي تستلقي على الأرجوحة، تضمّ ذراعيها إلى جسدها وترتجف، وحين جفّت دموعها وهدأت ثائرتها، تسلّلت إلى كوخ آدم دون أن يراها أحد، حسبت أنّها ستجده هناك، وأين تراه يذهب، فذلك مكمنهما منذ الآن.. حين لم تجده، قرفصت على الأرض تترقّب وصوله، سيعود في وقت ما، فيتعاتبان ويتصالحان.

رتّبت كلمات لطيفة حلوة لتطيّب خاطره ووطّنت العزم على إصلاح ما فسد، إلا أنّ الصّخب في الخارج باغتها، حين هبّ المُسخّرون من رقادهم على أزيز البوق الذي لا يسمعه غيرهم، فلم تجد بدًّا من الرّكض إلى خارج الكوخ بدورها، وحين سألها والدها عن آدم، خرجت الكلمات المحيّرة من شفتيها بصوت ضعيف «لا أدري»!

شعرت بتململ رأسه في حجرها وارتجاف جفنيه قبل انفراجهما، فرنت إلى عينيه النّاعستين في لهفة وزيّنت الابتسامة شفتيها.. إنّه يعود إلى الحياة، وبعودته سيرجع الأمل المسروق، وسيكون هناك مستقبل لهما معًا.

***

تلك الإغماءة التي تأتي مباشرة بعد عمليّات التّسخير المجهدة لم تعد لغزًا يحيّره، لكنّ التّعامل مع الإحساس بالضّياع عند الإفاقة، كمن يتعلّق بين الحلم والواقع، لا يزال تحدّيًا مربكًا.. حين فتح آدم عينيه، تطلّب الأمر بعض الوقت حتّى يميّز موقعه، ويتذكّر الأحداث السّابقة لغيبوبته، كان أوّل ما راوده من أفكار هو أنّ نوح كان مُحقًّا.. إنّ ممارسة التّسخير داخل الكهف، بالنّسبة إلى جسد مثل جسده، يستقبل طاقة الـ«مادرا» بغزارة في كلّ وقت، مخاطرة جسيمة!

لبثت رؤيته مشوّشة وأهدابه تهتزّ طاردة آثار الدّوار، ثمّ استقرّت عيناه على الوجه الذي ينحني فوقه، العينين اللامعتين والابتسامة المشرقة، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة تردّ صدى ابتسامتها.. مسحت عنه رؤيتها كلّ عوالق الأمس التي كدّرت مزاجه -هل كان الأمس؟- وشعر بحاجة ماسّة إلى عناقها، البكاء والاعتذار.. لا يعرف لماذا يحتاج إلى البكاء تحديدًا، ربّما لينفّس عن الخوف والنّدم والقلق المتراكم في صدره، تحسّست أناملها جبينه ونبضات رسغه، ثمّ همست:

- أنت بخير.

ألا يكون بخير بفضل لمسات المعالجة الشافية؟ لطالما كان الرّهان على البقاء إلى جوارها رابحًا، وهو قد اختار أن يفعل.. مدى الحياة!

ساعدته على النّهوض وهو يئنّ متوجّعًا، ليس بسبب الجراح المتماثلة للشفاء، بل بفعل الاستلقاء على الأرضيّة الحجريّة الخشنة.. كان من المستحيل أن يميّز أيّ وقت من النّهار كان، وهم معزولون داخل سرداب تحت الأرض، ووجد من الصّعب أيضًا أن يقدّر كم مضى من الوقت منذ غيابه! تلفّت حوله، فتعرّف إلى الأشكال البشريّة التي تجلس في إعياء وتُلقي بثقلها على جدران الكهف مستسلمة للنّعاس.

سألها متجاهلًا الخفقان الذي يتردّد بقوّة في صدره:

- كم مضى من الوقت؟

- يوم ربّما.. أو يوم ونصف، من السّهل أن تفقد الإحساس بالوقت داخل الكهف!

- هل تأذّى أحد؟

هزّت رأسها نافية.. ربما تكون السّيدات بارعات في الاحتماء، والأرجح أنّ المعالجة قد قامت بواجبها كما يجب، وبذلت رعايتها للجميع، لكنّها لن تتشدّق بفضلها أمامه.

وقف يتمطّى وألقى نظرة على المكان، تفرّس في الجدار الحجريّ الذي تشكّل حديثًا، بعد انهيار السّقف فوق رؤوسهم، نتيجة لموجة الضياء التي أطلقها في وجه رجال مايك راسل.. جاءه صوت روان:

- الجدار سميك وعازل.. لا تصلنا أيّ أصوات من الجانب الآخر..

- آه!

تنازعه الغرور والذّهول، لم يعتقد أنّ قدراته قد تكون بتلك القوّة، مرّة أخرى، لقد كان نوح محقًّا، لقد عرَّضهم جميعًا للخطر بتلك المجازفة..

لكنّه قد يضطرّ إلى مجازفة أخرى، لإنقاذهم هذه المرّة! إنّهم عالقون داخل الكهف، إلا إذا وجدت مسارات أخرى فرعيّة..

- لا وجود لأيّ طرق خروج أخرى.. السّرداب يمتدّ نزولًا في هذا الاتّجاه، ما عدا ذلك لا مسارات أخرى أمامنا.

في غيابه، تولّت روان قيادة العمليّات، أرسلت مجموعة استطلاعية لاكتشاف موقعهم، فرجعت السّيدات بعد ساعات ليعلنّ غياب أيّ خيارات، إنّه طريق واحد متواصل يتدرّج نحو الأسفل.. قال آدم معلنًا:

- إذًا، سيكون عليّ تفجير الجدار.. إذا أردنا الخروج!

أومأت روان، ربّما يكون ذلك خيارهم الوحيد بالفعل، قالت في حرص:

- لكنّنا لن نخرج الآن.. ألم يكن الهدف من التسلّل إلى الكهف الاختباء؟ نحن مختبئون جيّدًا، لن يصل إلينا أحد!

عبس آدم ولم يعلّق، لم يكن يقصد هذا النّوع من الاختباء، ربّما تخيّل مناورات عالية الجودة، إذ يكونون العدوّ الخفيّ الذي يظهر من حيث لا يتوقّع الطرف الآخر، يسدّد ضربات موجعة ثمّ يعود إلى التّواري داخل الأنفاق التي تشبه المتاهة، بمهارة ورشاقة.. كما يفعل المقاتلون الأسطوريون في الأوطان السّليبة. لكنّهم الآن محاصرون ومعزولون ولا يملكون توجيه ضربات لأحد! وإذا حاول اجتياز الجدار، فسيجد رجال مايك المسلّحين في انتظاره على الجانب الآخر، وهم يعرفون تمام المعرفة من أيّ المواقع سيظهر، خطّته المثالية ذهبت أدراج الرّياح!

جاءه صوت روان مرّة أخرى:

- إذًا، ما الخطّة؟

إنّه يستيقظ للتوّ ولا يزال يعتريه الدّوار والتشوّش، إلا أنّ الوقت لا يمهل أحدًا، ولعلّ انتظار يقظته كان طويلًا كفاية بالنّسبة إليها، فلا يستغرب لهفتها.. وجد من المحزن أن يشاركها الحقيقة: ليست هناك خطّة، لذلك، قال بلهجة جادّة:

- علينا أن نتدبّر وسائل النّجاة لنبقى على قيد الحياة.. حتى يحين موعد الخروج، هل تعتقدين أنّنا قد نجد مصدرًا للماء العذب تحت الأرض؟

- الماء؟

ردّدت في دهشة، لم يبد أن فرقة استطلاعها قد عثرت على عين جارية في أثناء رحلتها السّابقة، إلا أنّه يحتفظ بتلك الفكرة منذ حديثه السّابق إلى نوح.. إذا كانت هناك كائنات حيّة ما تعيش تحت الأرض عبر سراديب الكهف، فلا شكّ أنّ هناك مصدرًا للماء والغذاء مكّنها من الاستمرار.. إلا إن كانت قد انقرضت.. أو لا وجود لها على الإطلاق! تلك مشكلة الأساطير إذ تدمج الواقع بالخيال دمجًا مربكًا، ولن يمكنه البتّ إلا بالتحرّي العمليّ.

- كم لدينا من المؤونة؟

بنظرة سريعة، حصرت روان كميّات الماء والطّعام التي جمعتها السيّدات.

- أظنّ أنّنا قد نصمد ثلاثة أيّام، ربّما أكثر.. إذا اقتصدنا في الاستهلاك.

- إذًا، يجب أن أجد مصدر الماء.

حدّقت فيه ثانية في استغراب.

- لم أسمع أحدًا من قبل يتحدّث عن مصدر للماء داخل الكهف.. ما الذي يجعلك تعتقد أنّك قد تجد واحدًا؟

هل ستصدّقه لو قال إنّ حدسه يُخبره؟ إنّه الغريب الذي لا يعرف شيئًا عن «آرا»؛ تضاريسها وخباياها وكنزوها وأسرارها، وهي المعالجة التي لا تجهل شيئًا ورد في الكتب أو جاء ذكره في التّراث والأساطير واحتفظت به الذاكرة الجمعيّة لـ«آم».. قال في تصميم:

- يجب أن نجد مصدرًا للماء.

لعلّ هبته لا تتضمّن موهبة اقتفاء أثر الماء، إلا أنّه لا يمانع في التّجربة، إن لم ينجح، فقد يفجّر عينًا.. سيحفر الأرض ويستخرج الماء إذا تطلب الأمر، أعلن:

- أنا ذاهب.. اهتمّي بفرقتك.

لقد أفاق من نومته العميقة منذ وقت قصير، إلا أنّه يقدّر مسؤوليّاته ولا يتهرّب منها، إن كان على أحد أن يجد عين الماء، فهو المُخلِّص لا ريب! ستكون معجزة أخرى تضاف إلى قائمة إنجازاته، غير أنّ الغرور ليس كلّ ما يحرّكه.. إنّه الرّجل الوحيد بينهنّ، وقد جعلهنّ يقلقن ويرتبكن فيما ينام ملء جفونه ويشحن طاقته، لذلك كان عليه أن يفعل شيئًا في المقابل، تحرّك مبتعدًا دون أن ينتظر تأييدًا من أحد، فلحقته خطواتها.

- سأرافقك.

ملأه اقتراحها بالدّفء، سيرحّب في أيّ لحظة برفقة المعالجة.. ثمّ، إنّها لم تكن أيّ معالجة، بل زوجته! لا يزال وقع اللفظ غريبًا على أذنيه، وعمر زواجهما لم يتجاوز اليومين، لم يكن ليرغب في تخلّفها عنه، وهما لم يعملا بعد على حلّ الخلافات الغبيّة التي أفسدت ليلتهما، تلك الخلوة على الطريق ستكون فرصة سانحة لكلّ الأحاديث المعلّقة، ثمّ، إذا اضطرّ إلى استخدام التّسخير لتفجير عين ما، فسيحتاج إلى حضورها ليتعافى من الآثار الجانبيّة التي تأتي لاحقًا.

إلا أنّ الغياب المتزامن للطرفين المخوّلين بالقيادة لن يسدي مجموعة السيّدات المقاتلات معروفًا! أشار في تردّد إلى الفرقة التي أخذ أفرادها ينفضون عنهم آثار النّعاس وينتبهون واحدًا إثر الآخر مع استمرار الحديث:

- هل سيكنّ بخير بمفردهنّ؟

عادت روان أدراجها، خلال لحظات كانت قد جمعت السيّدات حولها، تحدّثت إليهنّ بالآراميّة فلم يفقه شيئًا، إلا أنّه استشعر الثقة والحكمة التي تنضح بها النّبرة والكلمات، وحين فرغت، بدت المتدربّات في معنويات مرتفعة ومزاج حسن. تقدّمت إحداهنّ، شابّة دون العشرين، وأعلنت تولّيها مسؤوليّة المجموعة في غياب الـ«ماغداخا».

عادت إليه روان وهي تقول بثقة:

- سيكنّ بخير!

***

قسّم مايك الرّجال إلى أربع مجموعات، كلّ منها تتكوّن من أربعة أو خمسة أفراد: المجموعة الأولى ترافق العمّال للإشراف على استخراج الحجارة من الكهف، المجموعة الثانية تؤمّن حراسة مداخل القرية والسّيطرة على السّكان، المجموعة الثالثة تراقب الميناء والغابة لتجنّب الهجمات المفاجئة من أيّ أطراف خفيّة.. أمّا المجموعة الأخيرة فتتكوّن منه ونايت بالإضافة إلى رجلين آخرين، تحرّكت في عمليّة مسح شاملة لأرجاء الجزيرة.

بعد ثماني ساعات من السّير الحثيث عبر الشّواطئ والتّلال والأجمات، تأكّد لدى مايك أنّ يومًا واحدًا لن يكون كافيًا للإحاطة بالمساحة كاملة، كان يتوقّف كلّ فترة ليرسم على لوحه الإلكتروني علامات مميّزة ويطلق أسماء رمزيّة على المناطق ليتعرّف إليها ويستكمل تفاصيل الخريطة تدريجيًا.

وهو يُشرف على نهاية المسار التّرابيّ الذي يصعّد عبر التلال، أخذت الأسقف المخروطيّة العالية تلوح أخيرًا، تمعّن مايك راسل في المشهد البديع هازًّا رأسه باستحسان، من ورائه تقدّم الرّجال المرافقون لجولته الاستكشافيّة وانتشروا في المكان يستوثقون من أمانه.

وقف مايك وسط السّاحة، فيما تفقّد المرتزقة المسلّحون الأكواخ واحدًا بعد الآخر، ثمّ تجمّعوا مرّة أخرى بعد أن أعلن كلّ واحد منهم إشارة الأمان مؤكّدين خلوّ المحيط من التّهديدات. خلال جولتهم التي امتدّت معظم ساعات النّهار، كان الأمن مستتبًا والوضع هادئًا، لم يطلق الرّجال رصاصة واحدة اليوم، ولم يصادفهم أيّ فرد هائم من السّكان، عثروا على ماشية شاردة، وأرانب بريّة وطيور سمينة تغري بالصّيد، لكن لا بشر في الخلاء.. كلّ شيء يدعو إلى الاعتقاد بإحكام سيطرتهم على الجزيرة.

التفت مايك إلى نايت وقال:

- ماذا ترى؟

- هذه المباني في موقع منعزل ومرتفع، والمنظر يُشرف على الغابة والميناء...

قاطعه مايك في حماسة:

- والأكواخ خاصّة في حالة حسنة.. بناء أصليّ تقليديّ عريق ذو طابع خاصّ، من أجل تجربة نقيّة! سيكون موقعًا ممتازًا للمنتجع السّياحيّ.

مع اضطراره لإحراق القرية، ظنّ أنّه سيستهلك وقتًا طويلًا لتشييد غرف فندقيّة فاخرة.. ربّما تكون أكواخًا خشبًا بواجهات زجاجيّة عريضة.. أو فقاعات كرويّة ذات سقف شفّاف يسمح بتأمّل السّماء -أو بالأحرى الظلة الضّبابية- تلك التّصاميم شائعة الآن في الجزر البعيدة، وتلقى إقبالًا واستحسانًا لطابعها الصّديق للبيئة وتماهيها حدّ الاندماج مع

طابع محيطها.. لكنّ هذه الأكواخ تصميمها مختلف وحصريّ، لا تقدّم أيّ من الفنادق الحديثة نمطًا مماثلًا.

علّق نايت:

- لا يبدو لي منتجعًا.. أقصد أنّ عدد الأكواخ محدود..

- بالضبط! عدد محدود يعني خصوصيّة وتفرّدًا.. هل تعتقد أنّنا سنستقبل أكثر من عشرة أزواج في المرّة الواحدة؟ لا، لا، لا.. سنحافظ على الانتقائيّة، لتليق المغامرة النّادرة بالنخبة القادرة على دفع تكاليفها المجزية!

تستمرّ الأحلام في التبرعم بذهن مايك، تمتدّ أغصانها وتتشابك فيما يتنقّل عبر المكان، يعاين التّفاصيل ويسجّل الإصلاحات الضرورية والتّحسينات المحتملة. ذلك الموقع يحمل بين ثناياه حكاية أصليّة عن تاريخ البشريّة! أطلال حضارة سابقة صالحة لتجربة انغماس كاملة، لن تكون رحلة عبر المكان وحسب، وإنما سفرٌ عبر الزّمن! وإذا حالفه الحظّ، سيعثر على بعض الأحافير أو المخطوطات أو الهياكل القديمة التي تليق بإنشاء متحف محليّ!

كان مستمرا في بناء قصور بذهنه للمشروع السيّاحيّ المتفرّد، وبعد ساعتين من التّدقيق والتّمحيص والتّخطيط، حان وقت العودة إلى مركز العمليّات. قبل أن يهمّ بنزول التلة، لبث برهة عند الحافّة المطلة على السّفح. بدأ الليل يهبط على الجزيرة، وتنتشر ظلمة فاترة تجعل كلّ الموجودات تتموّج بلون فضيّ لامع. أشرقت ملامحه، وهو يتأمّل المشهد في انبهار، وتخيّل كم أنّ زبائنه المحتملين سيحبّون الإطلالة، ثمّ أعلن انطلاق رحلة النّزول.

وهو يعبر الطّرق التّرابيّة سيرًا بخطوات عسكريّة سريعة، استمرّ يتساءل كم يتطلّب تعبيد المسارات الأساسيّة، وأيّ نوع من العربات الخفيفة يمكنه تسهيل التنقّل. من المؤسف أنّ العربات ذات المحرّكات الكهربائيّة لا مكان لها على الجزيرة، بسبب تأثير المادّة المتوهّجة.. إلّا أنّ الدّراجات الهوائية ستمثّل حلًا مبدئيًا ملائمًا.

ربّما يتعيّن عليه استقطاب مجموعة من الباحثين في الميكانيكا، قد يتمكّنون من استنباط محرّكات من نوع جديد تواجه تأثير الـ«مادرا» أو تستغلّه حتّى! هذا عالم لا نهائيّ من الفرص والاحتمالات، والرّحلة لا تزال في بدايتها!

كان يشعر بالانتعاش وهو يدخل مركز عمليّاته -دار العبادة سابقًا- رغم ساعات العمل والسّعي الطويل.. سيكون عليه الجلوس مطوّلًا تلك الليلة لسكب أفكاره على الورق، رسْم مخطط مفصّل للمنتجع وأجزائه، وتدوين الأعمال التي ينوي إنجازها، إلا أنّه لم يملك الفرصة الكافية للانهماك في التخطيط، فما إن خطا داخل المبنى حتّى استقبله أحد الرجال الذي كان في رحلة إلى «سارا» ذلك الصّباح، حرصًا على إبقاء التّواصل مع الأسطول وترتيب الاحتياجات، تسلّم الورقة المطويّة التي دفعها الرّجل تجاهه في شكّ.

- ما هذا؟

- رسالة من الطبيب.

فضّها مايك بسرعة والتهم السّطور بعينين نابضتين بالقلق، ثمّ أعلن بوجوم:

- يجب أن أعود إلى السّفينة الليلة!

(26)

اليوم السّادس والعشرون بعد الثلاثين

جزّت مانويلا على أسنانها، وضغطت قبضتيها بشدّة، تكتم الأنين الذي يتردّد في حلقها، استمرّت الآلام طوال اللّيل، ولم تفلح الحبوب المسكّنة في التخفيف عنها. تقلّبت في سريرها متعرّقة ومجهدة، ولهثت حين خفتت حدّة الوجع.. بعد نوبات التشنّج جاءت موجات الألم الحارقة، بدا أنّ العلاج الذي قدّمه الدّكتور كريس قد سيطر على انتفاضها، لكنّه حفّز أنواعًا أخرى من العذاب!

لازمها الطبيب معظم الوقت، ولم يكن يغادر الغرفة إلا للحاجات الملحّة، وفي كلّ مرّة غاب عنها، تفاقم تجهّم ملامحه وهو يعود ليجدها أسوأ ممّا كانت عليه، وقد استحالت بشرتها رماديّة باهتة تزداد درجة في كلّ زيارة! بعد الغثيان والدّوار، داهمتها انقباضات مريعة للمعدة، فتقيأت دمًا.. منذ الأمس لا يستقرّ شيء في جوفها، سواء كان سائلًا أم طعامًا صلبًا، بعد ذلك، انتشرت الآلام في مفاصلها، ثمّ أخذت تنخر عظامها من الدّاخل.. وأحيانًا تغرق في حالة هذيان وتغيب عن العالم لساعات!

كلّما صفا ذهنها واستعادت حضورها، يطلب إليها الدّكتور كريس أن تصف الأعراض التي تلمّ بها ويسجّلها بحرص، وكانت تأتي بتوصيف مختلف كلّ مرّة، كأنّها تختلقها.. لكنّها كانت تعرف الحقيقة! لقد تحدّث السّكان عن الأعراض التي تُصيب الغرباء الذين يأتون إلى الجزيرة،

فتهاجمهم ذرّات المادّة المتوهّجة العالقة في الماء والهواء، فتنهار وظائف الجسم في غضون ساعات قليلة.. لكنّها خارج نطاق الجزيرة، والمادّة المتوهّجة لا تهاجمها من الخارج، بل من الدّاخل، حيث تسري في مجرى دمها وتتسرّب ببطء إلى أعضائها كلّها!

دخل كريس عند الثانية بعد منتصف الليل دون أن يكون قد نال أيّ نصيب من النّوم تلك اللّيلة، غفا بضع ساعات متقطّعة على المقعد في ركن غرفة مانويلا، ثمّ انصرف لوقت يسير لتفقّد أحد المصابين، بعد أن أيقظ أنينه جيران مقصورته. انتبهت مانويلا حين فتح باب غرفتها وتطلّعت إلى القادم في لهفة، كانت تلك إحدى ساعات الصّفاء النّادرة في يومها، إذ تفكّر باتّزان وتنطق جملًا مفهومة، عاينها كريس في قلق متنامٍ، فيما همست متجاهلة أوجاعها:

- هل لديك جديد.. بخصوص ما طلبته منك؟

زوى الطبيب ما بين حاجبيه في ضيق، مستغربًا حرصها بذلك الشأن رغم حرج حالتها، لم تنفكّ تستفسر عن الغريب المسجون، والحقّ أنّه لم يسع بإخلاص لقضاء حاجتها.. لم يتبرّم علنًا، لكنّ الأعمال التي تشغله أهمّ من أمر رجل محليّ ما يبقيه مايك في أحد الأقبية المظلمة، يكفيه سخطًا أنّ صاحب عمله لم يردّ بعد على رسالة الأمس، وأنّ أحد المصابين سيفقد ساقيه لا محالة إن لم يرسل على الفور إلى مستشفى متطوّر، لكنّ الأعمال على سطح الجزيرة أنست مايك راسل أمر الرّجال في السّفينة، قال في برود:

- المكان مراقب على الدّوام.. أنا آسف، لم أتمكّن من الوصول إلى السّجين.

علت الخيبة محيّاها، وهي تعود لتستلقي وتغمض عينيها في استسلام.

- لقد أرسلتُ في طلب والدك.. سيكون هنا في أيّ لحظة.

تأوّهت في صمت.

- لا شيء بيدي لعمله بعد الآن.. يجب نقلك إلى أقرب مركز حضريّ للقيام بالتّحاليل المخبريّة وصور الأشعة، تلزمك عناية طبيّة عاجلة، وبقاؤك يعرّض حياتك للخطر!

اعتصرت الوسادة مع تدفّق موجة ألم جديدة، فيما سرت رعدة لا إراديّة في جسدها هزّته في تشنّج دام بضع ثوانٍ، قبل أن تعود إلى الاسترخاء أخيرًا، لهثت وقاومت رغبتها في النّشيج، وهي تعود إلى الطّبيب في رجاء:

- أحتاج إلى مساعدتك.. أرجوك.

- أنا أفعل ما بوسعي هنا..

- لا، ليس هذا النّوع من المساعدة.. سوف تتحدّث إلى والدي، ستخبره بأنّ حالتي ميؤوس منها.. وأنّ الطبّ الحديث غير قادر على تقديم العلاج..

قاطعها كريس في إشفاق:

- إذا انطلقتِ الليلة على متن يخت سريع.. فستكون أمامك فرصة.

- لا، لن أغادر هذا المكان!

- أنت لا تزالين شابة.. يجب أن تتحلي بالأمل.

- ليس هذا أيضًا.

توقّفت برهة تزدرد لعابها الجافّ وتلتقط نفسًا متقطعًا، ثمّ أضافت:

- في الجزيرة، توجد معالجة.. بيدها أن تنقذني..

تسمّر كريس مكانه، يحاول استيعاب كلماتها.

- كيف تعرفين أنّها ستنقذك؟ حتّى إذا افترضنا قدرتها على ذلك، فهل سترغب؟ لقد أعلن والدك منذ يومين الحرب على الجزيرة وسكّانها، إن كنت تجهلين هذا!

أومأت مانويلا والتمعت في عينيها نظرة ساخرة:

- سترغب، إذا أبدى والدي شيئًا من النّوايا الحسنة!

- نوايا حسنة؟

- بإطلاق سراح السّجين.

- آها!

كانت الخطّة تتّضح.. هل كان عليه أن يخبرها أنّ والدها لم يعد يحتفظ بسجين واحد بل بدستة منهم؟ تجهّمت ملامح كريس وقال بلهجة غاضبة:

- لا أصدّق أنّك تعرّضين حياتك للخطر لمجرّد إطلاق سجين! ربّما إذا بقيت على قيد الحياة، ستتمكّنين من عمل أشياء نبيلة كثيرة أخرى، ألا تظنين هذا؟

تردّد وقع خطوات مستعجلة في الممرّ، فأدركت مانويلا أنّ والدها قد جاء بالفعل. تعلّقت نظراتها المتوسّلة بعيني كريس وهي تهمس بنسق محموم:

- أنا أعرف طبيعة ما أصابني.. إنّها الحقنة، كان تركيز التّركيبة عاليًا.. كان يجب أن أحصل على كيس بلازما للتخلّص السّريع من مفعولها.. لكنّ المحاولة باءت بالفشل. الآن، لا أملك خيارًا أفضل.. لقد فات أوان العلاج الملطّف.. إن لم تستطع معالجة الجزيرة مساعدتي، فلا أحد يمكنه أن يفعل!

التقطت أنفاسها المتسارعة مع انفراج باب الغرفة وظهور وجه مايك راسل العابس.

- كيف هي؟

جثا على ركبتيه وأمسك بكفّها في قلق، فيما قال كريس:

- إنّها في حال سيّئة!

- لا وقت نضيّعه إذًا.. سنفعل ما تقول، إذا أبحرت الليلة جنوبًا فربّما تصل إلى الجزر بعد يومين.. سأطلب منك مرافقتها أيّها الطبيب..

امتقعت ملامح مانويلا وهي تترقّب ردّة فعل كريس الذي التزم الصّمت بعض الوقت، حين لم يَبدُ أنّه قد يتعاون معها، أنشأت تقول بصوت ضعيف:

- أبي...

قاطعها كريس ليقول بلهجة قاطعة:

- لم أرد أن أصارحك بهذا في الرّسالة.. لكنّ وضعها حرج جدًا. لا أعتقد أنّها ستتحمّل الرّحلة حتّى الجزر..

وقف مايك ليواجهه بنظرة غائرة:

- ماذا تعني؟ ما الذي تعانيه تحديدًا؟

ازدرد كريس لعابه قبل أن يلفظ كلماته التّالية كمن يصارع ضميره وواجبه:

- إنّ أفضل حظوظها سيكون بإرسالها إلى.. معالجة الجزيرة!

- ماذا؟

أخذ الطبيب نفسًا آخر ثمّ قال محاولًا بثّ صوته أكبر قدر من الاقتناع:

- إنّ ما أصابها يتعلّق بالمادّة المتوهّجة.. لقد فشلت الحقنة في حمايتها، لذلك.. يلزمها العلاج التقليديّ الذي يستخدمه السّكان.

- الحقنة؟ ما الخطأ بخصوص الحقنة؟

قاطعته مانويلا هذه المرّة:

- ليس هناك خطأ بخصوص الحقن التي حصلتم عليها.. لقد استعجلتُ، حصلتُ على تركيبة مختلفة قبل أن تنتهي كلاوديا من تجاربها.. لم أعتقد أنّها قد تشكّل خطرًا..

التفت مايك نحو الدّكتور كريس ثانية وقال في احتداد:

- والآن، تقول إنّ إنقاذ حياتها بيد معالجة الجزيرة؟ هل تعتقد أنّ المعالجة قد تتعاون إذا طلبنا إليها ذلك؟ لستُ أحسبها إلا شامتة، وهي ترى ابنتي تموت أمام عينيها! تلك العجوز الخبيثة رفضت علاج أحد المصابين بالأمس.. راقبته وهو ينزف ولم يرفّ لها جفن، رغم الأسلحة الموجّهة إلى رأسها!

شهقت مانويلا:

- أنت لم تقتلها، أليس كذلك؟

سكنت ثورة مايك، تنفّس بعمق قبل أن يقول:

- لم أفعل.. لكنّ الخاطر راودني، فما جدوى حياة العجوز الشمطاء إن لم تكن مفيدة حين نحتاج إليها؟

همست مانويلا بصوت مختنق مصارعة آلامها:

- سوف تفعل.. أوران سيقنعها.

- أوران؟! المُسخِّر؟

أومأت بهدوء، فأردف في دهشة:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- وما الذي يجعله يفعل؟
- أعرف أنّه سيفعل، لقاء إطلاق سراحه.

تفكّر مايك في صمت، لم يكن ينوي الاستغناء عن خدمات المُسخِّر، فتلك معضلة أخرى لم يتوصّل إلى حلّ بشأنها: كيف يجعل المُسخِّرين يتعاونون؟ هل سيكون تفشي القتل كافيًا؟ لم يكن في نظر المعالجة العجوز! لكنّه لا يملك ترف الانتظار وحياة ابنته على المحكّ. أعلن مايك وهو يتّجه إلى خارج الغرفة:

- فليجهّز السّجين إذًا للمغادرة.. لا وقت نضيّعه.

رنت مانويلا إلى كريس بعد انصراف والدها، وهمست:

- شكرًا لك!

إلا أنّ ملامحه القاسية لم تلن، رغم النّبرة المحايدة التي غلّفت صوته:

- لا تشكريني على الإلقاء بنفسك في التّهلكة.. لكنّها طبيعة العمل، فالطبيب لا يملك أن يفرض العلاج على المريض، إذا لم يرغب المعنيّ بالأمر في تلقي الرّعاية التي تلزمه وفضّل التّوجه إلى علاجات الأعشاب والخرافات.. فالأمر يعود إليه!

افترّ ثغرها عن ابتسامة باهتة، ثمّ أسبلت جفنيها وترقّبت أن يحين موعد رحيلها.

***

الغرفة مظلمة وخاوية من قطع الأثاث، يقتصر كلّ محيطه على سرير قريب من الأرض وحشيّة هزيلة.. لم يكن ليتذمّر إلا أنّ الحبس لم يكن نشاطه المفضّل. لم ير أحدًا منذ أيّام، واقتصرت وجباته على حصّة طعام واحدة في اليوم والليلة، تُقدّم في وقت مجهول لديه لتشابه الليل والنّهار،

بدا أنّ أمره لم يعد مهمّا، فلم يتحدّث إليه أحد أو يحاول اقتلاع معلومات منه، ناهيك بإجراء اختبارات أو تحاليل دمّ!

أكثر ما يقلقه هو أنّه يبقى على هامش الأحداث التي تجري في الخارج، يفوته كثير فيما يبقى بابه موصدًا، لكن طالما أبقى عليه المحتلّ، فهو حتمًا ينوي أمرًا ما بشأنه.. حين انفرجت الدّفة واسعة تلك الليلة، بقي مكانه في الرّكن البعيد يترقّب، لم يكن موعد وجبة الطعام قد حان بعد، يمكنه إدراك هذا على الأقلّ، ثمّ، لم يكن سجّانه يحتاج إلى أكثر من فرجة ضيّقة ليدفع الطبق إلى الدّاخل.. تأهّب لحدث ما، وقد جاء أحد أخيرًا ليخاطبه، تمنّى أن تكون مانويلا، سيكون حضورها ضروريّا للتّرجمة، أيًّا مَن كان محدّثه.

سمع كلمات صاخبة تجاهه، وحين لم يحرّك ساكنًا، اقتحم الغرفة رجلان أجبراه بغلظة على الوقوف، ثمّ قيّدا كفيه وراء ظهره وساقاه خارج الغرفة.. استمرّ المشي عبر الممرّات والسلالم حتّى الكوّة المشرفة على البحر، وقف أوران مذهولًا أمام الفتحة المشرعة.. في الخارج، خيّم الظلام على كلّ شيء؛ الماء والسّماء والهواء والضّباب الذي يلفّها كلّها. تساءل إن كانوا سيلقون به في المحيط، ثمّ انتبه إلى القارب المطاطي المعلّق أسفله. دفع الرّجل الذي يقف إزاءه كتفه، يشير إليه بالقفز، لم يكن الارتفاع كبيرًا، ثلاثة أذرع ربّما.. اقترب من الحافّة ثمّ انزلق إلى القارب في انصياع، فَقَد توازنه للحظات ليسقط على ركبتيه، فتحامل بصعوبة ليرفع بجذعه إلى وضع الاستقامة ويجد مكانًا للجلوس.

هل يأخذونه إلى «آرا»؟ سبق أن لمح تلك القوارب الخفيفة على الشواطئ إبّان إغارة الدّخلاء، يستخدمونها لعبور المسافات القصيرة، لا للإبحار البعيد.. السّفينة التي أخذته إلى «مهافيا دياما» أكبر جرمًا وتُصنع من مادّة صلبة ومهيّأة للمعيشة.

ارتفعت نبضاته بعنف وهو يفكّر بأنّه ربّما في طريقه إلى أهله.. أخيرًا! هل تفاوض المُخلِّص لإطلاق الأسرى؟ هل تمكّن المُسخِّرون من احتجاز بعض الغرباء، والآن تجري عمليّة تبادل؟ داعبت تلك الأحلام الزّاهية أوران وهو يتأمّل الأفق البعيد حيث تختفي جزيرته، إلا أنّ دقائق طويلة انقضت دون أن ينزل القارب إلى الماء، خمّن أنّهم ينتظرون ركّابًا آخرين.

بعد ذلك، شاهد المحفّة التي ظهرت فوق رأسه، يرفعها رجلان.. انزلق مايك راسل إلى القارب أولًا، لم يتحدّث إليه الرّجل أو يوجّه إليه نظرة تدلّ على اهتمامه بحضوره، بل تركّز انتباهه على المحفّة، استقبلها بذراعيه واهتمّ بهبوطها برفق على أرضيّة المركب، ثمّ انضمّ إليه الرّجلان وانهمك الجميع في دعم المحفّة حتى تستقرّ بزاوية ملائمة.

كانوا ينقلون شخصًا مصابًا إلى مكان ما.

استولت الحيرة على أوران، هل ينبغي له أن يقلق؟ هل يتوقّعون منه أن يساعد في نشاط ما بعرض البحر؟ ولماذا يتحرّكون في الظلام الدّامس؟ بعدئذٍ، أرخيت الحبال، وأخذ القارب يهبط إلى سطح الماء، نقل عينيه بين وجوه الرّجال المنشغلين فلم يتعرّف إلى أحدهم، باستثناء مايك. تساءل مرّة أخرى في سرّه عن مانويلا، ألا ترافقهم في تلك الرّحلة؟ ثمّ انحدرت نظراته باتّجاه الشّخص المسجّى على المحفّة وقد غمرته الظلال، لم يكن من السّهل استبانة الملامح وقد لفّ الجسد كاملًا بعناية داخل طبقات من الملاءات القطنيّة وثبّت بأحزمة عريضة إلى عمودين جانبيين يبقيانه مُستقرّا في وضعيّة التمدّد. ثمّ، لمّا شارف المركب على بلوغ مستوى الماء، انحرفت الإنارة المنبعثة من مصباح يدويّ في قبضة أحد البحّارة، فسلّطت برهة على وجه المريض.. في تلك اللحظة، شهق أوران بصوت مسموع وقد تعرّف على ملامح مانويلا!

لم يكن من اليسير أن يميّزها رغم مرور أيّام قليلة على لقائهما الأخير.. كانت بشرتها تميل إلى لون رماديّ كالح، وشفتاها المتشققتان منفرجتان تطلبان الهواء وتنفّسها متحشرجًا، أمّا عيناها المغمضتان فتحيط بهما خطوط عميقة سوداء كأنّهما بؤرتان محفورتان في وجهها الممصوص!

تصاعدت الغصّة لتسدّ حلقه وقد انتابه إحساس فظيع بالذّنب، كلّ ما أصابها نتيجة حتميّة لإفساده إبرتها! لم تحصل على علاجها في الوقت المناسب!

خلال العبور، لم يسمع صوتًا باستثناء ضربات المجاديف في الماء، وضربات صدره العنيفة المترعة بالحسرة! تحدّث الرّجل الماثل عند رأسها إلى والدها بضع مرّات بلغتهما، واكتفى مايك في كلّ مرّة بردود مقتضبة.. حين رسا المركب على الشاطئ الفضيّ، تكاثف ضوء الفجر الذي أخذ يتسلّل برفق من خلال طبقات الظلة مع الإضاءة الطبيعية التي تنشرها الـ«مادرا» لتخفيف العتمة من حولهم.

قفز أوران إلى الماء، فاستدار مايك نحوه في تحفّز يحذّره في صمت من الإتيان بأيّ عمل متهوّر، بالإضافة إلى الرّجلين الذين تعاونا على حمل محفّة مانويلا، استقبلهم ثلاثة آخرون كانوا يؤمّنون الحراسة على الشاطئ مشرعين أسلحتهم. لم يَعنِ له التّهديد الواضح شيئًا وقد أدرك غريزيًا ما يجري: لقد جاؤوا به للتّفاوض على حياة مانويلا! ربّما يعتقدون أنّ الـ«ماغداخا» قادرة على إنقاذها، وقد تمنّى بكلّ جوارحه أنّها قد تفعل!

سارت المجموعة الصّغيرة باتّجاه مركز القرية، ثمّ انحرفت لتدخل بناء المشفى. رغم الإضاءة الخافتة، أدرك أوران التغييرات العميقة التي لحقت كلّ شيء من حوله، كان متيقنًا بأنّ الأرض قد عرفت معارك شرسة في غيابه، فلا تزال آثار الحرائق والدّمار والدّماء مبعثرة في الأنحاء.. ربّما

نُقلت الجثث منذ وقت قريب، يلمح بوضوح علامات جرّ الأجساد على التّراب، ويسمع نعيب البوم القلق. اعتصر عينيه في ألم، لم يكن الوضع كما تخيّل على الإطلاق! بدا جليّا أنّ الدّخلاء يسيطرون على الجزيرة تمامًا، فلم يأت أحد للقائهم باستثناء الحرّاس المسلّحين.

عمّ الهرج مع اقتحام الدّخلاء المشفى، هبّت المتدّربات من نومهنّ فزعات، وسارعن يختبئن في الغرف الدّاخلية وهنّ يطلقن صرخات استغاثة، تمنّى أوران لو أنّه يملك أن يفعل شيئًا لحمايتهنّ، لكنّه مكبّل اليدين ومحاصر بالرّجال المسلّحين، بالإضافة إلى تفهّمه طبيعة المهمّة. مضى بعض الوقت دون أن يتمكّن الطرفان من التّخاطب، حتى هتف أوران أخيرًا بالفتيات كي يهدأن.

حدّق فيه مايك بنظرات متشكّكة، فيما استمرّ أوران يقول بنبرة رصينة:

- لن يؤذيكنّ أحد، أعدكنّ بذلك.. توقّفن عن الصّراخ.

خفتت حدّة الصّياح العبثيّ المنبعث من الدّاخل، فسأل أوران ثانية:

- أين الـ«ماغداخا»؟

تابع مايك الحوار في صمت، وقد تعرّف إلى تلك العبارة التي تعني «المعالجة». لم يتحدّث إلى المُسخّر ولم يخبره أحد عمّا يقصدونه في تلك السّاعة من الليل -فالمترجمة الوحيدة المتوافرة على السّفينة غائبة عن الوعي- لكنّ الشاب سريع البديهة. جاء صوت العجوز أخيرًا من الدّاخل، ثمّ ظهرت مارتا عند باب الغرفة، تختبئ من خلفها الفتيات في وجل، قالت بجفاف:

- ما الذي يريده مني عديم الأصل هذا؟

تكلّم أوران مترفقًا:

- يريد منك إنقاذ حياة ابنته.. وسيطلق سراحي في المقابل، حياة مقابل حياة!

ألقت مارتا نظرة متفحّصة على وجه الفتاة الذي يحاكي وجوه الموتى قتامة وهزالًا، ثمّ رفعت عينيها إلى مايك في إباء، كانت ملامحه مشدودة، مترقّبًا ردّة فعلها.. قال أوران ثانية بنبرة رجاء:

- افعلي ما بوسعك سيّدة مارتا، أرجوك.. ليست شخصًا سيّئًا.

انتبه مايك إلى لهجة الالتماس في صوت المُسخِّر، فأردف بدوره بالإنجليزية، وهو يضمّ كفّيه معًا في حركة توسّل:

- أرجوك!

فقدت نبرته التسلّط والفوقيّة الملازمة لها، وعكست لغة جسده التّواضع والتّذلّل. لقد أدرك أنّ طلبًا من هذا النّوع لا ينفع بلهجة الأمر والتّهديد، لقد تعلّم من التّجربة السّابقة.

أشارت المعالجة العجوز بكفّها علامة الإذعان، فساق الرّجلان المحفّة إلى غرفة الفحص، ووضعا المريضة برفق على السّرير، تزاحم الرّجال داخل الغرفة، مايك وأوران والمرافقان بالإضافة إلى الفتيات المتدرّبات اللواتي دفعهنّ الفضول إلى الاقتراب.. دمدمت مارتا في استياء:

- اخرجوا جميعًا!

أطاعت الفتيات على الفور، فيما تلكّأ الغرباء الذين استوعبوا الطلب رغم حاجز اللغة، ثمّ ما لبثوا أن استجابوا حين ألقت عليهم المعالجة واحدة من نظراتها الصّارمة.

أخذت مارتا نفسًا وهي تمرّر كفّها على وجه الفتاة؛ جبينها وعينيها ووجنتيها، ثمّ تستمرّ نحو عنقها وكتفيها وصدرها وبطنها، ناثرة بذور

الشّفاء البرّاقة بوميض أبيض عند أطراف أناملها.. بعد لحظات، فتحت مانويلا عينيها، وحين وقعت نظراتها على مارتا، ابتسمت. عرفت أنّ خطتها قد نجحت، رغم الإغماء الطويل، كان يشغلها ما قرّره والدها عنها في غيابها، لو أنّها حاضرة الذّهن، لأمكنها الجدال والإقناع، لكنّ جسدها المكدود أسلمها لنوم قسريّ ممتدّ، سمعت مارتا تهمهم:

- ما الذي أصابك يا بنيّة؟

أطلّ مايك من فرجة الباب في لهفة، وقال بنفاد صبر:

- هل هي بخير؟

طالعته مانويلا بابتسامتها المتعبة، فيما قالت مارتا بنبرة متجهّمة:

- لقد منحتُها بعض الطاقة.. لكنّ جسدها مليء بالسّموم. إنّها سموم «مهافيا دياما»، لا أعرف كيف أتعامل معها.

فهمت مانويلا كلّ كلمة، لكنّها ترجمت مع بعض التّحريف:

- يلزمني بعض الوقت للتّعافي.. يمكنك الانصراف إلى شؤونك يا أبي. سأكون بخير بعد يوم أو اثنين.

تردّد مايك، لم تكن فكرة ترك ابنته بين السّكان المحليين تشعره بالارتياح، إلا أنّ موافقة المعالجة على الاهتمام بها والتحسّن اللّحظي الذي أبصره للتوّ يبعثان على التّفاؤل.

- سيبقى رجلان للحراسة عند الباب.

أومأت مانويلا موافقة، ثمّ تجرّأت على السّؤال:

- أين أوران؟

سمع أوران اسمه، فاقترب بدوره من فرجة الباب، كانت ملامحه غائمة وقد تمكّن منه القلق.. على عكس مايك، كان قد استوعب كلمات مارتا، ولم تبعث فيه شيئًا من الاطمئنان. التفتت مانويلا إلى والدها وأمرت:

- أطلقه!

كان معصما المُسخِّر لا يزالان مقيّدين خلف ظهره، ولم يبد أنّ مايك ينوي إطلاق سراحه في أيّ وقت قريب، رغم الصّفقة الضّمنيّة، قال في خشونة:

- لقد وعدتُ بالإبقاء على حياته.. لم أذكر أبدًا إطلاق سراحه!

- أرجوك يا أبي.. إن كنت تريد لي أن أعيش!

كان ذلك جنونيًّا! مُسخِّر طليق على الجزيرة؟ إنّه يُبقي الآخرين محبوسين وتحت تأثير المهدّئ طيلة الوقت تجنّبًا للمتاعب، فكيف يُطلق هذا؟ نقل بصره بين نظرة المعالجة الواجمة وملامح ابنته الرّاجية وسحنة المُسخِّر المفعمة بالتعاطف، فكّر أنّ مُسخّرًا منفردًا لن يقدم على أيّ عمل متهوّر في حضور كلّ أولئك الرّجال المسلّحين، سوف يبقيه قريبًا وتحت المراقبة المستمرّة، فقط حتّى تتماثل مانويلا للشّفاء.. ثمّ سيعرف ما عليه عمله بشأنه.

أشار مايك إلى أحد الرّجال، ففكّ قيود أوران.. قالت مانويلا تخاطبه بالعربيّة:

- لقد وفيتُ بوعدي، وأعدتك إلى «آرا».. الآن، اذهب.. وكن سعيدًا.

توقّف وقد غمرته الحيرة، «يكون سعيدًا»؟ لا يعرف أيّ سعادة قد تكون ممكنة في ظلّ هيمنة المحتلّ على أرضه وقومه، ولا أيّ السّبل قد ينتهجها حين يغدو طليقًا بعد حين، إلا أنّه استرجع سؤاله إليها منذ أيّام على اليخت، وأدرك أنّها كلمات وداعٍ لا محالة، قبل أن يتمكّن من الرّدّ، دفع الرّجل كتفه ليجبره على اتّخاذ طريق الخروج.. كان يجب أن يقول شيئًا، لكنّ اللّحظة انقضت! تحرّك مايك ورجاله نحو مبنى دار العبادة، يسوقون أوران أمامهم، فيما تخلّف اثنان منهم للحراسة عند مدخل المشفى.

ما إن غابت مانويلا عن الأنظار حتّى أمر مايك الرّجلين بإعادة تقييد المُسخَّر. في النهاية، لن يشعر بالرّاحة والشابّ ذو القدرات الخارقة طليق في الجوار.

***

حين خلت الغرفة إلا من مارتا ومانويلا، التفتت الشابة إلى المعالجة العجوز وقالت برفق:

- أنا آسفة.. لكلّ ما فعله أبي بقومك، أعلم أنّ حياتي لا قيمة لها.. لكن لعلّ موتي يكون ذا فائدة ما.. ربّما يجعله الألم يقدّر ويتعاطف..

حدجتها مارتا بنظرة مستاءة، وضعتْ بين كفّها حبوب الدّواء التي تحتفظ بها من أجل عمّار وجعلتها تبتلع قطعتين، ثمّ غمغمت:

- هل تعتقدين أنّ حياتي ستستمرّ لحظة واحدة إذا انتهت حياتك؟ لقد أصبح مصيرانا مرتبطين يا فتاة منذ اللّحظة! هيّا قومي بنا!

حدّقت فيها مانويلا في دهشة:

- إلى أين؟

- تراودني بعض الأفكار التي قد نجرّبها.. سنذهب إلى الأحواض السّاخنة.

كانت مانويلا مستعدّة للموت، وطّنت نفسها منذ يومين على قبول مصيرها القاتم واستسلمت لقدرها، لعلّ سعيها إلى لقاء المعالجة كان مجرّد حيلة انطلت على والدها.. ربّما اعتقدت أنّها ستمضي يومًا أو بعض يوم راقدة هناك، تجهّز عبارات الوداع الأخيرة، وتلقي خطبة مؤثّرة قد تنجح في جعل والدها يتراجع عن الأعمال القذرة التي ينتويها.. ارتدت عباءة الشهيدة راضية، وتمنّت أن تخدم لحظاتها النهائية قضيّة نبيلة، إلا أنّ كلمات مارتا داعبتْ أملًا خفيًا داخلها بأنّ نصيبها من الحياة لم ينته بعد.

بمساعدة من الفتيات المتدرّبات، وبفضل طاقة الـ«مادرا» التي بثّتها مارتا في جسدها، تمكّنتْ مانويلا من المسير حتّى موقع الأحواض السّاخنة التي يتدفّق ماؤها من عين جبليّة حارّة، في جميع أصقاع الأرض، يُعتقد أنّ العيون الطبيعية ذات مزايا استشفائيّة، بعضها يحوي الكبريت أو الماغنيسيوم وغيرها من المعادن.. ويقصدها النّاس لعلاج آلام المفاصل والعضلات، تعزيز صحّة الجلد، أو للاسترخاء وتخفيف التّوتّر.. إلا أنّها تجهل ما قد تفعله بها المياه الغنيّة بالـ«مادرا».

ساعدتها الفتيات على التخفّف من ملابسها، وحين نزعت سترتها، سقط دفتر سميك على الأرض كانت تحتفظ به بين طيّات ثيابها، سألت مارتا في اهتمام:

- ما هذا؟

تذكّرت مانويلا فجأة:

- لقد نسيتُ أمره.. سلّمني البروفيسور أشرف صافي هذا الدّفتر وطلب توصيله إلى معالجة على الجزيرة.. هذا يجعلك صاحبته، أليس كذلك؟

فيما خطت مانويلا نحو حوض الماء السّاخن وغطست، رنت العجوز إلى الظلة فوق رأسها والسّماء الخفيّة وراءها.. زوت ما بين حاجبيها متأمّلة، وفكّرت أنّ النّور قد فقد درجة ضياء على الأقلّ، تتسلّل عتمة مبكّرة كأنّ اللّيل يهبط قبل الأوان، لبثت تطالع السّماء باهتمام، تقرأ العلامات وتفكّ رموز حجاب الظلة، ثمّ قرصت صدرها لدغة مفاجئة، فحوقلت واستغفرت، فكّرت في الشّتاء الطويل الذي هاجم «آرا» منذ نحو أربعين عامًا، هطل خلاله المطر شهورًا دون انقطاع حتّى جاء الطوفان العظيم، ثمّ طردت عنها الهواجس بسرعة، همست لنفسها وهي تتناول الدّفتر بين كفّيها:

- المطر قريب!

ثمّ سرعان ما سرق الورق حواسّها، تسارعت نبضاتها وهيّ تفتح الغلاف: حملت الصّفحة الأولى اسم هاجر! تساقطت العَبَرات على وجهها في زخّات متتابعة، واستمرّت تقلب الأوراق، خلافًا لتوقّعاتها، لم تمتلئ الصّفحات بالرّسائل أو المذكّرات، بل بالوصفات العلاجيّة.. ابتسمت مارتا وهي تواصل القراءة.. تلك الفتاة الطيّبة اهتمّت بما ينفع، أرادت أن تترك أثرًا ويستمرّ ذكرها طيّبًا لدى قومها بنقلها خبرات «مهافيا دياما» التي حازتها بعد ربع قرن من الغربة!

خصّصت هاجر القسم الأوفر من الدّفتر للأعشاب، جمعت عيّنات من النباتات المجفّفة التي تنمو في العالم الخارجيّ ألصقتها بشريط شفاف إلى الورق، ووصفت مزايا كلّ عشبة واستخداماتها الطبيّة، أمّا القسم الثاني، فقد دوّنت فيه وصفات عجيبة أخرى، عمّا يفعله النّاس للاستشفاء باستخدام عناصر الطّبيعة، مثل الطّين والرّمال والعسل والطّحالب والملح والأصداف! أمّا القسم الأخير، فقد خصّصته لعلوم جديدة يمارسها المعالجون، جعلت عيني مارتا تتّسعان وتتّسعان!

استغرقت القراءةُ تحت ضوء الصّباح الشّاحب المعالجةَ العجوز، حتّى خرجت مانويلا من الحوض وهي تقطر ماءً، بدت بشرتها أكثر نضارة وإشراقًا، وقد امتصّت مياه العين قدرًا من السّموم داخل جسدها وحفّزت دورتها الدّمويّة. فوقهما، أخذت قطرات المطر تهطل برفق.. أخفت مارتا الدّفتر بين طيّات ثوبها لتحميه من البلل، ثمّ قالت بحزم:

- هلمّي بنا يا بنيّة.. سنجرّب بعض الوصفات من أجلك.

***

يستمرّ آدم وروان في التحرّك عبر مسارات الكهف التي تزداد ضيقًا وسقفها انخفاضًا كلّما توغّلا فيها، يلحظ آدم أنّ الأرضيّة تنحدر نحو الأسفل، وتمعن غوصًا في أغوار الأرض.. من العسير تقييم درجة الانحدار ومن ثمَّ العمق الذي يصلان إليه بعد كلّ ذلك السّعي في اتّجاه مستقيم، يتخيّل المشهد في رأسه مثل «الجزء البارز من الجبل الجليدي»، لعلّ «آرا»-اليابسة التي تظهر فوق سطح الماء- تمثّل مساحة ضئيلة مقارنة بالكتلة التي تختفي في كنف المحيط!

لم يتوقّفا عن المسير منذ.. الأمس؟ باستثناء وقفات قصيرة للتيمّم والصّلاة، كان عليهما التحرّك باستمرار. إن كان تمييز أوقات النّهار وتقدير مواقيت الصلاة عسيرًا على سطح الأرض، فإنّ الصّعوبة كانت مضاعفة في باطنها، إنّه لا يعرف حتّى إن كانا قد حُبسا داخل المغارات منذ يوم أو اثنين أو بضع ساعات لا غير!

ذلك بُعد آخر يتفلّت من إدراكه، مثل صعوبة استيعاب موقعه في المكان، فإنّ الإلمام بالزّمان ليس المهمّة الأيسر، في وقت ما من الرّحلة، أخذ يعدّ الثّواني في رأسه، اعتقد أنّ ذلك سيساعده على تخفيف التّوتر المتصاعد داخله ويمكّنه من الحفاظ على مرجع زمنيّ.. إلا أنّ تلك المحاولة أيضًا لم تُسفر عن فائدة تُذكر!

منذ سنوات، كان يشاهد برنامج تليفزيون يبقى فيه المتبارون مستيقظين لأربع وعشرين ساعة ويتنافسون على عدّ القطع النّقدية! كان يضحك حين يُخفقون، ولطالما اعتقد أنّه سيكون دقيقًا ومثاليًا في مهمّة مشابهة، حتّى إنّه طوّر -سرًّا- وسائل ذهنيّة مساعدة للاستمرار في العدّ دون أن يُخطئ.. غير أنّ العدّ على أصابعه في أعماق الكهف بعد ما يناهز الأربع والعشرين ساعة من اليقظة لا يبدو مسليًا أو مجديًا في تلك الآونة!

يدرك الآن أنّ السّاعات الطويلة الماضية انقضت في صمت مدقع. ما تخيّله فسحةً رومانسيّة مع عروسه تجلّى مثل تشييع جنازة في سكون مهيب، كان عليهما الاقتصاد في اللّعاب وسوائل الجسم والإعراض عن الثرثرة التي لا تُسمن ولا تغني من جوع، تقرقر معدته عند ذكر الجوع، لم يتناولا شيئًا منذ.. الأمس؟ يقدّر -استنادًا إلى محاولات تعداد الثواني الفاشلة والإرهاق الشّامل- أنّه قد مضى عليهما نهار وليلة على الأقلّ داخل السّراديب، لم يحظيا خلالها إلا بحفنة من التّوت الحامض الذي لم يزده إلا عطشًا.

كانا قد تركا معظم المؤونة للسيّدات المقاتلات في نزعة غيريّة جديرة بالمُخلِّص والمعالجة، تُملي عليهما المسؤوليّة تكاليف شاقة، ويجدر بهما أن يبذلا أكثر من الآخرين.. أو ليسا صاحبي دماء شافية؟ إذًا يفترض بهما الجلد والتحمّل، يحمل كلّ منهما قربة ماء من الحجم الصّغير؛ تلك التي يستخدمها البحّارة من أجل نهار صيد في عرض البحر.. ليس من عادة أحدهم البقاء طويلًا على مسافة من مصدر الماء، لذلك يستخدمون قربًا خفيفة مصنوعة من جلد الماعز، استنادًا إلى الوزن وحده، يقدّر آدم أنّه قد استهلك قرابة نصف السّعة، لا يريد أن يفكّر بذلك، لكنّ استنفاد نصف ما لديه من ماء سيكون الإشارة باتّخاذ طريق العودة، وأيّ عودة تكون وقد فشلا في إيجاد الماء!

يأخذه التّفكير إلى مناطق أخرى، ويغفل عن العدّ بعض الوقت، لقد ابتعدا كثيرًا عن المجموعة، حتى لو وجدا الماء على تلك المسافة، فلن يتمكنا من حمله إلى مدخل الكهف حيث تنتظرهما متدرّبات روان. لو أنّه يتقن القفز على طريقة المُسخِّرين! أحرز تقدّما معتبرًا في الفترة الأخيرة،

يمسك الخيطين الرّمادي والحليبيّ بوعي تام، وهو أكثر ممّا يقدر عليه أيّ مُسخِّر عاديّ.

ثمّ، صارت حواسّه أشدّ يقظة وحدّة.. على سبيل المثال، يمكنه أن يسمع جليًا الشقشقة الخافتة التي تصدر عن أساور روان المصنوعة من صدف اللؤلؤ المصقول، وحفيف ثوبها حين يحتكّ بساقيها مع كلّ خطوة تخطوها، وتأرجح القلادة التي تتدلّى على صدرها، والرّنين المعدنيّ لحلقات سلسلتها، ولهاثها المتقطّع الذي تتخلّله الضّحكات المكتومة حينما كانا يخبّان على الشاطئ بعد ليلة الزّفاف، حتى إنّه وجد لتوليفة تلك الأصوات مجتمعة جوقة عذبة تعزف نغم الحياة، تشعره تلك الانتصارات الصّغيرة بالزّهوّ وتبعث فيه الثقة، كلّ ما يحتاج إليه هو مزيد من الوقت، وستستيقظ قدراته كلّها واحدة إثر الأخرى!

توقّف انتباهه على تفاصيل المكان الآن، يزداد النّفق ظلمة ووحشة، همس بصوت مسموع:

- الـ«مادرا»!

سألت روان بصوت مبحوح كأنّها تستيقظ من نوم طويل:

- ما شأنها؟

- لا أثر لها هنا!

تلفّتت المعالجة بدورها وقد تضاعفت يقظتها، لم تعد الجدران أمامهما مكسوّة بطبقة الـ«مادرا» المتوهّجة التي تُضفي إضاءة طبيعيّة داخل الكهف، لكنّ القلادة على صدر روان استمرّت تتألق وترشدهما إلى الطّريق. حدّق آدم خلفه وقد تعالت نبضاته، كان كلاهما منهكًا، فلم يلحظا خفوت الضوء تدريجيًا، ولا الثقل الذي أخذ يزداد كثافة في الهواء، ولا الألم الخافت الذي شرع ينتشر في صدريهما. جاء التغيير ببطء، بشكل لا

يُلحظ -مثل الغسق يتسلّل إلى النّهار- حتى كاد يصبح غير محتمل. لم يكن نقص الأوكسجين في الأعماق مفاجئًا، لكنّ الصخور الصّماء المحيطة بهما، والهواء الرّاكد الذي يجثم ساكنًا، جعلاهما يختنقان في صمت.

غدا كل نفس أضعف من السّابق.

باغته الإدراك فجأة: ربّما لم يفن المرسلون إلى الأعماق بسبب التّنانين -أو أيًا ما كانت تلك الكائنات الأسطورية- ولا بسبب الجفاف -لأنّه لا يزال يأمل في إيجاد مصدر الماء العذب رغم كلّ شيء- بل بسبب غياب الـ«مادرا»، ربّما توغّلوا طويلًا بحثًا عن الماء، وحين وجدوا الماء كانوا قد ابتعدوا كثيرًا. لا يطمئنه ذلك الخاطر البتة، لئن كان هو وروان بمأمن كهجينين، فإنّ ذلك قد يعني مزيدًا من المشي في العتمة قبل أن يصلا إلى الماء، لا يفكّر بعد بفداحة نقص الأكسجين، فنظريته تقتضي إمكانية الحياة في الأعماق.

ألقى نظرة على رفيقته التي يكاد الإرهاق يتمكّن منها وهما يستأنفان المسير.. لا تزال ترتدي ثوب العروس المطرّز منذ ليلة الزّفاف، وهو كذلك يحتفظ بحلّته التي كانت نظيفة ومتألقة قبل انهيار الكهف، ليس هذا ما يفترض أن يكون عليه «شهر العسل».. تساءل في صمت إن كانت تقاليد الـ«آم» تتضمّن طقوسًا مشابهة لشهر العسل، وأين يُفترض بالعروسين الشابين أن يقضيا فترة السّياحة تلك؟ ليس كأنّ في الجزيرة منتجعات خاصّة أو أنّها متّصلة بجزر أخرى مجاورة.. لكنّه قد يفاجأ بها في جعبتهم من تدابير يجهل عنها كلّ شيء، وبها تخفيه خارطة «آرا» من مناطق خفيّة عن العيون.

شعر بهبّة ريح تندفع باتّجاهه؛ هواء بارد محمّل بالتّراب.. سعل في ضيق ثمّ رفع طرف ردائه ليحجب فمه وأنفه، بعد دقائق قليلة، توقّف كلاهما مبهوتًا، أمامهما لم تعد الجدران صخريّة نقيّة، بل مغطاة بطبقة حيّة من العفونة الرّمادية المخضّرة -نسيج حيّ يُشبه الطحالب!- يلمع بلزوجة خفيفة.. حياة! كانت تلك أولى علامات وجود كائنات حيّة في الجوار، تتدلّى خيوط دقيقة من السّقف، مثل نسيج العنكبوت، لكنها تنبض ببطء، كما لو كانت تتنفس، كلّما نفخ الهواء البارد القادم من ورائها، تأرجحتْ الخيوط وثارت الأتربة التي كانت هامدة في أقسام الكهف السّابقة!

الأرض رطبة، تُغطّيها رقع كثيفة من فطريات سميكة تُشبه أكفًّا صغيرة تُفتح وتُغلق بهدوء، كأنّها تلتقط فرائسها من الهواء، أمّا الهواء فمثقل بالبخار، رغم الرّائحة الترابية اللاذعة، تبادل آدم وروان نظرات حذرة، ثمّ خطا آدم إلى الأمام وأزاح بيده ستارة الخيوط النبّاتية الحيّة المتدلّية من السّقف وتجاوزها إلى الجانب الآخر..

شعر بالاختلاف على الفور، الهواء وراء الحاجز نقيّ وبارد، استدار في اللّحظة التي كانت روان تصل فيها، جاءت لتقف إلى جواره وعلامات الدّهشة تعلو محيّاها، تساءل إن كان الحاجز الذي عبراه للتّو طبيعيًا، فهو يفصل ذلك الجزء من السّراديب بإحكام عن عالم السّطح، ويوقف تسرّب الـ«مادرا» إلى الأعماق!

على الجانب الآخر، لم تكن طبيعة الهواء هي الفارق الوحيد، فقد كانت الإضاءة الطبيعية كذلك أقوى، تحرّك آدم غريزيًا في اتّجاه مصدر الضّوء، يحرّكه فضول شديد.. يودّ أن يرى ما يأتي بعد ذلك، كبح اندفاعه فجأة حين توقّفت خطوات روان، التفت إليها في قلق:

- ما الأمر؟

إلا أنّها أشارت إليه بالصّمت، ثمّ همست:

- هل تسمع؟

أرخى سمعه وأصغى، يفترض به أن يكون حادّ السّمع كمُسخِّر، إلا أنّ المعالجة لا تزال تتفوّق عليه.. بعد ثوانٍ من المحاولة، تناهى إليه النقر الرّقيق القادم من مكان ما في البعيد، سأل في حيرة:

- ما هذا؟

تجلّت ابتسامة مشرقة على شفتي روان وهي تهمس ثانية:

- ماء؟

اشتدّ الخفقان في صدره وهو يهرول إلى الأمام، كيف يكون مصدر الماء بهذا القرب؟ تنهار كلّ الافتراضات التي وضعها في ذهنه عن نهاية الذّاهبين إلى الأعماق الذين يرثيهم نوح، لم يجدا أيّ هياكل عظمية أو مخلفات بشرية مثل التي تحدّث عنه المسخّر الكهل، تساءل إن كان كلاهما قد دلف عبر سرداب مختلف، فالمغارات تتعرّج وتتفرّع قرب المدخل وتمضي في اتّجاهات مختلفة، لذلك قد يقف كلّ منهما على واقع مغاير.

توقّف ثانية ليصغي بعد أن قطع بضع عشرات من الأمتار، فيما تقدّمت روان ببطء وهي تتحسّس الجدران، استدار نحوها وسأل:

- ماذا تفعلين؟

- الجدران رطبة.

كان قد لحظ الرطوبة في الهواء حين وصلا إلى حاجز الفطريات، أمّا وقد أشارت إلى ذلك فإنّ تفكيره يتّجه إلى الماء، الجدران الرّطبة قد تعني تدفّق الماء وراءها أو عبرها.

ماذا عن صوت النقر الذي سمعاه منذ حين؟

جاءت الإجابة بشكل غير متوقّع، حين هبطت نقطة مائعة وباردة على وجهه. مسح وجنته ثمّ حدّق في أصابعه المبتلة قبل أن يرفع رأسه إلى أعلى في دهشة، هل تمطر عبر السّقف؟ أم أنّ الماء يجري فوق رأسه؟ التقت عيناه بعيني روان التي غمرتها الحماسة.

- إنّها تمطر..

سبقته بخطوات متعجّلة، كأنّها تعرف إلى أين تمضي.. تمطر؟ أخذت الطّريق تتعرّج فجأة، ثمّ تتّسع، والسّقف يرتفع، ثمّ انتشرت إضاءة خافتة قادمة من مسار جانبيّ.. المسار الجانبيّ الأوّل منذ شروعهما في التّوغل! ثمّ انفرجت المساحة أكثر فأكثر ليجدا نفسيهما وسط.. ساحة! لم يكن فضاءً متّسعًا وحسب من ناحية الطّول والعرض، بل الارتفاع أيضًا، مثل قاعة فسيحة في بناء متطاول، أو مثل ميدان في مركز قرية! نعم، كان ذلك التّشبيه الأقرب، بالنظر إلى الأعمدة المرتفعة من حوله. أجال بصره في ذهول، يملأ عينيه من مشهد البناء المحفور في الحجارة، أقواس عالية وتجاويف مصقولة على شكل غرف متراصّة عموديًا تتخلّلها منافذ مثل الأبواب والشبابيك.

فغر فاه متأمّلًا شواهد حضارة قديمة في أعماق الأرض، تحاكي إلى حدّ كبير صنيع حضارات أخرى فوق الأرض: البتراء في الأردن، كابادوكيا في تركيا وكهوف أجانتا وإلورا في الهند.. لقد طوّع الإنسان القديم الجبال وحفرها ليشيّد قصورًا دامت حتّى العصر الحديث، وها أنّه يقف على أطلال أخرى ربّما لم يسبقه أحد لاكتشافها، شهق وقد داهمه إدراك جديد، تألقت عيناه بلمعان المعرفة، وتمنّى أن يشارك عمّار نظريته الجديدة وهو يندفع يقول:

- أعتقد أنّ السّكان القدامى لـ«آرا» قد عاشوا هنا في باطن الأرض، حين خرجت الـ«مادرا» إلى السّطح وسمّمت الماء والهواء! لعلّ كثيرين

قضوا نحبهم، فيما زحف آخرون إلى الأعماق ليحتموا من الخطر الدّاهم.. هنا، يصل إليهم الهواء بشكل ما.. وربّما إذا بحثنا سنجد مقوّمات الحياة المتكاملة، لقد شيّدوا بيوتًا داخل الكهف! هل تصدّقين؟ هذه الصّروح لا تستغرق يومًا أو اثنين لنحتها.. لقد عاشوا طويلًا.. وصنعوا ذلك الحاجز النّباتي لتصفية الهواء بالدّاخل من أثر الـ«مادرا»!

قاطعته روان تذكره بهدفهما:

- وهذا يعني أنّ الماء قريب.

نعم، الماء قريب.. منحته تلك الفكرة دفقة من الطاقة، فجدّ في البحث، الهواء منعش ونظيف أيضًا، لا يحمل أثر الرّطوبة والعفونة التي لحظها منذ دقائق. تحظى تلك المنطقة الغائرة في أديم الأرض بنظام تهوية ما، وهذا يعني أنّ الحياة ممكنة هناك، في وجود الهواء النّقي والماء العذب.. كلّ ما ينقص هو الطعام. يعرف أنّه سيجد مصدرًا للبروتين والفيتامينات في موقع قريب، قوارض ربّما، فطر وطفيليّات تنمو على الجدران، ولعلّ السكّان القدامى جلبوا البذور وطوّروا حدائق تتكيّف في مناخ الكهف.. إلا أنّ ذلك لا يفسّر كيف انتهت تلك الحضارة القديمة!

يستمرّ متأملًا متفكرًا.. ربّما لم تنته، بل تأقلمت! ربّما حافظ البشر القدامى على مسافة من الـ«مادرا»، فيما يدرسون خصائصها ويتعوّدون التّفاعل معها.. وربّما ملكوا معرفة علميّة مكّنتهم من التعايش مع المادّة المتوهّجة في وقت لاحق، ثمّ تكيّفت الأجيال اللاحقة تدريجيًّا، حتّى صارت قادرة على الخروج إلى السّطح! بعد ذلك، لم تعد المدينة التي شيّدوها تحت الأرض ذات فائدة.

- هنا!

أيقظه صوت روان من تأمّلاته، أحنى رأسه ليدلف إلى إحدى الحجيرات ذات السّقف المنخفض، ويبصر حوضًا يترسّب في قعره مقدار ضئيل من الماء، فيما استمر الماء ينقط من الجدار، تساءل في حيرة:

- هل هذا.. كلّ شيء؟

فحصت روان الجدران ثمّ اقترحت:

- أعتقد أنّها مياه الأمطار.

- أمطار؟

- ربّما تمطر الآن.. ربّما كانت الصّخور في هذا الجانب من الكهف قليلة الكثافة، فتسمح للماء بتخلّلها وبلوغ هذا العمق..

بدا التّفسير منطقيًا، ألا تتكوّن طبقات المياه الجوفيّة بالمبدأ نفسه؟ لعلّ جدران الكهف صخور مسامية -مثل الحجر الجيري والطفل الصخري- تسمح بتسرّب مياه الأمطار ببطء من السّطح. على مدى قرون، نحتت قطرات الماء مسارات طبيعية في الحجر، مما أدى إلى تكوين جداول وتيارات تحت الأرض.

لعلّ السّكان القدامى كانوا يجمعون مياه الأمطار خلال موسم التّساقطات ويحفظونها في خزانات لاستخدامها في فترة القحط. انحنى ليفحص الحوض، فلحظ الفتحة التي تربطه بتجويف آخر أكبر حجمًا.. خزان عميق ومتّسع، لكنّه فارغ تمامًا، تغطي قعره طبقة من الطّحالب، لا قنوات تحت أرضيّة إذًا، ولا عينًا جارية تنبع في الأعماق، بل بئر جافّة.

- يجب أن ننتظر.

شرب ما تبقّى في قربته من ماء دفعة واحدة حتىّ ارتوى، ثمّ وضع فوّهة القربة باتّجاه قطرات الماء التي تنقط وأسندها إلى جدار الحوض،

إذا أمطرت برعمت الحياة في الأعماق وانتعشت، وإذا عمّ الجفاف ذوت وانكمشت.

جلست روان إلى جواره، فلمح صفاء الارتياح في ملامحها، لقد وجدا الماء، شربت بدورها وعاد ماء الحياة إلى وجنتيها.. بعد حين سيكون بوسعهما اتّخاذ طريق العودة ليحملا البشرى والسّقيا إلى فريق المحاربات، ستكون رحلة طويلة ومضنية لا ريب، وهو لا يزال يجهل ما يأتي بعد ذلك من تدبير.. إلا أنّهما يحتاجان إلى استراحة مستحقّة.

شعر أنّ اللّحظة مواتية لحديث من القلب إلى القلب، لقد أجّل المصارحة بما فيه الكفاية، أمّا وقد أسكتا عطشهما ولم تعد قلّة الماء تثير القلق، صار بوسعهما الثرثرة.. تجرّأ على المبادرة:

- بخصوص ما حدث ليلة الزّفاف..

قاطعته روان برقّة:

- انسَ الأمر.. لستَ مضطرّا للحديث عن هذا.

- أريد ذلك.. أرجوك.

هزّت رأسها بلطف، فاستطرد:

- أعرف أنّ طرق التّعبير عن المشاعر تختلف من شعب إلى آخر، ومن شخص إلى آخر.. وربّما لا تكون توقّعاتنا من الزّواج متطابقة أو متشابهة، لكنّني سأتعلّم.. أعدك! من المخجل أن أطلب منك اهتمامًا وعاطفة أكثر ممّا تقدرين أو ما تملكين.. نحن أمام خطب جلل.. محتلّ يهاجمنا ويقتل بلا تمييز، ومصدر طاقة يُشرف على النّفاد، ومشروع هجرة جماعيّة نحو العالم الفسيح..

أطلق ضحكة مغتصبة ثمّ أردف:

- هذا كثير.. كثير جدًّا بالنّسبة إلى شابّة في العشرين! لكنّني أحمق أنانيّ لا يفكّر إلا بشخصه، كيف أنجو وكيف أكون سعيدًا ومرتاحًا، وكيف أشعر وهل يرضيني تعاطي الآخرين مع احتياجاتي..

قاطعته روان بلهجة حاسمة:

- أنت لست كذلك!

- إن كنتُ قد تغيّرت، فهو بفضلك! كلّ شيء حسن فيّ ألهمتني إيّاه!

تضرّجت وجنتاها خجلًا فيما تتمتم:

- أنت تبالغ..

أطلق زفرة طويلة، ثمّ قال:

- إن كنتُ واثقًا في شيء الآن، فهو أنّ وجودك بقربي يجعلني شخصًا أفضل، أنا أحتاج إليك، أكثر ممّا تعتقدين أنّك تحتاجين إلي.. لذلك، لن أكون إلهاءً أو عائقًا بعد الآن، بل أريد أن أكون مصدر عون لك، وأن أفعل ما بوسعي لأساعدك في مهامّك.. حماية قومك، إنقاذ الجزيرة، وفعل الخير.. أعدك بأنّني لن أكون سطحيًّا ومشغولًا بذاتي بعد الآن.. وإذا فعلتُ، فلا تتردّدي في زجري!

تلألأت عينا روان بالعَبَرات التي احتشدتْ داخلها، ثمّ مالت لتضع رأسها على كتفه في هدوء، فمدّ آدم ذراعه حولها ليضمّها إليه في صمت.. سرعان ما شعر بانتظام أنفاسها وقد أثقلها النّعاس، فأغمض عينيه بدوره واستسلم لإغفاءة قصيرة.

***

توقّف ماهر عن تحميل الحجارة وهو يتأوّه، فصرخ فيه الحارس المتمركز عند مدخل الكهف يستعجله، تحامل الولد على نفسه وأخذ يلتقط قطع الـ«مادرا» المتصلّبة من العربة اليدوية ويلقي بها داخل الحاويات الضخمة التي أحضرها الدّخلاء، كلّما استقرّت أصابعه على سطح «حجر الشمس» سرت في بشرته برودة لاسعة.. إنّه يعمل منذ الأمس برفقة أعداد من الرّجال والشّباب، بعد أن فُصل عن رفاقه بناءً على طول القامة وحجم العضلات، ربّما وجد التّصنيف مُرضيًا لغروره، فهو رغم سنواته الأربعة عشر يعدّ في مصافّ الرّجال! لكنّه يدرك متأخّرًا المتاعب المنجرّة عن نضج جسده قبل الأوان!

عاد إلى الدّاخل يدفع العربة الفارغة نحو الحوض المحيط بالـ«مصدر»، وذلك تشريف من نوع آخر، أن يجد نفسه وجهًا إلى وجه مع عين الـ«مادرا» المتدفّقة، وهو مشهد لم يسبق لأيّ من أقرانه الوقوف عليه، تلك ميزة تخصّ المُسخِّرين والمتدرّبين على التّسخير، وهو لم يكن ليبدأ تدريبه المحتمل قبل سنتين من الآن.

كلّما قطع المسار الذي يربط جوف الكهف بمدخله، تتوقّف نظراته على جدار الحجارة الكلسيّة المنهار حديثًا، يقولون إنّ المُخلِّص والمعالجة وعددًا من المفقودين قد عُزلوا داخل ذلك السّرداب المغلق. المُسخِّرون جميعهم محبوسون داخل مخزن الحبوب الخاوي، والحكماء محتجزون في دار العبادة، والسيّدات والأطفال داخل مبنى المدرسة، ربّما يكون أوفر حظًا وهو بعد يتحرَّك ويسعى، رغم أنّه نظريًا «محتجز» أيضًا داخل الكهف، ومجبر على أعمال شاقة.

حين وضع كفّه على حجر آخر، تراجع بغتة وقد فاجأه الألم.. أنَّ في صمت، لقد تزايد إحساسه باللّسع تدريجيًّا، لم يجد ملمس الحجر حارقًا في البداية، لكنّ الوضع يكاد يكون لا يُطاق الآن، تأمّل كفّيه المرتجفين برهة، يدقّق في الخدوش التي خلّفتها المادّة الخشنة على بشرته، يقال إنّ المُسخِّرين يتألّمون عند لمس الـ«مادرا»، وهو إن أراد أن يكون مُسخّرًا في المستقبل، فعليه أن يتحمّل الألم كلّ يوم، ربّما يعدّ ما يلقاه هنا هيّنًا وذا شأن قليل مقارنة بما يصيبهم من عناء.

سحب نفسًا طويلًا يستجمع عزمه، ثمّ انبرى يحمّل قطع الحجارة في العربة جازًّا على أسنانه، حانت منه التفاتة إلى صاحبه داريو الذي يرفع القطع دون مشقّة، توقّف ماهر ثانية وتابع بعينين دهشتين الشابّ الذي يكبره بثلاث سنوات يلتقط الـ«مادرا» الصّلبة ويكوّمها فوق عربته دون أن يرفّ له جفن، استدار داريو ليرمقه بنظرة متعاطفة وقال:

- أنت لا تزال طفلًا، لا يجدر بك أن تكون هنا!

تجاهل ماهر كلماته وأشار إلى كفيه اللذين تغطيهما طبقة من غبار الـ«مادرا»:

- ألا تؤلمك يداك؟

- ما يؤلمني هو ظهري وكتفاي! أحتاج إلى بعض التمدّد.

قطع داريو خطوات قليلة ثمّ همس:

- ألا تسمع أصواتًا؟

- أصواتًا؟ أيّ أصوات؟

- لا أدري.. أسمع نداءات خافتة تهمس في أذني..

توقّف ماهر لبرهة ثمّ عاد يسأله في إلحاح:

- ويداك؟ ألا تؤلمانك؟

أصرّ ماهر، فهزّ داريو كتفيه استهانة وقال:

- لا أدري عمّ تتحدّث.. لستُ «بندار» لتحرقني الـ«مادرا»!

تحرّك داريو ليشرع في دفع العربة منطلقًا عبر المسار المتعرّج، فقذف ماهر بضع قطع في عربته ولحقه بدوره في إلحاح:

- هل تعني أنّ «حجر الشمس» لا يلسعك؟

- ولماذا قد يفعل؟

ثمّ انتبه داريو إلى تعابير ماهر، فهمس في اهتمام:

- هل يلسعك؟

أومأ ماهر ببطء وقد امتقعت ملامحه، فشهق داريو، ثمّ وشوش في حرص:

- لا تدع أحدًا يلاحظ.. سوف أحتفظ بحجر من أجلك، ولنتحدّث مساءً، حين يغادر الحرس.

ابتلع ماهر ريقه يدفع عنه التوتّر، وحثَّ الخطى متابعًا رحلة الذّهاب والرّوحة بين المصدر والمدخل، بعقل غائب وفكر شارد. لمح اثنين من الدّخلاء يسحبون كهلًا سقط على الأرض، تعرّف إلى مانيو والد أحد رفاقه، بدا أنّه يعاني، ينزف أنفه وتضطرب أنفاسه، تابعه بنظرات قلقة، لا يفترض بأحدهم أن يكون داخل الكهف، لا يفترض بالعامّة أن يكونوا بهذا القرب من المصدر، إنّهم يُعاقَبون لتجرّؤهم على اقتحام الكهف!

لكنّه يعاني نوعًا مختلفًا من الانزعاج، يداه تؤلمانه.. كان من الجنون أن يعتقد بكونه «بندار»! لا أحد يصبح «بندار» في مثل سنّه! تفصله سنوات

عن التّدريب وأخرى إضافية عن اختبار التخرّج، غير أنّه لا يستطيع تجاهل اللّسع المستمرّ في أطراف أصابعه!

استحضر كلمات «كوتانا» عمّار منذ أيّام: «الظروف القاسية تصنع الرّجال العظماء!».

لقد ظهر المخلّص فجأة لأنّ الظرف يتطلّب تحقيق النجاة وإنقاذ «آرا».

تساءل في حيرة، إن كان المخلّص محتجزًا، فهل يبرز بديل له؟ يحسب أنّه يبالغ، تأخذه الأحلام وتسكن رأسه.. لكنّه يؤمن بالقَدَر، لا شيء يحدث مصادفة، وإن كانت موهبته لتظهر استباقيًا، فلأنّ أمامه مهمّة ذات أهمّيّة!

وارتفع قرع الطّبول في صدره فرقًا وإثارة.

***

سلحفاة.

ارتفع جفنا آدم ثمّ هبطا برفق، ربّما استسلم للنعاس بعض الوقت من فرط الإرهاق وهو ينتظر أن تمتلئ القربة بالماء الذي ينقط من الجدار، لكنّه يرى سلحفاة الآن. التقط عقله الإشارة فجأة، فعاد جفناه ليرتفعا بغتة ويحدّق في انتباه.. كان الحيوان الزّاحف يتقدّم عبر مسار متعرّج بتؤدة، يتمايل جسده المستدير الضخم تحت ثقل منزله المتحرّك، ويزداد اقترابًا مع كلّ خطوة.

- سلحفاة!

فتحت روان عينيها مع ندائه، والتفتت إلى حيث أشار، لا تعرف روان السّلحفاة، لم يسبق لها أن رأت واحدة على الجزيرة كلّها! ذلك الحيوان البطيء الذي يحمل بيته فوق ظهره ويشرئبّ بعنقه الطّويل لم يكن كائنًا مألوفًا في «آرا»، همست في ذهول:

- هل هي مؤذية؟

بناءً على الحجم، تبدو مخيفة ورهيبة، هزّ آدم رأسه علامة النّفي، ثمّ أخذ بكفّها يطمئنها واستمرّ يهمس بحماس:

- سلحفاة بمثل هذا الحجم، لا شكّ أنّها عاشت مئات السّنين!

يجهل آدم كيف يقدّر سنّ السّلاحف، وهو في الحقيقة لم يسبق أن التقى واحدة من هذه الفصيلة عن كثب، بل بشقيقاتها ذات الأحجام الصّغيرة التي يتّخذها النّاس في موطنه حيوانات أليفة.. بدت تلك أشبه بسلاحف «ألدابرا» التي تعيش في جزر المحيط الهنديّ. لعلّها عاشت مع البشر الأوائل في «آرا»، ثمّ حين انبثقت الـ«مادرا» من الأرض، انقرض البشر العاديّون وانشقّ عنهم عرق تأقلم مع المادّة المتوهّجة.. أمّا السّلاحف فاختارت أن تكون الأعماق مسكنها، قال آدم مستعرضًا معارفه البيولوجيّة:

- السّلاحف من أكثر الكائنات مرونة وصمودًا.. يمكنها البقاء دون ماء أو غذاء لشهور، وربّما سنوات!

لم يكن واثقًا إن كانت تلك المعلومة الأخيرة مبالغة من طرفه أم حقيقة محضة. كانت السّلحفاة الضّخمة تسعى في اتّجاهها، بل مباشرة نحو حوض الماء، خمّن أنّ الحيوانات تميّز رائحة الماء بالفعل.. سحب قربته وانزاح جانبًا ليفرج المساحة أمام السّلحفاة العطشى وسحب روان وراءه، وأخذا يراقبانها بهدوء.

رفعت السّلحفاة العملاقة قائمتيها الأماميتين لتتسلق حاجز الحوض المنخفض، ثمّ اشرأبّت بعنقها ومدّت لسانها الطّويل لتستقبل قطرات الماء المنهمرة ببطء.. كان المشهد شيّقًا وحابسًا للأنفاس، لم يتحرّك آدم وروان من ركنهما وهما يتابعان بانبهار معالم الحياة القديمة جدًّا والغريبة للغاية

داخل أعماق الكهف. ارتفع صرير خافت من داخل الحوض ذاته، وحين ألقى آدم نظرة، أبصر مجموعة من الفئران قد تجمّعت هناك بالفعل.

- ربّما تكون الفئران أسفل السلسلة الغذائيّة لكائنات الأعماق.. إنّها طعام مناسب للحيوانات الأكبر حجمًا.

سألت روان بفضول:

- وما الذي تقتات عليه الفئران؟

- أيّ شيء.. تقريبًا! حتّى إذا ضربت الأرض كارثة نووية، فإنّ الفئران والصّراصير هي أوفر الأنواع فرصًا للنّجاة!

تناهى إليهما مزيد من الحركة المقبلة من الممرّ، تطلّع آدم في فضول.. ربّما تكون سلاحف أخرى! إلا أنّ الخطوات بدت أكثر رشاقة وسرعة مثل قفزات متتابعة لأطراف مرنة، ثمّ ظهر القادم الجديد عند المنعطف: عظاية!

انكمشتْ روان أكثر والتصقت به، ازدرد آدم لعابه وهو يهمس محاولًا بثّها سكينة لا يملكها:

- هذه.. مختلفة. السّلاحف عاشبة، والفئران تأكل كلّ شيء لكنّها صغيرة الحجم ولا ضرر منها.. بينما العظايات لاحمة، لكنّها قادمة من أجل الماء، سوف نبتعد عن طريقها ولن تؤذينا..

لا يملك نظريّات كثيرة عن العظايات، لعلّ الزّواحف عمومًا تتشابه في قدرتها على تحمّل نقص الماء والغذاء، بفضل جلودها القاسية ومخزون دهون ما تحت قوقعتها وداخل ذيولها الطويلة، تأمّل العظاية ذات الحجم غير المعتاد، بين الكلب والخروف، إنّها تزحف على أربع بأقدام قصيرة وسريعة وذيل رشيق يتلوّى خلفها، وتمدّ عنقها الطويل إلى الأمام، لكنّها قطعًا لا تشبه سحليّة البيت التي تسير على الجدران، لكنّها أيضًا لا تبلغ

حجم العظايات الأكبر حجمًا في العالم. سمع عن فصيلة تعيش في جزر إندونيسيا، يسمّونها تنين كومودو! لا شكّ أنّها تبلغ حجمًا خارقًا حتّى تحمل اسم كائن أسطوريّ مثل التّنين.

سمع روان تهمس:

- «تانين»!

رنّ الاسم في رأسه ثانية: الـ«تانين» في حكاية نوح، حيوان ضخم وينفث النّار! رفع حاجبيه دهشة، هل هذه هي التّنانين التي في الأسطورة؟ تلك التي يركبها المُسخِّرون ويروّضونها؟ لعلّ الحيوان أكبر من نظائره المعروفة لديه، لكنّه قطعًا ليس صالحًا للرّكوب. وقف فجأة وقد رغب في اختبار النّظريّة.. بوسعه أن يجرّب الاقتراب من العظاية وينظر هل تستجيب للمسته كما فعلت الأوركا.

- ماذا تفعل؟

تجاهل نداء روان المشحون قلقًا وجثا على ركبتيه إلى جوار الحوض، حيث كان دور العظاية الآن للحصول على بعض الماء. لمس جلدها الخشن برفق، فرفعت رأسها عن الحوض واستدارت نحوه، يتراقص لسانها الطويل المشقوق في طرفه مثل الأفاعي وترمقه عيناها الذّهبيتان في حذر، فسرت داخله الرّهبة.. إلا أنّه لم يتراجع، تساءل بداخله إن كانت عضّة العظاية سامّة مثل الأفعى، لكنّها بدت ودودًا رغم انعدام تعاطيها مع الإنسان في أيّ وقت سابق!

مسح على رأسها مرّة واثنتين، ولم يبد على العظاية نفور من لمسته، لكنّه لم يستشعر التّواصل الذي غمره حين لمس لولا. الفرق واضح، لا «مادرا» في الهواء أو في أديم الأرض ولا في مسام الحيوان وخلاياه.. كيف يُخضعها إذًا؟

- آدم!

عاد صوت روان في نداء ملحّ مذعور، لعلّه لم يتوصّل إلى وسيلة للتواصل الحسيّ بالحيوان، لكنّه لم يستنفد حيله بعد.. دسّ يده في جرابه يبحث عن القلادة التي أهدته إيّاها روان، تحسّست أصابعه باطن الجراب في قلق دون أن يعثر عليها، هل سقطت منه في أثناء عبور الغابة؟ أم بعد عمليّة التّسخير داخل الكهف؟ لا يعلم، لكنّها ليست بحوزته، تعتمد نظريّته على تفاعل الحيوانات المروّضة مع الـ«مادرا»، إلا أنّ احتمال تفاعل كائنات الأعماق مع المادّة المتوهّجة التي لم يسبق لها التّفاعل معها بدا ضئيلًا للغاية.. مع ذلك، كان عليه أن يجرّب، استدار إليها وهو يهمس:

- هاتي قلادتك..

إلا أنّ العبارة بُترت على لسانه حين وجد نفسه وجهًا لوجه مع كائن ضخم يشرف عليه من علٍ وهو يجلس على ركبتيه: تنّين! استغرقه التّواصل مع العظاية، فلم ينتبه إلى الأصوات من حوله! فتح فاه دهشة وذهولًا أمام الزّاحف العملاق الذي توقّف على بعد أمتار قليلة، يطالعه بعينين مستديرتين مثل قرصي عسل، يشقّهما قوس أسود حالك منذر بالشرّ. ربّما كانت في ارتفاع حصان عربيّ أصيل وعرض فرس نهر لحيم، أقرب من زاويته المنخفضة إلى فصيلة الدّيناصورات المنقرضة! كانت أعظم من أيّ عظاية أخرى على الأرض، حتّى تنانين كومودو الفريدة ستبدو ضئيلة أمام جثّتها المهيمنة.. أطلقت العظاية صرخة حادّة ردّدت جدران الكهف صداها واستعدّت للهجوم!

عندئذ أدرك آدم متأخّرًا.. تلك العظاية الصّغيرة التي يداعبها لم تكن إلا صغير العظاية الضخمة، وهذه الأمّ تريد استرجاع طفلها، رفع بسرعة كفّه عن الحيوان، ثمّ أخذ يتراجع بهدوء مبتعدًا وهو يهمس:

- لا داعي للغضب.. لست أقصد الأذى.. هيا يا صغير، اذهب إلى أمّك!

تحرّكت العظاية الصغيرة بعد أن أطفأت ظمأها وهرولت على أقدامها الرّشيقة لتتوارى خلف جسد العظاية الكبيرة، إلا أنّ الكائن الثّائر لم يتراجع. همست روان:

- إنّها غاضبة!

بوسعه ملاحظة ذلك.. تُملي قواعد السّلامة وغريزة البقاء الرّكض بعيدًا على الفور دون الالتفات إلى الوراء، لكن للمسخّر بداخله رأيًا آخر.. انتصب آدم بهدوء على قدميه الحافيتين، وهو يسحب أنفاسًا متقطّعة مرتبكة، فيما تقرع طبول صدره نغمة حرب بدائيّة صاخبة، ثمّ خطا إلى الأمام بمقدار ضئيل كلّ مرّة. نخرت العظاية -أو الدّيناصور الذي ينتمي إلى فصيلة منقرضة يجهلها آدم، أو التنّين الذي لا ينفث النّار، أو ربّما يفعل بعد حين، من يدري!- وتأرجحت على قدميها الأماميتين ولم تبرح موقعها، يعرف أنّ ما يُقدم عليه لا يخلو من تهوّر، إلا أنّ مأتى شجاعته من حضور المعالجة إلى جواره.. إذا تأذى، ستعالجه. باستثناء حالة واحدة لا يودّ التفكير فيها.. سيكون حجمه أكبر من أن تبتلعه العظاية دفعة واحدة، لكنّ قضمتها قد تكلّفه ذراعًا أو ساقًا!

ازدرد لعابًا جافًا، وهو يستمرّ في الحركة، فضّل أن يتّخذ مسارًا جانبيًا، فيبتعد عن طريق الفكّين القاسيين، وحتّى لا يُوحي للكائن العملاق أنّه يحاول التحدّي، مما يفضي إلى عواقب وخيمة وفوريّة. لم يفلح في التواصل الحسيّ مع العظاية الصغيرة، إلا أنّه لم يفقد الأمل بعد.. فربّما يصبح التّرويض ممكنًا بعد وصول العظايات إلى سنّ معيّنة! إنّه بارع في وضع النّظريات والافتراضات، لكنّ البراعة التي تلزمه الآن أكثر من أيّ شيء

آخر هي استعادة مهارات أسلافه الذين تعايشوا في القديم مع الزّواحف الضّارية.

التفت إلى روان وقد تذكّر شيئًا.

- قلادتك.. أحتاج إليها!

سيعتذر عن فقدان هديّتها في وقت لاحق، لكنّه يحتاج إلى «حجر شمس» في الحال، لطالما كانت هبته لصيقة بحضور الـ«مادرا»، وفي تلك الأعماق الخالية منها، سيكون الحجر ضروريًّا، أو هكذا يعتقد.. طارت القلادة من كفّ روان بخفّة واستقرّت بين كفّيه في سلام، ثم حانت اللّحظة الحاسمة. مدّ ذراعه إلى الأمام و«حجر الشّمس» في قبضته، وقبل أن تلامس كفّه جلد العظاية، شعر بقدميه تتركان الأرض غير المستوية حين حلّق جسده لأمتار قبل يرتطم بعنف بالجدار الحجريّ! حطّ على الأرض وهو يتألّم، فيما استمرّ الحيوان الشّرس يطوّح ذيله الطويل في هياج بعد أن أرسل آدم بعيدًا.

استمرّت العظاية تنفث الهواء من منخريها في استياء ظاهر، ثمّ ما لبثت أن استدارت لتبتعد نحو عمق السّرداب المظلم، وصغيرها يقفز بين أقدامها الهائلة.

تأوّه آدم فيما روان تتحسّس الرّضوض التي أصابت ظهره وذراعيه. ربّما يكون محظوظًا لأنّ الحيوان آثر استخدام ذيله لتسديد ضربة مباشرة مكان فكّيه! إلا أنّ الألم في ضلوعه ممضّ والخدوش في ظهره حارقة وقد خلّفت النّتوءات الحجريّة أخاديد على جلده فيما ينزلق فوقها ويُكشَط. بعد مرور دقائق، لم يتراجع ألمه قيد أنملة، رنا إلى وجه روان الممتقع في ريبة، فخرج صوتها مبحوحًا مختنقًا:

- هذا لا ينجح!

لم يستوعب آدم على الفور، ثمّ انتبه إلى ما ترمي إليه، هبة العلاج الخاصّة بها مرتبطة بالـ«مادرا»، وهما على مسافة بعيدة من منطقتها والأعماق خالية منها تمامًا، كانت القلادة بين كفّيه منذ حين، لكنّها لم تعد.. أرسل بصره إلى الموقع وسط السّاحة حيث كانت العظاية تقف منذ حين، من المحتمل أن تكون قد سقطت منه في مكان ما فيما يطير باتّجاه الجدار!

سارت روان عبر الممرّ تُدقّق النّظر في كلّ زاوية، إلّا أنّ محاولاتها اليائسة لم تُسفر عن نتيجة تذكر، كان من السّذاجة البحث عن المادّة المتوهّجة في السّرداب شبه المعتم، لو أنّها في مكان ما لاستدلت عليها بوميضها. لم يكن لاختفائها إلا معنى واحد. قالت بوجوم:

- لعلّها علقت في حراشف ذيل الحيوان!

بدت نظريّة مقنعة من وجهة نظر آدم فتبادلا نظرات صامتة، يقيّمان الوضع كلّ من جانبه، كانا على مسافة بضع ساعات من الـ«مادرا»، حين يصلان إلى المنطقة الآمنة وتتزوّد المعالجة بطاقتها، سيكون شفاؤه أسرع.

- هل تستطيع الوقوف؟

أومأ موافقًا، ثمّ حاول الاستناد إلى الجدار من جهة وإلى ذراعها من جهة أخرى ليدفع جسده إلى الأعلى، فأنّت كلّ عضلة على حدة، لقد تعرّض لكسور في مواضع عدّة، وربّما ينزف داخليًّا أيضًا، وقد تمكّن الارتجاف من أطرافه المتشنّجة، وسرعان ما انهار على الأرض وقد عجزت ساقاه عن حمله، همس بصوت ضعيف:

- أحتاج إلى بعض الوقت لأستجمع طاقتي.

ربّما يكون تأثير الضّربة العنيفة في أوّله، وسيقدر على المشي بعد حين. دائمًا ما كان يقف ثانية، حتى دون مساعدة المعالجة، بمقدور جسده أن يتعافى.. كلّ ما يحتاج إليه هو بعض الوقت. يحاول أن يبثّ أفكارًا مطمئنة

داخله وداخلها.. إلا أنّه يعرف أنّ التهوّر لا بدّ سينتهي بإلحاق الأذى بصاحبه! لقد خاطر مرّات، وفي كلّ مرّة حالفه الحظّ، وأنقذته عناية المعالجة، لكنه يخشى أنّ تلك المرّة قد تكون مختلفة!

في هذه الأثناء، استمرّت الزّواحف خارجة من الأعماق قادمة إلى مصدر الماء تتزوّد من الحوض الذي أخذت بقع صغيرة من سائل الحياة تتجمّع داخله. تناولت روان القربة وقرّبتها من شفتي آدم، فتجرّع ببطء حتّى ارتوى. بعد ذلك وقفت في تصميم..

- تعال، استند إليّ..

أجبرته على الوقوف، متحمّلة كلّ وزنه على كتفيها تقريبًا، ثمّ سحبته إلى داخل الأبنية المحفورة في الجدران، نحو ركن خفيّ متوارٍ عن أعين الوحوش. ساعدته على الاستلقاء في وضعيّة مريحة نسبيًا وهو مستسلم كليًّا، ثمّ قالت بابتسامة صغيرة وأصابعها ترتّب خصلات الشعر الملتصقة بجبينه:

- انتظرني هنا.

حملق فيها آدم بعينين نصف مغمضتين وسأل في ريبة:

- ما الذي تنوين عمله؟

- سأستعيد القلادة.

أعلنت بابتسامة صافية ونظرة دافئة.

- لا!

خرجت منه الصّرخة بحشرجة مختنقة لا تكاد تُسمع. قبض على ذراعها بما أوتي من قوّة، يحاول ثنيها، لكن حتّى محاولته اليائسة بدت مرآة لعجزه وضعفه. كان عليه أن يقترح حلًا بديلًا، وفي الحالة المثلى أن ينطلق بنفسه

لينهض بالمهمّة، لكنّه أوهى من أن يسند جذعه أو يرفع رأسه، فكيف له أن يمنعها؟ توسّل بعينيه كي لا تذهب، إلا أنّها ضغطت على كفّه بحنوّ وقالت:

- لا تقلق، سأكون حذرة.

ثمّ أضافت بعد برهة وقد أشرق وجهها:

- منذ حين، حين أغمضت عينيّ.. رأيتُ رؤيا...

كانت قد عاهدت نفسها منذ يومين بألا تتحدّث إليه عن رؤاها أبدًا، لكن ها هي تحنث بوعدها رغمًا عنها، تابعت تهمس:

- كانت رؤيا سعيدة.. حين أعود، سأخبرك بتفاصيلها.

لم يفارق العبوس ملامحه، فيما انسلّت أصابعها من بين أصابعه حتّى افترقت.

ثمّ ابتعدت هيئتها حتى تلاشت داخل النّفق المظلم.

(27)

اليوم السّابع والعشرون بعد الثلاثين

زحف داريو خلال النّائمين، حتّى غدا عند موضع نوم ماهر، حرّك كتفه بلطف ففتح الولد عينيه مفزوعًا، همس داريو يطمئنه:

- هذا أنا.. هل تريد أن ترى الحجر؟

احتاج ماهر إلى ثوانٍ قصيرة ليستوعب، ثمّ أومأ برأسه وهو يفرك عينيه طاردًا آثار النّعاس.. في الخارج، تتسرّب الإضاءة القادمة من المصابيح اليدويّة التي يستخدمها المسلّحون لمراقبة الطّريق، وصوت زخّات المطر التي تهطل بلا توقّف آناء الليل وأطراف النّهار. تتعاقب مجموعات الحراسة ليبقى اثنان مستيقظين في كلّ نوبة، لذلك كان عليهما المحافظة على الهدوء داخل المخزن المخصّص لنوم الرّجال والشبّان.

ينام الآخرون مثل الجثث الخامدة بعد يوم عمل شاقّ متّصل على وقع تهويدة المطر، يعاني كثيرون منهم أعراضًا مختلفة، تتفاوت من الصّداع إلى ضيق التنفّس والحشرجة، حتّى إنّ آخرين تحدّثوا عن هلوساتهم السّمعيّة مثل داريو، وقد كانوا في حاجة إلى تلك السّاعات التي يمضونها خارج الكهف للتّعافي واستعادة التّوازن، وقد رغب ماهر بدوره في نيل قسط من الرّاحة، إلا أنّه وجد دعوة داريو مغرية أكثر من النّوم.

(27)

اليوم السّابع والعشرون بعد الثلاثين

زحف داريو خلال النّائمين، حتّى غدا عند موضع نوم ماهر، حرّك كتفه بلطف ففتح الولد عينيه مفزوعًا، همس داريو يطمئنه:

- هذا أنا.. هل تريد أن ترى الحجر؟

احتاج ماهر إلى ثوانٍ قصيرة ليستوعب، ثمّ أومأ برأسه وهو يفرك عينيه طاردًا آثار النّعاس.. في الخارج، تتسرّب الإضاءة القادمة من المصابيح اليدويّة التي يستخدمها المسلّحون لمراقبة الطّريق، وصوت زخّات المطر التي تهطل بلا توقّف آناء الليل وأطراف النّهار. تتعاقب مجموعات الحراسة ليبقى اثنان مستيقظين في كلّ نوبة، لذلك كان عليهما المحافظة على الهدوء داخل المخزن المخصّص لنوم الرّجال والشبّان.

ينام الآخرون مثل الجثث الخامدة بعد يوم عمل شاقّ متّصل على وقع تهويدة المطر، يعاني كثيرون منهم أعراضًا مختلفة، تتفاوت من الصّداع إلى ضيق التنفّس والحشرجة، حتّى إنّ آخرين تحدّثوا عن هلوساتهم السّمعيّة مثل داريو، وقد كانوا في حاجة إلى تلك السّاعات التي يمضونها خارج الكهف للتّعافي واستعادة التّوازن، وقد رغب ماهر بدوره في نيل قسط من الرّاحة، إلا أنّه وجد دعوة داريو مغرية أكثر من النّوم.

تدبّر داريو أمر سرقة «حجر الشّمس» من الكهف وأخفاه في طيّات ثوبه، جلسا متجاورين يولّيان المدخل ظهريهما، ليخفيا لمعان الحجر عن العيون المراقبة. أخذ ماهر نفسًا، ومدّ أصابعه بحذر تجاه الحجر، فجاءت اللّسعة على الفور حين لامست بشرته السّطح البرّاق. سحب الولد كفّه وهو يكتم التأوّه، همس داريو:

- هل يؤلم؟

أومأ ماهر بقوّة، يزداد إحساسه بالحجر عن السّابق.. ما بدأ مثل تنميل خفيف يتحوّل ألمًا ممضًا يصعب احتماله، إلا أنّه لا يعرف ما الذي يأتي بعد ذلك، يحتاج المسخّرون الشبّان إلى تدريب ممّن سبقوهم على خطى التّسخير، غير أنّ أيًا من المحيطين به لا يملك تجربة بهذا الصّدد، عاد داريو يهمس:

- أعرف بعض الأشياء، ربّما أستطيع مساعدتك.

تطلّع إليه ماهر في ريبة، أحقًا؟

- أغمض عينيك، يفترض بك أن ترى خيطًا ما.. لون الخيط يحدّد نوع هبتك.

أسبل ماهر جفنيه وتنفّس بعمق، ظهرت خيالات متراقصة بسبب توهّج الحجر الذي يمثل أمام عينيه، اعتصر جفنيه بقوّة ليعمّ الظلام تحتهما، وانتظر.

- هل ترى شيئًا؟

ركّز أكثر، فانتظمت أنفاسه واستقرّت نبضاته.. ثمّ ظهر خيط لامع رقيق يتلوّى في بؤبؤه، ندّت عنه شهقة بصوت مسموع، فسارع داريو

يكتمها بكفّه وهو يحدجه بنظرة حادّة، فقد كاد يكشفهما، فتح ماهر عينيه بأنفاس مبهورة، وهمس:

- رماديّ.. خيط رمادي!

رمش داريو بعصبيّة، أمامه طفل سيصير مُسخِّرًا، وهو مكتشف موهبته! في تلك الآونة العصيبة، وفي غياب المُخلِّص وعجز الحكماء ربّما يكون اكتشافه حبل النّجاة الأخير لقومه، لكنّ الطفل يحتاج إلى تدريب وهو غير مؤهّل لتدريبه. في الجزيرة فئتان تُتقنان التّعامل مع «حجر الشّمس»: المُسخِّرون والمعالجات. إن كان المُسخِّرون غير متاحين، فالوصول إلى المعالجة يسير. ربّما لا تملك السّيدة مارتا صنف المعرفة المطلوب، لكنّها ستكون أفضل من أيّ مدرّب آخر يسعه توفيره.

دبّت حركة خارج المخزن مع تغيير الحرّاس، يتأفّف الرّجال من البلل والرّطوبة والإرهاق، فسارع داريو يخفي الحجر ثانية واستلقى على ظهره إلى جوار ماهر. حين دسّ المسلّح حديث الوصول رأسه داخل الغرفة متفقّدًا، كانا يغمضان أعينهما ويتظاهران بالاستغراق في النّوم.

بعد أن عمّ الهدوء حولهما من جديد، همس داريو:

- غدًا.. سنذهب في زيارة إلى المشفى.

***

أمسكت مارتا الدّفتر في يسراها، تعيد تلاوة التّعليمات بحاجبين معقودين، ثمّ تناولت الإبر المعدنيّة الرّفيعة التي كانت محفوظة داخل جراب جلديّ مخيط في الغلاف الخلفيّ للدّفتر، وغرست الإبرة برفق في جانب رأس مانويلا. حين فرغت، كانت عشر إبر تتوزّع في مواضع مختلفة من جبين الشابة ورأسها. رمقتها مارتا طويلًا بنظرات متفحّصة، تلك

الإبر التي تسمّيها هاجر في مدوّنتها «إبرًا صينيّة»، يُفترض بها أن تخفّف الألم وتساعد على النّوم وتحفّز المناعة.

لا تعرف على وجه اليقين إن كانت تستخدمها على الطّريقة الصّحيحة، لكنّها تقدّم ما بوسعها لإنقاذ الصّبيّة الغريبة. تأمّلت ملامحها السّاكنة المستسلمة وقد فارقها انكماش الوجع، تنام منذ ليلتين بهدوء وتتناول وجبات صغيرة هزيلة رغم حرص والدها على توفير أطعمة خاصّة من أجلها، إلا أنّ الحساء يستقرّ في بطنها، وقد توقّفت نوبات الغثيان.. لم تتقيّأ دمًا ولم تعاودها نوبات التشنّج.. لعلّ خلطة الأعشاب تكاتفت مع الحمّام السّاخن والإبر واللّمسة العلاجيّة لترفع عنها الدّاء المجهول، لا تجزم بعد بشفائها، لكنّها تُبدي علامات تحسّن ملحوظ.

في الخارج، يستمرّ صوت قطرات المطر دون توقّف على الأسقف ويقطر بصوت رتيب على أديم الأرض، لم يكن موسم الأمطار بعد، لكنّ السّماء تذرف منذ يومين ولا يفتر ماؤها. فكّرت مارتا أنّ «آرا» حزينة وكئيبة، فتتعاطف معها السّماء والموجودات منتحبةً لمصابها، وربّما يكون موسم الصّوم قد حان، فهي تحبّ أن تصوم طيلة الفترة المطيرة.

دخلت خلود الغرفة وهي تحمل أطباق وجبة اليوم، حساء الجذور، وألقت نظرة متعالية على المريضة الرّاقدة بسلام، قالت باللغة الآراميّة:

- ألا يجدر بنا أن نتّخذها رهينة؟ نقايض حياتها ببعض المطالب؟

حدجتها مارتا بنظرة صارمة وأعرضت عنها، لقد استأنست بالصبيّة وأشفقت عليها، أولم يشفع أوران لها وهو السّجين المختفي منذ أسابيع؟ أولم تحضر دفتر هاجر خلسة؟ لا تبدو تلك الفتاة جزءًا من مخطّط الدّمار أو شريكًا في ما يحدث لـ«آم».. عيبها الوحيد صلة الدّم التي تربطها بالرّجل الغليظ عديم الأصل!

عادت خلود تبرطم في احتجاج وهي تضع الأطباق على المنضدة:

- يمكنهم على الأقلّ أن يحضروا طعامًا أفضل!

دفعت طبق الحساء المائع الذي تتراقص داخله شرائح الجذور البيضاء والسّوداء. بعد محنة ورق الشجر الدّاكنة جادت قريحة الطهاة باستغلال كلّ جزء ممكن من النباتات البريّة، لليوم الثالث على التّوالي تتضوّر بطونهم جوعًا ولا تسدّ الوجبة الهزيلة حاجاتهم، إلا أنّ المعالجة العجوز تعوّدت الاكتفاء بما يُقيم أودها لخمس وعشرين عامًا، وفتر حماسها تجاه ملذّات الدنيا الفانية. خلال ربع قرن، دأبت توزّع نصيبها من المحاصيل على الأطفال، وتطعم مرضاها السّمك الزّائد على حاجتها.. لذلك لم تشكّل محنة الورق ثورة على نظامها الغذائيّ القنوع!

بعد أن خفتت دمدمة خلود وذوى وقع خطواتها وهي تنصرف إلى شأنها، فتحت مانويلا عينيها، سألتها مارتا:

- هل تشعرين بتحسّن؟

أومأت الشابة الصّهباء وهي تستند إلى مرفقيها وتستقيم جالسة على السّرير. منذ يومين، حسبت أنّها تسير في طريق ثابت نحو حتفها، إلا أنّ النشاط بات يغمرها وحبّ الحياة يعود ليسكن قلبها، قالت بابتسامة فاترة:

- أعرف أنّ حضوري يُشكّل عبئًا.. الفتيات لا يحببني!

من المجحف توقّع اللّطف منهنّ، ووالدها يستمرّ منكّلًا بالجزيرة وأهلها، إلا أنّ مارتا قالت برقّة جمّة:

- لا عليك منهنّ.. يسعدني أنّك تتعافين.

أخذت تنزع الإبر بهدوء عن رأسها، ربّما يكون شفاؤها طريقًا للحظوة لدى المحتلّ المتوحّش، غير أنّ مشاعرها تجاه مانويلا صافية ونابعة من

القلب، تكاد تجزم بنقاء سريرتها واختلافها عن كلّ الهمج الذين يسعون في «آرا» ويعيثون فيها فسادًا، أم لعلّها منحازة لبنات جنسها، أو ربّما تكون قد غفرت لها أيًّا ما كان ما ارتكبته من أخطاء في السّابق بسبب دفتر هاجر وحده.

تعالى وقع الأقدام في الخارج مع اندفاع رجال مايك داخل المشفى في صخب. تنهّدت مارتا وهي تهبّ لاستقبالهم قبل أن تملأ الفتيات المذعورات المكان صراخًا. توقّفت في جزع حين ألفت داريو وماهر أمامها يقطران ماءً، يسند الأوّل الثاني الذي يشق ساقه جرح طوليّ عميق ينزف، وتلفّه خرقة قد تشبّعت دمًا، زجر أحد الرّجال المسلّحين بكلمات ما، فردّت مارتا بعنف:

- هل تجعلون الأطفال يعملون أيضًا؟ إنّه مجرّد ولد!

خطت مانويلا خارج غرفتها لتشرف على المشهد، فخاطبها الرّجل:

- اسأليها كم من الوقت ليتعافى الولد؟

ترجمت مانويلا الكلمات، ثمّ تطلّعت إلى الشابين المضطربين، تكلّم الأكبر سنًّا مطوّلا بلغتهم المحليّة، فيما تنحني المعالجة لترفع الخرقة عن الجرح وتعاينه، استمرّ الولد يهمس بعجلة، فأدركت أنّ الأمر لم يكن مجرّد إصابة، ثمّ رفعت مارتا رأسها وقالت بتأنٍ:

- الجرح عميق، سيحتاج إلى أيام من العناية!

ترجمت مانويلا، فتبرّم المسلّح وهو يشير بعقب بندقيّته إلى الشابّ الأوّل ليرافقه خارج المشفى مخلّفين آثارًا رطبة على الأرضيّة. حين غاب المسلّحون، ساعدت مارتا الولد على دخول غرفة الفحص الثانية، جعلته يستلقي على السّرير ودثّرته برداء جافّ لتُذهب عنه البلل، ثمّ مرّرت أناملها على الجرح ليتناثر أثر أبيض برّاق جعل الجلد يلتئم على الفور. رفعت مارتا رأسها لتلفي مانويلا تتابع المشهد بعينين مأخوذتين، التقت

عيناها بعيني الفتاة، فأومأت لها إيماءة بالكاد تُلحظ، تطلب منها بصمت أن تحفظ السّرّ.

كانت مانويلا تُبصر هبة العلاج قيد التطبيق للمرّة الأولى. لا تعتبر شفاءها الشخصيّ نموذجًا، فهي كائنة غائبة عن الوعي حينها، بدا من الواضح أنّ العمليّة انتهت عند ذلك الحدّ، وأنّ المدّة التي ادّعتها مارتا منذ حين مبالغ فيها لتهب الولد فرصة الرّاحة، فابتسمت وهي تنسحب إلى غرفتها.

***

خيّم الصمت الثقيل من حولها، إلا من صوت قطرات الماء المتساقطة وصرير الفئران التي وقعت في فخّها. ارتعشت أصابع روان وهي تضم القربة الفارغة إلى صدرها. لم تكن تعرف إن كانت العظاية الضخمة قد لاحقت خطواتها أم اهتدت إليها عبر الرّائحة وحدها.. وربّما إلى رائحة الجرذان في مصيدتها. شعرت بها تتربّص في الظلمة. كانت تجهّز من أجلها وجبة القوارض. ألهمتها كلمات آدم: الفئران ستكون وجبة مناسبة للكائنات الأكبر حجمًا. لا توجد حيوانات مفترسة على «آرا»، وكلّ الأحياء مسخّرة لخدمة الإنسان، لكنّ البوم يلتهم العصافير الأصغر حجمًا، والحوت في البحر يتغذى على الأسماك الصّغيرة.. سيكون من المنطقيّ أن تجد الـ«تانين» غذاءها في القوارض.

كانت تنوي الذهاب إليها لاستعادة قلادتها. لكنّ العظاية كانت الأسبق.

استجمعت روان أنفاسها المرتعشة، أغمضت عينيها، وأخذت تهمس مستعيدة محفوظها من القرآن، تستمدّ من ذكر الله الشّجاعة والثبات:

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ...»

ارتجف الهواء حولها. كان الهمس بالكاد يُسمع، لكنه اخترق السّكون مثل تيّار خفي. من أعماق الكهف، دوّى نَفَس ثقيل، زحفت المخالب على الأرض الصّخرية وازداد الحفيف اقترابًا.

«وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ...»

فتحت عينيها ببطء، لتحدّد موقع الدّابة منها، من جوف العتمة، التمعت عينان ذهبيتان مثل شعلتين خافتتين. ظهرت العظاية العملاقة على مرمى ذراع، لسانها المشقوق يخرج ويدخل في حركة قلقة حتّى هُيئ لروان أنّه يكاد يغطي المسافة التي تفصلها عنها، إلا أنّها لم تصدر النّفير الغاضب الذي صدر عنها منذ ساعات، وآدم يقف إزاءها.. ربّما لا تخشاها العظاية، ربّما لا تعتبرها مصدر أذى، وربّما يُخفف غياب صغيرها من اهتياجها. الأمّ الخائفة على مصير أطفالها هي أخطر المخلوقات. تساءلت روان إن كان لهمسها دور في تهدئة العظاية كذلك، إلا أنّها تشعر باسترخاء الحيوان العظيم وانتظام أنفاسه، وهي قد جرّبت ذلك في السّابق مع الثّيران الهائجة.. يتقن نساء قومها الهمس الذي يعتبر تقليدًا خاصًّا يمارس بمناسبة ودون مناسبة، مثل غناء خافت رقيق على موجة منخفضة تدغدغ الحواس. ربّما أحبّت العظاية صوتها الرّخيم فلم تبدر عنها ردّة فعل عنيفة، لم تتوقف روان عن الهمس، كانت تدرك أن التّردد ولو للحظة قد يكسر الرّابطة المفترضة النّاشئة بينهما.

«وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ...»

مدّت يدها المرتجفة التي تقبض على جرذ صغير يحاول الإفلات، رفعت الصّيد نحو فم الوحش الذي انفرج ببطء، كاشفًا عن أنياب صفراء

حادّة.. ظلّت تهمس، فيما تقدّمت العظاية خطوة.. ثم أخرى، وحين سحب لسانها الطويل الجرذ من يدها، خفقت روح روان بانتصار خافت! استكان المخلوق على الأرض بجوارها، يلفّ ذيله الطويل حول جسده الضخم، ويستلذّ الوجبة. وضعت روان راحة يدها على قشورها القاسية، ثمّ زحفت كفها على الجلد الخشن تستعذب لحظات الاتّصال الدّافئ مع الحيوان ذي الدّماء الباردة.

«إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ...»

عثرت أناملها على القلادة العالقة بين الحراشف، فرفعت السلسلة المعدنيّة بلطف لتستعيد الحجر.. ابتسمت والقلادة تنزلق إلى عنقها، ثمّ مسحت مجدّدًا على عنق العظاية وبطنها، حيث يصبح الجلد أملس ناعمًا، فشعرت بخفقان قلبها الثّقيل تحت كفّها.

لم ترتعب حين رفعت العظاية العظيمة رأسها المستطيل، التمعت العيون العسليّة العميقة قرب عينيها، ولم تتراجع روان قيد أنملة.. استمرّت تحدّق في البؤبؤ القريب مفتونة، وقد غفلت عن كلّ شيء بما في ذلك الهمس السحريّ الذي فيه نجاتها، لقد تهوّر آدم وأساء تقدير الموقف، فهل تكون ساذجة لتكرّر الخطأ ذاته؟ كادت نبضاتها تتوقّف حين مالت عليها العظاية ولامس خطمها الطويل جانب رأس روان، في دفعة لطيفة، كأنّما تلاعبها.

أطلقت المعالجة ضحكة رقيقة وهي تزفر أنفاس الارتياح الحبيسة، ومالت بدورها ليلامس جبينها الفكّ العريض للحيوان، لتسترجع أساطير قومها عن الكائنات العملاقة التي تسكن الأعماق.

لم تكن هناك حاجة إلى الكلمات، استشعرت الرّابط يتشكّل بهدوء، فيما يُنسج رداء الثقة بينهما خيطًا بعد خيط.

***

جاست عينا آدم عبر السّقف والجدران بشرود، وتساءل في صمت إن كانت الرّسوم الباهتة التي تظهر على الحجارة كشفًا أثريًا ذا قيمة.. شغل نفسه بالتّأمّل عن الألم الذي يزحف عبر عظامه ومفاصله ويحوّل جسده لكتلة جامدة معجونة بالوجع، ميَّز شكل البركان والتلال، وغمامة الضّباب، والأشخاص والعظايات.. والشّمس! قرص دائريّ يعلو مشهد السّماء ويختفي خلف سقف الظلة القاتم، تذكّر أشكالًا مشابهة كانت تتخلّل نسيج السجّاد في دار العبادة.. باستثناء الشّمس. لا تظهر الشّمس في الأفاريز المنقوشة باللّون الأحمر، إلا أنّ العظايات تفعل، يعرف النّساجون شكل العظاية، وكذلك تعرّفت إليها روان.

في النّهاية، لم تفلح محاولات التّشتيت طويلًا، وسرعان ما غلّف عقله ضباب كثيف قبل أن يسقط في قعر الغيبوبة للمرّة الثانية خلال أيّام قليلة.

شعر بكفّها تمسح على وجهه، واعتراه إحساس مفاجئ بالخفّة، وقبل أن يفتح عينيه تخلّله ارتياح غامر: لقد عادت! لم يفكّر للحظة واحدة منذ رحيلها في احتمال عدم عودتها، كان يجب أن تفعل.. ومجرّد الاستسلام للمخاوف مرفوض، فالمعالجة محور حكاية «آرا»، وغيابها يفقد القصّة معناها. ستعود روان في كلّ مرّة، تنجو من الرّصاص والغرق والعظايات.. لأنّ هذا ما يفعله الأبطال!

ولأنّ رحيلها سيعني النّهاية بالنّسبة إليه أيضًا.. سيموت وحيدًا في الأعماق عاجزًا عن الحركة مُكبّلًا بكسوره، ولن يملك فرصة إخبار نوح وعمّار عن اكتشافاته العظيمة بشأن الحضارات القديمة وتاريخ الجزيرة الرّاجح، استنادًا إلى القرائن التي عثر عليها، إن لم تعد، سينفَق لا شكّ

خلال أيّام، سيتحلّل جسده وتنهشه الزّواحف العملاقة التي يحيك الـ«آم» حولها الأساطير وهم يجهلون حقيقة وجودها!

انفجرت تلك الهواجس القاتمة دفعة واحدة في ذهنه وانعكست على شكل شلال دموع انهمر على وجنتيه بغزارة وهو يستقبل لمستها الشّافية التي رفعت عنه الآلام. ثمّ تفرّس في ملامحها المتعبة وانتبه إلى الخدوش التي علت وجهها وذراعيها. استقام جالسًا وقد أدرك أنّها هناك منذ بعض الوقت، والعافية التي تشمل جسده دليل على ذلك.. طالعته بابتسامتها العذبة التي يحبّ وهمست:

- لقد عدتُ!

لقد فعلت.. بطلته قد فعلت.. وهو لا يستطيع التوقّف عن البكاء، وهو يرى آثار الإرهاق في عينيها وسحنتها الشّاحبة، فيطعنه إحساسه بالخزي والعجز، عادت لتهمس بلهجة مطمئنة وهي تمسح عبَراته بطرف كمّها:

- نحن بخير.. سيكون كلّ شيء على ما يرام!

أراد أن يصدّق بأنّ الأزمة قد شارفت على نهايتها، وأنّ أيًّا منهما لن تزهق روحه في أعماق الكهف، غير أنّ نخيرًا حيوانيًا قريبًا جعله يجفل على حين غرّة، وما إن أرسل بصره خلفها حتّى لمح العظاية العظيمة التي كادت تكون نهايته بسبب ضربة من ذيلها!

- وراءك!

هتف بصوت مبحوح مختنق وقد كادت الدّماء تتجمّد في عروقه.

- لا تخف، إنّها أليفة!

حدّق في ملامحها مصدومًا.. أليفة؟ لم يكن من اليسير أن يصدّق إعلانها وهو يفيق للتوّ من غيبوبة قد حسبها الأخيرة، إلا أنّه لم يعرف منها

بعد كيف استعادت قلادتها، وكيف توغّلت في مملكة الزّواحف وعادت ولم يكد يطلها أذى!

- إنّها تستجيب للهمس..

- الهمس؟

أومأت مؤكّدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- كلّ الكائنات تصغي إلى الهمس، الأطفال الرّضع حين تهدهدهم أمّهاتهم، والماعز الشّارد حين يناديه الرّعاة، والسّمك حين يناجيه الصّيادون..

رمش غير مستوعب بعد، أيّ نوع من الهمس قد يُرضخ العظايات الضّخمة التي أطلق عليها السّكان الأوائل لقب التانين؟ لعلّ المعالجة تمارس ضربًا خاصًا من الهمس الذي تستجيب له الوحوش، تجلّ آخر من تجلّيات هبة العلاج!

- ولمن يطعمها أيضًا.

أضافت وهي تغمزه بعينها.

لساعات، توارت المعالجة في الزّوايا المظلمة ونصبت فخاخًا للجرذان كما كانت تفعل طفلة لصيد الطّيور، حفرت حفرة في الأرض قريبًا من الشّقوق المتصدّعة في جدران الكهف، جعلتها عميقة بالقدر الكافي وملّست حوائطها الطينيّة بالماء لتصبح زلقة ويتعذّر على القوارض تسلّقها، وغطتها بقطعة من ثوبها شدّت حوافّها الأربع بالحجارة، ثمّ نثرت فوقها قطع التّوت وانتظرت.. كانت الجرذان الصّغيرة تأتي لتلتقط حبّات الفاكهة، فيسقط القماش تحت ثقلها، حين جمعت عددًا منها، أخذت الحصيلة لاسترضاء العظايات.

سحبته من كفّه وهي تدعوه:

- تعال.. سأريك.

استجاب لهمسها وزحف خارج التّجويف الحجريّ، تمسك كفّها بكفّه، ورغم ذلك ترتجف منه الأوصال ويتسرّب العرق غزيرًا من مسامّه.. يعمّ الهدوء السّاحة الآن، لعلّ الهوام ارتوت في أثناء غيبوبته وانسحبت إلى جحورها البعيدة، واستمرّ الماء ينقط داخل الحوض حتّى امتلأ. ازدرد لعابه في انقباض وحبس أنفاسه المتقطّعة وهو يحدّق في العيون الصّفراء العسليّة للعظاية الشامخة، تطوّح ذيلها وراءها يمنة ويسرة فيرتجف فؤاده خشية!

رأى روان تقترب بخطوات رشيقة كأنّها وثبات غزال، حتّى غدت عند عنق الحيوان الهائل دون أن تبدي العظاية أيّ ردّة فعل.. همست روان كلمات ما، ثمّ مدّت كفّها وهرشت باطن عنق الزّاحف العملاق، هناك حيث الجلد الطريّ الأملس، فطأطأت العظاية رأسها وأحنت عنقها الطّويل لتربّت المعالجة بين عينيها وتداعب خطمها بأناملها النّحيلة.

تنفّس آدم بعمق وبطء أخيرًا.. هذا ينجح!

أشارت إليه روان بعينيها: اقترب! فدنا بخطوات حذرة ولمّا يفارقه الارتجاف.

يذكّر نفسه: المعالجة مسيطرة على الوضع!

لكنّ نظراته تزحف نحو الذّيل الذي يستمرّ مترنّحًا مثل بلطة عظيمة جاهزة للتّلويح.. وصل إلى جوار روان، ولم تجفل العظاية، بقيادة من المعالجة، وجدت كفّه طريقها نحو بطن الوحش بأنفاس مبهورة، داعب الطبقة الرّخوة برفق، ثمّ ربّت بقوّة أكبر مستشعرًا تفاعل الحيوان الأسطوريّ مع لمسته، ثمّ همس:

- هل نصبح صديقين بعد الآن؟ هل هذا كلّ ما يتطلّبه الأمر؟

يصعب عليه التّصديق بعد، تحرّكت روان ثانية، قفزت بخفّة، ثمّ صارت تمتطي العظاية وتتدلّى قدماها على جانبي ظهرها، وتعانق ذراعها الرّقبة الغليظة، فغر فاه للحظة، فيما امتدّت كفّها ناحيته تدعوه للانضمام إليها.. لم يحسب أنّ المعالجة الشابّة ستكون من يُعيد أمجاد أسلافه القدامى المسيطرين على العظايات العملاقة! حين أفاق من ذهوله، ناولها كفّه واستعان بجذبة منها ليركب خلفها، ثمّ.. ضغطت روان رجليها برفق، فاستدارت العظاية بهدوء وانسجام ومضت في اتّجاه الكهف المنحدر.

يشبه ركوب العظاية عمليّة ركوب الأوركا إلى حدّ كبير، فيما تسيطر الأخيرة على عالم المحيط، تتصدّر الأولى هرم السلسلة الغذائية في عالم الأعماق المجهول.

همس في حيرة:

- إلى أين نذهب؟

لعلّه توقّع أن تنقلهما الدّابة إلى المدخل حيث خلّفا مجموعة المتدرّبات، لم يكن ليمانع في وسيلة نقل مريحة وسريعة، مقارنة بالمشي لأيّام.. إلا أنّ التوغّل المستمرّ كان خيار روان.

- ستريد أن ترى هذا..

بعد دقائق من الرّكوب غير المريح على ظهر الدّابة ذات الجلد الخشن عبر سراديب تزداد حلكة ورطوبة، أشرفا على مفترق طرق متشعّبة.. أخذت العظاية الطّريق الأيمن بلا تردّد، ثمّ واصلت السّعي وهما يتأرجحان مع ترجرجها.

رفع آدم عينيه إلى السّقف الذي تتدلّى منه أسنمة جيريّة مقلوبة مدبّبة، تتخلّلها كائنات حيّة تلتصق بالصّخور في سكون، عناكب تنسج بيوتها ذات الخيوط الكثيفة، وخفافيش تخفي رؤوسها بين طيّات أجنحتها وتغطّ في سبات شتويّ ما. في الأعماق، تكمن حياة بطيئة ومتأقلمة مع نقص الماء والغذاء، متوائمة مع الشظف والنّدرة.. أمثلة حيّة للزّهد والقناعة والصّبر على الشّدائد.

احتاج إلى بعض الوقت حتّى تتعوّد عيناه الظلمة الحالكة من حوله، حتّى ما عاد يبصر أبعد من عنق العظاية، ثمّ حين توقّفت، لم يميّز شيئًا بداية، ثمّ شهق بصوت خفيض وهو ينتبه إلى أزواج العيون الذّهبيّة التي تحيط بهم من كلّ جانب، العشرات منها.. بعضها ثابت يدور في محاجره ويرمش ببطء فيما ترتفع وتنخفض أخرى مع حركة أعناقها الممتدّة، لوهلة خفتت الأصوات ولم يعد يصله أكثر من لهاثه ووجيب قلبه. ألقى نظرة على روان فألفاها هادئة وواثقة، ثم على تلك المخلوقات الضخمة الملتفّة حول نفسها بحذر.. الـ«تانين».. هكذا يسمّيها السّكان المحليّون، والآن، وهو يقف هناك، أخذ يسترجع القصص التي نشأ عليها. خطر له فيلم «كيف تروّض تنينك».. «أبو سنّ» و«حازوقة» وتلك الثقة الغريبة الهشّة الناشئة بين فتى ووحش.

لكنّ هذا لم يكن خيالًا.

كانت المخاطر حقيقية، والصّمت بين الأنفاس ثقيلًا، ومع ذلك، وبطريقة لا تصدّق، فعلتها روان! تساءل في ذهول كيف تمكّنت من استرجاع الحجر؟ وكيف تسلّلت إلى جُحر الزّواحف العملاقة ذاك دون أن يُصيبها أذى؟

ثم سمع همساتها.

تساءل، بمزيج من الدّهشة وعدم التّصديق، إن كانت القصص قد أصابت في شيء واحد: أحيانًا، يمكن ترويض أعتى القلوب، ليس بالقوّة وإنما بالهمس!

رآها تقفز بخفّة عن ظهر العظاية، وتسير بهدوء تتحسّس طريقها في العتمة، وهي تمسح على الرّؤوس والأعناق المشرئبّة تجاهها، وتهمس بصوت ملائكيّ عذب.. تجرّأ آدم على اللّحاق بها، ألقى عليه الخوف غلالة تكاد تغمره من رأسه حتّى أخمص قدميه، إلا أنّه يسير على خطاها مقتديًا بحركتها، لا تصدر عنه نأمة.

وشوش قرب أذنها في حيرة:

- بماذا تهمسين؟

- آيات من القرآن.. تلك التي حفظتها منك!

هزّ آدم رأسه، ثمّ أخذ يهمس بدوره وهو يتقدّم بحذر: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ).

لعلّها تثق بقدرتها على الهمس، لكنّه لا يشعر بالأمان محاطًا بتلك الكائنات الضخمة القادرة على صرعه بضربة ذيل واحدة، ناهيك بالفكوك والأسنان الطاحنة.. تبعها ولمّا تفارقه الحيرة متآزرة مع الرّعب، ما الذي تريده روان من تلك الجولة الجسور في جحر الوحوش؟

همست أخيرًا:

- أعتقد أنّ لديّ خطة!

- خطة؟

- ما رأيك بهذا الجيش؟

جيش؟ حبس آدم أنفاسه وجاست عيناه خلال المغارة القاتمة، بات يميّز الأشكال الرّابضة بقدر أفضل؛ العظايات العملاقة التي تغادر حالة

السّبات تدريجيًا مع اقتراب موسم الأمطار وتتهيّأ للزّحف خارج الجحر لتسدّ جوعها وعطشها المديدين.. ما الذي سيحدث عند خروجها إلى السّطح؟

همست روان:

- انظر، حراشفها الصّلبة ستكون منيعة أمام رصاص الدّخلاء.. كأنّها دروع طبيعية!

مسح آدم على الجلد السّميك بشرود، لعلّها كذلك، لكنّه لا يخشى عليها من رصاص مايك ورجاله وحسب، تلك الكائنات لا تعرف الـ«مادرا» ولم تتعايش معها.. لكنّها شديدة المرونة وجلودها السّميكة توفّر حماية سابغة، إن كان الغرباء من البشر يسقطون تحت تأثير المادّة المتوهّجة خلال ساعات، فربّما تصمد العظايات العملاقة لأيّام.

- لقد تحمّلت حياة الأعماق وتأقلمت.. حافظت على حياتها في أشدّ الظروف حلكة ووعورة.. أعتقد أنّها ستكون قادرة على حماية أنفسها على السّطح!

أومأت روان مؤمّنة، فتسلّل الأمل إلى صدره، ربّما تستطيع المعالجة بهمسها قيادة قطيع العظايات إلى الخارج، ثمّ توجّههم لمهاجمة المسلّحين! ربّما تجدّد إرث المسخّرين القدامى الذين يروّضون كائنات أسطوريّة شبيهة بالتّنانين!

تسلّلا بهدوء خارج الجحر كما دخلا، تطلّع آدم إلى عيني روان النّابضتين بالإثارة، قال والطبول تقرع على جدار صدره بصوت يكاد يصمّ أذنيه:

- أعتقد أنّ الـ«تانين» جاهزة لإطلاق موسم الصّيد!

(28)

اليوم الثامن والعشرون بعد الثلاثين

بدت مانويلا في حال طيّبة حين زارها والدها في مبنى المشفى. تورّدت وجنتاها وأفعمت عيناها إشراقًا بعد أن فقدت سحنتها ماء الحياة. كان ممتنًا للمعالجة المتجهّمة التي أعادت إليه ابنته، بات يؤمن بمعجزات الـ«مادرا» أكثر من أيّ وقت مضى، ويفكّر في مزيد من المشاريع المربحة: محطّة استشفائية للعلاج من كلّ أنواع الأمراض المستعصية، يمكنه أن يحمل اسمًا ذا وقع شاعريّ: «الملاذ الأخير»! غير أنّه لا يضمن بعد تعاون المعالجة العجوز.

لا يفكّر كثيرًا بهذا في الوقت الحاليّ، فأمامه مشاغل كثيرة وشيكة.. في الخارج، يستمرّ المطر هاطلًا لليوم الثالث على التّوالي معطلًا أعماله كلّها، يصبح جرّ عربات الشحن إلى الشاطئ متعثّرًا وإبحار الزوارق الملأى نحو السّفن مجازفة، يتعذّر عليه كذلك إنهاء مهمّة المسح الشّامل لأرض الجزيرة، وقد جعلت الأمطار الطرق الطينيّة متشابهة والماء يمحو العلامات التي يخلّفها.

لحظت مانويلا شروده الطويل، فقالت:

- اذهب، أنا آمنة هنا.

(28)

اليوم الثامن والعشرون بعد الثلاثين

بدت مانويلا في حال طيّبة حين زارها والدها في مبنى المشفى. تورّدت وجنتاها وأفعمت عيناها إشراقًا بعد أن فقدت سحنتها ماء الحياة. كان ممتنًا للمعالجة المتجهّمة التي أعادت إليه ابنته، بات يؤمن بمعجزات الـ«مادرا» أكثر من أيّ وقت مضى، ويفكّر في مزيد من المشاريع المربحة: محطّة استشفائية للعلاج من كلّ أنواع الأمراض المستعصية، يمكنه أن يحمل اسمًا ذا وقع شاعريّ: «الملاذ الأخير»! غير أنّه لا يضمن بعد تعاون المعالجة العجوز.

لا يفكّر كثيرًا بهذا في الوقت الحاليّ، فأمامه مشاغل كثيرة وشيكة.. في الخارج، يستمرّ المطر هاطلًا لليوم الثالث على التّوالي معطلًا أعماله كلّها، يصبح جرّ عربات الشحن إلى الشاطئ متعثرًا وإبحار الزوارق الملأى نحو السّفن مجازفة، يتعذّر عليه كذلك إنهاء مهمّة المسح الشّامل لأرض الجزيرة، وقد جعلت الأمطار الطرق الطينيّة متشابهة والماء يمحو العلامات التي يخلّفها.

لحظت مانويلا شروده الطويل، فقالت:

- اذهب، أنا آمنة هنا.

يودّ إعادتها إلى السّفينة، حيث سيشعر بالاطمئنان أكثر، لعلّ المعالجة تعاطفت مع مرضها، لكنّها لن تكون بنفس المزاج الكريم إذا اكتشفت أنّ أوران موثق المعصمين في كوخ منعزل، كان يجب أن يعيده إلى السّفينة، لينضمّ إلى فريق المُسخَّرين المحتجزين، لكنّه يبقيه قريبًا تحسّبًا، فربّما ترغب العجوز في الاطمئنان على سلامته ووفاء مايك بوعده.

– ما إن يتحسّن الطقس، ستعودين إلى «سارا»، ومنها تبحرين إلى الدّيار.

يعتمد كلّ شيء على أحوال الطّقس، وهو ليس ملائمًا لأيّ تنقلات، لعلّ أفضل الأماكن لبقاء مانويلا في هذه الأثناء هو المشفى فعلًا، حيث تحظى بغرفتها الخاصّة، ويصل إليها بيسر، وتُعامل بودّ واحترام، لذلك لا يفكّر في نقلها بعد.

همهمت المعالجة بكلمات مبهمة، فسأل مايك في اهتمام:

– ماذا تقول؟

خاطبتها مانويلا بالعربيّة، ثمّ نقلت الكلمات الآراميّة الأصليّة إلى لغة ثالثة وهي تجيب والدها بالإنجليزية:

– قالت إنّ المطر لن يتوقّف!

حدّق مايك في وجهها المتغضّن بملامح مشدودة وقد سرى في جسده التوتّر. يجهل إن كان تصريح العجوز نبوءة أم يقينًا أم أملًا.. لكنّ إحساسًا سيّئًا يراوده بشأنه.

***

منذ أيّام، يجلس عمّار برفقة الـ«كوتانا» المبجّلين في ركن مهمل من دار العبادة. يتحرّك مايك ورجاله دخولًا وخروجًا في كلّ أوقات النّهار ولا تكاد القاعة تخلو من بعضهم، إلا أنّهم نادرًا ما يوجّهون خطابهم للحكماء.. مرّت أيّام على اللّيلة الدّموية، كانت ليلة زفاف ابنته، ليلة فرح وحبور، ثمّ انقلبت الحال لكابوس لا ينتهي!

في الزّاوية تمامًا، يتقوقع آشور، الشابّ الغرّ الذي نصّبه مايك راسل «كوتانا» بعد أن قتل والده أمام عينيه. يرتجف الولد منذ ذلك الحين، وينهنه مثل طفل رأى من خطوب الحياة أبلغها، يتوقّف لدقائق فيعمّ السّكون، ثمّ لا يلبث أن يذكر مشهد الفاجعة فيستأنف وصلة النّحيب. احتفل الولد بزفافه منذ أسبوعين وحسب، ليغدو في مصافّ الرّجال، والآن يتحمّل ثقلا تنوء بحمله الجبال.

يتهامس الـ«كوتانا» من وقت إلى آخر، ويظلّ السؤال الأزليّ الذي يتردّد على ألسنتهم: «أين اختفى المُخلِّص؟» حتّى روان لم تعرف حين لقيها عند كوخ المعتزل، لا يريد أن يفكّر في الأسوأ.. أن يكون ضمن القتلى الأوائل. لا، بل إنّ احتمالًا آخر يراوده هو الأسوأ من كلّ شيء آخر. يطرد الخاطر البغيض ويبعده عن ذهنه، لكنّه ما يفتأ يتسلّل إليه في إصرار.. هل يمكنه أن يثق في آدم تمام الثّقة؟ هل يجرؤ على التّخلي عنهم وطعنهم في ظهورهم؟ وإلا فما سبب بكاء ابنته ليلة زفافها؟ لعلّ العتمة منعت عنه الرؤية الجليّة، لكنّه لمس الاحتقان في عينيها والبحّة في صوتها!

ربّما اختلفا لأمر سخيف، وتلك المناوشات التّافهة كثيرة بين الأزواج الجدد، لكنّه يعرف روان، فتاته الأبيّة لن تبكي دون سبب وجيه!

تمنّى أن يعرف تفاصيل ما يدور في الخارج، كيف يعيش سكّان الجزيرة الأزمة، وما الذي ينويه مايك راسل بشأنهم، هل يحصل على شحنة من حجارة الشّمس ثمّ يرحل؟ ألم يكن ذلك طلبه الأساسيّ؟ لعلّه الآن يسخّر الرّجال لاستخراج الـ«مادرا» من الكهف، وخلال أيّام إضافيّة ستكون مساحات الشّحن داخل سفنه قد امتلأت. فما الذي يأتي بعد ذلك؟

لئن اعتقد في البداية أنّ اهتمام الرّجل ينحصر في استخراج الطّاقة، لكنّه يبصره منذ أيّام يرسم الخرائط ويرصد التضاريس، وهذا يتجاوز مجرّد نهب الثّروة الطاقيّة، لعلّ المستثمر يفكّر في خطط أخرى تتيحها مساحة «آرا»، وهذا دأب رجال الأعمال المتمرّسين، يقرأون الفرص في كلّ زاوية واحتمال، بحثًا عن مكامن الرّبح والنّمو، يتعرّف عمّار على رجل الأعمال الحقيقيّ حين يلتقي واحدًا، فالنّفوس المتشابهة تتعارف!

لقد فكّر في وقت ما في عقد شراكة بينهما، ولعلّ الظروف الحاليّة أدعى للتّفاوض، بعد أن فترت شهوة القتل وانتظمت الأشغال بنسق مرضٍ، ربّما يسعه أن يحاور الرّجل بعقلانيّة، دون أن يخشى رصاصة طائشة تستقرّ في مقدّمة رأسه!

ترقّب عودة مايك ذلك المساء، تناول حساء الجذور الباهت دون شهيّة، واستمرّت عيناه ترنوان نحو مدخل دار العبادة في تحفّز. حين لمح مايك يخطو إلى الدّاخل أخيرًا وهو ينفض عنه المياه على السّجاد، ترك الطبق الخشبيّ على الأرض وهرول في اتّجاهه. اعترض أحد الرّجال المسلّحين طريقه، لكنّ مايك أشار إليك بالتنحيّ جانبًا وسمح لعمّار بالاقتراب.

تردّد عمّار خلال ساعات النّهار بخصوص الهيئة التي يجب عليه اتّخاذها: التملّق أم الازدراء.. يليق الازدراء بالمحتلّ الذي قتّل أبناء قومه

واستعبدهم، ويليق التملّق بالمهزوم الذي مُرّغ أنفه في التّراب، لكنّه اختار لهجة إباء وترفّع لا يخالطها ازدراء ولا تملّق.. قال بهدوء متعقّل:

- لقد حصلتَ على ما تريد.. الكهف تحت سيطرتك وحجارة الشّمس ملكك، فما الذي تنويه تجاه سكّان الجزيرة؟

استرجع مايك حديثه إلى نايت منذ أيّام، فابتسم ساخرًا:

- ما يزال عرضي القديم قائمًا.. خلال أيّام ستنطلق السّفن المشحونة إلى العالم المتحضّر.. هل هناك من يرغب في توصيلة؟

تردّد عمّار. لم يتوقّع ذلك التّعاون اليسير والسّريع، وتيقّن أنّ الرّجل لا ينوي المغادرة أبدًا! لن يكتفي بحمولة واحدة من حجارة الشّمس، وسينهي مخزون الـ«مادرا» في وقت قياسيّ.. ربّما لا يضرّ الأمر كثيرًا طالما يستمرّ السّائل البرّاق يتدفّق من الـ«مصدر»، لكنّه لا يضمن أن يتوقّف جشع الرّجل عند مدى أو حدّ، عليه أن يفعل شيئًا ليضمن أنّ السّفن التي سترحل لن ترجع أبدًا.

قال عمّار بعد لحظات من التّفكير:

- إذا تكرّمت، أودّ أن يرافقك بعض الأفراد في رحلة العودة.

أطلق مايك ضحكة صاخبة، ثمّ هزّ رأسه موافقًا:

- جميل، ممتاز! سأودّ أن أتابع تجربة السكّان الذين يرحلون إلى العالم المتحضّر عن كثب.. سأُعلمك حين تكون السّفن جاهزة للرّحيل.. فيما تنتقي الرّاغبين في السّفر.

- هل هناك عدد محدّد تسمح به؟

- بضع عشرات ربّما؟

يجد مايك الجزيرة مزدحمة أكثر من المطلوب، ولا يرغب إلا في الإبقاء على عدد محدود من العمّال المفيدين، لا يودّ أن يُعمل في صفوفهم تقتيلًا مرّة أخرى، لذلك يبدو الإخلاء الخيار الأفضل.

- حين يتوقّف المطر.. سوف ترسو الزّوارق التي ستأخذ السّكان إلى السّفن على الشاطئ.. كلّ من يرغب في الرّحيل فليركب!

أومأ عمّار مؤيّدًا، وخيوط الخطّة تغزل ببطء في رأسه، حتّى يتوقّف المطر.. ثمّ سأل:

- هل تسمح لي بالتحرّك في الجزيرة، لأنشر الخبر؟

تردّد مايك للحظة، ثمّ هزّ رأسه.. الحكيم الكهل لا يبدو مصدر تهديد، وما الذي يقدر عليه رجل أعزل أمام الرّجال المسلّحين المتمرّسين؟ ليس مُسخِّرًا أو ذا هبة خاصّة، وهو يستبعد أن يكون فرد آخر قد حصل على ميزة آدم من الغرباء.

تجرّأ عمّار ليسأل ثانية وكأنّه يقرأ أفكار مايك:

- ماذا عن آدم.. هل حدث له شيء؟

- آه، آدم.. لقد انهار السّقف فوق رأسه داخل الكهف منذ أيّام، لا أعتقد ببقائه على قيد الحياة!

لم تنمّ ملامحه عن أدنى درجة من الأسف وهو ينقل الخبر الحزين.. لعلّ الحكماء كانوا ينتظرون النّجدة من الغريب ذي القدرات الخارقة؟ سيقضي الخبر على كلّ آمالهم وربّما يدفعهم إلى التعقّل والتزام السّلم.

مرّة أخرى، تساءل مايك في صمت، لماذا لم يستفسر الحكيم عن مصير ابنته؟ هل يعقل أنّه يحسبها لا تزال على متن السّفينة كلّ هذا الوقت؟ همّ بقول شيء ما، ثمّ سرعان ما أحجم.. لا يريد لحديث مماثل أن يفسد الاتّفاق القائم.

حين رجع عمّار إلى ركن الـ«كوتانا»، التفّ حوله الرّجال ذوو اللّحى الطويلة متلهّفين للأخبار، همس عمّار بهدوء، رغم المرارة العالقة في حلقه:

- ما زال بإمكاننا عمل شيء ما.

ارتجف آشور في زاويته البعيدة، فيما اقترب توماس ليقول بنبرة متعالية:

- يجدر بها أن تكون خطّة حقيقيّة!

رغم اشتراكهم في المصاب، يتعرّف عمّار على لهجة الاتّهام الخفيّة التي تظهر في كلمات الـ«كوتانا» العابرة، إنّه أصيل «مهافيا دياما»، رغم السّنوات الطويلة التي أمضاها في خدمة الـ«آم»، يردّونه إلى أصله القديم في أوقات الأزمات.. لم يجاهر أحدهم بتبكيت واضح، ولعلّها مجرّد أوهام في رأسه، لكنّه كان مطالبًا -باستمرار- بإثبات ولائه وجدارته، لقد فعل طوال خمسة وعشرين عامًا!

يعود غريبًا في أعينهم، يخوِّنه لون بشرته وتفضحه خصلاته السّوداء، يغدو الغراب في قطيع البجع، لكنّه سيحاول مرّة أخرى، سيفعل ما أمكنه ليموّه تأثير الألوان ودرجاتها!

***

احتاجت روان إلى مزيد من الفئران لتسدّ جوع الزّواحف العظيمة التي تغادر سباتها الشّتوي، فانبرت تنصب الفخاخ بمساعدة آدم داخل السّراديب المظلمة، مستنفدة كلّ ما بحوزتها من فواكه مجفّفة وتوت طازج، وكذلك مؤونة آدم. قاوم كلاهما إحساسه بالجوع الشّديد والإرهاق النّاتج عن قلّة النّوم، إلا أنّهما لم يشعرا بالجفاف على الأقلّ، اكتشفا مزيدًا من الأحواض داخل البيوت الحجريّة المنحوتة في الصّخر، بعضها كان قد أخذ يمتلئ ماءً، ولم تصل إليه الزّواحف الضّخمة، أو لعلّ نقاطا أخرى لتجمّع الماء قد استحوذت على اهتمامها.

- إنّها تمطر!

لاحظت روان ثانية.. لم يتوقّف المطر منذ أيام على الجزيرة، ولذلك يستمرّ الماء ينقط عبر الجدران المساميّة النفاذة وينساب داخل الأنابيب الطبيعية.. ماء السّماء رحمة للأرض والشجر والهوام، ورحمة لهما في جوف الأرض أيضًا. لو أنّ موسم المطر تأخّر، ربّما كانا لينفقا عطشًا، ولما استيقظت الزّواحف والقوارض لتكون الثانية طعامًا للأولى، والأولى وسيلة نجاة للـ«آم»!

تهمس روان بابتسامة صافية:

- الله رحيم!

تسلّقا الأعمدة الحجريّة حتّى موضع مرتفع من البناء الأثريّ، وناما داخل تجويف آمن بضع ساعات، أسندت روان رأسها إلى ذراعه، واحتوى كلاهما الآخر بنظراته، وقالا دون كلمات أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام قريبًا. حين استيقظا، كان أوان تفقّد الفخاخ قد حان.. خرجت الجرذان بأعداد كبيرة وقد جذبتها رائحة الفواكه الشهيّة، ربّما لم ينعم أحدها بوجبة محلاة منذ سنين، وربّما لا تعرف كائنات الأعماق تلك ما تكون الفاكهة!

ثمّ بدأت مهمّة جديدة، القبض على القوارض ذات الجلد الأملس المنزلق ونقلها إلى جحر العظايات التي أخذت تتفرّق بحثًا عن القوت، لعلّ الزّواحف الضخمة قويّة وشرسة، لكنّ القوارض صغيرة الحجم وسهلة التفلّت بين الأقدام الثقيلة.. لم يكن الصّيد مهمّة يسيرة قطّ داخل الأعماق، وكان عليهما إطعام العظايات -أو الـ«تانين» كما استمرّت روان تناديها- لملء بطونها الجائعة أولًا فلا تفكّر في مهاجمتهما، وكسب ولائها وطاعتها ثانيًا.

- هل أطلقت عليها اسمًا؟

سأل آدم، فيما تربّت روان رأس العظاية التي التهمت للتوّ جرذين في قضمة واحدة.. يطلق المسخّرون أسماء على حوت الأوركا التي يركبونها، وربّما يفعل الرّعاة بالمثل فيسمّون الماعز والثيران.. وإذا كانت المعالجة ستدجّن العظايات، فعليها تمييزها بأسماء مختلفة، يمكنه أن يطلق اسمًا مناسبًا على هذه، تخطر له أسماء مثل «نار»، «إعصار»، «قلب الظلام».. أو «التنين الأسود»، بناءً على تجربته السّابقة معها، إلا أنّ شفتي روان افترّت عن ابتسامة راضية وهي تقول:

- سأسمّيها «كوز العسل»، فعيونها العسليّة البرّاقة فاتنة!

«كوز العسل»؟ مطّ آدم شفتيه.. اسم رقيق بالنّسبة إلى الكائن المتوحّش، لكنّه لم يعترض، تلك حيواناتها الأليفة، وستطلق عليها الأسماء التي تحلو لها.

اختار آدم عظاية بالغة أصغر حجمًا، لا تزال تجربة التّعامل المقرّب مع «كوز العسل» تحمل ذكرى أليمة لا يرغب في تكرارها، أطلقت عليها روان اسم «سراب الليل» نسبة إلى جلدها الأسود الحالك فلا تكاد تُرى في العتمة.. لا يدري إن كانت «سراب الليل» ذكرًا أم أنثى، لكنّها عظاية مطيعة لهمسه ولمساته، وقد وجد ركوبها يسيرًا، بعد أن أطعمها جرذين بيديه، تساءل إن كانت العظايات تستجيب لهمسها لأنّهما مُسخِّر ومعالجة ذوا دماء شافية؟ هل تميّز كائنات الأعماق هويّتيهما حتّى بعد دهور من تباعد عهدها بالـ«مادرا»؟ أم أنّها ببساطة تُصغي لمن يطعمها مثل الكلاب والقطط؟ أم لعلّ همسات روان -التي يحاول تقليدها- تدغدغ وترًا حساسًا في نظام الاستشعار لديها؟ لا يعرف، لكنّ أيًا من ذلك لا يهمّ، فهي تفعل، وهو يرجو أن تستمرّ في الإصغاء والطاعة.

ثمّ، حانت ساعة الاختبار.

- هل سيتبعها القطيع؟

تساءل آدم بصوت خفيض، فيما مالت روان على عنق «كوز العسل» وهمست إليها بكلمات ما، تهمس روان كثيرًا للـ«تانين» الخاصّة بها، تعمّق التّواصل بينهما، ربّما مع الوقت تطوّر أسلوب نداء مثل الصّفير الذي يستخدمه نوح. بعد ذلك، رفعت العظاية الضخمة رأسها وطوّحت بذيلها يمنة ويسرة وهي تضرب الأرض، ثمّ أصدرت نخيرًا صاخبًا كأنّما تخاطب أقرانها.. تردّدت حشرجة في حناجر عظايات الكهوف الأخرى متفاوتة القوّة، وحين تحرّكت «كوز العسل» بخطواتها الثقيلة، انطلقت مجموعة من العظايات البالغة خلفها منفصلة عن القطيع!

خبّت الزّواحف على أرجلها العريضة عبر السّراديب المظلمة، تقودها «كوز العسل» وتتبعها «سراب الليل» عن كثب.. استمرّ آدم يلتفت إلى الوراء متابعًا في فضول تقدّم العظايات من خلفهم، يتيقّن من بقائها ضمن الفريق ومواصلتها الطّريق. عدّ قرابة العشرين منها، ثمّ سرعان ما تحوّل الخبّ إلى هرولة متسارعة قبل أن تشرع في العدو بقفزات واسعة مثل الخيول.. شعر آدم بالهواء البارد يلفح وجهه وهو يتشبّث بعنق العظاية الغليظ، وانتابه شعور مُسكر بالإثارة، سيكون التقدّم أسرع بكثير من المشي، وربّما خلال ساعات قليلة سيكونون عند مدخل الكهف.

اندفعت العظايات عبر السّراديب الرّطبة، تخدش مخالبها الحادّة الحجارة الكلسيّة تحتها، امتدت أنفاسها الهامسة في الظلمة مثل أصداء خافتة.. حين اجتازت ستارة الطحالب الفاصلة بين عالم الأعماق وعالم السّطح، تباطأت خطواتها كأنّها تستشعر الهواء الغريب وتتشمّم آثار الـ«مادرا» التي تسمّم الجوّ من حولها، وحين لاحت أمامها الجدران الموشّحة بطبقة خافتة من المادة المتوهجة، كبحت الكائنات جماحها فجأة.

توقّفت «كوز العسل» مطلقة نفيرًا جديدًا، فحشرجت الأخريات وهنّ يتوقّفن بدورهنّ، ارتجفت أجسادها الصّلبة، وتسلّل الفزع إلى أعينها الذهبيّة.. انكمشت في أماكنها، تنتفض أذيالها الثقيلة على الأرض في قلق، وارتفع منها صوت خافت أشبه بهسهسة الرّياح بين الشقوق.

نزلت روان عن مطيّتها، واستدارت لتنظر في حدقتيها بعينين مطمئنّتين، أسندت جبينها إلى خطم العظاية الأمّ، ومدّت يدها بحذر تمسح رأسها وعنقها، تهدّئ من روعها، العظايات الفزعة خطرة وغير متوقّعة.. همست بصوت ناعم، بالكاد يسمع:

«بسم الله... لا تخافي... ستكونين بخير...»

رفعت العظاية رأسها، تراقبها بعينين متردّدتين، لكن صوت روان كان كخيط ضوء يتسلّل إلى قلب الظلام، تابعت همساتها، تردّد الآيات في خشوع رقيق، وكأنّها تغزل بها طمأنينة سريّة في نسيج الهواء، يجهل آدم إن كان وعد روان حقيقيًا، لو أنّ الـ«مادرا» لا تؤذي كائنات الأعماق، لما اختارت الانسحاب إلى جحور الظلام.. لكنّها أكثر كائنات الأعماق مرونة وتحمّلًا، ستكون بخير، لبعض الوقت على الأقلّ.

تحرّكت «كوز العسل» أخيرًا، بثقلها الهائل، تضع قدمًا تلو الأخرى على الأرض المكسوّة بالمادّة المتوهّجة.. تبعتها العظايات الأخرى، تزحف في خطوات حذرة. لم ترفع روان صوتها، بل تابعت تلاوتها برقة مثل دعوة مفتوحة لعبور الباب الخفيّ إلى عالمها، لا تزال جميعها داخل الكهف، إلا أنّ الانتقال من الظلام الدّامس إلى بريق حجارة الشّمس كان مربكًا للزّواحف الضّخمة، وقريبًا سيكونون على السّطح.

ابتسمت المعالجة الشابة، وواصلت الهمس، فيما كانت الزواحف تتقدّم خلفها واحدة تلو الأخرى، كقافلة مأخوذة بسحر النور الخافت المنبعث من الجدران.

***

ساقت ريحان ياسر أمامها عابرة المسافة القصيرة التي تفصل باحة المدرسة عن المشفى، تحت زخّات المطر، حدجها الحرّاس بنظرات متعالية، ولم يقطع طريقها أحد.. صارت حال ياسر مألوفة لديهم.. «الولد المصدوم»، هكذا يعرفونه، وهي راعيته الصّغيرة، تأخذه إلى المعالجة مارتا التي تحاول أن تبثّ في جسده الصّغير شذرات الـ«مادرا» الشّافية، لكنّه يستمرّ على حاله، لا يستجيب لأيّ من محاولاتها!

قالت مانويلا بلطف وهي تربّت رأس الولد:

- ما به داء نفسيّ لا جسديّ!

لا تعي ريحان ما يعنيه ذلك، فتضيف مانويلا:

- روحه عليلة!

تتلو الفتاة آيات من القرآن في أذنيه، وتلاعبه خلال الفسحة التي يُسمح لهما بها بعيدًا عن المهجع الجماعيّ المزدحم، حيث البكاء لا ينقطع لأطفال يطلبون آباءهم وأمهّاتهم الذين فصلوا عنهم، تضطرّ ريحان كثيرًا إلى فضّ النّزاعات وتطييب الخواطر وهدهدة الرّضع، مثل أطفال كُثر نضجوا قبل الأوان، لمجرّد أنّهم أكبر الموجودين في الجوار.

تحدّق ريحان في خصلات مانويلا اللامعة ذات اللّون الأحمر الأخاذ، ثمّ تمدّ أصابعها بحذر لتلامسها، فيما تغنّي الشابة بصوت عذب كلمات غريبة من لغتها لتسلّي الطفلين.. تعرف ريحان اللّون الأصفر البلاتينيّ الشاحب

الذي يغطي هامات الـ«آم» كلّهم، ما عداها وأبيها، فقد ورثت عنه شعره الغامق الذي يقترب من السّواد، وكذلك شعر آدم الشبيه بلحاء الشّجر.. تلك ألوان مألوفة، إلا أنّ اللّون الذي يغطي رأس الشابّة الغريبة مغرٍ وجذّاب لمدى أبعد، لا تكاد عينا ريحان تتركان جوار مانويلا كلما حضرت في بناء المشفى.

تذكر لقاءهما السّابق على السّفينة، أبدت الشابة وقتها وجهًا ودودًا، لكنّها استغلتها. غير أنّ الطفلة قد صفحت عنها منذ أمد بعيد، منذ أطلقت أخاها وتركته يرحل. تعود العلاقة بينهما إلى الوضع الخام لغريبتين تلتقيان بلا مشاعر مُسبقة، وقد بدا لريحان أن تتعاطف مع الشابة اللطيفة المريضة، كان يجب أن تمقتها، كما تفعل خلود، فقد تسبّب قومها في كلّ الدّمار والقتل الذي يعيشه الـ«آم»، لكنّها تجدها «أجمل» من أن تُكره، وألطف من أن تُسبّب الأذى.

من حين إلى آخر، تقطع مانويلا غناءها وتحدّق في عيني الطفلة بحنوّ، في اعتذار صامت، وفي أحيان أخرى تنسى إحداهما أنّ كلتيهما «أسيرة» بشكل ما، وتتحادثان لساعات.

- أنت فتاة قويّة.

تهمس مانويلا بلطف، فتهزّ ريحان كتفيها.

- أنا لستُ قويّة، لكنّني لا أملك خيارات كثيرة.. إن لم أعتن بهم فمن سيفعل؟

- هل هو شقيقك؟

تحرّك ريحان رأسها نافية:

- أشقائي أكبر منّي سنًا.. مروان مُسخِّر، أنت تعرفين! وروان معالجة.. لقد اختفت ولا نعرف بعد شيئًا عمّا أصابها.

تذكر مانويلا المُسخِّر الذي أنقذه آدم، والمعالجة أيضًا.. تلك التي قفزت إلى الماء وطاردتها الطلقات، تبتلع الكتلة اللا مرئية في حلقها وتلتزم الصّمت.

- هل لديك أشقاء؟

استجمعت مانويلا شتات نفسها، وهمست بصوت مبحوح بسبب الغصّة:

- لديّ شقيق واحد، لم أره منذ سنوات.. منذ انفصال والديّ، يعيش كلاهما في بلاد مختلفة.

- لا ينفصل الـ«آم» كثيرًا.. لكنّ ذلك يحدث في حالات نادرة، حين يرتكب أحدهم حماقة كبيرة، فيقرّر المجلس الفراق بين الزّوجين.

استمرّ السّكون بضع لحظات أخرى، قبل أن تقول مانويلا:

- حين ينتهي كلّ هذا.. حين تضع الحرب القائمة أوزارها، هل يمكننا أن نكون صديقتين؟

- نحن صديقتان!

قرأت ريحان المفاجأة في عيني مانويلا أمام العفويّة والبساطة التي نطقت بها الكلمتين، ثمّ اندفعت الشابة تضمّها إلى صدرها، تضرّجت وجنتا ريحان للتّقارب غير المسبوق بين جسديهما، ثمّ سألتها:

- هل ستبقين، حين يرحل قومك؟

مرّة أخرى، توقّفت مانويلا دهشة لليقين الذي غلّف نبرة الطفلة.

كانت ريحان تعرف أنّهم سيرحلون، قريبًا، لم تشكّ في ذلك لحظة واحدة، لا يمكن أن يستمرّ الألم إلى ما لا نهاية، هي تعرف أنّ المخلّص والمسخّرين الأبطال سيفعلون شيئًا لردّه، إنّها مسألة وقت لا أكثر، وإلا فكيف تتواصل الحياة؟

حين ينقطع المطر، سيكون الدّخلاء قد غادروا، وسيبدأ موسم البهجة من جديد.

- هل تسمحين لي بالبقاء؟

أومأت الطفلة بحرارة.

- إذًا.. أودّ أن أبقى!

***

دخل عمّار مبنى المشفى تلك الظهيرة، ووقف عند العتبة يقطر ماءً، فهرعت ريحان إلى حضنه فور رؤيته، لم يجتمع أفراد العائلة منذ تلك اللّيلة الكئيبة، فقد فرّق المحتلّون النّساء والأطفال عن الرّجال البالغين وفرضوا عليهم نظام حياة متعسّفًا، لذلك فقد كان لقاء عمّار بابنته استثنائيًا.. ربّت رأسها وسألها عن الأحوال بكلمات متعجّلة، وأجال بصره في المكان في حذر.

بإذنٍ من مايك راسل تجوّل في القرية ذلك النّهار، يستقطب المتطوّعين للرّحيل إلى «مهافيا دياما» ظاهريًّا، ويبحث عن المرشّح المثاليّ للمهمّة الخطرة التي ينوي تكليفه بها. المسخّرون سجناء على متن السّفينة، يلزمه أن يُرسل الشخص المناسب لتحريرهم، اضطلع آدم بالمهمّة في المرّة السّابقة، لكنّ غيابه يفرض معاينة خيارات أخرى.

لمح ظلّ مانويلا في إحدى الغرف، عرف عن طريق الهمسات التي تناهت إليه في أثناء جولته لجمع الأخبار أنّها تقيم في المشفى، أشارت مارتا برأسها نحو غرفة داخليّة مغلقة الباب، ففهم أحدهما الآخر دون كلمات.أ تلك كانت غايته الحقيقيّة من الزّيارة، خلال حديثه إلى داريو في وقت سابق ذلك النّهار، أشار الفتى إلى هبة ماهر حديثة الاكتشاف، وإلى اختبائه في المشفى دون خطّة واضحة.

تبعته ريحان مثل ظلّه وقد اعترتها الإثارة.

- أحتاج إلى الحديث لماهر.. وحيدًا.

همس عمّار لابنته كي تغادر الغرفة، فتراجعت وقد علت محيّاها الخيبة، حين خلت الغرفة إلا منهما، استدار إلى الفتى بنظرة أبويّة مطمئنة.. بدا ماهر على وشك البكاء، رغم النظرة الأبيّة التي تجلّت في مقلتيه والاعتداد الشّامخ في وضع كتفيه ولغة جسده، لم يكن إلا فتى نضج جسده قبل الأوان، وغدا مبكّرًا في مصافّ الرّجال، وهبته الحديثة زادت الطين بلّة.

- دعنا نر ما الذي تجيد عمله.

راقبه عمّار في الدّقائق التالية يطبّق ما لقّنته إيّاه المعالجة العجوز سرًّا، لم يكن عمّار مُسخِّرًا، لكنّه درس الـ«مادرا» بشغف واهتمام سنوات، ويملك بشأنها نظريّات -مثلما يفعل بصدد كلّ شيء آخر في الجزيرة- وقد ساعد ابنه مروان على تحفيز قدراته في السّابق، لذلك كان مؤهّلًا أكثر من غيره من الأفراد غير المُسخِّرين لإفادة الشابّ.

بعد ساعات من التّدريب، مال عمار نحوه، وخفض صوته وكأن الجدران قد تصغي:

- أنت تبلي بلاءً حسنًا.. وربّما تغدو في وقت قريب في مستوى مروان ابني!

ثمّ أضاف باللهجة الحذرة نفسها:

- أنا بحاجة إليك في شيء، ماهر، الأمر خطير، لكنه قد يكون فرصتنا لإنقاذ الجميع...

شدّ الفتى قبضتيه والتمعت في عينيه نظرة حماس:

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- مايك سيضع قوارب على الشاطئ ويعرض على كلّ من يرغب المغادرة أن يركب! أريدك أن تنضم إلى المتطوّعين.. وتنتظر اللحظة المناسبة لإنقاذ المُسخَّرين الذين ما زالوا في قبضته..

لا تتضمّن خطّة عمّار تفاصيل كثيرة، لو أمكنه الوصول إلى أوران، الذي سبقت له زيارة السّفينة، فربّما يوفّر معطيات أكثر، شوهد المسخّر الشابّ في الطّرقات، لكنّه محتجز تحت حراسة شديدة، مقيّد المعصمين. سيضطرّ ماهر إلى الارتجال والتصرّف بمفرده، وهي مسؤولية ثقيلة بالنّسبة إلى ولد في سنّه. صمت ماهر لثوانٍ، وعيناه تشعان بالتوتّر والخوف، لكنه كان يعلم أنه إذا لم يُقدم على شيء ما، فلن يفعل أحد، ابتلع ريقه وأومأ ببطء:

- سأفعل ذلك!

وضع عمار يده على كتفه، نظر إليه بحزم، ثم قال:

- تذكّر، أنت لست وحدك، كن حذرًا، ولا تستخدم قوتك إلا متى حان الوقت، لا نريد أن نخسر ما نخطط له بسبب التسرّع!

أومأ ماهر بقوّة.

كلّ ما أمامهم الآن هو انتظار توقّف المطر.

(29)

اليوم التاسع والعشرون بعد الثلاثين

توقّفت العظايات في الممرّ الضّيق، تُطأطئ رؤوسها وتهزّ ذيولها في اضطراب، تقف إحداها وراء الأخرى ويلتصق بعضها بالجدران، بعد أن زالت رهبتها من الـ«مادرا». قفزت روان عن مطيّتها يتبعها آدم وهرولا باتّجاه السّيّدات المقاتلات اللّواتي خلّفاهما عند الجدار المتهدّم منذ ما يزيد على الأيّام الثلاثة، وإن لم يكن أحدهم يقدّر الوقت بدقّة.

تحت الجدار، تداعت نساء الـ«آم» مرهقات، يصدر عنهنّ أنين متقطّع، كأنّهنّ ينازعن الموت، هتف آدم في جزع، فيما تنحني روان لتعاينهنّ واحدة إثر الأخرى:

- ما الذي أصابهنّ؟

- إنّه تأثير الـ«مادرا» المركّزة! لا يُفترض بأحد غير المُسخّرين والمعالجات دخول الكهف.. أظنّ أنّ لهذا المنع سببًا وجيهًا!

مرّرت روان أناملها على الرّؤوس والصّدور، فأخذن يفقن واحدة إثر الأخرى وهنّ يعانين الصّداع وضيق النّفس، همست شابّة وهي ترفع يدها لتشير إلى عمق الممرّ:

- لقد رأيت هلاوس كثيرة.. لكنّ هذه تبدو حقيقيّة تمامًا!

ردّدت أخرى مؤيّدة:

(29)

اليوم التاسع والعشرون بعد الثلاثين

توقّفت العظايات في الممرّ الضّيق، تُطأطئ رؤوسها وتهزّ ذيولها في اضطراب، تقف إحداها وراء الأخرى ويلتصق بعضها بالجدران، بعد أن زالت رهبتها من الـ«مادرا». قفزت روان عن مطيّتها يتبعها آدم وهرولا باتّجاه السّيّدات المقاتلات اللّواتي خلّفاهما عند الجدار المتهدّم منذ ما يزيد على الأيّام الثلاثة، وإن لم يكن أحدهم يقدّر الوقت بدقّة.

تحت الجدار، تداعت نساء الـ«آم» مرهقات، يصدر عنهنّ أنين متقطّع، كأنّهنّ ينازعن الموت، هتف آدم في جزع، فيما تنحني روان لتعاينهنّ واحدة إثر الأخرى:

- ما الذي أصابهنّ؟

- إنّه تأثير الـ«مادرا» المركّزة! لا يُفترض بأحد غير المُسخّرين والمعالجات دخول الكهف.. أظنّ أنّ لهذا المنع سببًا وجيهًا!

مرّرت روان أناملها على الرّؤوس والصّدور، فأخذن يفقن واحدة إثر الأخرى وهنّ يعانين الصّداع وضيق النّفس، همست شابّة وهي ترفع يدها لتشير إلى عمق الممرّ:

- لقد رأيت هلاوس كثيرة.. لكنّ هذه تبدو حقيقيّة تمامًا!

ردّدت أخرى مؤيّدة:

- هل ترين الـ«تانين»؟ ظننت أنّ خيالي وحده يجسِّدها!

شهقت أخريات، وهنّ يؤكّدن هلاوسهنّ المشتركة، حتّى قالت روان:

- هذه ليست خيالات.. بل هي «تانين» حقيقيّة!

ساد السّكون فجأة إلا من خرخرة العظايات التي تتململ في أماكنها.. تُصدر أصواتًا عميقة، كأنّها أصداء قديمة تتحدّى التاريخ والزّمن، فترتجّ لها العظام قبل أن تلتقطها الآذان.. اتّسعت الأعين، وتقطّعت الأنفاس، وقفت النّساء متجمّدات عند حافة الممرّ، وقلوبهنّ تخفق بمزيج من الرّهبة والخشوع. كانت تلك الكائنات من نسج الأساطير، تهمس بها الأمهات في التّهويدات والتّحذيرات، وتُرسَم بحبر باهت على السّجّاد والجدران. إلا أنّها لم تُرَ من قبل.. حتّى هذه اللحظة.

جثت بعضهنّ على ركبهن مذهولات، وتمسكت أخريات ببعضهنّ، حائرات بين الفرار أو السّجود. لم تُعِدَّ القصص المتوارثة جيلًا بعد جيل أحدًا لمثل هذا المشهد.. للمستحيل حين يتجسّد، لوميض الحراشف اللامعة كالحجر المبلّل، لرائحة الأرض التي نبشتها حوافر أقدم من الزّمن نفسه!

ثمّ تعالت الهمسات المتيقّنة: المُخلِّص أيقظ الوحوش الأسطوريّة وأخرجها من ثنايا الأعماق!

تقلّصت ملامح آدم في ضيق، لم يكن يفقه كلماتهنّ الآراميّة، لكنّه يميّز كلمات مثل «نافيا»، فكثيرًا ما يشار إليه بالـ«نافيا» الجديد، وهو يدرك الآنّ أنهنّ ينسبن إنجاز ترويض العظايات العملاقة إليه.

حين فرغت روان من إيقاظ رفيقاتها وعلاجهنّ، استدارت إليه وأشارت برأسها، كان دوره قد حان.

وقف آدم وحيدًا أمام الجدار الحجريّ وسحب نفسًا عميقًا، أشار إلى روان ورفيقاتها، فتراجعن داخل الممرّ، واحتمين خلف العظايات الضخمة، بعد حين، حالما ينتبه رجال مايك إلى حضورهم، سينطلق الرّصاص في وجوههم دون تردّد، كما استغلّ عنصر المفاجأة منذ أسابيع ليغرق «الأسطورة»، عليه أن يفعل بالمثل اليوم.. حالما ينقشع غبار الانهيار، يجب أن تُغير فرقة الرّاكبين على ظهور الزّواحف العملاقة في هجمة شرسة ومباغتة.

شعر بطاقة الـ«مادرا» تتجمّع عند أطراف أصابعه، وما إن أغمض عينيه حتّى نبض الخيط الحليبيّ تحت جفنه، فسحبه بعزم، كان عليه أن يوجّه الضربة بدقّة ليفتح ممرّا خلال الجدار.. لا تزال عمليّة التّسخير لديه عشوائيّة وغير محكمة، لكنّه يجتهد ليكون أكثر انضباطًا في كلّ محاولة.

انطلق وهج النّور إلى الأمام مثل تيّار جارف ضغط الحجارة فتناثرت ليحفر عبرها فتحة آخذة في الاتّساع، لا يأمن أن تؤدّي الضربة الجديدة إلى مزيد من الانهيارات عبر الكهف، لكنّه يأمل ألا تسدّ أمامه مزيدًا من الطرق.. توقّف لاهثًا وحدّق في عمله فيما ترتفع سحب الغبار اللامع حوله، جاءت روان لتقف إلى جواره، ودون انتظار، راحت تمسح على رأسه وكتفيه، تحسّبًا، قاوم آدم الدّوار والإعياء المباغتين، واستسلم للمسات روان العلاجيّة، لم يكن وقت الإغماء والرّاحة، فأمامهم مهمّة عاجلة على الجانب الآخر!

- تبدو فتحة مناسبة!

همست روان، ووافقها آدم بهزّة من رأسه، عبر الفراغ يظهر الجانب الآخر من الكهف جليًا رغم غبار الـ«مادرا» المتناثر مشبعًا الهواء، بسرعة، تراجعا إلى حيث تنتظرهما الفرقة، همست روان للعظايات من جديد، ثمّ امتطى كلاهما دابّته.. وأعطى آدم إشارة الانطلاق.

زمجرت الزّواحف وهي تخطو فوق الـ«مادرا»، ثمّ حشرت أجسادها الضّخمة عبر الفتحة واحدة إثر الأخرى، تتبعها مشيًا المقاتلات المدرّعات، تقاوم الفتيات ذعرهنّ من الكائنات العملاقة ببسالة ويتحرّكن بين سيقانها الخشنة بحذر فيما يبقين أسلحتهنّ جاهزة.

على الجانب الآخر من الممرّ، وقف العمّال المشغولون بنقل حجارة الشّمس يترقّبون بعد أن تصدّع الجدار أمام أعينهم وتفتّت، توقّفوا عن العمل وحدّقوا خلال الغبار ينتظرون بلهفة بروز المُخلِّص والمحتجزين معه خلف الرّدم.. إلا أنّ ما ظهر أمام أعينهم كان مشهدًا مذهلًا وحابسًا للأنفاس.. كأنّ أبواب السّماء فتحت وانفلتت عبرها كائنات أسطورية هائلة!

تراجع الرّجال وهم يطلقون شهقات رعب، فيما وصل الحرّاس المسلّحون يستطلعون أمر الضّوضاء العارمة، مضت لحظات من الشلل التّام، قبل أن يستعيد المرتزقة تركيزهم، ويميّزوا الأشخاص الذين يقودون الزّواحف، فتراجعوا مذعورين وركضوا خارج الكهف، لم يجرؤ أحدهم على إطلاق رصاصة واحدة وقد كبّلهم الفزع، فكان أولى إعلام القائد بالمفاجأة العظيمة.

واحدة إثر الأخرى، تقدّمت العظايات بحذر عبر ممرّات الكهف مثل أسطول عظيم زاحف، ورافقتها هتافات تشجيع من أفواه العمّال الذين أدركوا أنّ المُخلِّص قد عاد وبرفقته المساعدة الموعودة.. من فوّهة الكهف

عبرت الزّواحف الضّخمة نحو النّور والمطر، لعلّ إضاءة الـ«مادرا» داخل الكهف هيّأتها لملاقاة الضّوء الفاتر تحت الظلة، إلا أنّها توقّفت برهة تلتقط موجات غريبة عنها، لم تألفها في عتمة الأعماق، ولعلّ الإضاءة أعشتها لبضع ثوانٍ قبل أن تستعيد توازنها وتميّز الأشكال والموجودات من حولها، وتتشمّم الهواء المفعم برائحة الأمطار الغزيرة التي تستمرّ منذ أيّام بلا انقطاع، محوّلة الجزيرة إلى أرض موحلة مشبعة بالماء.

مسحت روان على عنق سحليّتها وهمستْ، فانصاعت الدّابة وواصلت تقدّمها بحركة مهيبة مصدرة زئيرًا عميقًا كالرّعد وسط العاصفة، وبها اقتدت القافلة. خرجت العظايات وانتشرت عبر طرقات الجزيرة تطأ برك الماء وتستقبل الزخّات المنعشة التي تتساقط على ظهورها، ومن خلفها غادر العمّال الكهف في هبّة واحدة وقد غمرهم إحساس القوّة.. لم يظهر المسلّحون على الفور، فقد فرّ حرّاس الكهف لنشر خبر المشهد الأسطوريّ، إلا أنّ المرتزقة متفرّقون عبر مواقع الحراسة المختلفة، ولا يملكون تقنيات اتّصال آنيّة شبيهة بأبواق الـ«آم».. لذلك حين وصل الموكب المهيب إلى مركز القرية، قابلهم نفر يسير من المسلّحين المشتّتين.

أطلق مايك وأدولف وخمسة رجال آخرون رصاصهم تجاه الزّواحف وراكبيها بكثافة، فتفرّق الرّجال العزل للاحتماء بالمباني، فيما نخرت العظايات وقد أثار الصّوت الرّهيب ذعرها وتراجعت خطوات، مالت روان على عنق دابّتها وهمست مجدّدًا، يخترق صوتها الدّافئ طبقات الخوف، فاستكانت وتابعت الزّحف.. ارتفعت صرخات المرتزقة الوحشيّة من حولها والعظايات تشقّ صفوفهم باندفاع، توقّفت «كوز العسل» حين اخترقت رصاصة حراشفها واستقرّت داخلها.. تملّك روان القلق وهي تنحني لتمسّد مكان الإصابة، تستكشف متانة خطّتها واعتمادها على

حصانة الـ«تانين» ضدّ الرّصاص، لكنّ العظاية لم تُبد تأثّرًا بالإصابة.. ربّما لم تشعر بأكثر من حكّة بسيطة، إلا أنّها استشاطت غضبًا فزمجرت وكشّرت عن أنيابها وازدادت هياجًا.

أدرك المرتزقة أنّ إطلاق النّار على الزّواحف الضخمة ليس من ورائه طائل، إلا أنّ إصابة الرّاكبين اللذين يرتديان الدّروع المعدنيّة والخوذات الفولاذيّة ويختبآن خلف أمان الأعناق السّميكة التي تذبّ عنهما الرّصاص لم يكن بالأمر الهيّن.. كان رجال مايك يستنفدون الذخيرة دون إحراز نتيجة تُذكر. لم تنفث الدّوابّ النّار حسب أسطورة نوح، لكنّ ذيولها لوّحت في الهواء لتطيح بالرّجال وأقدامها رفست الأرض فحطّمت المعدّات التي خلّفها الفارّون الجبناء وفكوكها المزوّدة بأنياب مسنّنة حادّة انتزعت الأسلحة من أيدي أصحابها مرفقة بأشلاء لحم دامٍ.

ثمّ جاءت الرّصاصات من الخلف.

انضمّ المرتزقة الماثلون عند المشفى والمخزن والمدرسة لتنظيم الأشغال على الجزيرة بعد أن وصلهم صوت إطلاق النّار.. سقطت اثنتان من متدرّبات روان وقد كنّ الأكثر عرضة للأذى لموقعهنّ في مؤخّرة الرّكب، لكنّ الدّواب سرعان ما توزّعت وانتشرت لتطارد القادمين الجدد، نخرت عظاية روان وهي تغرس أنيابها الحادّة في ذراع أحد الرّجال وتستأصلها من الكتف، فولول وانكفأ على وجهه وجرحه ينزّ دمًا، لتطأه الأقدام العريضة وتسمع لتكسّر عظامه طقطقة عالية وسط الزّخم.

حين أبصر المرتزقة المشهد الدّامي ارتجفت منهم الأرجل والأيادي، فأسقط بعضهم سلاحه وولّى مدبرًا، لكنّ أدولف ثبت في مكانه، واستمرّ يقنص «سراب الليل»، العظاية التي يركبها آدم، في إصرار وعناد.. استقرّت الرّصاصات واحدة إثر الأخرى في أرجل الزّاحف العملاق وعنقه ورأسه،

لكنّها لم تحدث أدنى خدوش ظاهرة ولم توقف تقدّم الدّابة الغاضبة، حين صارت أمام أدولف مباشرة، رفعت العظاية أقدامها الأماميّة في الهواء وأطلقت نخيرًا حادًّا جعلت رجل العصابات يتراجع حتّى فقد توازنه وسقط إلى الوراء. حدّق في ذهول إلى الأقدام المسطّحة ذات المخالب وهي ترتفع فوق رأسه، فأطلق الرّصاص بجنون نحو المساحة المكشوفة أسفلها حتّى نفدت ذخيرته. بعد ذلك، سقطت العظاية فوقه بكلّ ثقلها وقد نفذت الطلقات عبر الجلد الأملس الذي يغطي باطنها.

لم تنهض العظاية المصابة، بل ناخت وأطلقت أنينًا مؤلمًا، فيما اختنق أدولف تحت وزنها، تشنجّت أطرافه وتحرّكت في كلّ اتّجاه وهو يحاول دفعها عنه، ثمّ ما لبث أن استسلم للسّحق المستمرّ وخفتت حركته حتّى انطفأت.

تشبّث آدم بعنق العظاية الهائجة وقاوم السّقوط مع تشنّج حركتها وترنّحها، وحين هوت أخيرًا انزلق عن ظهرها وتلفت حوله، لم ير أيًا من الرّجال المسلّحين في مرمى بصره.. كان مايك قد أمر رجاله بالانسحاب نحو المرفأ حيث تنتظرهم قوارب النّجاة، بعد أن فاجأهم ظهور كائن لا قِبل لأسلحتهم به. خلال ثوانٍ لم يعد أيّ منهم يُرى في الجوار، ألقى آدم نظرة آسفة على وجه أدولف الذي استحال أرجوانيًا محتقنًا يميل إلى السّواد، بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة مسحوقًا، ثمّ مسح بحنوّ على رأس العظاية التي أدّت مهمّتها حتّى الرّمق الأخير.

قفزت روان عن ظهر عظايتها وهرولت لتعاين إصابات رفيقاتها، فيما تجمّع الأهالي ليرقبوا العظايات العملاقة في مزيج من الإعجاب والرّهبة، تلك الحيوانات الضّخمة كانت سبيلهم للنّجاة وسلاحهم السّريّ في مواجهة العدوّ الغاشم.

تلفّت آدم في حرج، لقد اعتمد على روان حتّى تلك اللّحظة للسّيطرة على العظايات وتنظيم صفوفها، لكنّ المعالجة مشغولة بمهامّها في علاج البشر، فيما يتطلّع العامّة تجاهه، يتصاعد القلق في داخله تحت وطأة العيون الغائرة والأفواه المفغورة، التي يجسّد في نظرها أسطورة المُخلِّص مروّض التنانين. دعا ألا تخذله «كوز العسل» وألا تخرج العظايات عن السّيطرة في ساحة مليئة بالخلق. استجمع شجاعته وتذكّر ما تعلّمه من روان عن الهمس، فاقترب من العظاية الكبيرة متوجّسًا، أخذ يهمس بالآيات القرآنية وهو يمسح بطلف على جلدها الرّطب بعد أن بلّلتها الأمطار المستمرّة.. لا يمكن لتلك الكائنات أن تبقى طليقة على «آرا» والسّكان غير معتادين على حضورها، كما أنّه يجهل مدى مناعتها أمام تأثير الـ«مادرا» وكم من الوقت ستصمد قبل أن تظهر عليها الأعراض. إذًا لا مناص من إعادتها إلى الكهف، حيث موطنها وملجأها الآمن.. وإذا احتاج إلى الوصول إليها مرّة أخرى، فقد بات يعرف أين يجدها.

قفز آدم على ظهر العظاية محاذرًا، ثمّ همزها برجليه فنخرت بصوت صاخب يمزّق السّكون، وتحرَّكت.. ومن ورائها أطاعت العظايات النّداء لتسير في قافلة مهيبة نحو مدخل الكهف، مخلّفة جثّة «سراب الليل» الضخمة تنهل من ماء المطر.

***

وصل الدّكتور كريس إلى الشاطئ الفضيّ بعد ساعات من عبور البحر الهائج تحت سماء سخيّة، لحظ أنّ الرّحلة امتدّت أطول من سابقتها، ولم تسدهم الرّياح معروفًا، فاستمرّت تدفع الزّورق المطاطي إلى الوراء تصدّه عن بلوغ الجزيرة. تضرب قطرات الماء المتدفّقة من أبواب السّماء فوق خوذته وتحجب عنه الرّؤية، فيما يرتدي الرّجال المرافقون له بدلات

غطس دون أقنعة، مستسلمين للماء من فوقهم وتحت أرجلهم.. مرارًا في أثناء الرّحلة، اضطروا إلى التّوقّف عن التّجديف لإفراغ القارب من مياه الأمطار المترسّبة التي تثقل الحركة وتهدّد بإغراقهم.

إن كان هناك سبب يدعوه لتجديد الزّيارة إلى الجزيرة، فهو فضوله تجاه مصير الشّابة الصّهباء التي أسلمها إلى قدرها منذ أيّام. فكّر أنّها لم تمت بعد، لو أنّها فعلت ربّما كان مايك راسل ليقطع الرّحلة ويعود أدراجه إلى الدّيار ليشيّع ابنته إلى مثواها الأخير. مات الرّجل الذي فقد رجليه بالأمس، لكنّ اليخت لم ينطلق قط نحو الحضارة، وقد يتبعه الثاني في القريب، لكنّ ربّ العمل لم يُحرّك ساكنًا. تساءل كريس إن كان سيهتمّ لو كانت ابنته مكان أحدهما، أم أنّ جشعه أكبر من ذلك؟ لم يكن واثقًا، أمّا السّبب الرّسمي لقدومه فهو تقديم الرّعاية الصّحيّة للرّجال الذين أخذت أعراض غريبة تظهر عليهم.

تجاوز عتبة المشفى، فصرخ مرافقوه لاستجلاب انتباه القابعين بالدّاخل، ظهرت سيّدة متقدّمة في السّنّ بملامح متجهّمة، تأمّلها كريس في اهتمام وقد انتابه حدس بأنّها معالجة الجزيرة، ثمّ جاءت من ورائها شابّة صهباء تشعّ قسماتها عافية. فغر كريس فاه ذهولًا وهو يتعرّف على مانويلا التي لم يرها إلا سقيمة! سمعها تترجم كلمات مرافقه:

- الطبيب جاء لمعاينة الرّجال المصابين.

ثمّ استدارت ناحيته، كان متنكّرًا داخل بدلته البيضاء، إلا أنّها لم تجد صعوبة في التّعرف عليه، فهل هناك من طبيب غيره؟ ابتسمت وهي تدعوه إلى الدّاخل:

- دكتور كريس.. كيف حالك؟

خطا نحو الغرف الدّاخليّة، ترقبه العيون العدائيّة أو الفضوليّة لسيّدات الجزيرة الحاضرات، أراد أن يسألها مطوّلا عن معجزة شفائها، لكنّه انصرف إلى المهمّة التي جاء من أجلها أوّلًا.. فحص الرّجلين الممدّدين في زاوية الغرفة، بعد أن رفضتهما المعالجة، كانا قد أمضيا وقتًا طويلًا قريبًا من مصدر الـ«مادرا» في الأيّام الماضية، يراقبان عمليّات استخراج «حجر الشمس» من الكهف، ثمّ ظهرت على جسديهما طبقة من البثور الحمراء المثيرة للحكة وأصيبا بالغثيان والإرهاق الشّامل ممّا جعلهما غير قادرين على الحركة.

تُذكّره الأعراض بمرض مانويلا، لذلك يدرك أنّ العلاج الحقيقيّ بين يدي المعالجة العجوز، وأنّ كلّ ما يمكنه تقديمه هو تخفيف الأعراض الظاهرة دون اجتثاث لأصل الدّاء، سقاهما مخفّفات الألم والغثيان، ثمّ استدار ليواجه مانويلا.

- ما لم تنقذهما السيّدة المعالجة، فلن يتعافيا.

أومأت مانويلا بنظرة منكسرة، لكنّها لم توجّه الطلب للمعالجة، حدّق فيها كريس برهة، ثمّ هزّ كتفيه.. ربّما على مايك راسل أن يقدّم مزيدًا من التّنازلات ليمنح العجوز مبرّرًا كافيًا لعلاج رجاله.

- إذا أراد والدك ألا يفقد مزيدًا من الرّجال، فيجب أن يطلق مساجينه الآخرين!

- هل يوجد مساجين آخرون؟

هتفت مانويلا في دهشة، هل اعتقدت أنّ كلّ شيء سينتهي حين تفرج عن سجينها؟ ابتسم كريس في مرارة، لن يفاجئه على الإطلاق أن يكون الرّجل الذي تظاهر مايك راسل بإطلاقه محبوسًا في مكان ما على الجزيرة.

تناهى إلى أسماعهم إطلاق نار في البعيد يكاد انهمار المطر يحجبه، رصاصة ثم ثانية، تبعها سيل من الرّصاص المزمجر مثل الصّواعق، ارتفع نحيب في الدّاخل، فهرعت إحدى السّيدات لتحتضن الولد والبنت المختبئين، تضمّهما إليها وتسدّ آذانهما عن أصوات الانفجارات المتكرّرة.. مضت أيّام منذ دوّت الطلقات آخر مرّة وعمّ الهدوء الشّامل، أمّا كريس فذلك أوّل عهده بالوجود قريبًا من خطّ النّار!

همست مانويلا تطمئنه:

- نحن آمنون هنا.

لقد كانت آمنة طوال الوقت، لأنّ رجال والدها يسيطرون على الجزيرة، ومن الواضح أن المعالجة قد عاملتها بلطف رغم ذلك. آمن كريس أنّ المستشفيات ستكون في معزل عن المناوشات مهما كان نوعها، بناء على الاتّفاقيات الدّوليّة.. إلا أنّ أيًا من قوانين العالم المتحضّر لا يُطبّق في «آرا».. وحتّى خارجها، حين تقرّر القوى السّياسيّة أن تصمّ آذانها وتغمض أعينها عن التّجاوزات.

تطلّعت مارتا من فتحة الباب، بعد أن ابتعد الرّجال المسلّحون الرّابضون باستمرار عند المدخل لاستطلاع الوضع عن كثب، لكنّها لم تميّز شيئًا، بعد حين رأت جماعات من قومها تندفع مطلقة صيحات حماسيّة تحت المطر، شهقت بخفوت، ثمّ تبادلت السّيدات نظرات غريبة.. تبادرت إلى الأذهان فكرة واحدة: تمرّد!

تململ كريس، لم يكن يومًا مناسبًا لزيارة الجزيرة، لم يهتمّ بالتّعاطي مع السّكان المحليين ولا يعنيه نشاط مايك راسل كثيرًا، لكنّ نبضاته تضجّ بالقلق مع ارتفاع الوشوشة الحماسيّة داخل المبنى.. أدرك أنّه سيشهد بعض الإثارة مُرغمًا.

حملت الرّيح صوت زئير وحشيّ ردّدت التلال الجيرية التي تحفّ القرية صداه، ومزّقت صرخات الرّجال المرتاعين الفضاء، لم يدر أحدهم أيّ الوحوش يرتع في الأرجاء، حتّى أقبل الرّجلان اللذان رافقا كريس منذ حين راكضين وعلى ملامحهما أمارات الفزع الشديد، صرخ أحدهما وهو يندفع إلى الدّاخل:

- انسحاب! انسحاب فوريّ! إلى السّفينة!

ارتبكت مانويلا، فيما هبّ كريس ملبّيًا النّداء، لم يكن شيء أحبّ إليه في تلك اللّحظة من الاختباء خلف الجدران المعدنيّة الآمنة لـ«سارا».

- ماذا بشأن الرّجلين المصابين؟

كانا عاجزين عن المشي بمفردهما، إلا أنّ الانسحاب يعني ألا يخلّفوا أحدًا وراءهم.

في الخارج، انتشر سكّان الجزيرة معلنين استعادة سيطرتهم على الأرض.

- إنّهم يقتربون! يجب أن نرحل فورًا قبل وصولهم!

لحظ كريس الارتجاف في صوت الرّجل، وغياب الأسلحة التي دائمًا ما كانت تتدلّى على أكتاف المرتزقة وفي أحزمتهم إن لم تكن في وضع الاستعداد بين أيديهم، رجال مذعورون وبلا سلاح، تلك أقصى حالات الخطر.. سحب مانويلا وهتف يستعجلها:

- يجب أن نرحل.. الآن!

تملّصت الشابّة وتراجعت خطوتين وهي تقول بحزم:

- سأبقى!

حدّق فيها غير مستوعب، هل تعتقد أنّها ستكون آمنة حتّى بعد فقدان والدها السّيطرة؟ هل ستدافع عنها المعالجة حين يندفع الرّجال الهمجيّون

للانتقام؟ سينهشونها بأسنانهم دون ذرة ندم، ولن يذود عنها أحد.. صرخ الرّجل من ورائه مجدّدًا وهو يكاد يفقد أعصابه:

- الآن! لم يبق أمامنا وقت كثير!

إن لم يتحرّكا، فقد يتخلّى عنهم المرافقون وينجون بحياتهم، ليسوا جنودًا ملزمين بضمير وقسم وعهد تجاه الواجب والوطن، بل مرتزقة يغريهم رنين الذهب وينقذون أنفسهم قبل الجميع حين تقتضي الحاجة.

- لن يرحل أحد!

فجأة، تحوّل الانتباه إلى الغرفة الدّاخليّة، حيث وقف ولد عابس بملامح جادّة. تكلّم وهو يرفع كفيه ببطء في الهواء، كأنّما يؤدّي طقسًا ما، ثمّ شقّت الهواء صاعقة ضاربة دفعت بكريس والرّجلين المجاورين له إلى الخلف، ليرتطم ثلاثتهم بالجدار ويسقطوا على الأرض مكوّمين بلا حراك.

***

خطا آدم نحو مبنى دار العبادة، حيث تجمّعت أعداد من الأهالي تهلّل لعودة المُخلِّص.. مشى إلى الدّاخل ليستقبله الحكماء بحفاوة منقطعة النظير، ثمّ توافد الـ«آم» زرافات بعد أن بلغهم الخبر العظيم، هرب المرتزقة الذين كانوا ينتصبون حرّاسًا لمراقبتهم، فتجرّأ بعضهم على استراق النظر من بعيد، ثمّ ما لبثت صيحات الفرح أن انطلقت من الأفواه معلنة رحيل المحتلّ مدحورًا.

لا يزال مرأى العظايات العظيمة يثير في نفوسهم الرّهبة، إلا أنّها مشوبة بتقدير ومهابة.. تلك الكائنات الأسطوريّة التي تظهر في الحكايات القديمة وتوشي زخارف السّجاد تحتلّ مكانة جليلة في قلوب الـ«آم»، إلا أنّ أيًا منهم لم يتوقّع أن يبصرها يومًا بعينيه، إنّه يوم المعجزات!

بعد وصلة المباركات والتحيّات، جاء وقت إحصاء الخسائر.. لم يحضر آدم الموقعة الكبرى حيث شنّ مايك هجمة جنونيّة وأمعن في القتل والذّبح، ربّما كان ليُطالب بتقديم اعتذارات وتبريرات بشأن موقعه وأسباب اختفائه، لكنّ المآلات المشرقة تغفر له زلات الماضي وتُعفيه من الشّروحات الطويلة، في تلك الأحداث، فُقِد نوح، والشيخ الجليل و«كوتانا» تافي، وآخرون.. العشرات منهم، دفنوا جميعًا في حفرة جماعيّة، تعهّد آدم بحرقة:

- حين يتوقّف المطر، سنقيم لكلّ منهم جنازة تليق به، وندفنه في قبر منفرد!

أومأ الحكماء موافقين، وارتفعت نهنهة هنا وهناك وقد هيّج حديث الفقد مشاعر الخذلان، أراد آدم أن يبكي معلّمه بدوره، إلا أنّ المهامّ العاجلة لا تنتظر، همس عمّار مقاطعًا فقرة الرّثاء:

- لقد أسروا المُسخِّرين!

تلك أولويّة صارخة، تحرير الأسرى.. مرّة أخرى.. لا ينسحب مايك راسل دون أن تظل بحوزته بطاقات إضافية تبقيه شامخًا على رقعة اللعبة.

- كلّهم إلا واحدًا!

استدارت الأعين تجاه أوران الذي وصل للتوّ، كان محبوسًا ومقيّدًا في مخزن الحبوب، دفعته الضّوضاء في الخارج إلى الاندفاع، فحطّم الباب بقوّة كتفيه رغم القيود، وانفلت تحت الأمطار ليُدرك لحظات الانفراج.. صافحه آدم بحرارة، ثمّ تلقاه الآخرون بأحضان دافئة ورطبة، وقد عمّهم البلل. كان آخر عهدهم به حين تعرّض للأسر على السّفينة الغارقة ورحل إلى العالم الخارجيّ مع ابنة المستثمر. تهامس بعضهم عن رؤيته في العتمة

يمشي محاطًا بالدّخلاء منذ بضع ليالٍ، لكنّها بقيت مجرّد شائعات لم تؤكّد، حضوره المفاجئ أودع في نفوسهم أملًا بتحرير بقيّة الأسرى.

- كلّهم إلا اثنين!

التفتت الرؤوس مرّة أخرى حين ارتفع صوت مارتا الفخور، ثمّ انشقّت الصّفوف ليظهر الفتى ماهر يدفع أمامه اثنين من المرتزقة المقيّدين، فيما يتبعهم عن كثب الدّكتور كريس في بدلته البيضاء بالإضافة إلى مانويلا. لم يكن هذان الأخيران مقيّدين، لكنّهما سارا في استسلام تحفّهما السيّدات ومتدربّات المشفى مثل فريق حراسة عتيد، ليقفا إلى جوار الأسرى، حدّق آدم في الوجوه مشدوهًا، ثمّ سأل:

- ماهر؟ أنت من فعل هذا؟

التمعت في عيني الفتى نظرة فخر أبيّة وهو يهتف:

- أنا مسخّر رماديّ!

غامر بالكشف عن قدراته أمام الغرباء قبل الأوان، لم يكن يدري إن كانت خطّة عمّار لا تزال قائمة، وإن كان يحتاج إلى الحفاظ على السّريّة بعد ذلك، لكنّ الموقف استوجب تدخلًا عاجلًا، وقد فعل.

ربّت آدم كتفه بقوّة، لطالما اعتقد أنّ الفتى موهوب ومميّز عن أقرانه، ويسعده أنّ ظنّه لم يخب.

أضاف ماهر:

- هناك رجلان آخران في المشفى.. لكنّهما غير قادرين على الحركة.

- جميل.. عدد كافٍ لطلب مبادلة الأسرى!

ثمّ اتّجهت عيناه إلى مانويلا ليرمقها بابتسامة شاحبة.

- رغم أنّ الفتاة وحدها تكفي لعقد الصّفقة.

نُقل الأسرى إلى المخزن، حيث كان المسخّرون محتجزين، ثمّ أوى السّكان إلى المباني القائمة يحتمون من المطر. جاء موسم التساقطات قبل الأوان، ممّا يجعل الحياة اليوميّة متعثرة والتنقّل لطلب المؤونة عسيرًا. في العادة تفي المحاصيل المخزّنة بحاجاتهم وتفيض، لكنّ معظمها قد أتلفه الدّخلاء. ستكون الأيّام القادمة صعبة، لكنّ الـ«آم» لا يفكّرون في ذلك بعد، حين يسترجعون أبطالهم ويلتئم شمل العائلات، سينشغلون معًا بأمور الحياة السّطحيّة.

سيبيتون تلك الليلة على وقع ترنيمة الأمل والمطر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(30)

اليوم السّتون

جلس آدم على أرضيّة القارب الخشبيّ وإلى جواره روان، وعلى الجانب الآخر يقبع أوران. يتذكّر رحلة مشابهة منذ نحو شهر واحد، حين انطلق ثلاثتهم للتّفاوض مع الغرباء، والآن، يتكرّر المشهد مع اختلافات جمّة! ينهمر المطر فوق المظلة المصنوعة من عرائش النّخيل ويقطر حولهم، وترافقهم مانويلا والطبيب الذي نزع بدلة الحماية بعد حصوله على حبوب الدّواء، لا يريدون له أن ينفق قبل أن يؤدّي دوره في التّبادل، لذلك يحافظون على حياته، في قارب ثانٍ يركب رجال مايك الأربعة مقيّدين.

في رحلته السّابقة تملّص آدم من دوره كمخلّص لـ«آم»، وادّعى الحياد ولعب دور العميل المزدوج، لكنّه اليوم يرتدي عباءة الممثّل الرّسميّ لسكان «آرا» دون رهبة أو تردّد.

ساد السّكون على امتداد رحلة العبور، لم يُسمع خلالها إلا صوت ضربات المجاديف على سطح الماء، وزخّات المطر التي تستمرّ دون انقطاع لليوم الخامس على التّوالي.

هاجمته نوبة جوع تلك اللّيلة، فجأة شعر وكأنّ جدار المعدة التصق بعضه ببعض، ومعه ارتفعت مرارة في حلقه كأن عصارتها وصلت الى فمه، ثمّ أصابه صداع شديد أعلى الرّأس، عندما حاول الوقوف، انتابته دوخة وعدم اتّزان، أسند نفسه إلى جدار دار العبادة وأغمض عينيه لبعض

الوقت، يحاول الدّم الوصول الى دماغه من جديد.. لم يفكّر بالأكل منذ أيّام، ولم يحصل على كثير داخل الكهف، فقد استولت على اهتمامه أشياء أكثر أهميّة، خلّف الرّاقدين على السجّاد الممتدّ ووجد طريقه إلى الخارج.

يعرف أنّ أيًّا من الـ«آم» لم يحصل على وجبة مُشبعة منذ أيّام، لكنّ أمامه بعض الوقت قبل رحلة الغد ليبحث عن أيّ شيء يؤكل، أليس هذا ما يفعله الجميع؟ يُدخلون جوفهم فتاتًا يصل المعدة فينتاب الجسم مؤشر مؤقت وكاذب أنّ الجسد يتغذّى، فتُكسر نوبة الجوع لفترة حتّى نوبة الجوع القادمة.

لا يعرف كيف نجح سكّان الجزيرة في تجاوز هذا الأمر، كيف يستمرّون شامخين وكأنّ سلاح الجوع لا يؤثّر فيهم! يمضغ ببطء أوراق الشّجر التي غسّلها من الغبار تحت المطر، ويقف هناك في صمت مشبع برثاء الذّات، ثمّ تأخذ العَبَرات تتناثر على وجهه فجأة.. يستحضر وجه نوح كما لمحه آخر مرّة، ملامحه الجادّة وعبوسه المزمن، يتذكّر لقاءهما الأوّل حين جاء لتقييم استعداده للتّسخير.. وكلّ المواقف التي تفصلهما، يتكاتف وجع الرّوح وانقباضات الجسد فلا يعود يميّز بينهما!

لكنّه قد عاهد نفسه -وعاهدها- ألا يوليها ظهره بعد الآن، مهما اشتدّت الأيّام حلكة، فليكفكف العبرات وليعد أدراجه تحت المطر. تسلّل بهدوء إلى غرفة المشفى، حيث تنام روان تلك اللّيلة، سار على أطراف أصابعه حتّى لا يوقظ الفتيات اللّواتي ينمن على الأرض في غرفة الخزين، وما إن استقرّت ذراعه فوق كتفها حتّى انتبهت، استدارت إليه في اهتمام وهمست:

- أنت مبتلّ!

جلست قبالته، ووضعت كفّها على وجنته، عرفت أنّه قد بكى رغم الرّطوبة التي تلفّ جسده كلّه، لكنّها لم تقل شيئًا، يملك كلّ واحد منهم سببًا وجيهًا للبكاء، لكنّه يخفي دموعه عن الآخرين، وليس المُخلِّص إلا بشرًا لا تستثنيه قاعدة الألم. وضعت رأسها بهدوء على صدره وأصغت إلى نبضاته المرتبكة، ثمّ همست مجدّدًا:

- سيكون كلّ شيء على ما يرام.

بعد أن كان كلاهما على مشارف الموت مرّات، في عرض البحر وداخل الكهف وتحت زخّات الرّصاص، لا يفترض بشيء بعد ذلك أن يخيفه.. لكن ها هو ذا يرتعد مثل ورقة في مهبّ الرّيح، ضمّها برفق إلى صدره وتنهّد، تلك الوعود السّاذجة لا تخدع أحدهما، سيكون عليهما مواجهة العدوّ بعد ساعات قليلة، وسيأمل أنّ الحظّ لا يزال إلى جانبه.

لاحت السّفن الجاثمة على الحدود مثل أشكال هلاميّة ضخمة في البعيد.

- سنتوقّف هنا!

أشار آدم إلى الملّاحين فأوقفوا التجديف، على تلك المسافة، كانوا آمنين من رصاص القنّاصة، أطلق آدم صفيرًا حادًّا ثمّ قال:

- سأذهب بمفردي للتّفاوض أوّلًا!

تكلّمت مانويلا بالإنجليزية:

- لقد رافقتكم لأتحدّث إلى والدي.. في الحقيقة لا أنوي المغادرة!

لم يلتفت إليها آدم واستمرّ يراقب الماء.

- أنت عنصر مهم من الصّفقة.. آسف مانويلا، سوف ترجعين إلى والدك.

- دعني أذهب برفقتك!

- لا، هذه مخاطرة، إذا وصلتِ إلى السّفينة، لستُ أثق أنّ مايك راسل لن يتخلى عن الآخرين.. لذلك، لا.. ستبقين هنا.

هتفت محتدّة:

- أنت اخترت البقاء، فلماذا لا أملك الخيار؟

ألقى عليها نظرة هازئة.

- هل تنسين من تكونين؟ أمّا عنّي، فإنّني أنتمي إلى هذا المكان.. نحن مختلفان! ثمّ، لا أفهم.. ما الذي يدفعك إلى البقاء؟ هل تشكو حياتك من شيء؟

حطّت عيناها عرضًا على أوران الذي لا يستوعب كلمة ممّا يقولانه، ثمّ أشاحت بوجهها وهي تقول بتهجّم:

- لديّ أسبابي!

ظهرت لولا أخيرًا وارتفع خطمها على السّطح. استدار آدم وابتسم لروان وهو يقول:

- سأعود سريعًا.. سنناقش أسبابك لاحقًا، مانويلا!

ثمّ قفز ليركب الأوركا ويبتعد في اتّجاه السّفينة، بدت لولا متوتّرة على غير العادة، شعر بقلقها وبحركتها المضطربة، تساءل إن كان الحوت ينزعج من العواصف والأمطار؟ ربّت جانبيها وهمس لها، كما تفعل روان، يحاول طمأنتها.

حين وطئت قدماه سطح السّفينة كان مبتلًا تمامًا، بسبب المطر والغطس مع الحوت، دون تردّد قاده البحّارة للقاء مايك راسل في مكتبه هذه المرّة.. تساءل إن كان المستثمر في انتظار قدومه، ربّما توقّع وصول تلك البعثة

للتّفاوض عاجلًا أم آجلًا.. ولعلّه كان ليرسل مبعوثه الخاصّ لو أنّهم تأخّروا قليلًا.

رمقه مايك بنظرة فاحصة لا تخلو من الإعجاب، قال أخيرًا:

- ها نحن ذا ثانية!

أشار إلى المقعد قبالته، فجلس آدم غير عابئ بالماء الذي يقطر عن جسده ويترك آثار البلل من حوله، عكست لغة جسده الثقة والأريحيّة، مستغلًا موقف القوّة الذي ترتّب عن معركة الأمس، قال بهدوء:

- مايك.. أنت تعرف لماذا أتيت.

- يمكنني أن أخمّن! لكنّني لا أزال في حيرة من أمري.. آدم، مَن تكون؟

زحفت ابتسامة عريضة إلى شفتي آدم حتّى ملأت وجهه، لم يكن لينكر هذه المرّة:

- أنا رجل في مهمّة.

- أنت تفاجئني كثيرًا! في كلّ مرّة أحسبك ميتًا تظهر أمامي من جديد.. أقوى وأحدّ ذهنًا، وأقدر على اقتراف المعجزات! كيف؟

- بعد كلّ ما حدث، لن أخفي عنك الحقيقة.. والدتي واحدة من أهل الجزيرة، لذلك تسري دماء الـ«آم» في عروقي، ولذلك أفاوضك باسم شعبي.

- هذا.. يشرح الكثير، لكن ليس كلّ شيء.. لكنّك لن تخبرني عن الهبات الخارقة وكيفيّة الحصول عليها، أليس كذلك؟

استمرّ آدم يبتسم وهو يقول بحركة مسرحيّة:

- آسف يا مايك، لا أعتقد أنّك قد تحصل على أيّ من الهبات ما لم تنتم إلى هذا الشعب.. إنّها مسألة جينات لا أكثر!

- آه، يا للخسارة!

تنحنح آدم وعاد ليقول بلهجة حازمة:

- كفانا أحاديثًا جانبيّة، هل تريد استعادة ابنتك؟

- بالتأكيد!

- إذًا، ستصغي إلى شروطنا، ستفرج عن المُسخّرين وستنسى أنّ لهذا المكان وجودًا على الإطلاق وترحل دون رجعة!

تمهّل مايك قبل أن يقول بهدوء:

- هل هذا عادل في نظرك؟ لقد استغللتني أنت ووالدك! أشرف ذلك الباحث المتحذلق سخر مني وأغراني ببريق المادّة المتوهّجة، والآن بعد أن حصل على مراده تودّ أن أعود أدراجي خالي الوفاض؟ لا، بل بخسائر جمّة.. من سيعوّضني عن «الأسطورة» الضائعة؟ وماذا عن عشرات الرّجال الذين فقدتهم؟ سيكون عليّ دفع الكثير تعويضًا لعائلاتهم.. أنت تحكم عليّ بالإفلاس هنا!

سكت آدم، لم ينكر مسؤوليته ووالده عن إحضار مايك راسل إلى «آرا» وما ترتّب عن ذلك.. في قرارة نفسه يؤمن أنّه شريك في الذّنب بقدر ما، لكنّ المستثمر تمادى وأمعن في القتل والدّمار، إلا أنّ كلا الطّرفين لا يرى إلا نصيبه من الخسائر، قال محاولًا إمساك العصا من الوسط:

- يمكنك الاحتفاظ بحجارة الشّمس التي جمعتها في السّابق..

ضحك مايك بصخب، ثمّ قال:

- أنت تسخر مني؟ تعرف أنّ الحجر بلا قيمة دون أصحاب الهبات الذين يملكون دون غيرهم القدرة على استخراج طاقته، لذلك، سأحتاج إلى مُسخّر واحد على الأقلّ.. ومعالجة أيضًا، فهذا الجانب من قدرات الحجر لا يقلّ إبهارًا عن الأوّل.

عبس آدم وقال بنبرة باردة:

- هل تدرك أنّك تطلب عبيدًا؟

- لا، ليس هذا على الإطلاق! سأعرض صفقة عادلة، أجرًا سخيًا وظروف حياة باذخة ومزايا لا محدودة! أعدك، ستكون أفضل من أيّ وظيفة في شركة عالمية!

احتاج آدم إلى بضع ثوانٍ حتّى يستوعب طبيعة العرض.

- هل هذا العرض.. لي؟

- بالتّأكيد، لك ولصديقتك المعالجة الصّغيرة! لا تعرف كم شعرت بالارتياح حين رأيتها حيّة ترزق! أنتما ثنائيّ مميّز، وهذه الفرصة تليق بكما.. فماذا تقول؟

مرّة أخرى، تعود خطّة النّزوح الكبير التي يسعى إليها عمّار لتطفو في ذهنه، ما زال مايك راسل الشريك المثالي لنقل سكّان الجزيرة إلى العالم المتحضّر، غير أنّه قد بات يعرف كم أنّ الرّجل غير مؤتمن، وكم أنّه شره وواسع الطموحات، إذا منحه يده فسيلتهم ذراعه لا محالة.. ثمّ، ألم يكن قرار المجلس النهائيّ بجعل المحتلّ يرحل دون رجعة؟ الحفاظ على أيّ نوع من الصّلة سيعني تجديد الأطماع واستمرار الابتزاز والاستنزاف، سيجد مايك وجهة نظر مقنعة أخرى، وسيجعله يلبي طلباته واحدة إثر الأخرى بسبب إحساسه بالذنب.. يجب عليه أن يكون حاسمًا، لكنّه يفاوض على حياة دستة من المُسخّرين الآن، ولذلك يميل إلى المرونة.

- ربّما يكون عرضك مغريًا بالفعل، لمن يميل إلى حياة الحضارة، لكنّني لست واثقًا إن كنت سأفعل، ليس في الوقت الحاليّ على الأقل، لقد استحالت «آرا» دمارًا، وسيتطلّب الأمر وقتًا طويلًا لإعادة إعمارها، لم تنته مهمّتي على الجزيرة بعد.. لذلك، لا أستطيع الرّحيل الآن.

رسم مايك ابتسامة لزجة وهو يقول:

- يمكنني المساعدة بهذا الصّدد...

قاطعه آدم بحزم شديد وقد ترك كلّ محاولات التّسوية:

- لا! لا أعتقد أنّك ستخطو على أرض «آرا» مجدّدًا.. ليس بعد كلّ ما فعلته! وإذا كنت تريد رؤية ابنتك ثانية، فستطلق المُسخِّرين على الفور!

وقف مايك عاقدًا ذراعيه أمام صدره، وأرسل بصره عبر النافذة الدّائرية التي يهطل المطر خلفها باستمرار، ثمّ قال:

- أنت فتى شجاع، وهذا يعجبني.. لكن العالم لا يكافئ الشجعان، بل الأذكياء الذين يعرفون متى ينتهزون الفرص.. آدم، هناك نوعان من الناس في هذا العالم: من يستغلون الفرص، ومن يُستغلّون، تأكد فقط أنك اخترت الجانب الصّحيح!

وقف آدم بدوره وقد داهمه شعور بأنّ مايك راسل يماطله لسبب ما، كأنّما ينتظر أن يحدث شيء في الأثناء، ألقى نظرة عبر النافذة التي تشغل مايك، فظهر جانب من السّفينة المجاورة في الأسطول، لكنّ الضّباب والمطر لم يسمحا برؤية جليّة. قال في ضيق:

- هلا أمرتهم بإحضار المُسخِّرين؟

التفت إليه مايك بابتسامة ماكرة وقال:

- هل أنت في عجلة من أمرك؟ نحن نتحدّث..

قبل أن يردّ آدم، ظهر أحد الرّجال عند الباب، ما إن تلقّى مايك الإشارة حتى قال متنهّدًا وبلهجة متكلفة متظاهرًا بالاستسلام:

- حسنًا إذًا.. يمكن لُمسخِّريك الرّحيل الآن!

انتابت آدم ريبة متنامية، تحوُّل مايك نحو المهادنة لا يشعره بالاطمئنان، تبعه نحو الممرّ الضّيق الذي يقود إلى الكوّة، هناك وجد المُسخِّرين بالانتظار، مقيّدين وفي حال مزرية من الضّعف والجفاف.. رمق آدم مايك بنظرة غاضبة، إلا أنّه كتم غيظه فلا فائدة من العتاب، لقد جوّع شعبًا بأسره فكيف بحفنة من المسخّرين الذين يخشى قوّتهم وتمرّدهم! أحاطهم بعينيه، يحصيهم ويتأكّد أنّ أيًا منهم لم يتخلّف، لا يزال يجهل الخدعة التي يحيكها مايك، فهو بالتأكيد يحيك واحدة.

عرف المُسخِّرين عن قرب في الأسابيع الماضية وشاركهم تدريباتهم اليوميّة، صار يألف كلّ واحد منهم، ورغم السّحنات الذابلة والعيون الغائرة فقد تعرّف على كلّ فرد، وبعد أن تيقّن من اكتمال العدد، دفعهم المرتزقة نحو القوارب المطاطيّ وهم يسدّدون الأسلحة إلى رؤوسهم، حين ركب الجميع، استدار مايك إلى آدم ومدّ كفّه مصافحًا:

- يؤسفني أنّنا لم نعقد اتّفاقًا.. لكنّ أوان الرّحيل قد حان.. كنت أرجو أن يتوقّف المطر قريبًا، لكنّنا سنضطرّ إلى الإبحار في هذا الطّقس السّيء.. تمنّ لنا السلامة!

صافحه آدم بفتور قبل أن يقفز بدوره إلى القارب، ليشرع الرّجال في التجديف على الفور، طوال الوقت لازمه إحساس بغيض بأنّ شيئًا ما خاطئ، بأنّ استسلام مايك جاء مفاجئًا وغير متناسق، يرمق الرّجال الذين يرتدون بدلات الغطس السّوداء الملتصقة بأجسادهم في شكّ، الماء من فوقهم ومن تحتهم لذلك لا يلومهم على اختيارهم ملابس لا يؤثّر فيها

البلل، يحاول طمأنة نفسه بألا شيء يدعو إلى القلق، وأنّ الصّفقة تسير بسلام، لا تزال مانويلا بحوزته، ولن يجرؤ مايك على الغدر به قبل أن يطمئنّ إلى سلامتها.

لكنّه لا يأمن جانبه.. أعصابه مشدودة وعضلات فكّه متشنّجة، لو أنّ رجال مايك يقرّرون الهجوم فور استلامهم الأسرى، فسيكون وحيدًا ضدّ فريق مسلّح، سيعتمد على سرعة بديهة أوران.. أمّا الآخرون، فهم في حالة من الضّعف، بالإضافة إلى القيود التي لم يتحرّروا منها بعد.

استمرّ التجديف بعض الوقت، فيما حدّقت عيناه في الضّباب الكثيف والمطر دون أن يميّز موقع المركب حيث خلّف رفاقه ينتظرون مع الأسرى، تتمدّد المسافات ويتضاعف القلق في أثناء رحلة العودة، وتساءل آدم إن كان قد ضلّ الطريق.

ثمّ، تفطّن فجأة إلى الخدعة.

في لحظة خاطفة، تبادل رجال مايك نظرات متواطئة، ثمّ تخلّوا عن المجاديف وقفزوا مرتدين أقنعة الغطس ليختفوا عن الأنظار فورًا، تسلّل الارتباك إلى نفوس المُسخِّرين المتوزّعين على قاربين حين تركهم آسروهم في عرض البحر بأيدٍ موثقة وأعين معصوبة.

تحرّك آدم ذاهلًا ليساعد المُسخِّر الأقرب إليه على فكّ الوثاق والعصابة، ثمّ اهتمّ بعضهم بتحرير بعض، بعد أن استعاد السّيطرة على المراكب المطاطية المتأرجحة في مهبّ الرّيح، عاد آدم ليحدّق حوله فلا يرى المركبين الخشبيين. لقد أدرك منذ حين: مايك راسل لا يستسلم بسهولة دون أن يحقّق أهدافه، لم يكن متساهلًا إلا لأنّه يسبقه بخطوة.. أرسل رجاله لإنقاذ الأسرى، بالإضافة إلى اختطاف المسخّر الذي يحتاج إليه والمعالجة! لقد لبث يماطله متظاهرًا بالتّفاوض فيما ينتظر إشارة نجاح المناورة.

هل ميّز أفراد البعثة من بعيد بالمناظير؟ هل عرف أنّ كلّ من يريدهم يجتمعون في موقع واحد فأرسل الغوّاصين للمداهمة تحت الماء دون أن ينتبه أحد؟ لا، لولا قد عرفت، لقد شعرت بحضورهم حولها، لذلك كانت في حالة من التوتّر، لكنّه لم يفسّر العلامات باكرًا!

صفّر من جديد، فشقّ الصّوت الحادّ أزيز العاصفة من حوله، هتف نحو مروان:

- فليُنادِ كلّ مُسخِّر يركب الحوت حوته.. لم ننته بعد!

حدّق فيه الشبّان مستفسرين، لكنّه لم يملك وقتًا كثيرًا ليشرح، حين ظهرت لولا قفز إلى ظهرها وانطلق.. لقد تجرّأ مايك على خداعه، تتجلّى الصّور في ذهنه، الغوّاصة المتربّصون في الماء وهجمة مباغتة لم يتمكّن أوران من عمل شيء أمامها، ربّما قتلوا البحّارة على عين المكان فلا حاجة لهم إليهم! خدّروا المعالجة والمسخِّر، واستولوا على المراكب الخشبيّة، فيما يراوغه مايك ويشغله بأحاديث لا طائل من ورائها، وصلت المراكب إلى موقع الأسطول.. لطالما رتّب مايك لقاءاته السّابقة على السّطح المكشوف، لكنّ الموقع يسمح بمتابعة ما يحدث في محيط السّفينة، كان آدم ليبصر قوارب الصّيد وهي تقترب، اعتقد أنّ احتماءه بالدّاخل كان بسبب المطر وحده، لكنّها ذريعة كافية لإخفاء السّبب الحقيقيّ.

حين وصل إلى موقع السّفن التّجاريّة، تلفّت في اضطراب، ثمّ دار حولها متفرّسًا، فلم ير اليخت السّريع، المركب الذي نقل مانويلا في السّابق إلى الدّيار رواحًا وعودة، لقد اختفى.. همس للولا مشجّعًا:

- سنجدهم، لن يذهبوا بعيدًا!

غطست الأوركا مجدّدًا واستمرّ يحثّها على المضيّ قدمًا، لقد فعلها في السّابق، لاحق يخت مانويلا ليعيد «حجر الشّمس» إلى والده، وسيفعلها

هذه المرّة أيضًا. ارتفع الحوت مجدّدًا إلى السّطح، فجاست عينا آدم في محاولات مضنية لتمييز أيّ شكل خلال شلالات الماء التي تتدّفق من أبواب السّماء المفتوحة فوقهم.. لا شيء!

هل يستخفّ بسرعة اليخت العصريّ مقابل حركة التجديف اليدويّ؟ حتّى هبّة الحوت الرّشيقة لن تغطي فارق التوقيت، فقد حصل مايك على أسبقيّة شاسعة!

فرك عينيه اللتين تغطيهما غمامة الدّمع، سوف يجد اليخت، يجب أن يلحق بهم. من المرجّح أن يتّجهوا شمالًا، لكنّ مايك قد يستمرّ في الخداع ويتّخذ مسارًا مختلفًا ليخفي أثره، إلا أنّ ذلك لا يهمّ كثيرًا، فهو لا يعرف أين يكون الشّمال أساسًا. غطس مجدّدًا ودار حول نفسه، نقله الحوت من نقطة إلى أخرى فوق خريطة المحيط المائعة، حيث تتشابه كلّ بقعة ويغمر الماء الأرض والسّماء والمساحة بينهما.

خفق فؤاده بحدّة مؤلمة، ثمّ تصاعد الغضب حارقًا موجعًا، همس للحوت:

- فلنعد!

حوت هجين ورجل هجين سيعرفان الطّريق إلى الجزيرة.

غمرته موجة يأس شاهقة وهو يفكّر فيها وحدها.. روان. هل كانت تنتظر قدومه؟ تتوقّع حضوره لإنقاذها؟ هل أدركت متأخّرة أنّه قد خذلها وسقط في فخّ المحتلّ؟ لا، روان ليست ممّن يستسلم، ليست فتاة ضعيفة في محنة تترقّب فارسها المغوار! ستفعل شيئًا، دائمًا ما فعلت، يثق أنّها ستتدبّر أمرها، ستنجو، وترجع.

إلا أنّ ثقته فيها لم تبدّد حسرته قيد أنملة!

توقّفت عيناه على السّفن الثلاث التي تراوح مكانها، تخلّى مايك راسل عن أسطوله ورجاله وفرّ على جناح السّرعة، وربّما يتبعه الأسطول في وقت

لاحق، أو يتّجه نحو مواني أخرى، لا يعرف! لقد انتهت المهمّة، حصل المستثمر على الحجارة والمسخّر والمعالجة، وسيحرص على إخفائهم حيث لن يصل إليه أحد. يعلم أنّ آدم سيجدّ في أثره بعد أن يكتشف الخدعة، لذلك لن يظهر حيث يتوقعه أن يفعل!

عادت موجة حقد بالغ لتترع فؤاده فيتشظى، وحين أغمض عينيه نبضت الخيوط الأربعة تحت جفنه دفعة واحدة.. الرّيح تعصف، البحر يرتجف، والأمواج ترتطم بجوانب السّفن بعنف، كأنها تشعر بالغضب المتفجر داخل آدم.. تتسارع أنفاسه، ترتعش قبضته وهي تنغلق على الفراغ وتسحب، ينجذب الهواء ذاته تجاهه فيما تطيعه الخيوط، يلتفّ حوله في دوّامة غير مرئيّة، عاصفة تسبق العاصفة!

يلمع الخيط الرّمادي كوميض البرق داخل عروقه، صاعقة مكبوتة تبحث عن طريق للخروج، يزحف الخيط التّرابي تحت جلده ويلوّح مثل السّياط، يتغلغل في محيطه، يجرّ الماء والهواء ليكونا جزءًا منه، يشتعل الخيط الأصفر كحدّ السيف، حدّ قاتل، لا يعرف الرّحمة، ويشع الخيط الأبيض كنجم يوشك على الانفجار، النّور الذي سيحرق كل شيء في طريقه!

ثمّ، ينفجر كل شيء..

من فؤاد آدم، تندفع طاقة الـ«مادرا» كزلزال جويّ، إعصار هائل يهبّ من العدم، يقتلع كل ما يقف أمامه، تهتزّ السّفن التجارية الثلاث أوّلًا، تصرخ ألواحها المعدنيّة وتئزّ المسامير التي تبقيها متماسكة تحت وطأة الرّياح المجنونة، ثم تميل إحداها إلى جانبها فيما تعزف دوّامات المطر أنشودة الألم، ينفجر البرق في السّماء؛ صاعقة رمادية تضرب صاري إحدى السّفن، فتشتعل ألسنة اللهب في قلب العاصفة، ثمّ يرتفع الموج كجدران ضخمة تبتلع السّفينة الباقية وتدفعها نحو جارتها لتتكسر كدمى خشبية تحت قوة الطبيعة المسعورة.

يتحوّل الهواء لنصل حاد، يُبعج المعدن، يفلق الصّفائح، يطيح بالرّجال في البحر، حيث يسحبهم التيّار إلى مصير مجهول، تسرّب الماء عبر الصّدوع وراحت المراكب العملاقة تغرق، تشرب البحر بنهم ويزداد ثقلها فتنزل أكثر فأكثر.. خلال دقائق قليلة، لم يتبقَ من السّفن سوى حطام متطاير فوق سطح الماء، ودوّامات عميقة تبتلع العويل والصّراخ.

وقف آدم وسط الإعصار لاهثًا ولّما يُشفَ غليله، جسده فارغ من الطاقة، عيناه تلمعان بوميض مدمّر، أنفاسه ثقيلة لكنه لا يكاد يرى شيئًا أمامه.. انتابته الدّوخة التي تصيبه بعد عمليّات التّسخير المنهكة، ولولا الحوت الذي لا يزال يسنده ويبقيه ثابتًا لكان قد غرق بدوره!

اقترب مروان ذاهلًا، ومن ورائه مجموعة المسخّرين راكبي الحوت، كانوا شهودًا على العاصفة التي صنعها وحيدًا.

- سفن الغرباء.. اختفت كلّها!

يسحب آدم أنفاسًا متقطّعة منهكة، فيما يسأل مروان ثانية:

- روان.. هل كانت معك؟

لم تصدر عن آدم سوى همهمة خفيضة، يعرف مروان أنّ المُخلِّص والمعالجة لم يظهرا خلال المعركة، اختفيا منذ ليلة الزّفاف الدّامية، فإذا ظهر آدم فلا شكّ أنّ روان برفقته.

- أين ذهبت؟

جاء صوت آدم خافتًا مبحوحًا:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لا أدري.. لكنّها ستعود..

تعكس ملامح مروان حيرته.

يستمرّ الماء في الانهمار فوق رأسيهما، تبكي السّماء بغزارة ولا تتوقّف أبدًا.

ستعود، يعرف أنّها ستفعل، فالهجناء يعرفون الطّريق.

الرحلة

اليوم الأوّل بعد الثلاثين	5
اليوم الثاني بعد الثلاثين	53
اليوم الثالث بعد الثلاثين	69
اليوم الرّابع بعد الثلاثين	89
اليوم الخامس بعد الثلاثين	133
اليوم السّادس بعد الثلاثين	149
اليوم السّابع بعد الثلاثين	159
اليوم الثامن بعد الثلاثين	173
اليوم التاسع بعد الثلاثين	185
اليوم العاشر بعد الثلاثين	197
اليوم الحادي عشر بعد الثلاثين	217
اليوم الثاني عشر بعد الثلاثين	233
اليوم الثالث عشر بعد الثلاثين	245
اليوم الرّابع عشر بعد الثلاثين	255
اليوم الخامس عشر بعد الثلاثين	263

اليوم السّادس عشر بعد الثلاثين	269
اليوم السّابع عشر بعد الثلاثين	275
اليوم الثامن عشر بعد الثلاثين	281
اليوم التاسع عشر بعد الثلاثين	285
اليوم العشرون بعد الثلاثين	289
اليوم الواحد والعشرون بعد الثلاثين	301
اليوم الثاني والعشرون بعد الثلاثين	309
اليوم الثالث والعشرون بعد الثلاثين	321
اليوم الرّابع والعشرون بعد الثلاثين	337
اليوم الخامس والعشرون بعد الثلاثين	375
اليوم السّادس والعشرون بعد الثلاثين	393
اليوم السّابع والعشرون بعد الثلاثين	435
اليوم الثامن والعشرون بعد الثلاثين	453
اليوم التاسع والعشرون بعد الثلاثين	471
اليوم السّتون	487

أعصار بلا قرار

حجر الشمس

II

لطالما رفض اللّقب وتنصّل، اعتبره ادّعاءً سخيفًا وفارغًا، لكنّ الحقائق التي تتجلى تباعًا تجعله يعتقد أنه لم يكن بريئًا من المسؤوليّة كما يظنّ! أيّ مؤهلات يمتلك ليكون الشّخص المختار لإنقاذ العالم؟ ليس أنّ العالم يتلخص في سكان "آرا"، لكن إنقاذ أيّ شيء وأيّ شخص باستثناء نفسه يعتبر مرادفًا لـ"إنقاذ العالم"، باعتبار ضآلة تجربته السّابقة في هذا المجال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

778 203004

مكان
MAKAN PRODUCTIONS

كيان

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف